المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



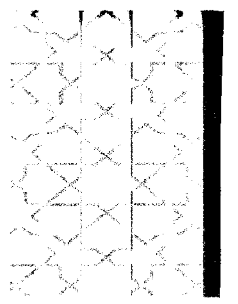
مجلة العلوم العربية

مجلة علمية فصلية محكمة

العدد السادس عشر
رجب ١٤٣١هـ

عمادة البحث العلمي
Deanship of Academic Research

www.imamu.edu.sa
e-mail: journal@imamu.edu.sa



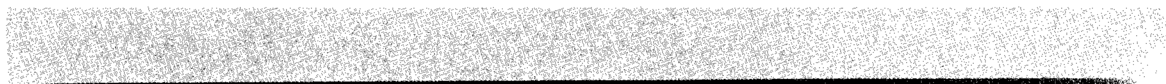
مجلة العلوم العربية

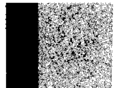
مجلة علمية فصلية محكمة

العدد السادس عشر
رجب ١٤٣١هـ

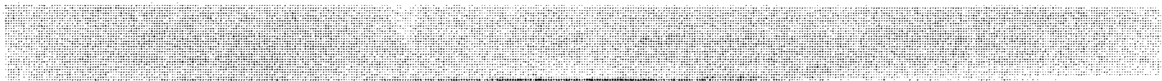
www.imamu.edu.sa
e-mail: journal@imamu.edu.sa

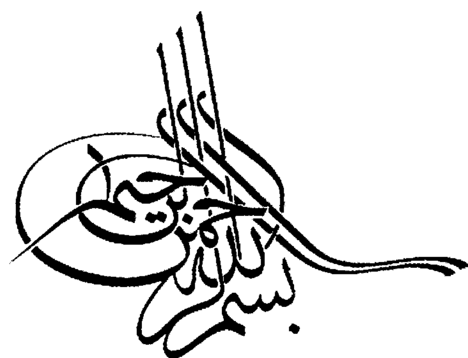
عمادة البحث العلمي
Deanship of Academic Research

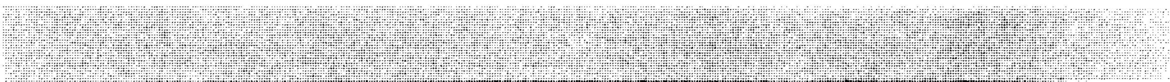




رقم الإيداع: ٣٥٦٣ / ١٤٢٩ بتاريخ ١٩ / ٠٦ / ١٤٢٩هـ
الرقم الدولي المعياري (ردمد) ٤١٩٨ ـ ١٦٥٨




بسم الله الرحمن الرحيم



أعضاء هيئة التحرير

قواعد النشر

مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (العلوم العربية) دورية علمية محكمة، تصدر عن عمادة البحث العلمي بالجامعة. وتُعنى بنشر البحوث العلمية وفق الضوابط الآتية :

أولاً : يشترط في البحث ليقبل للنشر في المجلة :

١- أن يتسم بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه .

٢- أن يلتزم بالمناهج والأدوات والوسائل العلمية المعتبرة في مجاله .

٣- أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج .

٤- أن يتسم بالسلامة اللغوية .

٥- ألا يكون قد سبق نشره .

٦- ألا يكون مستلاً من بحث أو رسالة أو كتاب، سواء أكان ذلك للباحث نفسه، أو لغيره .

ثانياً : يشترط عند تقديم البحث :

١- أن يقدم الباحث طلباً بنشره، مشفوعاً بسيرته الذاتية(مختصرة) وإقراراً يتضمن امتلاك الباحث لحقوق الملكية الفكرية للبحث كاملاً، والتزاماً بعدم نشر البحث إلا بعد موافقة خطية من هيئة التحرير .

٢- ألا تزيد صفحات البحث عن (٥٠) صفحة مقاس (A ٤) .

٣- أن يكون بنط المتن (١٧) Traditional Arabic، والهوامش بنط (١٣) وأن يكون تباعد المسافات بين الأسطر (مفرد) .

٤- يقدم الباحث ثلاث نسخ مطبوعة من البحث، مع ملخص باللغتين العربية والإنجليزية، لا تزيد كلماته عن مائتي كلمة أو صفحة واحدة ..

ثالثاً: التوثيق :

١- توضع هوامش كل صفحة أسفلها على حدة .

٢- تثبت المصادر والمراجع في فهرس يلحق بآخر البحث .

٣ - توضع نماذج من صور الكتاب المخطوط المحقق في مكانها المناسب .

٤ - ترفق جميع الصور والرسومات المتعلقة بالبحث، على أن تكون واضحة جلية .

رابعاً : عند ورود أسماء الأعلام في متن البحث أو الدراسة تذكر سنة الوفاة بالتاريخ الهجري إذا كان العَلَم متوفى .

خامساً : عند ورود الأعلام الأجنبية في متن البحث أو الدراسة فإنها تكتب بحروف عربية وتوضع بين قوسين بحروف لاتينية، مع الاكتفاء بذكر الاسم كاملاً عند وروده لأول مرة .

سادساً : تُحكَّم البحوث المقدمة للنشر في المجلة من قبل اثنين من المحكمين على الأقل.

سابعاً : تُعاد البحوث معدلة، على أسطوانة مدمجة CD أو ترسل على البريد الإلكتروني للمجلة .

ثامناً: لا تعاد البحوث إلى أصحابها، عند عدم قبولها للنشر .

تاسعاً: يُعطى الباحث خمس نسخ من المجلة، وعشر مستلات من بحثه .

عنوان المجلة :

جميع المراسلات باسم عميد البحث العلمي

الرياض ١١٤٣٢- ص ب ٥٧٠١

هاتف : ٢٥٨٢٢٣٠ - ناسوخ (فاكس) ٢٥٩٠٢٦١

www. imamu.edu.sa

E.mail: journal@imamu.edu.sa

المحتويات

الكلام على (إذا) لعبدالباقي بن يوسف الزرقاني
(١٠٢٠- ١٠٩٩هـ)
دراسة وتحقيق

د. منى بنت علي الفلاج
قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب
جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

"الكلام على إذا " لعبدالباقي بن يوسف الزرقاني (١٠٢٠-١٠٩٩هـ)
دراسة وتحقيق

د. منى بنت علي الفلاج
قسم اللغة العربية
كلية الآداب
جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

ملخص البحث:

حفظت لنا عناية الله نسخة من رسالة "الكلام على إذا " لعبدالباقي بن يوسف الزرقاني (ت ١٠٩٩هـ)، جمع فيها المؤلف شتات (إذا) المتناثرة في بطون الكتب . وقد سلك منهجا مجملا في الشرح والتوضيح ، فأغفل اسم الرسالة والموضوع ، ولا غرو في ذلك والمقام رسالة . وتحدث عن (إذا) في عشرة مواضع ، فتناول اسمية (إذا) ، والخلاف في تصرفها ، وأي الأزمنة تدل عليه ، والخلاف في شرطيتها ، وعدم الجزم بها إلا في الشعر ، واختصاصها بالجملة الفعلية ، والخلاف في عامل النصب فيها ، وبنائها ، وفي الموضع الأخير تناول (إذا) الفجائية بين الاسمية والحرفية بإجمال شديد ، مبينا سبب ذلك بأن ابن هشام الأنصاري قد بسط الحديث عنها في كتابه (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) ، لكنه لم يستوف الكلام على المواضع العشرة ، وهذه حكمة تأليف هذه رسالة .

المقدمة :

الحمد لله والصلاة على محمد ﷺ وصحبه أجمعين ، نحمده ، ونستعينه ، ونستهديه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأصلي وأسلم على أشرف الخلق وسيد الأنبياء والمرسلين وبعد:

حفظت لنا عناية الله نسخة من (الكلام على إذا) لعبدالباقي بن يوسف الزرقاني (ت ١٠٩٩هـ) ، وهي لعالم فقيه ، ألّف في النحو،ولا غرو في ذلك والصلة وثيقة بين أصول النحو،و أصول الفقه، فمعرفة الأحكام الفقهية مبناها على فهم القواعد النحوية ، ويظهر أثر النحو بجلاء في مسائل الفقه وبخاصة المتعلقة بمعاني الأدوات والحروف .

ومما دفعني للمضي في تحقيق هذه الرسالة :

- اشتهار المؤلّف في مضمار الفقهاء ، وتحقيق هذه الرسالة يُسهم في إبراز شخصيته النحوية من خلال رسالته الوحيدة التي تمثّل نحوه واختياراته .
- إبراز جهد المؤلّف حين جمع شتات ما تفرّق في كتب النحو المتخصصة عن (إذا)، لتكون مرجعًا ميسرًا يفيد منه الفقهاء و النحاة.
- الارتباط الوثيق بين علم النحو، وعلم الفقه من خلال كتابة هذه الرسالة من عالم فقيه.
- إثراء المكتبة العربية برسالة مختصرة شاملة أحكام (إذا).

وقد جعلت هذا البحث في مقدمة ، وقسمين رئيسين هما : الدراسة ومقدمات التحقيق ، والنص المحقق.

بنيت القسم الأول على تمهيد،وثلاثة مباحث.

التمهيد: بيّنت فيه بصورة موجزة العلاقة بين العلوم العربية ، والعلوم الشرعية .

المبحث الأول:تناولت فيه:اسم المؤلف،ونسبته،ومولده ونشأته،وشيوخه وتلاميذه،ومؤلفاته،ووفاته.

وذكرت معلومات يسيرة مما اجتمع لدي وأفصحت عنه كتب التراجم .

المبحث الثاني:تناولت فيه:(الكلام على إذا)،واشتمل على مايلي:

التعريف بالرسالة،ومنهج المؤلف،ومصادره،وشواهده،وموقفه من أصول الصناعة،

واختياراته.

المبحث الثالث : مقدّمات التحقيق ، واشتمل على مايلي:

- توثيق اسم الرسالة ، ونسبتها إلى مؤلّفها ، وزمن تأليفها .
- وصف نسخة المخطوط .
- بيان المنهج المتبع في التحقيق .

أما القسم الثاني فهو النص المحقق ، وقد حققته وفق منهج ارتضيته ، وهو يوافق ما عليه جلّة المحققين.

والله أسال أن أكون بهذا الجهد المتواضع قد أسهمت في إحياء كتاب من كتب التراث خدمة للغة القرآن الكريم ، وأن ينفع به ، فإن أصبتُ فمن الله وتوفيقه ، وإن أخطأتُ فحسبي أنني اجتهدت، وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم .

* * *

القسم الأول : الدراسة :

التمهيد : الصلة بين النحو والفقه :

ترتبط علوم العربية بعلوم الشريعة في نشأتها وغاياتها ، وهناك صلة وثيقة بين أصول الفقه وأصول النحو، وقد ربط الأنباري بين هذين العلمين، فقال :"أصول النحو أدلة النحو التي تفرّعت منها فروعه وفصوله ، كما أنّ أصول الفقه أدلة الفقه التي تنوعت عنها جملته وتفصيله ". [1]

ومما يُبِين عن هذه الصلة بين علمي النحو والفقه وأصولهما،توارد العلماء على كلّ واحد منهما في التصنيف،فالزجاجي (ت ٣٤٠هـ) اشتهر في علم النحو ، إلا أنّ له مؤلفًا صغيرًا في الفقه أسماه (الادكار بالمسائل الفقهية)، وكذلك ابن الحاجب (ت ٦٤٦هـ) إذ ألّف في الأصول كتابه (منتهى الوصول والأمل في علمي الأصول والجدل)، و البطليوسي(ت٥٢١هـ) ألّف في الأصول كتاب (الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم) .

وثمّت علماء اشتهروا في الفقه وأصوله،وكانت لهم مشاركات في النحو،كالسهيلي(ت٥٨١هـ)في كتابه(نتائج الفكر في النحو)،و الإسنوي(ت٧٧٢هـ) إذ صنّف كتابه (الكوكب الدري فيما يتخرّج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية) .

فدراسة النحو ومراعاة أصوله وسيلة ممهدة للوصول إلى غاية شرعية ، وهي التبصّر بفقه الشريعة ، وما لم يكن الفقيه ذا باع في النحو لم يتم له فقه ولم يستقم له علم .

وقد أدرك الزرقاني هذه العلاقة ، فبنى عليها رسالته (الكلام على إذا)، حيث إن التوصل إلى أحكام المسائل الفقهية مترتب على بيان القواعد النحوية، وبخاصة ما يتعلق منها بالأداوت و الحروف.

المبحث الأول :التعريف بالمؤلف :

اسمه :

عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن محمد بن علوان .

نسبته :

---

(١) ينظر : لمع الأدلة ٨٠ .

للمؤلّف نسبتان، الزُّرقاني والمالكي؛ أما الأولى فنسبة إلى المكان الذي عاش فيه ،وهو (زُرْقان) بمصر.

وأما الثانية، فمنسوب بها إلى المذهب الفقهي الذي يتبعه، وينتمي إليه، وصاحبه الإمام مالك بن أنس (رحمه الله).

مولده ونشأته وصفاته:

ولد بمصر سنة (١٠٢٠هـ)، وبها نشأ، وكان عالمًا جليلاً، ومرجعًا للمالكية، وفقيهًا متبحرًا، لطيف العبارة، رقيق الطبع، حسن الخلق، جميل المحاورة، لطيف التأدية للكلام.[١]

شيوخه وتلاميذه:

نّص المؤلّف في نهاية المخطوط على شيخ من شيوخه، وهو ياسين الحمصي العُليمي، فقال "هذا من فوائد شيخنا وأستاذنا العلّامة المحقّق المدقّق مولانا الشيخ ياسين، أطال الله في عمره، وبقّاه، وبلّغه ...".[٢]

وممن ذكر أنه شيخه: المحبّي، والجبرتي.[٣]

ومن شيوخه أيضًا: النور الشبراملسي، والشمس البابلي ودرس عنه الحديث، واللقائي، والنور الأجهوري، وأبو الإكرم بن وفيّ، وتلقّى الذكر منه سنة ١٠٤٥هـ وأجازه جل شيوخه.[٤]

تصدّر المؤلف للتدريس بالجامع الأزهر، فأخذ عنه العلم ابنه محمد، ومحمد الصفار القيراوني[٥].

مؤلفاته:

١- شرح على مختصر الخليل[٦] في الفقه المالكي.

فرغ من تأليفه سنة (١٠٩٠هـ)، مطبوع بمطبعة بولاق، سنة ١٣٠٣هـ.[٧]

---

(١) ينظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ٢٨٧/٢، وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية ٣٠٤، وتاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ١١٦/١.

(٢) ينظر: [٢/ب]، التحقيق ص ٤٥.

(٣) ينظر: خلاصة الأثر ٢٨٧/٢، و تاريخ عجائب الآثار ١١٦/١.

(٤) ينظر: خلاصة الأثر ٢٨٧/٢، وشجرة النور الزكية ٣٠٤، وتاريخ عجائب الآثار ١١٦/١.

(٥) ينظر: شجرة النور الزكية ٣٠٤، وتاريخ عجائب الآثار ١٢٢/١، ومعجم المطبوعات العربية ٩٦٦.

(٦) خليل بن إسحاق الجندي المالكي، ت ٧٦٨هـ ينظر: كشف الظنون ١٦٢٨/٥.

(٧) معجم المطبوعات العربية ٩٦٦.

واختُلف في اسم هذا الكتاب،فجاء اسمه عند البغدادي[1]:شرح مختصر الشيخ خليل في الفروع،وعند حاجي خليفة[2]:شرح مختصر الشيخ خليل في فروع المالكية،وعند الجبرتي[3]:شرح مختصر خليل، وعند المحبي[4]:شرح على مختصر خليل، وعند ابن مخلوف [5]:شرح على المختصر،وفي(التيمورية)[6]شرح الزرقاني على مختصر خليل،وفي (الأزهرية) [7]شرح الزرقاني على شرح الناصر اللقاني على خطبة مختصر الخليل.

٢- شرح الزرقاني على المقدمة العزيّة ، فرغ من تأليفه سنة (١٠٨٢هـ).[8]

وجاء اسمه عند المحبي[9]: شرح على العزيّة ، وعند ابن مخلوف [10] : شرح العزيّة.

٣- رسالة في (الكلام على إذا)، وهو المخطوط الذي بين أيدينا[11]

٤- منسك وأجوبة على أسئلة رُفعت إليه[12].

وفاته :

كانت وفاته ضحى يوم الخميس ، الرابع و العشرين من شهر رمضان،سنة تسع وتسعين وألف،بمصر[13].

---

(١) هدية العارفين ٥/ ٤٩٦

(٢) كشف الظنون ٥/ ١٦٢٨

(٣) تاريخ عجائب الآثار١/١١٦.

(٤) خلاصة الأثر٢/ ٢٨٧

(٥) شجرة النور الزكية ٣٠٤

(٦) فهرس التيمورية ٣/ ١٢٠

(٧) فهرس الأزهرية ٢/ ٣٥٨

(٨) ينظر: معجم المطبوعات العربية ٩٦٦ ، وفهرس التيمورية ٣/ ١٢٠

(٩) خلاصة الأثر ٢/٢٨٧

(١٠) شجرة النور الزكية ٣٠٤

(١١)المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(١٢)المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(١٣) ينظر : شجرة النور ٣٠٤ ، وتاريخ عجائب الآثار ١/١١٦، وخلاصة الأثر ٢/ ٢٨٧.

المبحث الثاني : التعريف بالرسالة :

حدّد المؤلّف موضوع الرسالة وقصدَه في أداة من أدوات النحو، وهي (إذا)، ونبّه المؤلّف إلى موضوعه في بداية حديثه بقوله : (الكلام على إذا في مواضع).

واشتملت الرسالة على مادة علمية دقيقة،تناول في عشرة مواضع:اسمية (إذا) والأدلة على ذلك،و الخلاف في تصرفها،وأيّ الأزمنة تدل عليه،و الخلاف في شرطيتها، وعدم الجزم بها إلا في الشعر، واختصاصها بالجملة الفعلية، و الخلاف في عامل النصب فيها، و بناءها، و مجيئها للمفاجأة، وعرض الموضع الأخير بإجمال شديد، مبينًا سبب الإجمال بأنّ ابن هشام الأنصاري بسط الحديث عنه في كتابه المغني.

وعلى الرغم من أنّ المؤلّف قد سلك منهجًا مختصرًا في الشرح و التوضيح إلا أنه استوفى حالات (إذا) المبسوطة في كتب النحو المتخصّصة.

وفي نهاية الرسالة أبان المؤلّف عن الغرض من كتابة هذه الرسالة بقوله:"وقيل إنها حرف،انظر المغني، فقد بسط الكلام على(إذا) الفجائية، وعلى بعض وجوه الظرفية المتقدّم، لكنه لم يستوف الكلام على الوجوه العشرة، فهذا حكمة كتابتنا هذه الرسالة، وعدم إطالة الكلام بما هو مقرر في المغني".[1]

منهج المؤلف:

استهلّ المؤلّف رسالته بخطبة قصيرة مقتضبة، لم يذكر فيها اسم الرسالة، ولا موضوعها، ولا المصادر التي اعتمد عليها، ولا غرو في ذلك و المقام ـ كما تقدّم ـ رسالة، فشرع مباشرة في الحديث عن (إذا) ؛ وفي الموضع الأخير تحدّث بإجمال شديد عن (إذا) الفجائية، محيلاً القارئ إلى كتاب ابن هشام (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)، مبيناً سبب إجماله في الحديث عن (إذا) الفجائية بقوله: "انظر المغني فقد بسط الكلام على (إذا) وعلى بعض وجوه الظرفية".[2]

وتباين أسلوب المؤلّف في عرضه المواضع بين الإيجاز و الإطناب، فتراه يُسهب في موضع ما، فيفيض فيه الحديث، كما فعل عند حديثه عن العامل في (إذا)، يقول : "أنّ عاملها عند الأكثرين جوابها، وإنما لزم تقديمها؛لمعنى الشرط،وإنما امتنع عليهم

---

(١) ينظر : [٢/ب]، التحقيق ص ٤٥.

(٢) ينظر: [٢/ب]، التحقيق ص ٤٥.

أنْ يعملوا فيـها تاليها؛لأنهم قدروها كـ (إذا) و (حيث) مضافة إلى الجملة التالية لها ، وزعم بعضهم أنّ العامل تاليها .." [1]

وتارة يوجز في الموضع ، حتى يكتنفه الغموض ، كما في حديثه عن تصرّف (إذا) ، حيث أعرب آيات تتصل بما استشهد به من آيات دون أنْ يذكر هذه الآيات،أو يشير إليها ،فأوقع القارئ في حيرة ، يقول: "﴿إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ﴾الآية ، بنصب خافضة رافعة، زعم أبو الفتح أنّ (إذا) الأولى مبتدأ،والثانية خبر، والمنصوبين حالان ، وكذا جملة (ليس) ومعمولاتها...". [2]

وفي النهاية ذكر المؤلّف خاتمة أبان فيها الهدف و الحكمة من تأليف هذه الرسالة، وهو أنّ ابن هشام الأنصاري لم يستوف الكلام على الوجوه العشرة لـ (إذا) في كتابه (المغني).

مصادره:

ليس من اليسير الإلمام بالمصادر المتعددة التي استفاد منها الزُّرقاني؛ إذ إنه من نحاة القرن الحادي عشر، وهذا يعني أنه أُتيح له الاطّلاع على قدر كبير من المعارف العربية التي خلّفها الأسلاف ، فجاءت رسالته زاخرة بآراء العلماء.

ولنا في الكشف عن مصادره تتبّع النقول و الإحالات، ويمكن تقسيم مصادره قسمين:

مصادر رئيسة ، وتتمثّل في الكتب التي نقل منها المؤلف.

مصادر غير رئيسة ، وتتمثل في العلماء الذين نقل عنهم .

أ- مصادره الرئيسة مرتبة حسب النقول:

أولاً: كتاب مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام:

يعدّ هذا الكتاب الدّعامة الأساسية التي ارتكز عليها المؤلّف في رسالته، فقد تأثّر به المؤلّف أيّما تأثر، وتفاوتت طريقته في الإفادة منه، فتارة ينقل منه ويشير إليه، كقوله:" ويلزم الدماميني أنهم يجعلون (إذا) تارة مضافة ، و تارة غير مضافة كما لا

---

(١) ينظر: [١/ب]، التحقيق ص ٤٠.

(٢) ينظر: [١/أ]، التحقيق ص ٣٥ .

يخفى، لكن قال في المغني إنّ ذلك الاتّساع بابه الشعر .. ".[1]

وتارة يحيل إليه ، طلبًا للاختصار و الإيجاز، كقوله: " و بالجر كالواقعة بعد (غد) في البيت،ولك أن تقدّرها ظرفًا لـ (لهف)، وردّ الجمهور ما تقدم، فانظر المغني ".[2]

وتارة ينقل منه دون الإشارة إليه، كقوله: "زعم أبو الفتح أنّ (إذا) الأولى مبتدأ، والثانية خبر، والمنصوبين حالان، وكذا جملة (ليس) ومعمولاتها، والمعنى: إذا وقعت وقوع الواقعة، خافضة لقوم، رافعة لآخرين، وهو وقت رجّ الأرض ".[3]

جاء في مغني اللبيب ٩٤/١:

"وزعم أبو الفتح في (إذا وقعت الواقعة) الآية فيمن نصب (خافضة رافعة) أنّ إذا الأولى مبتدأ، والثانية خبر، والمنصوبين حالان، وكذا جملة (ليس) ومعموليها، والمعنى: وقعت وقوع الواقعة خافضة لقوم ، رافعة لآخرين، وهو وقت رجّ الأرض ".

ثانياً: حواشي ابن هشام في شرح التسهيل:

ونقل عنه في موضع واحد فقط مصرحًا به.[4]

ب- العلماء:

تباينت طريقة المؤلّف في الإفادة من العلماء،فتارة يذكر العلَم دون ذكر كتابه،فنقل رأيًا لكلّ من الأخفش،وابن جني،وابن مالك،والدماميني،والنيلي.[5] وتارة يذكر اسم العلَم وكتابه،مثل ابن هشام وكتابه المغني،والحواشي .[6]

وتارة يبهم النقل بكلمة (قيل) [7]،و(عند بعض السلف) [8]،و(عند الأكثرين) [9] و(زعم بعضهم). [10]

---

(١) ينظر: [٢/أ]، التحقيق ص ٤٢.

(٢) ينظر: [١/أ]، التحقيق ص ٣٦.

(٣) ينظر: [١/أ]، التحقيق ص ٣٥.

(٤) ينظر: [٢/أ]، التحقيق ص ٤٢.

(٥) ينظر: [١/ أ]، و[٢/أ]، و[٢/ ب]، التحقيق ص٣٤، ٣٥، ٤٢، ٤٣ .

(٦) ينظر: [١/ب]، التحقيق ص٣٥ .

(٧) ينظر: [١/ أ]، و[١/ب]، التحقيق ص٣٥، ٣٦، ٣٧ .

(٨) ينظر:[١/أ]، التحقيق ص٣٥.

(٩) ينظر:[١/ب]، التحقيق ص٤٠.

(١٠) ينظر: [١/ب]، التحقيق ص٤٠.

شواهده:

اعتمد الزرقاني في تثبيت القاعدة التي يسوقها على شواهد متنوعة،إلا أنّ شواهده شعرًا كانت أم نثرًا تعدّ قليلة،وقد تنوعت شواهده على النحو التالي:

القرآن الكريم:

بلغ مجموع الآيات القرآنية التي استشهد بها المؤلف تسع آيات، وكان المؤلّف يعمد إلى ذكر موضع الشاهد من الآية، فيكتفي بذكره، كما في قوله: "وزعم بعضهم أنّ العامل تاليها لا جوابها؛ لمجيئه مقرونًا بالفاء في نحو: ﴿ فَسَبِّحْ﴾ "[1]، وقوله: " الكلام على إذا في مواضع ... وقد ذُكر لذلك أدلة: دخول الجار عليها في نحو: ﴿حَتَّى إِذَا﴾ ".[2]

– صدّر الآيات القرآنية التي استشهد بها بكلمة (نحو)،مجردة من (قوله تعالى)؛طلبًا للإيجاز،وأغفل في موضع واحد ذكر ما يدلّ على الاستشهاد،مما أدّى إلى التداخل بين الآيتين المستشهد بهما،كما في قوله: " الثالث:أنها للمستقبل،قيل: وقد تجيء للمضيّ، نحو:﴿ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً﴾ ﴿ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ ".[3]

الحديث النبوي الشريف:

استشهد المؤلّف بحديث واحد صحيح ، عزاه إلى الرسول ﷺ، عند حديثه عن الخلاف في تصرف (إذا) الشرطية ، يقول: " وبالنصب على المفعولية، كحديث عائشة ... في قوله ﷺ لها : إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت عليّ غضبى".[4]

الشعر:

استشهد المؤلف ببيتين من الشعر،ورجز واحد،جاء الأول من البيتين ناقصًا صدره،وعجزه كاملاً،وهو:

.... يالَهْف نفسي على غدٍ إذا راح إخواني ولستُ برائح[5]

---

(١) ينظر: [٢/أ]. التحقيق ص ٤٠ .

(٢) ينظر: [١/أ]. التحقيق ص ٣٣ .

(٣) ينظر: [١/ب]. التحقيق ص ٣٦.

(٤) ينظر: [١/أ]. التحقيق ص ٣٦ .

(٥) ينظر: [١/أ]. التحقيق ص ٣٣.

وذكر من البيت الثاني صدره فقط وهو:

إذا ابن أبي موسى بلالا بلَغْتِه ... ...[1]

والرجز ذكره تاماً،وهو: ونحنُ عن ذِكركَ ما استغنينا[2]

ونظراً لأنّ المؤلَّف رسالة لم يتّبع الزُّرقاني المنهج المتبّع في ذكر الشواهد الشعرية من نسبة البيت إلى قائله، أو ذكر بحره،أو إكمال ناقصه،أو ضبط غريبه،أو ذكر مناسبته؛أو إعراب بعض مفرداته بالحروف،و المقام يقتضي ذلك،كما في ذكره للشاهد:

إذا ابن أبي موسى بلالاً بلغْتِه ... ...

حيث يحتمل المعنى نصب ورفع كلمة (ابن)[3].

موقفه من أصول الصناعة :

لم يبدِ المؤلّف مذهبه النحويّ ولم يُشر إليه،ولكننا إذا تفحصنا الأسلوب الذي اعتمده،رأينا أنه يعتمد على المنطق الجدلي الذي يختبر الأقوال و الأدلة،وكان عماده في هذا المنطق،السماع والقياس والإجماع،والمؤلف كغيره من العلماء احتذى هذه الأصول ، وأثرى بها مادته،وفيما يلي بيان عن مدى إفادة المؤلّف من كل أصل:

١- السماع :

اعتمد المؤلف من السماع ما توافرت فيه ثقة النقل،وفصاحة الأصل من قرآن كريم ،وحديث صحيح، وشعر معروف القائل،وظهور هذا الأصل في الكتاب يفوق الأصول الأخرى، وقد أتت الشواهد السماعية القرآنية في الدرجة الأولى،وتعلو على ما عداها،ولا غرو في ذلك فهي الشواهد التي لم يتحقق لمثلها ما تحقق لها من حسن الضبط وإتمام الحفظ،مصداقًا لقوله تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ .[4]

وقد سبق الحديث عن هذه الشواهد عند الحديث عن (شواهده) [5]،مما يغني عن

---

(١) ينظر: [١/ب]، التحقيق ص ٣٩.

(٢) ينظر: [٢/أ]، التحقيق ص ٤٠ .

(٦) ينظر: [١/ب]، التحقيق ص ٣٩ .

(٤) الحجر/٩ .

(٥) ينظر: ما سبق .

إعادته هنا.

٢- القياس:

يعتمد المؤلّف على الكثرة والاطراد،ويجعل القليل شاذًا لا يقاس عليه،وظهر هذا الأصل عند حديثه عن الجزم بـ (إذا)،واختياره بأنه لا يجزم بها ، وإذا ورد ما يخالف ذلك فإنه خاص بالشعر.(١)

وكذلك ارتضاؤه ردّ ابن هشام على الدماميني في أنّ التوسع خاص بالشعر،يقول:"ويلزم الدماميني أنهم يجعلون(إذا) تارة مضافة،وتارة غير مضافة كما لا يخفى،لكن قال في المغني:إنّ ذلك الاتساع بابه الشعر ...".(٢)

٣- الإجماع :

أعطى المؤلّف هذا الأصل قيمة ظاهرة في احتجاجه،فإذا بدا من أحد العلماء خروج على الإجماع رجّح المؤلّف الإجماع عليه.

ويظهر جليا التزامه بالإجماع بإغفاله الاسم،أو إظهاره في شكل اعتراضات أو تساؤلات،ومن ذلك قوله: "أنّ عاملها عند الأكثرين جوابها،...وإنما امتنع عليهم أن يعملوا فيها تاليها؛لأنهم قدروها كـ (إذ)و (حيث)...وزعم بعضهم أنّ العامل تاليها،لا جوابها،...ولزم هؤلاء أن يدّعوا أنّ [لا إضافة] ....وأجاب الأولون بأنّ الظرف يُتسع فيه بالتقديم حيث لا يتقدم غيره ... وبه سقط قول الدماميني ...".(٣)

موقفه من العلة :

للعلّة أهمية عظمى،ومكانة عليا عند المؤلّف،وقلّما يذكر الحكم دون بيان عن علّته،ولاغرو في ذلك والمؤلّف فقيه،فهو دائم التكرار للفظ التعليل(لأنّ) ،ومنه قوله:

" وإنما كان الوجه الأول ضعيفًا؛لأنّ الحق أنّ (حتى) حرف ابتداء لا حرف جر".(٤)

وقوله:"أنها لا تجزم ، لمخالفتها الشرط .... يقال آتيك إذا طلعت الشمس؛لأنّ

---

(١) ينظر : [٢/ ب] ، التحقيق ص٤٣ .

(٢) ينظر: [٢/أ]، التحقيق ص٤٢ .

(٣) ينظر: [٢/أ]، التحقيق ص ٤٢.

(٤) ينظر : [١/ أ]، التحقيق ص ٢٤.

طلوعها كائن لا محالة...). [1]

ومن مظاهر العلّة عند المؤلّف أنّ حكما واحدًا يعلّل بأكثر من علّة،مما يجعل الحكم أكثر ثباتا وأتمّ توطيدًا، ومن ذلك قوله :

" بقي هنا بحث،وهو أنه إذا لم تكن (إذا) مضافة فما المقتضى [لبنائها]؟،لأنّ تضمن الشرط عارض ... وبناء إذا لازم،والافتقار للجملة يتقيد بتقدير كونها مضافا إليها،لأنّ الجمل لا تكون مطلوبة للاسم قبلها إلا وهي صلة أو تابع ...". [2]

اختياراته وترجيحاته :

على الرغم من أنّ المؤلّف رسالة إلا أنّ شخصية الزّرقاني بدت واضحة وجليّة،فكان يصرّح باختياراته في الأعمّ الأغلب من المواضع،وكثيرًا ما يعلّل لهذه الاختيارات،ومن الأمثلة على ذلك:

- تحدّث في الموضع الأول عن اسمية(إذا)،فساق أربعة أدلة لذلك،ثم قال:" وهذان الوجهان قويان،والأولان ضعيفان،وإنما كان الوجه الأول ضعيفًا؛لأنّ الحق أنّ(حتى)حرف ابتداء لا حرف جر،وأما البيت فلإمكان كونها شرطًا حذف جوابه مدلولاً عليه بـ (اللهف) ".[3]
- اختياره عدم الجزم بـ (إذا)،وتعليله ذلك بقوله:" السادس :أنها لا تجزم ؛لمخالفتها الشرط،ويتحقق وقوع مضمون تاليها ".[4]
- اختياره بناء(إذا)،تعليله ذلك بافتقارها إلى الجملة،يقول:"الخامس:أنها مبنية، إما لافتقارها إلى الجملة، أو لتضمنها معنى الشرط، وفيه أنّ التضمن عارض، وبناء (إذا) لازم ".[5]
- اختياره دخول(إذا) على الجملة الفعلية ؛ لأنّ فيها معنى الشرط ، يقول: " السابع : أنها لما فيها من معنى الشرط لا تدخل على الجملة الاسمية ... بل على فعلية

(1) ينظر : [1/ب]، التحقيق ص ٣٨ .
(2) ينظر : [٢/ أ]، التحقيق ص ٤٣.
(3) ينظر: [1/أ]، التحقيق ص ٣٤.
(4) ينظر: [1/ب]، التحقيق ص ٣٨ .
(5) ينظر : [1/ب]، التحقيق ص٣٧ .

صُرّح [بفعلها]". [1]

المبحث الثالث : مقدّمات التحقيق

١- توثيق اسم الرسالة ونسبتها إلى مؤلّفها ، وزمن تأليفها :

المؤلَّف رسالة عن (إذا) وما يتعلّق بها من أحكام،ومما يؤكدّ صحة نسبة هذا المؤلَّف لعبد الباقي بن يوسف الزُّرقاني ما ورد في نهاية الرسالة من نسبتها إلى مؤلِّفها فقد جاء :

" وقال مؤلّفها العلامة الشيخ عبدالباقي بن يوسف الزُّرقاني هذا من فوائد شيخنا ...". [2]

كما نصّ ابن مخلوف والزركلي[3] على نسبتها إليه ضمن تصانيف أخرى ، وجاءت الرسالة منسوبة إليه أيضا في(دار الكتب المصرية)[4]. مما يدل دلالة قاطعة على صحة نسبة الرسالة إلى مؤلفها.

ولم يضع الزرقاني عنوانًا لرسالته ، وإنما بدأها بقوله : (الكلام على إذا في مواضع) ، ونصّ مَن ترجم له كابن مخلوف و الزركلي على أنّ له رسالة باسم (الكلام على إذا).[5]

كما وردت بهذا الاسم في (دار الكتب المصرية).[6]

زمن تأليفها:

ليس على النسخة،ولا فيها ما يدل على سنة تأليف هذه الرسالة ، وكُتب التراجم أيضًا تخلو من ذلك.

نسخة الرسالة المخطوطة ووصفها :

بين يديّ نسخة واحدة من رسالة (الكلام على إذا) ، وهي نسخة مخطوطة ضمن مجموعة مخطوطة بفهرس مكتبة المخطوطات بدار الكتب المصرية ، بروض الفرج ، تحت رقم (٣٤) مجاميع ، ورقم الميكروفيلم (٤٥٨٨) .

---

(١) ينظر : [١/ب]، التحقيق ص ٣٩.

(٢) ينظر : [٢/ب]، التحقيق ص ٤٥.

(٣) ينظر : شجرة النور الزكية ٣٠٤،والأعلام ٣ /٢٧٢.

(٤) فهرس دار الكتب المصرية ٢ /٧٣ ، رقم (٣٤) مجاميع، رقم الميكروفيلم ٤٥٨٨.

(٥) شجرة النور الزكية ٣٠٤،والأعلام ٣ /٢٧٢.

(٦) فهرس دار الكتب المصرية ٢ /٧٣.

تقع الرسالة في لوحين ، في كل لوح ورقتان متقابلتان، مسطرة كل ورقة واحد وعشرين سطرًا، يحوي الواحد منها ما يقارب عشر كلمات.

كُتبت بخط واضح وغير مشكول ، ووُضع خط فوق الموضع الأول ، و الثاني ، والثالث وحتى العاشر.

وفي نهاية المخطوط كُتب اسم ناسخها علي أبي الليل بن سليمان بن سعد ، ولم يذكر تاريخ نسخها ولا مكانه .

المنهج المتبع في التحقيق:

١. إثبات النص محققًا كما أراده مؤلفه وفق القواعد الإملائية و النحوية.
٢. تخريج الشواهد القرآنية و الحديثية.
٣. نسبة الشواهد الشعرية إلى قائليها، بالرجوع إلى الدواوين المطبوعة، مع تكملة الناقص من الأبيات، وضبطها، و الإشارة إلى مصادرها.
٤. توثيق الآراء و الأقوال و النقول، بالرجوع إلى مصادرها الأصلية سواء أصرح المؤلف بالمصدر أم لا، أو بالرجوع إلى مظانها عند عدم العثور عليها، مرتبة ترتيبًا تاريخيًا.
٥. توثيق المسائل النحوية، و القضايا العلمية و التعليق عليها.
٦. تفصيل ما أجمله المؤلّف، و إيضاح ما أبهمه استئناسًا بالمصادر و المراجع.
٧. ترجمة الأعلام الواردة في المتن، ترجمة موجزة.
٨. وضع علامات الترقيم في الأماكن المناسبة.
٩. تذييل الكتاب بفهرس المصادر و المراجع المعتمدة في الدراسة و التحقيق.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما انعم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم كثيرا

كلام على اذا في مواضع احدها انها اسم وقد ذكر لذلك ادلة
دخول الجار عليها نحو حتى اذا وابدالها من الاسم في قوله
ابيت نفسي على غد اذا راح اخو الحي ولسمعت براتح والاخبار
بها مع مباشرة الفعل نحو خرج زيد اذا اخرجت والاخبار
بها وعنها حكى الاخفش اذا يقوم زيد اذا يقوم عمرو
وهذا ان الاسم وهذان الوجهان قويان والاولان
ضعيفان وانما كان الوجه الاول ضعيفا لان اكون ان
حتى حرف ابتداء وأما البيت فلا يمكن كونها
شرطا حذف جوابه مدلولا عليه باللهف الثاني انها
ظرف لا ينصرف وقيل انها قد تنصرف بالرفع على الابتداء
والخبر كما قال الاخفش السابق وكقراءة بعض السلف
اذا وقعت الواقعة الآية بنصب خافضة رافعة
زعم ابو الفتح ان اذا الاولى مبتدأ والثانية خبر والمنصوبين
حالان وكذا جملة ليس ومعمولاها والمعنى وقت
وقوع الواقعة خافضة لقوم رافعة لآخرين وهو وقت
رج الارض وبالنصب على المفعولية كحديث عائشة فان ما
مالك نعم انا اذا وقعت مفعولا في قوله صلى الله عليه وسلم
انا اني لاعلم اذا كنت عني راضية واذا كنت علي غضبى وبالجر
كالواقعة بعد غد في البيت وذلك ان تقديرها فيه ظرفا للاخف

الجمهور

صورة الصفحة الأولى من المخطوط

وهو متعين هنا وبه يندفع ما قد يقال الافتقار
حاصل ولا يتقيد بالإضافة بدليل الأسماء الموصولة
بل حق الإضافة أن تكون مقتضية للإعراب دافعة
للبناء لأنها من خصائص الأسماء وأجابوا عن المثال
المتقدم بأن الجواب محذوف والمعنى نويت الزيارة
غدا قاله الشبلي وقال في الرضي عامل في غد ونويت
عامل في إذ أو التاسع أنها لا تجزم مع أن فيها معنى الشرط
لما بينا من مخالفتها للشروط بالتحقق وقد تجزم في الشعر
وينبغي القطع بأنها حينئذ غير مضافة الفائدة العاشر
أنها قد تأتي للمفاجأة فتكون ظرف مكان لتضمنه معنى
المفاجأة أو معنى فاء التعقيب ولهذا يرتبط بها الجواب
كما يرتبط بالفاء وقيل إنها ظرف زمان وقيل حرف
انظر المغني فقد بسط الكلام على إذا الفجائية وعلى بعض
وجوه الظرفية المتقدم لكنه لم يستوف الكلام على الوجوه
العشرة فمن أحكمه كتابنا هذه الرسالة وعدم إطالة
الكلام بما هو مقرر في المغني أغنانا الله بفضله ولطف
بنا في جميع الأحوال والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه وسلم انتهى وقال مؤلفها العلامة
الشيخ عبد الباقي بن يوسف الزرقاني عفا عنه من فوائد شيخنا
وأستاذنا العلامة المحقق المدقق مولانا الشيخ ياسين أطال
الله عمره وبقاه وبلغه في الدارين سؤله ومناه وحفظه وحرسه
وتولاه ومتعه كذلك بأولاده وإخوته ومحبيه آمين
تمت وبالخير عمت على يد كاتبها ومالكها
علي [illegible] سليمان بن سعيد غفر الله
له ولوالديه ولمن دعا له بالمغفرة
آمين يا رب
[illegible]

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

[١/أ] الحمد لله على ما أنعم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الكلام على (إذا) في مواضع:

أحدها: أنها اسم، وقد ذُكر لذلك أدلة:

- دخول الجار عليها في نحو: ﴿ حَتَّى إِذَا﴾ [١].
- وإبدالها من الاسم، كما في قوله:

... يالهْفَ نفسي على غدٍ إذا راح إخواني ولستُ بِرَائح [٢]

---

(١) من الآيتين (٧١،٧٣) من سورة الزمر. ونصّهما: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا * حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

اختُلف في (حتى) الداخلة على (إذا) على رأيين:

أحدهما: أنها حرف ابتداء لا عمل له، و (إذا) في موضع نصب على ما استقر لها، وهو رأي الجمهور، وبه جزم أبو البقاء العكبري، والرضي، والخضري. (التبيان في إعراب القرآن ٣٣١/١، وشرح الكافية ١١٢/٢، وحاشية الخضري ١١/٢). وينظر: الجنى الداني ٣٧٢، والدر المصون ٥٧٩/٤، وتعليق الفرائد على تسهيل الفوائد ١٧٢/٥، وهمع الهوامع ١٧٩/٣.

والثاني: أنها حرف جر، وما بعدها اسم مجرور بها.

ونُسب هذا الرأي للأخفش في: (المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات ٣٠٨/٢، وشرح التسهيل ٢١٠/٢، ومغني اللبيب ٩٤/١، وهمع الهوامع ١٧٩/٣، وحاشية الأمير على مغني اللبيب ٨٦/١).

ونسبه أبو حيان والسمين الحلبي إلى الزجاج، وابن درستويه. (البحر المحيط ١٧١/٣، والدر المصون ٥٨٣/٣-٥٨٤)

ووافق ابنُ مالك الأخفش، وعدّ دخول (حتى) على (إذا) مما انفردت به (إذا). شرح التسهيل ٢١٠/٢

وأجاز الرأيين الزمخشري و الزركشي. ينظر: البرهان في علوم القرآن ١٩٣،٢٧٣/٤، والكشاف ٣٢٥/٥، والمفصل ٢٨٩.

(٢) لم أقف على رواية عجز البيت كما ذكره المؤلّف.

وجاء البيت منسوبًا لأبي الطَّمَحان القينيّ، شاعر إسلامي، وقبله:

ألا علّلاني قبل صَدْح النّوائح وقبل ارتقاءِ النفسِ فوق الجوانح

و اختلف في رواية صدر البيت، فجاء في (شرح حماسة أبي تمام للأعلم الشنتمري ٧٥٣/٢) برواية: (وقبل غدٍ).

وفي (الحماسة البصرية للبصري ٢٨١/١) برواية: (وبعد غدٍ).

وجاء البيت بلا نسبة في: (الأمالي الشجرية ٢٧٦/١، ٣٠٠، وشرح شواهد المغني للسيوطي ٢٧٤/١) برواية:

وبعد غدٍ يالهف قلبي من غدٍ ... ...

وفي (شرح أبيات المغني للبغدادي ٢٢٩/٢) بلا نسبة، و برواية:

وقبل غدٍ يالهف قلبي من غدٍ ... ...

- وعزاه جماعة إلى هدبة بن خشرم، وهو في شعره ٨٩، برواية: (وقبل غدٍ).

- والإخبار بها مع مباشرة الفعل، نحو: خرج زيدٌ إذا خرجت[1].
- والإخبار بها وعنها. حكى الأخفش[2]: إذا يقوم زيدٌ إذا يقوم عمروٌ[3]، وهذا شأن الاسم.

وهذان الوجهان قويّان، والأولان ضعيفان، وإنما كان الوجه الأول ضعيفًا؛ لأنّ الحقّ أنّ (حتى) حرف ابتداء، لا حرف جر[4]، وأما البيت[5] فلإمكان كونها شرطاً حذف جوابه مدلولاً عليه بـــ (اللهف)[6].

ينظر: شرح شواهد المغني ٢٧٥/١،وشرح أبيات المغني ٢٣١/٢،وحاشية الأمير على المغني ٨٦/١.
وجاءت روية العجز في كلّ ما سبق:

... ... إذا راح أصحابي ولست برائح

- أجاز شرّاح الحماسة أن تكون (إذا) في البيت بدلاً من (غدٍ) في موضع جرّ،أو أن تكون بدلاً من (غدٍ) ومنصوبة المحل نصب المفعول به.(شرح الحماسة للمرزوقي ١٢٦٦/٣،و التبريزي ١٣٢/٣) ،وينظر: شرح شواهد المغني ٢٨٠/٢-٢٨١، وشرح أبيات المغني ٢٢٩/٢.
- وأجاز البدليّة ابن مالك، والزركشي، والدماميني، والسيوطي. (شرح التسهيل ٢١٠/٢، والبرهان في علوم القرآن ١٩٣/٤، وتعليق الفرائد ١٦٢/٥، والهمع ١٧٨/٣).
- ويرى الجمهور ووافقهم ابن الشجري أنّ (إذا) في البيت ظرف لـ (لهف). (أمالي ابن الشجري ٣٠٠/١، ومغني اللبيب ٩٤/١- ٩٥).
- وردّ ابن جني رأي الجمهور بانقلاب المعنى إذا كانت (إذا) ظرفاً لـ (لهف). (ينظر:شرح أبيات المغني ٢٣٠/٢).

ونقل ابن الشجري عن الأخفش القول بزيادة (من) في البيت، على رواية (من غدٍ)، والتقدير: يالهف نفسي غداً، و (إذا) بدلاً من (غدٍ). ينظر: أمالي ابن الشجري ٣٠٠/١ .

(١) مراد المؤلّف: من الدلائل على اسمية (إذا) جواز وقوعها خبرًا مع دخولها على الأفعال ،نحو: راحةُ المؤمن إذا دخل الجنة، والقيامُ إذا طلعت الشمس. ينظر: شرح التسهيل ٢١٠/٢. وتعليق الفرائد ١٦٢/٥. والهمع ١٧٨/٣.

(٢) أبو الحسن، سعيد بن مسعدة الأخفش ،المجاشعي، أخذ النحو عن سيبويه، من مؤلفاته: معاني القرآن، وكتاب الأوسط، توفي سنة ٢١٠هـ. وقيل: ٢٢١، ٢١٥هـ. ترجمته في:

مراتب النحويين ١١١، وطبقات النحويين واللغويين ٧٢، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة: ١٠٤.

- وذكر الرضي رأي الأخفش منسوبًا إلى بعضهم دون تحديد، وقال:«لم أعثر لهذا على شاهد من كلام العرب». شرح الكافية ١١٢/٢.

(٣) ينظر: شرح التسهيل ٢١٠/٢. والبرهان ١٩٤/٤. والهمع ١٧٨/٣.

وسيرد تفصيل هذا الدليل في الموضع الثاني.

(٤) وافق المؤلّف الجمهور في القول بأنّ (حتى) حرف ابتداء. ينظر هـ (١). ص ١٧.

و أثبت الجرّ كثير من العلماء. ينظر: حروف المعاني للزجاجي ٦٤، ومعاني الحروف للرمّاني ١١٩، والجنى الداني ٥٤٢، ومغني اللبيب ١٢٢/١، والبرهان ٢٧٢/٤.

(٥) يشير إلى ضعف الاستدلال على اسميتها بإبدالها من الاسم في البيت السابق:

... يا لَهْفَ نفسي على غدٍ إذا راح إخواني ولستُ برائح.

(٦) سيرد تفصيل ذلك في ذكر رد الجمهور في الأمر الثاني.

الثاني: أنها ظرف لا تتصرف، وقيل[١]:إنها قد تتصرف بالرفع على الابتداء والجرّ . كمثال الأخفش السابق، وكقراءة بعض السلف[٢]:﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ [٣] الآية،بنصب﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ .

زعم أبو الفتح[٤] أنّ (إذا) الأولى[٥] مبتدأ، والثانية[٦] خبر، والمنصوبين حالان[٧]. وكذا جملة (ليس) ومعمولاتها[٨]، والمعنى: وقتَ وقوعِ الواقعةِ خافضةً لقومٍ، رافعةً لآخرين . وهو وقت رجّ الأرض[٩].

---

(١) قال بذلك ابن جني . وابن مالك . وأبو الفضل الرازي . ينظر : المحتسب في تبيين وجوه القراءات ٢/٣٠٧، وشرح التسهيل ٢ / ٢١٠ . والجنى الداني ٣٧٢ . والبحر ٨ / ٢٠٤ . وهمع الهوامع ٣ / ١٧٩ .

(٢) عزيت هذه القراءة لليزيدي، (معاني القرآن للزجاج ٥/١٠٧، وإعراب القرآن للنحاس ٥/١٠٧، ومختصر في شواذ القراءات لابن خالويه ١٥٠، و إتحاف فضلاء البشر ٥١٤).

وزاد أبو حيان نسبتها : إلى زيد بن علي، والحسن، وعيسى، وأبي حيوة، وابن أبي عبلة، وابن مقسم، والزعفراني، (البحر المحيط ٨/٢٠٢).

(٣) الآية (١) من سورة الواقعة . وتمام الآيات: ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ الواقعة / ٢-٤.

(٤) عثمان بن جني الموصلي النحوي، ذو تصانيف كثيرة مشهورة منها: الخصائص، وشرح تصريف المازني، وشرح المقصور والممدود، ت ٣٩٢هـ.

ترجمته في: إشارة التعيين ٢٠٠، والبلغة ١٤١، وبغية الوعاة ٢/١٣٢.

وقوله في : (المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات ٢/٣٠٧) وينظر: الجنى ٣٧٢، ومغني اللبيب ١/٩٤، وتعليق الفرائد ٥/١٧٣.

(٥) في قوله تعالى: [إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ].

(٦) في قوله تعالى: [إِذَا رُجَّتِ].

(٧) وهما [خافضة] و [رافعة].

(٨) في قوله تعالى:[لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ].

(٩) قول المؤلّف:» أنّ (إذا) الأولى " حتى قوله: " رجّ الأرض ". بنصه في: مغنى اللبيب ١/٩٤.

- قال الكسائي في قراءة النصب : » لولا أنّ اليزيدي سبقني إليه لقرأت خافضةً رافعةً بالنصب «. مختصر في شواذ القراءات لابن خالويه ١٥٠، وينظر: البحر المحيط ٨/٢٠٤.
- وأجاز الفراء النصب على قبح، وذلك على إضمار (وقعتْ)، وقال: " لكنه حسُن في الواقعة، لأنّ النصب قبله آية يَحْسُن السكوت عليها، فحسُن الضمير في المستأنف ". معاني القرآن ٣/١٢١، وينظر: إعراب القرآن للنحاس ٤/٣٢٢.
- كما أجاز النصب الزجاج، إما على الحال من الضمير في (كَاذِبَةٌ)، أو على الحال من الفعل المضمر، والمعنى: إذا وقعتْ تقع خافضةً رافعةً. (معاني القرآن ٥/١٠٧).
- وردّ النحاس قراءة النصب بعدة أمور،تنظر في :معاني القرآن ٤/٣٢٢-٣٢٣،ومشكل إعراب القرآن ٢/٧١٠.

وبالنصب على المفعولية، كحديث عائشة ـ فإنّ ابن مالك[1] زعم أنّ (إذا) وقعت مفعولا ـ في قوله ﷺ لها: » إنّي لأعلم إذا كنتِ عنّي راضية، وإذا كنتِ عليّ غَضْبى «[2].

وبالجرّ، كالواقعة بعد (غد) في البيت[3]، ولك أن تقدّرها فيه ظرفًا لـ (الهف) [1/ب]، وردّ الجمهور ماتقدّم، فانظر المغني[4].

الثالث: أنها للمستقبل[5]، قيل وقد تجئ للمضيّ، نحو: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً ﴾ [6]،﴿ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ [7].

- وقراءة الجمهور بالرفع فيهما ،على أنهما خبر مبتدأ مقدّر، أي: هي خافضة وهي رافعة.

(1)محمد بن عبدالله بن عبدالله بن مالك الطائي الجيّاني، إمام مشهور، صاحب الألفية في النحو،من مؤلفاته:التسهيل وشرحه،وشرح الكافية الشافية،ت ٦٧٢هـ.ترجمته في:إشارة التعيين ٣٢٠،وبغية الوعاة ١٣٠/١.

وقوله في:شرح التسهيل ٢١٠/٢–٢١١،وينظر الجنى٣٧٣،ومغني اللبيب٩٤/١،والبرهان١٩٧/٤.

(٢) نص الحديث: » عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: إني لأعلمُ إذا كنتِ عني راضية، وإذا كنتِ عليّ غضبى. فقلتُ: من أين تعرف ذلك؟ فقال: أما إنْ كنتِ عني راضية فإنكِ تقولين : لا وربِّ محمد، وإذا كنتِ غَضْبى قلتِ: لا وربِّ إبراهيم، قالتْ: قلتُ أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك «.
الحديث في صحيح مسلم في فضائل الصحابة ١٨٩٠/٤، وصحيح البخاري في كتاب النكاح ٣٢٥/٩.

(٣) وهو قول الشاعر : ...يا لهف نفسي على غدٍ إذا راح إخواني ولست برائح .
وهو في :الجنى ٣٧٣،وشرح التسهيل ٢١٠/٢،ومغني اللبيب ٩٤/١،والهمع ١٧٨/٣.

(٤) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ٩٤/١ .
قال ابن هشام: والجمهور على أنّ (إذا) لا تخرج عن الظرفية، وأن (حتى) في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾، حرف ابتداء لا عمل له، و (إذا) في قوله تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ﴾،ظرف لجواب محذوف لفهم المعنى،وفي قوله تعالى:[حَتَّى إِذَا]بدل من الأولى، والتقدير بعد (إذا) الثانية: أي انقسمتم أقساماً.﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾، الواقعة / ٧.
أمّا (إذا) في البيت فظرف لـ (لهف)،وفي الحديث: (إذا) ظرف لمحذوف، وهو مفعول (أعلم) ،وتقديره: شأنك ونحوه.ينظر: (الهمع ١٧٩/٣، وحاشية الخضري ١١/٢).

(٥) الأصل في (إذا) أن تكون ظرفًا لما يستقبل من الزمان ،متضمنة معنى الشرط، تختصّ بالدخول على الجمل الفعلية. ينظر: الكتاب ٢٣٢/٤، وحروف المعاني للزجاجي ٦٣، والأزهية في علم الحروف ٢٠٢، وشرح المفصل ٩٦/٤، والجنى الداني ٣٦٧، ومغنى اللبيب ٩٢/١– ٩٣، وشرح التسهيل ٢١٠/٢، وتعليق الفرائد ١٦٣/٢.

(٦) الآية (١١) من سورة الجمعة، وتمامها: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾.

(٧) الآية (٩٢) من سورة التوبة، وتمامها: ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾.

الرابع: أنّ فيها معنى الشرط[1]. قيل: وقد تخلو منه، نحو: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾[2]؛ لأنها إنْ قُدِّرتْ شرطية حُذِف جوابها مدلولاً عليه بـ (أُقسم) التي هي مقدّرة كالمنطوق بها[3] ،لَزم تعليق القسم على شرطها[4]. وإذا امتنع ذلك تعيّن أنها ظرف مجرد متعلّق بمحذوف، لأنه حال، والتقدير: أقسم بالليل حاصلاً في وقت غشيانه، فإن قيل: فالحال مقيّدة للفعل كتقييد الشرط، قلنا حال مقدرة، أي: مقدار غشيانه[5].

- تجيء (إذا) ظرفًا لما مضى من الزمان إذا كان عاملها فعلا ماضيًا . وذهب بعض النحويين ومنهم ابن مالك أنها حينئذٍ تكون بمعنى (إذ) .

ينظر: شرح التسهيل ٢١٢/٢، وشرح المفصل ٩٦/٤، وشرح الكافية للرضي ١٠٨/٢، ومغني اللبيب ٩٥/١، والبرهان ١٩٠/٤، ١٩٧، والهمع ١٧٩/٣، وحاشية الخضري ١١/٢.

- وصحّح المغاربة ذلك بأنّ (إذا) لا تقع موقع (إذ) ولا العكس، وتأوّلوا جميع ما ورد من ذلك. (الجنى الداني ٣٧١) ، ووافقهم السهيلي . ينظر : الروض الأنف ١ / ٢٨٦ – ٢٨٧ .
- وأجاز قطرب والأنباري وقوع (إذ) للماضي . و (إذا) للمستقبل ، والعكس. ينظر: (الأضداد لقطرب ١٥١، والأضداد للأنباري ١١٨).
- ومنع أبو حيان وابن الصائغ والدماميني مجيء (إذا) للمضي. ينظر: تعليق الفرائد ١٦٨/٥– ١٦٩، وشرح أبيات المغني ٢٣٤/٢– ٢٣٥.

(١) تجيء (إذا) ظرفًا متضمنًا معنى الشرط غالبًا. ينظر: الكتاب ٢٣٢/٤، والمقتضب ٥٥/٢، وشرح التسهيل ٢١٠/٢، والأزهية في علم الحروف للهروي ٢٢، والمغني ٩٢/١–٩٣.

(٢) الآية (١)، من سورة الليل.

(٣) في قوله تعالى: [وَاللَّيْلِ].

(٤) قال ابن هشام في (المغني ١٠٠/١):

- لو كانت (إذا) شرطية كان ماقبلها جواباً في المعنى، كما في قولك: آتيك إذا أتيتني، ويكون التقدير: إذا يغشى الليل أقسمتُ، وهذا ممتنع لوجهين:

١) أنّ القسم الإنشائي لا يقبل التعليق، لأنّ الإنشاء إيقاع (أي ثابت)، والمعلّق يحتمل الوقوع وعدمه، ولا يمكن ادّعاء هذا في الآية، لأنّ جواب » الليل « ثابت دائماً.

٢) أنّ الجواب خبريّ . فلا يدل عليه الإنشاء، لتباين حقيقتهما.

ووافقه الزركشي والدماميني . ينظر: البرهان في علوم القرآن ١٩٥/٤، وتعليق الفرائد ١٦٤/٥.

(٥) جاء في (الهمع ١٧٩/٣):» وقال قوم: إنها وقعت للحال في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ لأنّ الليل مقارن للغشيان «.

- وقد وافق المؤلّف ابن هشام في القول بأن (إذا) إذا وقعت بعد واو القسم فإنها تخرج عن الشرطية .وتكون ظرفاً متعلقًا بحال محذوف، والمسوّغ لذلك صحة مجيء الحال مقدرة. ينظر المغني ٩٥/١– ٩٦.
- واختلف العلماء في تقدير عامل (إذا) في الآية الكريمة وما شابهها على عدة آراء:

الخامس: أنها مبنية؛ إما لافتقارها إلى الجملة[1]، أو لتضمنها معنى الشرط[2]، وفيه أن التضمن عارض. وبناء (إذا) لازم[3].

السادس: أنها لا تَجْزِم[4]؛ لمخالفتها الشرط، ويتحققُ وقوعُ مضمون تاليها، يقال: آتيك إذا طلعت الشمس؛ لأنّ طلوعها كائن لا محالة، ولا يقال: إذا جاء زيدٌ؛ إلاّ إنْ نُزّل منزلة ما هو قطعي الحصول[د].

– ذهب أبو البقاء العكبري إلى أنّ العامل هو فعل القسم المحذوف .والتقدير: أُقسم بالليل وقت غشيانه، أو أُقسم بالنجم وقت هويّه في الآية: { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى }. (التبيان في إعراب القرآن ١١٨٦/٢) وينظر: البرهان ١٩١/٤–١٩٢.

– وذهب بعض العلماء إلى أنّ العامل محذوف،وهو مضاف أُقيم المقسم به مقامه،أي:ومجيء الليل.ينظر: البرهان ١٩٢/٤، والبحر المحيط ٤٨٠/٨ .

– وذهب ابن الحاجب إلى أنّ العامل هو حال محذوفة، والتقدير: والليل حاصلاً في هذا الوقت. (الإيضاح في شرح المفصل ١٢/١د). وينظر: البرهان ١٩١/٤–١٩٣.

وقال الزركشي: » والتحقيق وبه يرتفع الإشكال في هذه المسألة أنْ يُدّعى أن (إذا) كما تجرد عن الشرطية كذلك تجرد عن الظرفية .فهي في هذه الآية الشريفة لمجرد الوقت من دون تعلّق بالشيء تعلّق الظرفية الصناعية، وهي مجرورة المحل هاهنا ،لكونها بدلاً عن الليل، كما جُرّت بحتى في قوله تعالى: { حتى إذا جاؤها }، والتقدير: أُقسم بالليل وقت غشيانه، أي: أُقسم بوقت غشيان الليل «. البرهان ١٩٣/٤– ١٩٤.

(١) قال بذلك ابن يعيش، وابن الحاجب، والرضي، والجامي. ينظر: شرح المفصل ٩٦/٤، والإيضاح ١٠/٢د، وشرح الكافية للرضي ١٠٧/٢–١٠٨، وشرح الكافية للجامي ١٣٧/٢.

(٢) قال بذلك أيضًا ابن يعيش، وابن الحاجب. (شرح المفصل ٩٦/٤، والإيضاح في شرح المفصل ١٠/٢د).

– وبُنيت (إذا) عند سيبويه لإبهامها في المستقبل، ووافقه ابن يعيش. ينظر: (الكتاب ٦٠/٣، وشرح المفصل ٩٦/٤).

(٣) سيذكر المؤلف بحثًا مستقلا في بناء (إذا)، ولكن المؤلفّ من خلال كلامه هذا يُرجّح سبب بنائها بافتقارها إلى جملة الشرط المضافة إليها، لا لتضمنّها معنى الشرط كسائر أدوات الشرط الاسمية، وحُجّته في ترجيح ذلك أنّ الشرطية عارضة، أما الإضافة إلى الجملة بعدها فهي لازمة لذا لزم البناء.

(٤)لأنها مؤقتة، وحروف الجزاء مبهمة. (شرح المفصل ٩٧/٤).

و يُجزم بها في الشعر اضطرارًا ، وسيأتي تفصيل ذلك في الأمر التاسع.

(د) تختص (إذا) بما يتعيّن وجوده .نحو: آتيك إذا احمرّ البُسرُ، أو رُجّح، نحو: إذا قدم الحاجّ أكرمتك، بخلاف (إنْ) فإنها تكون للمُحتَمل والمشكوك فيه والمستحيل، كقوله تعالى: { قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ }٨١ / الزخرف، أو: إنْ صعدت السماء فأنت حرٌ، ولا تدخل على متيقن ولا راجح، ولكون (إذا) تدخل على المتيقن أو الراجح لم تجزم. ينظر: (شرح التسهيل ٢١١/٢، والجنى الداني ٣٦٧، وتعليق الفرائد ١٦٤/٤د، والهمع ١٧٩/٣).

السابع: أنها لما فيها من معنى الشرط لا تدخل على الجملة الاسمية ،كما في "إذْ" و" حيثُ" ،بل على فعلية صُرِّح [بفعلها] [1]. نحو : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ [2]. أو حذف مدلولا عليه بموافق ،نحو: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ [3].

أو [مخالف] [4] في البناء للفاعل ، [كقول الشاعر] [5]:

إذا ابنُ أبي موسى بلالا بلغْتِهِ [6] ... ...

---

(1) في المخطوط: بنقلها، وهو تصحيف. والصواب ما أُثبت.

(2) الآية (1)، من سورة النصر.

(3) الآية (1) من سورة الانشقاق.

- اختلف البصريون والكوفيون في الاسم الواقع بعد (إذا)، فذهب البصريون إلى أنّ (إذا) مثل (إن) الشرطية لا يقع بعدها إلا الفعل، فإذا أتى بعدها اسم فإنه فاعل لفعل محذوف يفسره الفعل المذكور.

- وأجاز الكوفيون وقوع المبتدأ بعدها؛ لأنها ليست شرطًا في الحقيقة. ووافقهم الأخفش، وابن مالك. (شرح التسهيل ٢١٣/٢، والجنى الداني ٣٨٦، والبحر المحيط ٤٤٦/٨، و التصريح على التوضيح ٤٠/٢).

والخلاف في: مشكل إعراب القرآن ٧٩٢/٢، والإنصاف في مسائل الخلاف ٦١٥/٢، والبرهان في علوم القرآن ١٩٦/٤، وشرح المفصل ٩٦/٤-٩٧.

ونقل ابن مالك ومحمد الأمير عن الأخفش جواز الأمرين. ينظر: شرح التسهيل ٢١٣/٢. وحاشية الأمير على مغني اللبيب ٨٥/١.

- واختُلف في النقل عن سيبويه، فذكر المرادي وابن مالك أنه لا يُجيز إلا أنْ يليها الفعل ظاهرًا أو مقدرًا.

ثم نقل المرداي عن السهيلي أنّ سيبويه يُجوِّز الابتداء بعد (إذا) الشرطية وأدوات الشرط إذا كان الخبر فعلاً. ينظر: الجنى ٣٦٨ ، وشرح التسهيل ٢١٣/٢.

وما ذهب إليه السهيلي صوابًا. جاء في (الكتاب ١٠٦/١- ١٠٧): » ومما يَقْبُح بعده ابتداء الأسماء ويكون الاسم بعده إذا أوقعت الفعل على شيء من سببه نصبًا في القياس: إذا وحيث ... « إلى أن قال: » والرفع بعدهما جائز، لأنك قد تبتدئ الأسماء بعدهما فتقول: اجلس حيث عبد الله جالس، واجلس إذا عبد الله جلس « وينظر: (النكت في تفسير كتاب سيبويه للأعلم ٢٤٠/١).

(4) في المخطوط: أو مخالفاً، والصواب ما أثبت.

(5) زيادة يقتضيها السياق.

(6) البيت لذي الرمة ، وهو في ديوانه ٣٤٠، وعجزه:

... ... فقام بفأس بين وصليك جازرُ

وهو من شواهد سيبويه في (الكتاب ٨٢/١). وفي معاني القرآن للفراء ١ / ٢٤٥ ، ومعاني القرآن للأخفش ٢٤٥/١ ، والكامل ١/ ١٦٩، ١٢٢٩/٣، والمقتضب ٧٧/٢، وشرح أبيات سيبويه للسيرافي ١٦٦/١، وشرح المفصل ٩٦/٤، والبرهان في علوم القرآن ١٩٦/٤، وخزانة الأدب ٣٢/٣.

وقد وافق المؤلّف ابنَ هشام الأنصاري في الجمع بين رواية رفع (ابن) ، ونصب (بلال)، مغني اللبيب ٢٦٩/٢. وأنشد سيبويه البيت برفع (ابن) و (بلال) ، وقال: » فالنصب عربيٌّ كثير والرفع أجود « الكتاب ٨٢/١.

الثامن: أنّ عاملها عند الأكثرين[1] جوابها، وإنما لزم تقديمها[2]؛ لمعنى الشرط، وإنما امتنع عليهم أن يُعملوا فيها تاليها[3]؛ لأنهم قدّروها كـ (إذ) و (حيث) مضافة إلى الجملة التالية لها[4].

وزعم بعضهم[5] [٢/أ] أنّ العامل تاليها ، لا جوابها؛ لمجيئه[6] مقروناً بالفاء في نحو : ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ [7]، وبإذا الفجائية في نحو: ﴿ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [8]، وكقولك: إذا جئتني

فالنصب على إضمار فعل يفسره المذكور، والرفع على الابتداء .

وأنشده المبرد، والأعلم، وابن الشجري، والزركشي بالنصب (ابنَ وبلالا) ،على أنه إذا وقع بعد (إذا) اسمًا منصوبًا فنصبه على إضمار فعل. (المقتضب ٧٧/٢، والنكت في تفسير كتاب سيبويه ٢١٧/١، والأمالي الشجرية ٣٣/١– ٣٤، والبرهان ١٩٦/٤).

وخطّأ المبرد رفع (ابن) على الابتداء،وأجاز أن يكون رفعه على بناء (بُلغ) للمجهول،فيكون (ابنُ) نائب فاعل وردّ ابن ولّاد على انتقاد المبرد رأي سيبويه جواز الرفع بعد (إذا)، ينظر النقد وردّ ابن ولّاد عليه في : الانتصار لسيبويه على المبرد ٦٥.

ويرى البغدادي أنّ (بلالاً) ينبغي أنْ يكون مرفوعًا؛لأنه بدل من(ابن) ، أو عطف بيان له، ينظر : خزانة الأدب ٣٢/٣– ٣٣.

(١) نص على ذلك ابن الحاجب، والرضي، وابن هشام، والدماميني، والخضري.

ينظر: الإيضاح في شرح المفصل ٥١٢/٢، وشرح الكافية ٢١٠/٢، ومغني اللبيب ٩٦/١، وتحفة الغريب بهامش المنصف من الكلام على مغني اللبيب ٢٠٣/١، وحاشية الخضري ١١/٢.

ونسب المرادي رأي الأكثرين إلى الجمهور. (الجنى الداني ٣٦٩).

(٢) أي: (إذا) الشرطية.

(٣) أي : فعل الشرط.

(٤) والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، ينظر حاشية الخضري ١١/٢، و التصريح ٤٠/٢.

(٥) نص ابن هشام على أنّ هذا قول المحققين، وقال إنها حينئذٍ تكون بمنزلة (متى) و (حيثما) و (أيّان)، فهن غير مضافات إلى مابعدهن.

مغني اللبيب ٩٦/١، وينظر: الجنى ٣٦٩، وشرح الكافية ١١٠/٢، و التصريح ٤٠/٢، وتحفة الغريب في شرح مغني اللبيب ٢٠٣/١.

(٦) أي: لمجيء جواب الشرط.

يَعْرِضُ المؤلّف هنا للأمور الواردة على قول الأكثرين القائلين بأنّ ناصب (إذا) هو جوابها، ووجه الاستدلال عليهم: إنه إذا كان الجواب مقترنًا بالفاء أو (إذا) الفجائية فلا يصح عمله في (إذا) الشرطية؛ لأنّ ما بعد الفاء و (إذا) الفجائية لا يعمل فيما قبلهما، وبالتالي لا يصح أن يكون (الجواب) هو العامل في (إذا) . ينظر: الجنى الداني ٣٦٩، والبحر المحيط ٥٢٣/٨، ٣١٢/٦، والمغني ٩٧/١، وحاشية الشيخ يس ٤٠/٢.

(٧) من الآية (٣) من سورة الفتح . وتمام الآيات : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

(٨) من الآية (٢٥) من سورة الروم. وتمامها:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾.

اليوم أكرمتك غدًا، والفعل الواحد كالجسم الواحد لا يحل في الآن الواحد في زمانين ولا في مكانين[1].

ولزم هؤلاء[2] أن يدّعوا أن [لا إضافة][3] وأنْ يفرقوا بأنّ (إذا) ترتبط بكونها شرطًا كما في(أين) و(أنّى)، وأما (إذ) و (حيث) فلولا الإضافة ما حصل ارتباط[4]، وأجاب

---

(١) مراد المؤلف من قوله: » الفعل الواحد كالجسم الواحد ... « إلخ أنّ (إذا) بمعنى (وقت)، فلو كان العامل في المثال هو الجواب (أكرمتك)، وكانت (إذا) مضافة إلى جملة فعل الشرط (جئتك) ، لفسد المعنى. إذ يصير المعنى: وقتُ مجيئك اليوم وقتُ إكرامي لكَ غدًا، أي: الوقتُ المفسّر بـ (إذا) يصير وقتًا واقعًا فيه المجيء و الإكرام، لأنه وقتٌ للمجيء باعتبار إضافته إليه، وهو نفسه وقتٌ للإكرام باعتبار عمله فيه، ولا يستقيم أن يكون (الوقت) المفسّر بـ (إذا) ظرفاً للمجيء والإكرام جميعاً، لأنه يؤدي إلى ما مُثّلَ به من كون الوقت الواحد – المعبّر عنه بالفعل الواحد – كالجسم الواحد لا يحلُّ في الآن الواحد في زمانين ولا في مكانين.

وهذا يرجّح كون العامل في (إذا) هو شرطها التالي لها، وهي غير مضافة إليه، فهي غير لازمة الإضافة ومختلفة عن (إذ) و (حيث)، لارتباطها بالشرطية كـ (أين) (وأنّ).

ينظر: الإيضاح في شرح المفصل ٥١٢/٢.

يقول ابن هشام: " أنه يلزمهم في نحو (إذا جئتني اليوم أكرمتك غدًا) أن يعمل (أكرمتك) في ظرفين متضادين [غدًا، ويوم] وذلك باطل عقلاً، إذ الحدث الواحد المعيّن لا يقع بتمامه في زمانين وقصدًا، إذ المراد وقوع الإكرام في الغد لا في اليوم ". مغني اللبيب ٩٦/١.

وقد ذكر ابن هشام هذه الاعتراضات من جملة الأمور التي ترد على قول الأكثرين بلا نسبة . (مغني اللبيب ٩٧/١) وهذه الاعتراضات هي لأبي حيان في كتابة (التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل) . وهو مخطوط طبع بعضه . وقد ذكرها المرادي في (الجنى الداني ٣٦٩) . وينظر : البحر المحيط ٣١٢/٦ . ٥٢٣/٨ .

وردّ المرادي قول أبي حيان بأنّ مراد الجمهور أنّ العامل جوابها إنْ كان صالحًا للعمل . فإن منع مانع فالعامل مقدر يدل عليه الجواب . الجنى ٣٦٨– ٣٦٩ .

ويرى أبو البقاء العكبري أنّ الفاء لا تمنع من عمل ما بعدها في (إذا) . (التبيان ١٦٢/١) .

ونقل المرادي عن الحوفي والزمخشري أنّ العامل في [إذا جاء] هو [فسبح] . وهذا يدل على أن الفاء عندهما لا تمنع . وقال المرادي : وفيه نظر . (الجنى ٣٧٠) .

وينظر : قول الزمخشري والحوفي في : الكشاف ٦ / ٤٥٠ . والجنى ٣٧٠ . والبحر ٨ /٥٢٣ .

(٢) القائلون بأنّ ناصبها شرطها.

(٣) في الأصل المخطوط: أن الإضافة. خطأ. صوابه ما أثبت، لاستقامة المعنى معه، وينظر التصريح على التوضيح ٤٠/٢، وحاشية الخضري ١١/٢.

(٤) من قوله: » ولزم هؤلاء « حتى قوله: » ارتباط «، بنصّه عند الشيخ يس الحمصي . ينظر : التصريح على التوضيح ٤٠/٢، نقلاً عن ابن هشام في كتابه حواشي التسهيل.

الأولون[1] بأنّ الظرف الجائز التأخير يُتسَّع فيه بالتقديم حيث لا يتقدّم غيره. فما ظنك بالممتنع التأخير[2].هكذا نقله ابن هشام في الحواشي[3]. ومن خطّه نقلتُ. و به سقط قول الدماميني:[4] إنّ قولهم إنّ العامل جوابها مقيّد بعدم المانع، كالفاء وإذا الفجائية، أما مع وجوده فالعامل تاليها. ووجه السقوط: أن ّجوابهم المتقدّم[5] يقتضي أن يقولوا في الموضع الذي وُجد فيه المانع[6]: إنّ العامل الجواب ويتعذروا بما علمتَ. ويلزم الدماميني أنهم يجعلون (إذا) تارة مضافة .وتارة غير مضافة كما لا يخفى، لكن قال في المغني[7]: إنّ ذلك الاتساع بابه الشعر، كقوله:

وَنَحْنُ عَنْ فَضْلِكَ مَااسْتَغْنَينا[8].

- والفرق بين (إذا) الشرطية وبين (إذ) و (حيث) أنّ مع (إذا) يحصل الربط بين جملتي الجواب والشرط بكونها شرطًا، كما في (أين ومتى). أما (إذ) و (حيث) فلولا الإضافة ما حصل بهما ربط. ينظر:حاشية الخضري ٢ /١١.

(١) القائلون بأنّ ناصب (إذا) هو جوابها.

(٢) الممتنع التأخير (إذا) الشرطية.

ومراد المؤلّف : إذا قيل: يوم الجمعة آتيك، فـ (يوم الجمعة) ظرف، تُوسّع فيه بالتقديم، حيث لا موجب لتقديمه. بخلاف (إذا) الشرطية. فاقتران الجواب بالفاء أو (إذا) الفجائية لا يمنع عمله في (إذا) الشرطية، لتوسعهم في الظروف التي لا تستحق التصدير والتقديم ، فما ظنك بما يستحقه؟. ينظر: حاشية الخضري ١/١١.

(٣) حواشي ابن هشام على التسهيل. وهي مفقودة. ينظر: ابن هشام الأنصاري آثاره ومذهبه النحوي٣٥٢، ٣٦٢.

وجاء في حاشية التصريح على التوضيح للشيخ يس ٢ /٤٠ « (قوله لأنّ إذا عند هؤلاء غير مضافة) ظاهره أنهم مصرحون بذلك .وعبارته في الحواشي: ولزم هؤلاء أن يدّعوا أنّ لا إضافة وأنْ يفرقوا بأنّ إذا ترتبط بكونها شرطًا كما في أين و أنى . وأما إذ وحيث فلولا الإضافة ماحصل ارتباط. انتهى ومن خطه نقلت «.

(٤) بدر الدين محمد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمد بن سليمان بن جعفر، نحويّ، له من التصانيف: تحفة الغريب في حاشية مغني اللبيب، وشرح التسهيل، وتعليق الفرائد على تسهيل الفوائد، وشرح البخاري، توفي سنة ٨٣٧هـ وقيل ٨٣٨هـ .

ترجمته في: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ١/ ٦٦.

وقوله في: تحفة الغريب في شرح مغنى اللبيب ١/ ٢٠٣ – ٢٠٤.

(٥) وهو: أنّ الظروف يُتَوسّع فيها ما لا يَتَوسّع في غيرها.

(٦) من اقتران الجواب بـ (إذا) والفاء.

(٧) مغني اللبيب ١/ ٩٨، ٣١٧ .

(٨) البيت من الرجز منسوبًا إلى عامر بن الأكوع في (شرح أبيات المغني ٢ /٢٥٠). وإلى عبدالله بن رواحة في (شرح شواهد المغني ١/ ٢٨٦). وبلا نسبة في الخزانة ٧ / ١٣٩ وقبله :

بقي هنا بحث: وهو أنه إذا لم تكن (إذا) مضافة فما المقتضى [لبنائها][1]؟، لأنّ تضمّن الشرط عارض كما مرّ[2]، وبناء (إذا) لازم. والافتقار للجملة يتقيد بتقدير كونها مضافاً إليها، لأنّ الجمل لا تكون مطلوبة للاسم قبلها إلا وهي صلة أو تابع، ولا سبيل لهما هنا، أو معمولة[٢/ب] وهو متعيّن هنا، وبه يندفع ما قد يقال الافتقار حاصل ولا يتقيّد بالإضافة بدليل الأسماء الموصولة بل حق الإضافة أن تكون مقتضية للإعراب دافعة للبناء، لأنها من خصائص الأسماء.

وأجابوا عن المثال المتقدم بأنّ الجواب محذوف ، والمعنى: نويتُ إكرامك غدًا، قاله النيلي[3]، وقال: فأكرمتك عامل في (غد)، و (نويت) عامل في (إذا).

التاسع: أنها لا تَجْزم مع أنّ فيها معنى الشرط ، لما بيّنا من مخالفتها للشروط بالتحقّق.

وقد تَجْزم في الشعر[4]، وينبغي القطع بأنها حينئذٍ غير مضافة.

العاشر: أنها قد تأتي للمفاجأة، فتكون ظرف مكان[5]، لتضمنه معنى المفاجأة ، أو

إنّ الذين قد بغوا علينا

إذا أرادوا فتنة أبينا

والشاهد فيه: أنّ (عن فضلك) متعلّق بـ (استغنينا)، وعمل ما بعد (ما) فيما قبلها لضرورة الشعر، لأنّ (ما) النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، لأنّ لها الصدارة كـ (إنْ) النافية.

(١) في المخطوط : لبيانها . تصحيف . صوابه ما أثبت .

(٢) في الأمر الخامس .

(٣) سعيد بن عبد العزيز بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم . النيّلي . النيّسابوري . أديب . ونحوي . وفقيه . وشاعر . وطبيب . ت سنة ٤٢٠هـ . ترجمته في : بغية الوعاة ١/٥٨٥ .

ولم أقف على قوله فيما يديّ من كتب .

(٤) لا يجزم بـ (إذا)الشرطية، لأنها مؤقتة.وحروف الجزاء مبهمة، وجُزم بها في الشعر اضطراراً. قال الشاعر:

إذا قصّرتْ أسيافُنا كان وَصْلُها *** خُطانا إلى أعدائنا فنضاربُ

حيث جزم (فنضارب) عطفا على موضع (كان)، لأنها في محل جزم على جواب (إذا) التي عملت عمل (إن) ضرورة. ينظر :الكتاب ٣/٦١، والمقتضب ٢/٥٦، ومغني اللبيب ٢/٩٣، والهمع ٣/١٨٠.

وجاز الجزم بها عند ابن مالك في الشعر، لأنّ فيها ما في (إن) من ربط جملة بجملة.(شرح التسهيل ٢/٢١١).

ونقل المرادي عن الكوفيين جواز الجزم بـ (إذا) مطلقاً في الشعر وغيره. (الجنى الداني ٣٦٨).

(٥) نسب أبو حيان هذا الرأي لسيبويه، (البحر المحيط ٤/١٢١).

معنى فاء التعقيب، ولهذا يرتبط بها الجواب كما يرتبط بالفاء[1].

وقيل[2]: إنها ظرف زمان.

وقيل[3]: إنها حرف. انظر المغني[4] فقد بسط الكلام على (إذا) الفجائية، وعلى

وزاد المرادي نسبته إلى: المبرد و الفارسي وابن جني. (الجنى الداني ٣٧٤).

وقد تحدث المبرد عن (إذا) الفجائية في موضعين، صرّح في الأول منهما بحرفيتها حيث قال: » ولـ (إذا) موضع آخر وهي التي يقال لها: حرف المفاجأة «، المقتضب ٢/٥٧.

وفي الموضع الثاني ذكر بأنها ظرف من غير أن يخصصها بمكان أو زمان. فقال:

" فأما (إذا) التي تقع للمفاجأة فهي التي تسدّ مسدّ الخبر .و الاسم بعدها مبتدأ. وذلك قولك: جئتك فإذا زيدٌ ... وتأويل هذا جئت ففاجأني زيد، وهذه تغني عن الفاء وتكون جوابًا للجزاء « المقتضب ٣/١٧٨.

ورفع الشيخ عضيمة ما ظاهره أنه تعارض في قولي المبرد السابقين . فقال:

" أرى أنْ نحمل ماهنا – أي قول المبرد الأول – على مايوافق ما هناك . فنحمل لفظة (حرف) على الكلمة لا على الحرف الذي هو قسيم الاسم و الفعل .وهذا الاستعمال شائع عند سيبويه «. المقتضب ٢/٥٨، هامش (٢).

و (إذا) ظرف مكان عند المبرد في: (الجنى الداني ٣٧٥، وشرح التسهيل ٢/٢١٠، وشرح الكافية ١/١٠٣، ومغني اللبيب ١/٨٧، والفوائد الضيائية ٢/١٣٩، و الهمع ٣/١٨٢).

ونسب الرضي القول بأنّ (إذا) الفجائية ظرف مكان إلى الكوفيين. (شرح الكافية ٢/١١٢).

واختار القول بأنها ظرف مكان: الهروي و ابن عصفور. (الأزهية ٢٠٢، ومغني اللبيب ١/٨٧) وينظر: الهمع ٣/١٨٢.

(١) مراد المؤلف: إذا قيل: نظرت فإذا زيدٌ، فالمعنى فاجأني زيدٌ، فهذا تضمنه معنى المفاجأة، ودخلتْ عليها فاء التعقيب من بين حروف العطف؛ لأنّ وقوع الثاني بعد الأول في المعنى ، و الفاء للترتيب. ينظر: الأزهية ٢٠٢.

(٢) في الجنى الداني ٣٧٤: » أنها ظرف زمان، وهو مذهب الزجاج و الرياشي، و اختاره ابن طاهر و ابن خروف، وهو ظاهر كلام سيبويه «. وينظر الهمع ٣/١٨٢.

وممن نسبه إلى الزجاج: ابن مالك و الرضي و ابن هشام و الجامي و السيوطي. (شرح التسهيل ٢/٢١٠، وشرح الكافية ١/١٠٣، ومغني اللبيب ١/٨٧، و الفوائد الضيائية ٢/١٣٩).

واختار القول بأنها ظرف زمان الزمخشري. ينظر: (الكشاف ٤/٩٣، والجنى الداني ٣٧٨-٣٧٩، ومغنى اللبيب ٢/٨٧).

وزاد السيوطي على الزمخشري: ابن طاهر و ابن خروف والشلوبين. الهمع ٣/١٨٢.

(٣) نُسب هذا القول إلى الأخفش في (شرح التسهيل ٢/٢١٤ ومغني اللبيب ٢/٨٧).

وفي الجنى الداني ٣٧٥: » أنها حرف .وهو مذهب الكوفيين وحكي عن الأخفش «.

ونسب الرضي هذا القول إلى ابن بري. (شرح الكافية ١/١٠٤).

واختار القول بحرفيتها: الشلوبين في أحد قوليه، وابن مالك، واستدل ابن مالك على صحته بثمانية أوجه. تنظر في: (شرح التسهيل ٢/٢١٤، والجنى الداني ٣٧٥، والهمع ٣/١٨٢).

(٤) مغني اللبيب ٢/٨٧-٩٢.

بعض وجوه الظرفية[1] المتقدم، لكنه لم يستوف الكلام على الوجوه العشرة. فهذا حكمة كتابتنا هذه الرسالة، وعدم إطالة الكلام بما هو مقرر في المغني، أغنانا الله بفضله ولطف بنا في جميع الأحوال، والحمد لله وحده، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. انتهى.

وقال مؤلفها العلامة الشيخ عبد الباقي بن يوسف الزُّرقاني هذا من فوائد شيخنا و أستاذنا العلامة المحقّق المدقّق مولانا الشيخ ياسين، أطال الله في عمره، وبقّاه، وبلّغه في الدارين سؤله ومناه، وحفظه، وحرسه، وتولّاه، وفعل كذلك بأولاده وإخوته ومحبّيه آمين.

تمّت و بالخير عمّت على يد كاتبها ومالكها

علي [أبي][2] الليل بن سليمان بن سعد

غفر الله له ولوالديه ولمن دعا

له بالمغفرة آمين يا رب

---

(١) المصدر السابق ٢/٩٣-١٠٠.

(١) في الأصل المخطوط : أبو. خطأ. صوابه ما أثبت .

فهرس المصادر و المراجع:

١- **ابن هشام الأنصاري آثاره و مذهبه النحوي**، للدكتور: علي فودة نيل، الرياض، طبعة ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.

٢- **إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر**، لأحمد عبدالغني الدمياطي. الشهير بالبناء. تحقيق الدكتور: شعبان محمد إسماعيل. عالم الكتب، بيروت .الطبعة الأولى.١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٣- **الأزهية في علم الحروف**،لعلي بن محمد الهروي، تحقيق: عبد المعين الملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية،دمشق .الطبعة الأولى. ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٤- **إشارة التعيين في تراجم النحاة و اللغويين**، لعبد الباقي بن عبد المجيد دياب، شركة الطباعة السعودية.الرياض. الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٥- **الأضداد**، لأبي علي بن محمد بن المستنير، قطرب، تحقيق الدكتور: حنا حداد، دار العلوم، الرياض.الطبعة الأولى. ١٤٠٥- ١٩٨٤م.

٦- **الأضداد**، لمحمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت. ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٧- **إعراب القرآن**، لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس، تحقيق الدكتور: زهير غازي زاهد،عالم الكتب. الطبعة الثانية. ١٤٠٥-١٩٨٥م.

٨-**الأعلام**، لخير الدين الزركلي،دارالعلم للملايين.بيروت. الطبعة الحادية عشرة. ١٩٩٥م.

٩- **الأمالي الشجرية**، لأبي السعادات هبة الله بن علي العلوي، دار المعرفة . بيروت.

١٠-**الانتصارلسيبويه على المبرد**، لأبي العباس أحمد بن محمد بن ولاّد، تحقيق الدكتور: زهير عبد المحسن سلطان،مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

١١-**الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين و الكوفيين**، لأبي البركات الأنباري، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

١٢-**الإيضاح في شرح المفصل** لأبي عمرو عثمان بن الحاجب، تحقيق الدكتور: موسى بناي العليلي، مطبعة العاني ، بغداد.

١٣- **البحر المحيط**، لأبي حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، دار الفكر .الطبعة الثانية. ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

١٤- **البرهان في علوم القرآن**، لبدرالدين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة،بيروت. الطبعة الثانية، ١٣٩١، ١٩٧٢م.

١٥- **البلغة في تراجم أئمة النحو و اللغة**، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، تحقيق: محمد المصري، مركز مخطوطات التراث.الكويت. الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

١٦- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين و النحاة**، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية. بيروت.

١٧- **تاريخ عجائب الآثار في التراجم و الأخبار**،للشيخ عبدالرحمن الجبرتي، دار الجيل، بيروت.

١٨- **التبيان في إعراب القرآن**، لأبي البقاء عبد الله بن حسين العكبري، تحقيق: علي بن محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي حلبي. مصر.

١٩- **التذييل و التكميل في شرح كتاب التسهيل**، لأبي حيان، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم. دمشق، الطبعة الأولى. ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

٢٠- **التصريح بمضمون التوضيح** ، لخالد بن عبد الله الأزهري، وبهامشه حاشية الشيخ ياسين الحمصي. دار الفكر. بيروت.

٢١- **تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد**، لمحمد بدر الدين الدماميني، تحقيق الدكتور محمد المفدى، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٢٢- **الجنى الداني في حروف المعاني**، تأليف الحسن بن القاسم المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الآفاق الجديدة،بيروت. الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٢٣- **حاشية الخضري**، على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، للشيخ محمد الخضري.مطبعة مصطفى البابي الحلبي .مصر. الطبعة الأخيرة.١٣٥٩هـ-١٩٤٠م.

٢٤- **حاشية محمد الأمير على مغني اللبيب**، المكتبة التجارية بمصر. ١٣٧٢هـ.

٢٥- **الحماسة البصرية**، تأليف: صدر الدين علي ابن الحسن البصري، تحقيق: مختار الدين أحمد، عالم الكتب، بيروت. الطبعة الثالثة. ١٤٠٣هـ١٩٨٣م.

٢٦- **خزانة الأدب و لب لباب لسان العرب**، لعبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر. الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ -١٩٨١م.

٢٧- **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، للمحبي، دار صادر، بيروت.

٢٨- **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، لأحمد بن يوسف السمين الحلبي، تحقيق

الدكتور: أحمد الخراط، دار القلم ،دمشق،الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٢٩- **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي، تعليق و ضبط طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية.

٣٠- **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، لمحمد بن محمد بن مخلوف، دار الكتاب العربي ، بيروت .

٣١- **شرح أبيات سيبويه** لأبي محمد يوسف أبي سعيد السيرافي، تحقيق الدكتور: محمد علي سلطاني، دار المأمون للتراث، دمشق،١٩٧٩م.

٣٢- **شرح أبيات المغني**، لعبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد العزيز رباح و أحمد يوسف دقاق، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٨م.

٣٣- **شرح التسهيل لابن مالك**، تحقيق الدكتور: عبد الرحمن السيد، و الدكتور: محمد بدوي، هجر للطباعة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٠- ١٩٩٠م.

٣٥- **شرح حماسة أبي تمام للأعلم الشنتمري**، تحقيق الدكتور: علي المفضل حمودان،بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

٣٦- **شرح الدماميني "منشور مع حاشية الشمني"** نشر المطبعة البهية بمصر.

٣٧- **شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي**، نشره: أحمد أمين و عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة و النشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م.

٣٨- **شرح ديوان الحماسة** لأبي زكريا يحيي بن علي التبريزي، عالم الكتب ، بيروت.

٣٩- **شرح شواهد المغني**، لجلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد محمود بن التلاميذ، لجنة التراث العربي.

٤٠- **شرح الكافية في النحو**، لرضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الثالثة،١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

٤١- **شرح المفصل**، لموفق الدين يعيش بن علي بن يعيش، عالم الكتب، بيروت.

٤٢-**شعر هدبة بن الخشرم العذري**، للدكتور يحيى الجبوري، دار القلم،الكويت،الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٤٣- **صحيح البخاري**، ضمن الكتب الستة و شروحها، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل

البخاري، دار سحنون، تونس، الطبعة الثانية.

٤٤- **صحيح مسلم** ، ضمن الكتب الستة و شروحها للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، دار سحنون، تونس . الطبعة الثانية.

٤٥- **طبقات النحويين و اللغويين**، لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف،القاهرة. الطبعة الثانية.

٤٦- **الفوائد الضيائية شرح كافية ابن الحاجب**، لنور الدين عبد الرحمن الجامي، تحقيق الدكتور: أسامة الرفاعي، مطبعة وزارة الأوقاف و الشؤون الدينية، العراق ،١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٤٦- **الكامل في اللغة و الأدب**، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى،١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٤٧- **الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل**، لأبي القاسم محمود الزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، و علي محمد عوض، مكتبة العبيكان،الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

٤٨- **كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون**، لحاجي خليفة، عني بتصحيحه وطبعه شرف الدين يالتقايا، الطبعة الثالثة ،١٣٨٧هـ.

٤٩- **لمع الأدلة في أصول النحو** . للأنباري . تحقيق : سعيد الأفغاني . دار الفكر . بيروت، الطبعة الثانية،١٣٩١هـ- ١٩٧١م.

٥٠- **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات و الإيضاح عنها**،لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: علي ناصف، و الدكتور: عبد الحليم نجار، و الدكتور عبد الفتاح شلبي، ، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة،١٣٨٦هـ .

٥١- **مختصر في شواذ القراءات من كتاب البديع**، لابن خالويه، عني بنشره ج.براجشتراس.مكتبة المثنى، القاهرة.

٥٢- **مراتب النحويين**، لأبي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية.

٥٣- **مشكل إعراب القرآن** . لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي . تحقيق الدكتور: حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة ،بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٥٤- **معاني الحروف المنسوب** لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، تحقيق الدكتور: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار الشروق، جدة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

٥٥- **معاني القرآن و إعرابه**، لأبي إسحاق إبراهيم بن السري بن الزجاج، تحقيق الدكتور: عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

٥٦- **معاني القرآن**، لأبي زكريا يحيي بن زياد الفراء، عالم الكتب. بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٥٧- **معجم المؤلفين**، لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥٨- **معجم المطبوعات العربية والمعربة** . جمعه ورتبه يوسف سركيس . مطبعة سركيس. مصر.١٣٤٦هـ-١٩٢٨م.

٥٩- **مغني اللبيب**، لجمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٦٠- **المقتضب**، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق:محمد عبدالخالق عضيمة . عالم الكتب. بيروت.

٦١- **النكت في تفسير كتاب سيبويه**، لأبي الحجاج يوسف بن سليمان الشنتمري، تحقيق: عبدالمحسن سلطان. معهد المخطوطات العربية . الكويت . الطبعة الأولى . ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٦٢- **هدية العارفين أسماء المؤلفين و آثار المصنفين**، تأليف: إسماعيل باشا البغدادي،المكتبة الإسلامية . الطبعة الثالثة.١٣٨٧هـ .

٦٣- **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، للإمام جلال الدين السيوطي، شرح و تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون، و الأستاذ الدكتور عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب. القاهرة. ١٤٢١هـ-٢٠٠١ م.

* * *

أقوال الرواة والعلماء في معجم العين وإشكالية النسبة

د. سعود بن عبدالله آل حسين
قسم النحو والصرف وفقه اللغة - كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

أقوال الرواة والعلماء في معجم العين وإشكالية النسبة

د. سعود بن عبدالله آل حسين
قسم النحو والصرف وفقه اللغة
كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

لا يزال في تاريخ علم اللغة عند العرب كثير من القضايا التي تتطلب إعادة النظر فيها وإن أضحت في ذهن الكثير من المسلمات التي لا تسترعي الانتباه، ومنها قضية التشكيك في نسبة معجم العين للخليل لوجود أقوال وروايات لبعض المتأخرين، وقد ظلت تلك الأقوال محل تزيد وتنازع ومدار نقاش بين الباحثين منطلقة من تصور إمكانية الوقوع واستحالته، ولم تتجاوز ذلك إلى دراسة طبيعة تلك الروايات والأقوال، ومدى صلتها بمادة الكتاب، كما أنها لم تعرض على المعجمات اللغوية ولم يستأنس فيها بما كتب في تاريخ علم اللغة، فظلت في إطار الكلام المتداول الذي يردد، وهو أحوج ما يكون إلى تمحيص وإعادة نظر، من أجل هذا وغيره جاءت هذه الدراسة محاولة وضع تلك الروايات والأقوال في موضعها من حيث العدد والطبيعة، ومن حيث الصلة بمادة الكتاب الأصيلة، ومن حيث الدلالة على صحة النسبة وعدمها، على أن هذه الدراسة توقفت عند حدود ما يمكن أن يستشف من تلك الأقوال والنقول، من حيث موقعها في تأسيس مادة الكتاب أو الاستدراك عليه، وعند حدود موقعها في الكتاب، ومن أصحابها، ومن أي طبقات اللغويين هم، ولم تعن الدراسة بموقع تلك الأقوال من حيث الصحة والخطأ، ولا من حيث التصريف والدلالة .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، أما بعد فإنه إذا كان نعت كثير من العلوم الإسلامية بالنضوج والاكتمال أمراً لا تنازع في تقريره، ولا تجاذب لأطرافه، فإن تواريخ العلوم ولاسيما علم اللغة لا يزال فيه مضطرب عريض، وميدان واسع، وفسحة للقول لا تأتي عليها الريح العصوف، ولا محاولات بعض الباحثين الفردية، مهما كان جدهم وتشميرهم؛ لأن ميداناً استمر ركض العلماء فيه طيلة خمسة عشر قرناً منذ أيام ابن عباس رضي الله عنهما إلى يومنا هذا، حريٌّ أن لا تدرك العين أطرافه، وحريٌّ أن يوجد فيه من المسارات والمجاهل ما هو بحاجة إلى منارات وصُوى، وهو مَظِنَّة لأن يكون فيه من المسلَّمات ماهو جدير بإعادة النظر وإثارة التساؤلات؛ لأن مابذل في ميدان تاريخ علم اللغة لا يزال قليلاً، وما شُيِّد من مبانيه لا يزال في تصوري قصيراً، والكلام فيه متشعب، بل متعارض متناقض.

فهذا فرد الدنيا وأهل الفضل والتقدم، والمسَلَّم له با لتبريز، والمجمع على فضله، ومن دعم علم اللغة بدعامة لا يزعزعها الزمان، الخليل بن أحمد الفراهيدي، لما ألف العين وتناوله الناس بالاستفادة منه، والنقل عنه، ثارت عجاجة التشكيك فيه، والتنازع حوله، فمتحمسٌ له ومشَمِّرٌ عليه، ومصوِّبٌ ومخطئٌ مُهَجِّن، يدعو إلى الإعراض عنه، ويظهر التحامل عليه، ويسرُّ الارتضاع منه، والاستفادة من مادته، ولا تزال رحى النزاع حوله راكدة، والاختلاف في شأنه قائماً إلى يومنا هذا، وما أصدق قول الدكتور صلاح الدين الفرطوسي:"والدراسات التي اهتمت بكتاب العين كثيرة، وأغلبها يدور حول أمر نسبته للخليل أو لغيره، ومن النادر أن يعثر الباحث على دراسة جادة تهتم بمادة الكتاب اهتماماً خاصاً"[1].

وفي أثناء قراءتي لكتاب العين، واطلاعي على ما كتب عنه، استرعت انتباهي واستوقفتني أشياء كثيرة منها:

١- أن انقسام العلماء والباحثين إلى يومنا هذا في شأن هذا الكتاب العظيم مُغرٍ بالبحث؛ لأن الانقسام لا يزال مستمراً، والتجاذب لا يزال على أشدِّه، مُغرٍ بالبحث وإعادة النظر؛ لأن الأوهام والأقوال وسوء القراءة والتعجل لا تزال تَعْمل عملها في

---

(١)المعجمية العربية، ص ٢٠٥.

تشكيل صورة ذلك الكتاب في الثقافة العربية.

٢- يلفت النظر ويسترعي الانتباه أن كثيرا من الباحثين لا يزالون يناقشون ما ورد في العين من أقوال ونصوص مأثورة من باب تصوُّر الوقوع، أو استحالته، لا من منطلق مادة الكتاب ومنهجه، وما نُقل عنه .

٣- أن كثيرا ممن كتبوا عن الخليل وتعرضوا لكتابه كلما اعترض طريقهم أو خطر ببالهم ما يتصورون استحالة صدوره عن الخليل، فإنهم يسارعون بالتخلُّص من تلك الاستحالة بنسبة الكتاب إلى الليث، مع أن نسبة ما يريدونه إلى الليث لا يمكن أن تحظى بالقبول، وذلك مثل قضية النقل عن المتأخرين، لأن الليث من حيث الزمن قريب من طبقة الخليل رحمهما الله.

٤- أن مواصلة الحديث بعيدا عن كتاب العين ومن غير استئناس بما تقدمه برامج الحاسوب من إحصاءات جعلت التزيُّد أمراً وارداً في التقوُّل على الكتاب، وكأننا نتكلم عن كتاب متصوَّر لا عن كتاب مقروء، فقد قرر الكثيرون أن في الكتاب نقولاً وآراء لعدد من العلماء، بدأت أعدادهم وأعداد آرائهم تزيد كلما ازداد تعاور الباحثين الحديث عن المرويّ عنهم من اللغويين في العين.

٥- أن قضية الرواية عن معاصري الخليل من طلابه، وعمن تأخر ربطت عند بعض الباحثين بآخر الكتاب لا بأوله، مما جعلهم يقررون أن أوله للخليل، وأن آخره من عمل الليث، مما يوجب البحث والدراسة والنظر في موضع هذه النقول، وفي طبيعتها ومدى صلتها بمادة الكتاب.

٦- أن دراسة تلك الآراء والنقول ستكشف وتجيب عن أسئلة جد مهمة وستحدد عدد تلك النقول، وطبيعتها وستفصح عن المنقول عنهم، وتحاول تحديد زمنهم ومدى قربهم وبعدهم عن الخليل، وستكشف مدى ترابط المادة المنقولة بمادة المعجم الأصيلة، وسترسم صورة لمدى دقة من تحدثوا عن المعجم العربي وأرخوا له .

لقد استوقفتني هذه الأمور وغيرها واسترعت انتباهي فأحببت أن أقف على أمر من أهم الأمور التي جعلت الكثيرين يشككون في نسبة الكتاب للخليل، ذلك الأمر هو قضية وجود آراء للغويين من طلاب الخليل وممن ليسوا في طبقته، مما يجعل نسبة

الكتاب للخليل أمرا مستحيلا وغير مقبول في نظر كثيرين ممن أرخوا للمعجم العربي فكانت هذه الدراسة رغبة في الإجابة عن تلك التساؤلات. على أن هذه الدراسة توقفت عند حدود ما يمكن أن يستشف من تلك الأقوال والنقول من حيث موقعها في تأسيس مادة الكتاب أو الاستدراك عليه، وعند حدود موقعها في الكتاب. ومن أصحابها، ومن أي طبقات اللغويين هم، ولم تعن الدراسة بموقع تلك الأقوال من حيث الصحة والخطأ ولا من حيث التصريف والدلالة.

والله أسأل أن يوفقنا للصواب ويعصمنا من خطل القول ومينه والحمد لله رب العالمين...

* * *

موقف العلماء من نسبة العين:

انشغل العلماء عبر العصور بنسبة كتاب العين، وانقسموا في هذا الشأن أقساما، فتحدث كثير من العلماء والباحثين[1] عنها باختلاف في التقسيم، وتباين في النظر إلى الأسباب الموجبة لذلك الاختلاف، والبواعث الداعية إليه، كما أن ما أوردوه ظلّ في دائرة تتسم بالاقتصار وتحتاج إلى شيء من محاولة الاستقصاء .

ومن تحدثوا عن نسبة العين يمكن في نظري أن يصنفوا إلى الآتي:

١- فئة نسبته إجمالا إلى الخليل، ومن هؤلاء محمد بن يزيد المبرد[2] وأبو إسحق الزجاجي، وله نسخة من العين اعتمدها ونقل عنها كثير من العلماء[3] وابن دريد[4] وابن الأنباري[5] وابن درستويه[6] فقد روى العين بسند متصل إلى الخليل، وردَّ على المفضل ابن سلمة ت ٣٠٠هـ ما نسبه إلى العين من الخلل، وممن أعده في نظري من القائلين بنسبة الكتاب إلى الخليل المفضل بن سلمة فقد ألف كتابين في نقد العين، ولكنه نسب أقوالا في الفاخر إلى الخليل فقال: وقال الخليل بن أحمد: إنما سميت بيضة الديك بيضة العقر لأنه تمتحن بها الجارية فيعلم حالها من العُقْر، وهذا لا يعقل ولا أعلم أحداً قاله غيره[7]" والقول بنصه في العين[8]. ويقول: قال

---

(١) من هؤلاء: الأزهري في تهذيب اللغة ٢٨/١، وأبو بكر الزُّبيدي في" استدراك الغلط ١٩٦". والسيوطي في "المزهر ٨٩/١". و د. حسين نصار في "المعجم العربي ٢٧٩/١". و د. عبدالله درويش في" المعاجم العربية ٤٩". و د. يوسف العش في" أولية تدوين المعاجم ٤٢٢". و د. صلاح الدين الفرطوسي في محاولة جديدة في دراسة كتاب العين، و هادي حسن حمودي في" الخليل ودراسة كتاب العين" ٥٦، و د. نعيم سليمان البدري في كتاب "العين في ضوء النقد العربي". و د. إبراهيم نجا في" المعاجم العربية". و د. أمين فاخر في المعاجم العربية، و د. عبد العزيز الحميد في مختصر العين ٧/١ .

(٢) المزهر ٨٩/١، المعجم العربي ٢٧٩/١ .

(٣) المزهر ٥٣/١ .

(٤) نص على رأيه صراحة في مقدمة كتابة الجمهرة ٤٠/١، وقد توقف عند بعض الكلمات فشكك في صحة رواية الليث لها عن الخليل، مثل حديثه عن إهمال زحك ٢٦٩/١، فنسب الغلط إلى الليث وكذا في ١٠٣/١ و ٢٦٩ و ٣٤٦، وتوقفه في مثل هذه الكلمات إنما هو توقف في صحة الرواية لا في صحة نسبة الكتاب، وقد اضطرب د. حسين نصار في تحديد موقفه فجعله في المعجم العربي ٢٧٩/١، من المؤيدين وفيه في ٢٨٠/١، جعله من المنكرين.

(٥) نزهة الألباء ٤٦.

(٦) المزهر ٨٩/١، المعجم العربي ٢٧٩/١.

(٧) الفاخر ١٨٨.

(٨) مادة عقر ١٥٠/١، وبيض ٦٩/٧.

الخليل: "عقّ الولد والده، يعُقُّه عقاً وعقوقاً، فهو عاق، أي قاطع رحمه. وأصل العق: الشق. وإليه يرجع عقوق الوالدين [1]" والقول بنصه في العين[2] وقد عده الدكتور سليمان نعيم البدري[3] من المتحاملين على العين، ونَقْدُه للعين في نظري لايمثل رأيا في مسألة نسبة الكتاب، وإنما هو متعلق بموقفه العلمي من بعض القضايا العلميه، ومخالفته للخليل في المسائل التفصيلية لا علاقة لها بمسألة نفي النسبة.لأن كل من نقد كتاباً ليس بالضرورة أن يكون نافيا لنسبته إلى مؤلفه، وأحمد بن محمد الخارَزَنْجي البُشتي الذي ألف التكملة[4] على العين، ونقل ابن عباد عنه في المحيط[5] مرارا كثيرةً قوله "أهمله الخليل" عند الاستدراك على ما حكم الخليل عليه بأنه مهمل، وعبدالله بن المعتز ت ٢٩٦هـ وهو من القائلين بنسبة الكتاب إلى الخليل، يظهر هذا من قوله: إن الخليل ألف كتاب العين وخص به الليث، فأقبل على حفظه حتى حفظ نصفه[6]" ويدل عليه أيضا نقله نصين من العين في كتاب البديع ونسبتهما إلى الخليل، فقد قال: "وقال الخليل: الجِنْس: لكلِّ ضَرْبٍ من الناس والطير والعروض والنحو"[7]، والقول نفسه باختلاف يسير في العين[8]، ويقول: "قال الخليل –رحمه الله–: يقال: طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حَذْو واحد[9]"، والقول بنصه في العين[10].

وتطابق النصين ونسبتهما للخليل دليل على تصحيح النسبة، وليس ابن المعتز في نظري ممن يشكك في نسبة كتاب العين للخليل، وتتمة الحكاية المروية عنه وكلامه فيها، إنما هو تفسير للخلل الواقع في العين، وثابت بن عبدالعزيز السرقسطي، وابنه

---

(١) الفاخر ٢٧٨.

(٢) عقق ١/٦٣.

(٣) في كتاب العين في ضوء النقد اللغوي ٢٢.

(٤) التهذيب ١/٣٢، معجم الأدباء ٤/٢٠٧، الوافي بالوفيات ٨/٧، بغية الوعاة ١/٣٨٨.

(٥) انظر: المحيط مثلا ١/٦٥، ٦٦، ٦٧ .

(٦) طبقات الشعراء

(٧) البديع ٢٥ .

(٨) العين جنس ٦/٥٥.

(٩) البديع ٣٦.

(١٠) طبق ٥/١٠٩

القاسم بن ثابت في كتاب الدلائل، فقد نقلا عن العين بعض النصوص التي هي بفصها في العين مثل: حديثهما عن وطِئ يَطَأُ[1]، وعن الرَّجَز المشطور[2]، والصاحب بن عباد ممن لايشك في نسبة العين للخليل، فقد جعل العين للخليل ونقل عنه نصوصا كثيرة، ولم ينسب من تلك المادة إلى الليث إلا ما تعلق برواية عن أعرابي حول كلمة "العُهْعُخ" وتعليقا على كلمة الدُّعْشُوقة بأنها ليست عربية،[3] وأبو الأزهر البخاري فقد ألف كتاب الحصائل تكميلا للعين،[4] وأبو معاذ معروف بن حسّان السَّمرقندي، فقد روى كتاب العين عن الخليل،[5] ومُنذِر بن سعيد البَلُّوطي، فقد روى العين عن ابن ولاد، وعن أبي جعفر النحاس،[6] وعلي بن مهدي الكسروي الشاعر فقد ذكر أنه كان عارفا بكتاب العين للخليل خاصة،[7] والإمام الحافظ أبوبكر البيهقي رحمه الله ت٤٥٨هـ فقد أورد نصوصا في كتابه الرد على الانتقاد على الشافعي في اللغة يظهر منها بوضوح أنه هو ومن كان يروي عنهم مثل محمد بن عبد الله بن حِمْشاد من القائلين بنسبة العين للخليل، يقول البيهقي عند حديثه عن الوَقْس والوَقْش في الوَقْص: قال أبو منصور الحِمْشادي: والصاد والسين مما يتعاقبان في كثير من المواضع، فإن قيل: ليس في كتاب العين بالسين ولا بالشين، بل بالصاد، والوقس بالسين: الفاحشة... قيل لهم: لايُنْكَر أن تكون هذه لغةً سمعها الشافعي - رحمه الله - من العرب، ولم يعرفها الخليل بن أحمد، وقد وجدنا في كتب الشافعي ألفاظاً لم نجدها في كتاب العين"[8] وقد ذكر البيهقي نصوصاً أخرى جعل العين فيها للخليل[9] وممن رأيته يتحمس لنسبة الكتاب إلى الخليل ابن هشام اللخمي، فقد قال راداً على من لحن صيغة ((الكلّاب)) قال الراد: قد قال الخليل في

(1) في الدلائل ٤١٧/١، وهو في العين - وطأ - ٧/ ٤٦٧.

(2) في الدلائل ٣/ ١١٢٢، وهو في العين رجز ٦٤.

(3) انظر: المحيط ١٩١/١، ٢٠١.

(4) التهذيب ٣٢/١، ٤٠.

(5) لسان الميزان ٦ /٦١.

(6) تاريخ قضاة الأندلس ٤٣/١.

(7) ذيل تاريخ بغداد ٤ /١٤٥، وقد رجح د. صلاح الفرطوسي أنه كان ناسخاً للعين لا راوياً له. انظر: كتاب العين في ضوء النقد اللغوي ٢٥.

(8) الرد على الانقاد ٦١ .

(9) السابق، ٦٥، ٨٣، ١١١، ١١٧ .

كتاب العين وهو المرجوع إليه والمعول عليه: إن الكُلاَّب والكَلُّوب لغتان.....)) فإذا حكاها الخليل في كتابه عن العرب فكيف تكون غير معروفة؟ وكيف تُلَحِّن بها العامَّة"[١] وكذلك القرطبي[٢] وياقوت الحموي[٣] والحُمَيدي[٤] وأحمد بن محمد المِقَّري التِلْمِساني[٥] والذهبي[٦] وابن آيبك الصفدي[٧] وابن خَلْدون[٨] وقد ذكر بعض العلماء أن كتاب العين للخليل في موضع الافتخار عند أهل البصرة عامة. فقد ورد "ولأهل البصرة أربعة كتب يفتخرون بها على أهل الأرض: كتاب العين للخليل، وكتاب أبي حاتم في القراءات"[٩] وقد أشار السيوطي –رحمه الله– إلى قبول كثير من العلماء له، يقول: أما كتاب العين المنسوب إلى الخليل فهو أصل في معناه، وهو الذي نهج طريقة تأليف اللغة على الحروف. وقديماً قد اعتنى به العلماء وقبله الجهابذة"[١٠] وقد أقرّ بهذا من هم في أشد مستويات الإنكار فهذا الأزهري يقول: فلا تشكنَّ فيه من أجل أنه زلَّ في حروف معدودة ،هي قليلة في جنب الكثير الذي جاء به صحيحاً"[١١] وفي العصر الحديث مال إلى هذا الرأي كثيرون فسلموا بنسبة الكتاب إلى الخليل منهم محمد صديق خان[١٢]، وجرجي زيدان[١٣]، ود. عبدالله درويش[١٤]، ود. إبراهيم نجا[١٥]، ود. أمين فاخر[١٦]، ود. إميل

---

(١) تقويم اللسان ٧٤.

(٢) تفسير القرطبي ٧٥، ١٢٩، ١٥، ٥٢ .

(٣) معجم الأدباء ٢٧/١ .

(٤) جذوة المقتبس، ١٨/١، ١١١، ١١٧ .

(٥) في أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ٢٠٥/١ .

(٦) تاريخ الإسلام ٢٥٩٣/١ .

(٧) الوافي بالوفيات ١٥٤/١، ٢٣٧/٢ .

(٨) المقدمة ٤٥٥ .

(٩) البلغة ١١٠، نور القبس، ٨٣/١ .

(١٠)المزهر ٨٩/١ .

(١١)التهذيب ٢٩/١ .

(١٢) في دائرة المعارف الإسلامية – خليل .

(١٣) تاريخ آداب العربية ١٢٢/٢.

(١٤) المعاجم العربية ٢٠ .

(١٥) المعاجم اللغوية ٢٨ .

(١٦) دراسات في المعاجم العربية ١٠.

يعقوب[١]، ود. هادي حسين حمودي[٢]، ود. صلاح الفرطوسي[٣]، ود نعيم سلمان البدري[٤]، ود. مهدي المخزومي الذي حقق كتاب العين وخلص قائلاً: إن كتاب العين بتأسيسه وبحشوه وبيانه وتفسيره واستشهاده إنما هو كتاب الخليل[٥]".

الفئة الثانية:

لما كثر الخوض في مسألة نسبة العين بين العلماء واتسع ميدان التجاذب ظهر من العلماء من رام التوقف في المسألة فاستخدم عبارة "صاحب العين" عند نقله لنصوص من الكتاب، ومن هؤلاء النووي رحمه الله فقد رأيته يفزع إلى تلك العبارة عند نقله من العين، وذلك في كتاب تهذيب الأسماء واللغات[٦]، وشرح صحيح مسلم[٧]، والمفهم لماأشكل من صحيح مسلم[٨]، وكذلك القاضي عياض في مشارق الأنوار[٩]، وابن حجر العسقلاني في فتح الباري[١٠] و بدر الدين العيني في عمدة القارئ[١١] و في شرح صحيح البخاري لابن بطال[١٢]، وكذلك ابن سعد الخير في القرط[١٣] على الكامل، وممن رأيته يفزع إلى هذه العبارة كثيرا ابن عبد البر، فقد نقل عن العين كثيرا، مسنداً مانقله من أقوال إلى (صاحب العين)[١٤] دون تحديد، وقد عده د. حسين نصار ممن يثبت العين للخليل[١٥]، ولا أدري علام اعتمد، ولعله صدر عما روي من أن ابن عبد البر رواه عن

---

(١) المعاجم العربية ٢٧.

(٢)الخليل وكتاب العين ٢٩-٦٧ .

(٣)محاولة جديدة في دراسة كتاب العين ٢٥ .

(٤) كتاب العين في ضوء النقد اللغوي ٣١.

(٥) العين ٢٧/١. والكتاب خرج بتحقيق د- مهدي المخزومي ود- إبراهيم السامرائي إلا أن ابراهيم السامرائي نقض ما قرره في مقدمة العين بما قاله في مجلة الحكمة وسيأتي الكلام عليه.

(٦)٢٩٨/٣، ١٢/٤، ٢٠ و ٥٩ و ٢٧٥.

(٧)٧٦/١، ١٣/٣، ٨٢، ١٤٠.

(٨)٢٨٨/١ و ٣٦٤، ٣٣٥/٥، ٣٥١/٧.

(٩)٤٣/١، ٦٢، ٩٧، ١٤٧، ٢٠٢.

(١٠)انظر فتح الباري ٢٠٣/١، ٣١٢، ٤١٤، ٤٤١/٢.

(١١)عمدة القاري ٣٢٢/١ و٣٣٦ و٣٤١ و ٤١٢، ١٨/٢-٣٩٠.

(١٢)٢٧/١، ٢٨، ٤٩، ٥٤، ١٤٥، ١٦٠.

(١٣)٨٦/١، ١٠٨، ١٣٢، ١٦٣، ١٩٧.

(١٤)انظر: الاستذكار ٧٤/١، ٩٧، ١٣٤- ٣٠٣/٢، ٤٣٣.

(١٥) المعجم العربي ٢٧٩/١.

عبدالوارث بن سليمان، وأن أبا علي الغساني رواه عن ابن عبد البر[1].

الفئة الثالثة:

أنكر صلة الخليل بن أحمد بالكتاب بعض العلماء. ورفضوا أن يكون هو مَنْ ألفه، ونسبوه إلى الليث بن المظفر، ومن هؤلاء أبوحاتم السجستاني الذي روى إنكاره فقال: حدثنا إسماعيل بن القاسم البغدادي قال: لما ورد كتاب العين من بلد خراسان في زمن أبي حاتم، أنكره أبو حاتم وأصحابه أشدَّ الإنكار ودفعه بأبلغ الدفع وكيف لا ينكره أبو حاتم على أن يكون بريئاً من الخلل سليماً من الزلل[2]. ونُسب الإنكار إلى أبي علي القالي بسبب روايته ما قاله أبو حاتم أيضا، والحق أنه ليس مع المنكرين، كما يرى د. إبراهيم نجا[3] ود. عبد العزيز الحميد[4]، لأنه جعل أقوال الخليل في العين أساسا لمعجمه البارع ومضى فيه ينسب النصوص المنقوله إلى الخليل، ثم إن عبارة " وكيف لا ينكره أبو حاتم على أن يكون بريئا من الخلل سليما من الزلل " هي من قول الزُّبيدي ، وليست من قول أبي علي، ونُسب الإنكار للنضر بن شميل ت ٢٠٤هـ فقد سئل عن الكتاب فأنكره فقيل له: لعله ألفه بعدك ؟فقال: أوَ خرجت من البصرة حتى دفنت الخليل بن أحمد " على أن هذه الرواية يعارضها قول أبي أحمد العسكري: إن النضر اشتغل بتكميل كتاب العين وأتمه[5]، ويذكر آخرون أن النضر ألف المدخل إلى كتاب العين[6]، وهذا ما جعل كثيرا من الباحثين[7] يحاولون تخريج ما نسب للنضر على غير نفي نسبة الكتاب، وليس في أصحاب المعجمات – حسب اطلاعي – من تحمس لنفي نسبة الكتاب إلى الليث، سوى الأزهري وأبي بكر الزُّبيدي ، وهما من أشاعا التشكيك فيه وتهجينه، وأشهرا القول

---

(١) المزهر ٩١/١.

(٢) المزهر ٨٤/١، استدراك الغلط ١٤٣.

(٣) المعاجم اللغوية ٢٦.

(٤) مختصر العين ٩/١.

(٥) انظر شرح ما يقع فيه التصحيف ٥٧. ووفيات الأعيان ٢٥٣/١، وقد ناقش هذه الرواية د. رشيد العبيدي في مشكلات في التأليف اللغوي ١٨٤.

(٦) تاريخ التراث العربي ٩٤/١/٨.

(٧) مثل د.حسين نصار في المعجم العربي ٢٨١/١. ود. رشيد العبيدي في مشكلات في التأليف اللغوي ١٨٤.ود. نعيم سليمان البدري في كتاب العين في ضوء النقد اللغوي ١٥.

بنسبته لليث، فالأزهري يقول: "الليث بن المظفر الذي نحل الخليل بن أحمد تأليف كتاب العين لينفّقه باسمه ويرغب فيه من حوله"[1] وكلام الأزهري رحمه الله في الكتاب وفي الليث مضطرب أشدّ الاضطراب، فهو في النص السابق يرى أن الليث نحل الخليل الكتاب جملة، ولذلك صار اسم الليث في التهذيب هو الأكثر ترددا وحضورا من بين أسماء العلماء، ويقول: ولم أر خلافا بين اللغويين أن التأسيس المجمل في أول كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل، وأن ابن المظفر أكمل الكتاب عليه بعد تلقفه إياه عن فيه[2]" ويقول مدللاً على شدة عنايته بالعين: وقد قرأت كتاب العين غير مرة، وتصفحته تارة بعد تارة، وعُنيت بتتبع ماصُحّف وغُيّر منه، وأما ماوجدته فيه صحيحاً .... فإني أعزيه إلى الليث..... فلا تشكنّ فيه من أجل أنه زلّ في حروف معدودة، هي قليلة في جنب الكثير الذي جاء به صحيحاً[3]" والأكثر اضطرابا هو موقفه من الليث نفسه، فهو "ممن اتسموا بسمة المعرفة وعلم اللغة، وألفوا كتباً أودعوها الصحيح والسقيم، وحشوها بالمزال المفْسَد، والمصَحَّف المغير[4]"، ويقول عنه: وهذا صحيح من قول الخليل، وهو كما حكاه الليث، وكلما قال: قلت للخليل فقال، أو قال: سمعت الخليل فهو الخليل بن أحمد لا تدليس فيه، وإذا قال: قال الخليل،ففيه نظر[5]" فالليث ينتحل العربية ويكذب، وإن قال: قال الخليل فهو مدلس وفي قوله نظر، وإن قال: قلت للخليل، أو سمعت الخليل، فسماعه حق وحكايته صحيحة،ووثاقة الليث عنده موضع نظر ولكن من أخذوا عن الليث كشمر بن حمدويه من الثقات إن قراءة مثل هذا الكلام أدنى قراءة، ومسّه بأدنى فحص، ليوحي بالاضطراب، بل وبخطل القول ومَيْنه، ولقد ظهر لي من خلال النظر في التهذيب، والمقابلة بما في العين، ما يكفي لإدراك أبعاد منطلقات الأزهري وأسباب دعواه، فقد رأيته يقسم مادة كتاب العين قسمين: مادة مهملة، ومادة مستعمله، وكل مافي العين مما هو مستعمل مذكور عند العرب، فالليث هو من أورده، وكل ما في العين

---

(١) التهذيب١/٢٨.
(٢) السابق١/٤١.
(٣) السابق١/٢٩.
(٤) السابق١/٢٨.
(٥) التهذيب ٣/٤٣٦.

من نص على مواد أهملها العرب وهي غير مستعملة عندهم، فهو من صنع الخليل ومن عمله، إن المطلع على التهذيب ليجد نفسه بين عبارتين "قال الليث"[1] و"قال الخليل"[2] وهذا أقوى دليل على تناقض رأي الأزهري وعدم تماسك دعواه وثبات حجته، فالكتاب مقسوم بينهما، وإن هذا الاضطراب في الرأي واجتماع المتناقضات فيه، هو الذي جعل أحد الشعراء يصوغ أبياتاً على نحو ماقال نفطويه في ابن دريد فيقول في الأزهري:

الأزهـــــريُّ وَزَغَـــــهْ وحُمقُـــه حمــقُ دُغَـــهْ
ويَــــدَّعي مــــن جهلـــه كتــابَ تهــذيب اللّغــهْ
وهــــو كتــــابُ العــــينِ إلا أنـــه قـــد صَـــبَغهْ[3]

وأما أبو بكر الزبيدي فقد تلقف الكتاب بالأندلس، وهو يرى أن الخليل يجب أن ينزّه عن نسبة الكتاب إليه يقول: ونحن نربأ بالخليل رحمه الله عن نسبة هذا الخلل إليه أو التعرض للمقاومة له، والرد عليه بأن نقول: إن الكتاب لا يصح له ولا يثبت عنه، فقد كان جِلَّة البصريين الذين أخذوا عن أصحابه، وحملوا علمه عن رواته ينكرون هذا الكتاب ويدفعونه[4]" على أن الشخص الذي نقل الكتاب إلى الأندلس، وهو ثابت بن عبد العزيز السرقسطي، وهو أول من أدخل كتاب العين إلى الأندلس، يقرُّ بنسبة الكتاب إلى الخليل، وما نقل عنه مرة إلا قال: قال الخليل كما مر، ويبدو لي أن شدة نكير الأندلسيين على الزُّبيدي هو الذي حمله على الاجتهاد في حشد الأدلة وتنميقها، فجاءت أدلته في مظهر أقوى مماهي عليه عند الأزهري، فهي أقل اضطرابا وأكثر تماسكا، مع أنه قال عند حديثه عن إبراهيم بن الوزان النحوي: يحفظ كتاب الخليل بن أحمد في العين " مع أنه هو من يدعو إلى تنزيه الخليل عن نسبة العين إليه، وستأتي مناقشة حججه وأدلته لاحقا لأنها أضحت منطلق الباحثين المنكرين لنسبة العين للخليل .

الفئة الرابعة:

رأى كثير من العلماء أن كتاب الخليل لا يمكن أن ينسب بمجمله إلى الخليل ولا

---

(١) هذه العبارة مستفيضة في الكتاب .

(٢) هذه العبارة كثر وردها في التهذيب أيضاً، وخاصة عند الحكم بغرابة لفظ أو عند قضية نحويه أو صرفيه أو صوتية أو عند سماع عن العرب.

(٣) في ثمار القلوب ٤٧٨/١، معجم الأدباء ٤٧/٩.

(٤) مختصر العين- تحقيق د. الشاذلي ٤٢/١.

يمكن أن ينفى عنه، كما لا يمكن أن ينسب إلى الليث جملة ولا يمكن أن ينفى عنه، فنسبوا إلى الخليل بعضه، ونسبوا إلى الليث بعضه، وقد اختلفوا في الجزء الذي يمكن أن ينسب إلى الخليل ومقداره، وكذلك ما يمكن أن ينسب إلى الليث، على أن الكثيرين منهم كانوا يميلون إلى أن أول الكتاب وخطته ومنهجه من وضع الخليل رحمه الله، فالإمام ثعلب يقول: إنما وقع الغلط في كتاب العين لأن الخليل رسمه ولم يحشه، ولو كان هو حشاه ما بقّى فيه شيئا، لأن الخليل رجل لم يُرَ مثله، وقد حشا الكتاب أيضا قوم علماء، إلا أنهم لم يؤخذ منهم رواية، وإنما وجد بنقل الوراقين فاختلّ الكتاب لهذه الجهة"[1] وأبو سعيد السيرافي يقول: "وعمل أول كتاب العين المعروف المشهور الذي به يتهيأ ضبط اللغة"[2] وممن يرى هذا الرأي أبو الطيب اللغوي يقول: "أبدع الخليل بدائع لم يسبق إليها فمن ذلك تأليفه كلام العرب على الحروف في الكتاب المسمى بكتاب العين، فإنه هو الذي رتب أبوابه وتوفي من قبل أن يحشوه"[3] وابن جني –رحمه الله– يرى أن ليس للخليل إلا الخطة يقول: وأما كتاب العين ففيه من التخليط والخلل والفساد، ما لا يجوز أن يحمل على أصغر أتباع الخليل... وإن كان للخليل فيه عمل فإنما هو أنه أوما إلى عمل هذا الكتاب إيماء ولم يله بنفسه، ولا قرَّره ولا حرَّره"[4] وقد مال إلى هذا الرأي في العصر الحديث كثيرون منهم د حسين نصار رحمه الله، يقول: والحق أن رأي ثعلب هذا أقرب الآراء إلى الصحة، ونحن نطمئن إليه وإلى المفهوم العام من أقوال هذه الطائفة"[5] ود. طنطاوي محمد دراز[6] ود.يوسف العش[7] ود. عبد العزيز الحميد[8].

بواعث الجدل حول نسبة العين

لا يمكن لباحث أن يغفل أثر مسألة التعصب والهوى وتَلَهُّب الغَيْرة في هذا الجدل

---

(1) مراتب النحويين ٣١، المزهر ٨٢/١ .
(2) أخبار النحويين ٣٨ .
(3) مراتب النحويين .
(4) الخصائص ٢٨٨/٣ ، المزهر ٢٥/١ .
(5) المعجم العربي ٢٩٠/١ .
(6) في أصول اللغة ٣٠٨ .
(7) أولية تدوين المعاجم ٥٢٧ .
(8) مختصر العين ٣٠/١ .

الدائر حول كتاب العين فاضطراب حجج الأزهري كما مر سابقا يدل عليه، و قول أبي علي الفارسي لا يمكن أن يفسر إلا به، يقول ابن جني: وذاكرت به يوماً أبا علي رحمه الله فرأيته منكرا له، فقلت له: إن تصنيفه منساق متوجه، وليس فيه التعسف الذي في كتاب الجمهرة، فقال: الآن إذا صنف إنسان لغة بالتركية تصنيفاً جيداً أيؤخذ به في العربية"[1]؟ لكن ذلك الجدل لا يمكن أن يُقْصر على هذه الأسباب، بل قد تضافرت بواعث وأسباب حملت العلماء ودعت الباحثين على مرّ العصور إلى ذلك الجدل في نسبة الكتاب، وقد بقي ذلك الجدل حاضراً غير غائب، وحياً غير ميت، لا لأن أسبابه ودواعيه حقائق ومسلمات غير مطعون فيها ولا مشكوك، بل لأنه:

١- مما يتصل بتواريخ العلوم وتواريخ العلوم العربية لا يزال ميدانا فسيحا يُغري بالبحث والنقاش.

٢- أن ذلك الجدل يتصل برواية أقوال لعلماء سابقين ترددت كثيراً في كتب الطبقات والتراجم، ومثّلت تراكماً نظريا يبقى له صدى وطنين وإن لم يدعم بدعامة، ولم يتكئ على سند.

٣- أن طبيعة أغلب كتب الطبقات والرجال مولع بإثبات ماقد قاله العلماء وتناقلوه، وإن كان متناقضا، ولذا ترى في الكتاب الواحد نقولا لنصوص متناقضة حول العين يصعب أن تخلص لصاحبه إلى موقف أوتتبين له تصوراً[2].

نبت ذلك الجدل لأسباب وبقي حياً لأسباب هي في الغالب:

١- اختلاف نسخه واضطراب رواياته وإن كان لهذين أثر بلا شك في مادة الكتاب، إلا أن ذلك الاختلاف والاضطراب من آثار من تلقّفه، لا من أثر من ابتدعه، وقد استدل بهذين أبو بكر الزُّبيدي ، وأماغيره من القدماء فلم يجعلوه دليلا للشك في نسبة الكتاب[3].

---

(١) الخصائص ٣/٢٨٨، وللدكتور شلاش حديث جيد عن أثر العصبية في هذا الجدل .

(٢) فالزُّبيدي رحمه الله هو ممن تحمس لتنزيه الخليل عن العين، وهو في الطبقات ٢٤٦ ينسبه له.

(٣) انظر: استدراك الغلط ١٣٩، وقد أشار القدماء إلى تعدد نسخ العين ولكنهم لم يجعلوها عيبا يدفع النسبة كما في جذوة المقتبس ١/١٨، معجم ماستعجم ٤/١٣٩٠،معجم المقاييس ٣/٢٤٦، وانظر المعجم العربي ١/٢٧٧، كتاب العين في ضوء النقد اللغوي ١٠٨-١٣٥، مختصر العين بتحقيق د. الحميد ٢٠-٢٣.

٢- اشتماله على التصحيف وهذه القضية ألحّ عليها الأزهري وقد ناقش كثيرون من الباحثين[١] مدى وجودها، مقلّلين من شأنها ناسبين كثيراً مما قيل إنه مصحف إلى توهم التصحيف .

٣- أن الكتاب ظل مجهولا عند أصحاب الخليل، كالنضر بن شميل، ومؤرج السدوسي، وأبي الحسن الأخفش، ولم يظهر إلافي زمن أبي حاتم[٢]، وقد ناقش هذا الأمر كثير من الباحثين[٣] وخلصوا إلى أنه لا يقوم حجة، ولا ينهض دليلا يسند نفي نسبة الكتاب عن الخليل، وفي نظري لو أن الباحثين والمحققين قابلوا نصوص الكتب التي ألفت منذ القرن الثالث بما في العين لوجدوا أن كتاب العين حاضر غير غائب، ولقد أوردت فيما سبق نقولا عن العين في كتاب البديع لابن المعتز، وفي كتاب الدلائل للسرقسطي، وفي كتاب البيهقي، ومن ينظر في كتاب غريب الحديث لإبراهيم بن إسحق الحربي ١٩٨-٢٨٥ مثلاً، سيجد التطابق التام بين بعض الأقوال فيه، وبين ما في العين.

يقول الحربي	يقول الخليل
"وقال الخليل: قوله: "عرّفها لهم" طيّبها لهم، وأنشد: ألا رب يومٍ قد لهوت وليلةٍ بواضحة الخدين طيبة العرف[٤]" وقال الخليل: "الرتْع: الأكل والشرب في الخصب، رتعت الإبل إذا أكلت ماشاءت، ولا	قال الله عز وجل: "عرّفها لهم" أي: طيبها، وقال: "ألا رب يوم قد لهوت وليلة بواضحة الخدين طيبة العرف[٦]" الرتْع: "الأكل والشرب في الربيع رغدا، رتعت الإبل رتعاً.... والرتع لايكون إلا في الخِصْب[٧]"

(١) انظر: المعجم العربي ٢٧٤/١، وقد أفرد د.نعيم سلمان البدري لهذا الأمر فصلا في كتاب "العين في ضوء النقد اللغوي من ٣٣-١٠٦" وردّ كثيرا مما قيل: إنه مصحف، ولم يثبت إلا ٢٤ لفظا فقط ، وقد اعترف الأزهري في التهذيب ٢٩/١ بسلامة لغة الكتاب فقال: "فلا تشكنّ فيه من أجل أنه زل في حروف معدودة ، هي قليلة في جنب الكثير الذي جاء به صحيحا" .

(٢) انظر: استدراك الغلط ١٤٤،المزهر ٨٤/١.

(٣) انظر: المعجم العربي ٢٨١/١، الخليل وكتاب العين٥٧ ، مختصر العين تحقيق د. الحميد ٩.

(٤) غريب الحديث ١٨٩/١.

(٥) العين.عرف ١٢٢/٢٠.

(٦) غريب الحديث ٢١٢/١.

(٧) العين رتع ٦٧/١-٦٨.

يكون الرتع إلا في الخصب(د)"	

كما أن الأقوال والاستدراكات التي ذيلت عليه كما سيأتي، تدل على اشتغال العلماء به منذ وقت مبكر.

٤- الاضطراب في تطبيق مبدأ الكمية في تقسيم أبواب الكتاب، فمدرسة التقليبات المعجمية تقسّم وتصنِّف الألفاظ بحسب الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، وفي كتاب العين حدث اضطراب وخلط فأدرج الرباعي المضاعف "زلزل وصرصر" في الثلاثي المضاعف "زلَّ صَّر" وجعلهما جميعا من الثنائي، وهذا الأمر قال به ابن جني[١]، والزُّبيدي[٢]، وقد ناقشه الباحثون[٣] ووجهوه توجيهات متباينة، ومسألة معرفة الثنائي والثلاثي والرباعي لا تخفى على من شدا شيئا في علم التصريف فضلا عن الخليل، ويبدو لي أن الغفلة ممن جعلوا هذا عيبا يوسم به عمل الخليل و صنيعه، ولو تذكروا الأسس التي بنى الخليل كتابه عليها، لما ألحوا على هذه المسألة وتلك الأسس هي:

الأساس الجذري

الأساس الصوتي

الأساس التقليبي

الأساس الكَمِّي

وإخال أن الأساس الثالث، هو الذي أملى على الخليل جمع الثلاثي المضاعف والرباعي المضاعف في باب واحد هو الثنائي، لأن تقاليبهما اثنان كما هو الحال في الثنائي، وليس صنيع الخليل على كل حال بمنفرد فقد تداخلت الأصول في كثير من المعجمات المتقدمة والمتأخرة[٤].

---

(١) في الخصائص ٣/٢٦٦.

(٢) استدراك الغلط ١٤٥، وهو في المزهر ١/٨٥.

(٣) منهم نعمة العزاوي في المعجم العربي ١/٢١٠ ود. عبد العزيز الحميد في مختصر العين ١/٢٧.

(٤) انظر: الدراسة القيمة التي أعدها د. عبد الرزاق الصاعدي بعنوان "تداخل الأصول اللغوية وأثره في بناء المعجم، وخصوصا ص٧٧٤ وما بعدها.

٥- أن في الكتاب أشياء على مذهب الكوفيين وقد أورد هذه المسألة [١] وناقشها الباحثون[٢]، وبينوا أن التعلُّل بها غير مقبول، لأنها غير صحيحة، ولا واقعة.

٦- الاستشهاد بالمرذول من أشعار المحدثين، وقال بهذه الزُّبيدي [٣]، وقد وضح الباحثون[٤] أن طريقة الخليل في الاستشهاد والاحتجاج لاتباين منهج غيره من التعويل على من يوثق بفصاحتهم.

أقوال العلماء في العين:

أشار العلماء منذ زمن متقدم إلى اشتمال نسخ العين على أقوال لعلماء معاصرين للخليل أو متأخرين عن طبقته وجيله و دون مرتبته العلمية ومنزلته، وهذا الاشتمال كان من أبرز الأمور التي استدعت الشك في الكتاب، وفي صحة نسبته للخليل، وأول من أشار إلى هذا الأمر- فيما أعلم- هو الزُّبيدي فقد عدَّ هذا من أبلغ الأمور التي توجب نسبة الكتاب إلى الليث بن المظفر، يقول:ومن الدليل على ما ذكره أبو العباس من زيادات النساخ فيه،اختلاف نسخه و اضطراب رواياته إلى ما وقع فيه من الحكايات عن المتأخرين .... فألفينا في كثير: أخبرنا المسعري عن أبي عبيد ،وفي بعضها قال ابن الأعرابي وقال الأصمعي فهل يجوز أن يكون الخليل يروي عن الأصمعي وابن الأعرابي أو أبي عبيد فضلاً عن المِسْعري[٥]؟".

وقد ارتضى كثير من الباحثين ما أشار إليه وصار عند بعضهم حجة في موضع تسليم، يقول د إبراهيم السامرائي وهو أحد محققي الكتاب: "وقد أتحول إلى شيء آخر حملني على نسبة الكثير مما جاء في كتاب العين إلى غير الخليل، كان هذا في أعلام الرجال الذين ورد ذكرهم في كتاب العين ، أقول: ليس لي أن أقول: إن كتاب العين صنعة الخليل، وأنا أجد في شواهده أبياتا للمحدثين ..... وإذا كان لي أن أغضَّ الطرف عن

---

(١) استدراك الغلط ١٤٥، المزهر ٨٥/١.

(٢) منهم د. عبد الله درويش في المعاجم العربية ٦٢، د. نعيم اليدري في كتاب العين في ضوء النقد اللغوي ١٣٧، د. عبد العزيز الحميد في مختصر العين ٢٥.

(٣) استدراك الغلط ١٤٢، المزهر ٨٣/١.

(٤) منهم د. حسين نصار في المعجم العربي ٢٦٨/١، د. نعيم البدري في كتاب العين في ضوء النقد اللغوي ١٣٦.

(٥) استدراك الغلط ١٩٧.

ابن الأعرابي وغيره من اللغويين الأوائل الذين ذكروا في مواد العين فكيف أقول وأنا أرى ابن قتيبة وغيره ممن عاصروه؟ ثم كيف أصل إلى معرفة الأعراب وهم ثلاثة عشر[1]".

إن هذه الظاهرة في الكتاب غريبة حقا ولكنها ليست بفريدة ، غريبةٌ لأن كتابا أو وثيقة تحتوي على أقوال لمن ليسوا في طبقة كاتبها تدفع إلى الشك والاسترابة ،وليست بفريدة لأن مكتبتنا العربية فيها ما يماثل هذا[2].

إن تراوح الأمر بين الاستغراب والإلف جعل الباحثين والعلماء تجاه الكتاب على هذا التقسيم:

١- قسم ينكر الكتاب للخليل لأجل تلك النقول ويجعله لليث بن المظفر على نحو ما نراه عند الزُّبيدي[3] والسامرائي[4].

٢- قسم يرى أن يدًا غير يد الخليل أسهمت في حشوه وجمع مادته، على نحو ما نرى عند ابن جني، وعند كثير من الباحثين أشرت إليهم سابقا وقد رأيت بعض هؤلاء مثل د حسين نصار يشاركون في تخريج ما في العين من أقوال[5].

٣- قسم يسلم بأن الكتاب للخليل بن أحمد، ويخرج ما وجد فيه من نقول على تخريجات يرى أنها تدفع الشك وتصحح النسبة للخليل .

وتلك التخريجات أخذت الاتجاهات الآتية:

١) حمل بعض الباحثين تلك الآراء و النقول على أنها زيادات أدخلها الليث في الكتاب أخذاً بنصيحة أستاذه الخليل، يقول د. حسين نصار: وتصرّح رواية الليث أيضا إلى جانب الإملاء والحوار بحض الخليل إياه على السؤال عما شكّ فيه و إثباته في الكتاب، وكان لهذه النصيحة أثرها الخطير في العين، إذ يبدو أن الليث أخذ يسأل من قابله من الأعراب والعلماء ويبحث عن روايات غير الخليل من الأثبات ويدخلها دون تحرُّج[6]".

---

(١) مجلة الحكمة ٣٧٨.

(٢) فنوادر أبي زيد قد اضطربت وأدخل عليها النساخ ما حمل أبا زيد على أن يهم بالبراءة منها. انظر: أبو زيد الأنصاري ونوادر اللغة ٢٣٧ وما بعدها .

(٣) استدراك الغلط١٩٧.

(٤) مجلة الحكمة٣٧٨.

(٥) انظر المعجم العربي١/٣٩٠-٣٩٥.

(٦) السابق١/٢٩١.

٢) أن الخليل أو الليث ربما أدخل بعض تلك العبارات، فهي زيادة أصيلة في الكتاب، والبعض الآخر زيد لاحقا بفعل النساخ. يقول د حسين نصار: وربما كان الخليل أو الليث هو الذي أدخل عبارات أبي خيرة وأبي مالك وأبي عمرو دون أن ينسبها إليهم لأنهم جميعا ممن روى عنهم الخليل في كتابه، ولكن لا شك أن عبارات ابن الأعرابي وأبي عبيد من الزيادات غير الأصيلة في الكتاب[1]".

٣) لا غرابة أن ينقل الخليل عمن عاصروه مثل أبي الدقيش ويونس وسيبويه والأصمعي وأبو زيد فهذه أسماء مألوفة في كتب اللغة، والخليل بعد أن رتب الأبواب ونظم المواد وكان هذا همّه الأكبر أخذ يضع المفردات أو يحشو الكتاب، فاعتمد على كتيبات معاصريه أو تلامذته، وقد مال إلى هذا التخريج د. أحمد أمين[2] ود. عبد الله درويش[3] وخصوصا في تفسير ما في العين من نقول عن المعاصرين للخليل.

٤) أن الوراقين في العصور الإسلامية الأولى كانوا يضيفون إلى صلب النص ما ذكر على هامشه أو بين أسطره من تعليقات لبعض اللغويين الذين قرؤوا الكتاب، اعتقاداً منهم بأن ذلك يزيد من الفائدة، وقد مال إلى هذا د عبد الله درويش مفسراً به ما في العين من أقوال لمن جاؤوا بعد الخليل.

٥) أن الحكايات الواردة عن المتأخرين عن طبقة الخليل يعود إلى بعض العلماء الذين نسخوا الكتاب، كما حصل من محمد بن منصور الذي نسخ نسخة من كتاب العين من نسخة الليث، ثم نسخ من نسخة محمد بن منصور[4] علي بن مهدي الكسروي.

هذه هي تخريجات ما ورد في العين من أقوال كما يبدو لي، وإني لألحظ على الحديث عن تلك الأقوال ما يأتي:

١- أن في تلك الأقوال ما يصح أن ينسب إدراجه في الكتاب للخليل نفسه، كما سأوضح

---

(١) السابق١/٢٩٥.

(٢) ضحى الإسلام ٢/٢٧٠.

(٣) المعاجم العربية٧١.

(٤) انظر الفهرست٤٨،العين في ضوء النقد اللغوي١٣٥.

عند إيراد تلك الأقوال .

٢- أن نسبة إدراج كثير من الأقوال لا يصح بحال أن تكون لمؤلف الكتاب، سواء أكان الخليل أم الليث، وذلك بالنظر إلى طبيعتها الاستدراكية أو الاعتراضية على ما ورد في الكتاب، كما سيظهر لاحقا.

٣- أن كثيرا من الأقوال لا يمكن تخريجها على أنها من صنعة الليث، لكونها أقوال أناس جاؤوا بعد الليث وبعد الخليل.

٤- أن تلك الأقوال ظلت محل حديث للكثيرين ممن درسوا المعجم العربي ومثار شبهة حول الكتاب، إلا أنها لم تفرد بتحليل ولا بدراسة، مع عظم خطرها، كما أنها محل إهمال عند من عني بتحقيق الكتاب .

٥- أن في حديث بعض العلماء والباحثين عمن وردت أسماؤهم في الكتاب ما يشتمل على الاضطراب فقد أشاروا إلى ورود اسم المسعري، ولا وجود له في العين المطبوع ،كما أشار البعض إلى اسم ثعلب وأبي عبيد وعيسى بن عمر ويونس بن حبيب والأصمعي وأبو زيد الأنصاري وكراع و الزجاج[١].

ولا وجود لأسماء هؤلاء في العين المطبوع ، فهل اطلع من أشار إليهم على نسخ لم يطلع عليها المحققان ؟ أم أن المحققين أسقطا بعض أسماء الرواة ؟ أم أن استمراء الحديث عن وجود أسماء بعض العلماء في العين هو الذي جعل هؤلاء الباحثين يدرجون أسماء هؤلاء العلماء تزيدا؟ إنني أرجح هذا الأخير، لأن حديث التسليم دون التحري هو ما انطبع به أغلب الحديث عن هذه الأقوال.

والذين وردت أقوالهم في العين من العلماء من حيث التعيين على قسمين فقسم معين محدد الاسم[٢] ، وقسم غير معين ولا محدد:

---

(١) أشار إلى هذه الأسماء أحمد أمين في ضحى الإسلام ٢٧٠/٢،ود حسين نصار في المعجم العربي ٢٩٢/١،ود. عبدالله درويش في المعاجم العربية٧١، ود. نجا في المعاجم اللغوية ٢٥.

(٢) وإن كان بعضهم معين الاسم إلا أنه غير معروف عندي مثل موسى ورافع . فلم أدر من هما .

القسم الأول: المجهولون:

ترددت في العين عبارات "قال غير الخليل" "قال غيره "قال بعضهم" "ذكر بعضهم" "قال بعض الناس" "قال بعض العلماء" مسنداً إليها أقوالاً ذكرت في العين، والعبارتان الأوليان جاءتا للاستدراك على ما قال الخليل، وإيراد هاتين العبارتين واضح أنه ليس من صنع الخليل فلا يمكن أن يستدرك الخليل بكلام الآخرين على كلامه، ولا أن يرد ما أثبته هو بما قال غيره، ولكن هاتين العبارتين لا يمكن أيضا أن تكونا دليلا على أن مؤلف الكتاب شخص سوى الخليل، إن من استدرك بهاتين العبارتين يستحضر أن مؤلف الكتاب هو الخليل، ولذا استمر يشير إليه تصريحا مرة فيقول: قال غير الخليل، وكناية مرة أخرى فيقول: قال غيره .

وأما ما أشير إليه من أقوال بالعبارات الأخرى، فإن طبيعتها الاستدراكية تقتضي أن لا تكون دليلا صالحا لنفي نسبة الكتاب عن الخليل، لوضوح أنها زيدت فيه في أزمنة متعاقبة، نظراً للآتي:

١- يدل عليه ما توصلت إليه من أصحاب تلك الأقوال فقد نسبت لأناس آخرين وهي في أغلبها أقوال مضادة مناقضةِ لما قرره الخليل .

٢- أن تلك الأقوال ليست في المعجمات التي صدرت عن العين واتخذته أصلا، ولو كانت فيه لما صارت محل تجاهل عند الأزهري، وابن دريد، والقالي مع عِظَم خطرها وبالغ أهميتها.

ومما أسند إلى مجهول من أقوال في العين ما ورد في مادة عهن[١] ((قال غيرُ الخليل: العَواهِنُ السَّعَفُ الذي يَقْرُبُ من لُبِّ النَّخلَةِ . وهذا القول استدراك بذكر معنى فات الخليل تقييده، وقد نسب إلى عدد من العلماء في المعجمات فهو في التهذيب[٢] من قول الأصمعي، وفي المقاييس[٣] من كلام ابن الأعرابي، وفي المحكم[٤] من قول اللحياني، وفي المخصص[٥] من قول أبي عبيد.

---

(١) ١٠٨/١.

(٢) عهن ٣٢/١.

(٣) عهن ٢٧٦/٤.

(٤) عهن ٤٠/١.

(٥) ٤٧٥/٥.

وفي قطع[١] عند الحديث عن المقطعات وردت عبارة "غيرُ الخليل: هي الثيابُ المختلفةُ الألوان على بَدَنٍ واحدٍ وتَحْتَها ثَوْبٌ على لَونٍ آخر". وهذا التحديد الدلالي لكلمة المقطَّعات من الثياب لم أقف عليه في المعجمات، ولو وجد في كتاب العين أصالة لما أهمل، ولا سيما مع هذا الاضطراب والتدافع الحاصل في السمات والمحدِّدات الدلالية لكلمة مُقَطَّعات منذ زمن مبكر[٢].

وفي قدم[٣] (القُدَّامُ: القادِمون من سَفَر جمع قادِم، وقِيلَ القَدام بفتح القاف، وعن غير الخليل: والقُدّام: الجَزّار). و هذا المعنى المستدرك لم يرد في غير العين، فلم أطلع في المعجمات على أن القُدَّام: الجَزّار لا عن الخليل، ولا عن غيره لا أصالة ولا تصحيفا، وإنما التي بمعنى الجزار هي القُدَار، وقد أوردها الخليل في هذه المادة عندما عرض لقول المهلهل:

إنا لنضربُ بالصوارم هامَهُم ضربَ القُدَار نقيعةَ القُدَّام

فالكلمة " القُدَّام: الجزَّار" مصحفة دخلت نسخة العين زيادة، وقد غفل المحققان عن هذا، ولو كانت من تصحيفات الخليل أوغيره من المتقدمين لما أهملت .

وفي كثع[٤] قال الخليل: امرأة مُكَثِّعة .فقَالَ أبو أحمد: مُكَثّعَةٌ على غير قياس وعسَى أن تكلمت به العرب". ولم يرد هذا القول في التهذيب ولا المعجمات الأخرى، وأما القول المنسوب إلى غير الخليل في هذه المادة وهو: " وعن غير الخليل: لَبَن مُكَثِّع أي: قد ظهر زُبْدُهُ فوقه"وهو في المعجمات فهو في المحيط[٥] بهذه الصيغة، وبصيغة" أكثع السقاء" في التهذيب[٦].

وفي علس[٧] "والعَلْسُ الشِّواء السّمين وقال غير الخليل: العَلِيْس الذي ليس

(١) ١٣٨/١.

(٢) انظر: الاختلاف في تحديد سمات المقطعات في اللسان قطع والتاج قطع.

(٣) ١٧٢/١.

(٤) ١٩٦/١.

(٥) ٢٩/١.

(٦) ٨٩/١.

(٧) ٢٣٣/١.

بالسمين ولا المهزول بين ذلك"، وقد نسب هذا القول لليث في العباب[1] ولم يورد الكلمة الأزهري عن العين، وإنما أوردها عن أبي عمرو الشيباني قائلا: "وقال أبو عمرو: العَلِيس: الشواء المنضج[2]"وفي المحكم[3] جعلها مما حكاه كراع وفي المادة قول آخرعن العَلَس هو:

"غير الخليل: العَلَس: القُرَاد".وهذا القول موجود في المحيط[4] والمحكم[5] والعباب[6] فهو من استدراكات ما لم يورده الخليل.

وفي سعط[7] " المُسْعُط: الذي يجعل فيه الدّواء على مُفعُل لأنه أداة

والمَسْعَطُ أصل بنائه وقال غيره: بالكسر وليس بشيء"ولم أقف على أن الكسر فيه هو الأصل، وليس من قائل إنها بالكسر سماعا عن العرب-فيما أعلم- وإنما تكسر قياسا على أصل الباب في أسماء الآلةوهو غير وارد فيها[8].

وفي زلع[9] الزَّلْعُ مجزوماً: استلاب شَيْء في خَتْل زَلَعه يَزْلَعه زَلْعاً وأزلعته: أطعمته في شَيْء يأخذه. قَالَ غيره: زلعت الشَّيء قطعته فأبنته من مكانه، فأنا زالع، وقد انزلع. والقول بأن زلع بمعنى الاقتطاع موجود في التهذيب[10]و منسوب للمفضل بصيغة ازدلعت.

وفي عفس[11] " العفْسُ: شدة سوق الإبل ...... والرجل يَعْفِسُ المرأة بِرِجْله إذا ضربها على عَجِيْزتها، يعافِسُها وتُعافِسه قَالَ غيره: المعافسة: المعاركة في جِدّ أو

---

(1) على ١٥١/١.
(2) التهذيب – على ٥٩/٢.
(3) على ١٧٤/١.
(4) على ٣٦٦/١.
(5) على ٣٦٦/١.
(6) على ١٥٠/١.
(7) ٣٢٠/١.
(8) انظر الكتاب ٩١/٤.
(9) ٣٥٦/١.
(10) زلع ١٣٧/٢.
(11) ٣٣٩/١.

لَعِب، وأصله اللّعب "والقول بصيغة أخرى غير منسوب لأحد في التهذيب[١]، فقد قال: وقال غيره: المعافسة: الممارسة: فلان يعافس الأمور أي يمارسها ويعالجها".

وفي عهم[٢] " العياهمة الناقة الماضية ....والذكَرُ: عَيْهَامٌ

وعَيْهَمَتُها: سُرْعَتُها وقال بعضهم: عُياهِمَةٌ مثلُ عُذَافِرَة وعُياهِمٌ عُذافرٍ "وهذا القول منسوب لأبي عمرو في المقاييس"[٣].

وفي لقع[٤] "اللِّقاعُ: الكِساءُ الغَليظُ، وقال بعضُهم: هو اللِّفاعُ لأنّه يُتَلَفَّعُ به وهذا أعرَفُ"والقول بأن الكلمة بالقاف في التهذيب[٥] منسوب لليث، وكذلك في فقه اللغة[٦] هي من كلام الليث، والبعض الذي استدرك وقال: إنها بالفاء إنما هو الأزهري كما في التهذيب.

وفي جذع[٧] "والدهر يسمى جَذَعاً لأنه جديد. قال:

يابِشْرُ لو لم أكُنْ منكم بمنزلةٍ ... ألقَى عليّ يديه الأزْلَمُ الجَذَعُ

صيّر الدهرَ أزْلَمَ؛ لأنّ أحداً لا يقدرُ أن يكْدَحَ فيه.

يُقَالُ: قِدْحٌ مُزَلَّم أي: مُسَوَّى وفرسٌ مُزَلّمٌ إذا كان مُصَنَّعا، وقال بعضهم: الأزْلَمُ الجَذَعُ في هذا البيت هو الأسد، وهذا خطأ، إنّما هو الدهر "وتفسير الأزلم بالأسد في هذا البيت موجود في المقاييس[٨] عن بعضهم، ولكن العبارة الموجودة في العين أقرب ما تكون إلى ما في حواشي ابن بري فقد قال ابن منظور: "وقيل: هو الأسد، وهذا القول خطأ، قال ابن بري: قول من قال إن الأزلم الجذع الأسد ليس بشيء[٩]" فابن بري استدركها ثم أضيفت إلى العين.

---

(١) عفس ٢/ ٦٥.

(٢) ١/ ١١٠.

(٣) عهم ٤/ ١٧٥.

(٤) ١/ ١٦٧.

(٥) ١/ ١٦٥.

(٦) للثعالبي في الفصل الرابع عشر.

(٧) ١/ ٢٢١.

(٨) جذع ١/ ٤٣٧.زلم ٣/ ١٩.

(٩) لسان العرب – زلم .

وفي عشر[1] "وناقة عُشَراء أي: أقربت وسُمّيت به لتمام عَشْرة أشهر لحملها.

ويُقَالُ: بل سُمّيت عُشَراء لأنها حديثة العهد بالتعشير والتعشير: حمل، ويقَالُ: بل العشار اسم النوق التي قد نُتِجَ بعضها وبعضها قد أقرب ينتظر نتاجها قَالَ الفرزدق:

كم خالةٍ لك يا جرير وعمّةٍ فَدْعاءَ قد حلَبَتْ عليّ عِشاري

قالَ بعضهم: ليس للعشارِ لبنٌ وإنّما سمّاها عشاراً لأنّها حديثة العهد بالتعشير وهي المطافيل "وهذا القول المنسوب إلى البعض في المقاييس[2]، والمحكم[3]، وليس في الكتب التي صدرت عن العين كالتهذيب .

وفي شعب[4] "يقَالُ للمنية: شعبته شَعُوب، أيْ أماته الموتُ فماتَ .

وقال بعضهم: شعوب اسم المنية لا ينصرف ولا تدخل فيه ألف ولام، لا يُقَالُ: هذه الشّعوب "وهذا القول لابن السكيت كما في المخصص[5]. وفي هذه المادة قول آخر هو:

"وقال بعضهم: بل يكون نكرة".ولعل هذا من قول أبي حاتم، قال في المحيط[6]: حكى أبو حاتم الشعوب .

وفي درع [7]: دِرْعُ المرأةِ يُذكّر ودِرْعُ الحديدِ تُؤنّثُ، وقال بعضهم: يذكر أيضاً" والمراد ببعضهم اللحياني، والعبارة أوردها ابن سيده قائلا: "هكذا قال اللحياني" كما في المحكم[8] وقاله الحربي في غريب الحديث[9].

وفي ترع[10] "التَّرَعُ: امتلاء الإناء ، تَرِعَ يَتْرَعُ تَرَعاً وأَتْرَعْتُ قال بعضهم: لا أقول تَرِعَ الإناء في موضع الامتلاءِ ولكن أترع" وقد جعلها الأزهري في التهذيب[11]

---

(1) ١/٢٤٨.
(2) عشر ٤/٣٢٥.
(3) عشر ١/١٢٥.
(4) ١/٢٦٤.
(5) ٢/٧٢.
(6) شعب ١/٢٩٤.
(7) ١/٢٩٦.
(8) ١/٢٠٢
(9) ٢/٦٩٤.
(10) ٢/٦٧.
(11) ترع ٢/١٥٩.

من كلام الليث مع أنها في العين مسندة إلى البعض دون تعيين، وابن فارس[1] أسندها للبعض دون تعيين، والخليل رحمه الله يقول: تَرِع الإناء وقول البعض أترع إنما هو رد عليه وتَعَقُّب، مما يظهر ويوضح أن عبارة "قال بعضهم"هي من عمل مُعَقِّب، وكذا الجوهري أسندها للبعض دون تحديد[2].

وفي عوه[3] "عاهَ الزَّرْعُ وأعاهَ القومُ إذا أصابَ زرْعَهُمْ خاصّةً عاهةٌ وآفةٌ من اليَرَقان ونحوه فأفْسَدَهُ قَالَ: (قذف المجنّبِ بالعاهاتِ والسَّقَم ..).

وقال بعضُهم: عِيهَ الزَّرْعُ فهو مَعُوهٌ" و هي من كلام ابن بَزْرج في التهذيب[4]، وابن بَزْرج عبد الرحمن من طبقة الأصمعي[5] .

وفي هوع[6] "الهاعُ: سوء الحرص هاع يَهاعُ هيعة وهاعاً، وقال بعضهم: هاع يَهِيعُ هُيُوعاً وهَيْعَةً وهَيَعاناً" وهذا القول هو عين مافي الصحاح[7] وواضح أنه أضيف إلى ما في العين استدراكا، ولو كان فيه أصالة لما أجمعت الكتب الصادرة عنه على إهماله .

وفي عدو[8] والعِنْدَأْوَة: التِواءٌ وعَسَرٌ في الرِّجْلِ، قَالَ بعضهم: هو من العَداءِ والنون والهمزة زائدتانِ" هذا القول في التهذيب[9] منسوب إلى بعضهم، وأما في المقاييس[10] فمنسوب إلى الخليل.

وفي قلعط[11] اقلَعَطَّ الرجُلُ اقلِعْطاطاً قَالَ:

بأتْلَعَ مُقْلَعِطِّ الرأسِ طاطِ .....

أيْ مُنْحدرٌ مُنْخَفِضٍ، وقال غيره: اقْلَعَطَّ واقْلَعَدَّ واجْلَعَدَّ إذا مَضَى في البلاد على

---

(١) في المقاييس ترع ٢١٧/١.
(٢) الصحاح- ترع.
(٣) ١٦٩/٢.
(٤) عودة ١٦/٣.
(٥) انظر: تاريخ التراث العربي ٣٢٥/١/٨. مرويات شمر ٣٨.
(٦) ١٧٠/٢.
(٧) هوع.
(٨) ٢١٥/٢.
(٩) ٢٥١/٢.
(١٠) عدو ٢٥١/٤.
(١١) ٢٩٣/٢

وجهه" وهو في التهذيب[1]، والعباب[2].

وفي عنقز[3] "العَنْقَزُ: من المَرْزَ نْجُوشِ قالَ الأخطل:

ألا أسلَمْ سَلِمْتَ أبَا خالدٍ   وحَيَّاكَ ربُّكَ بالعَنْقَزِ

وقال بعضهم: العَنْقَزُ جُرْدان الحِمار. هذا في الصحاح[4] والتهذيب[5].

وفي عبقر[6] والعَبْقَريُّ: ضَرْبٌ من البُسُطِ الواحدة بالهاء، وقال بعضُهم: عَباقِريٌّ فإن أراد بذلك جَمْعَ عَبْقَريٍّ فإنَّ ذلك لا يكونُ لأنَّ المنسُوبَ لا يُجْمَعُ على نِسبةٍ، ولا سيَّما الرُباعيُّ لا يُجْمَعُ الخثعمي بالخَثاعِمِّي ولا المُهَلَّبيُّ بالمَهالِبِيّ ولا يجوز ذلك إلا أن يكونَ يُنسبُ اسْمٌ على بناءِ الجماعة بعدَ تَمامِ الاسْمِ نحوُ شَيْءٍ تَنْسِبُه إلى حَضاجِرٍ وسَراويل فيقال: حَضاجريٌّ وسَراويليٌّ، ويُنسَبُ كذلك إلى عَباقِر فيقال: عباقِريٌّ" وهذا الكلام حول جمع المنسوب موجود في التهذيب[7]، وغيره، وجعله الأزهري من كلام الحُذَّاق ،ومنهم الخليل وأما البعض المشار إليه فالمراد به أحد القراء[8] .

وفي حلف[9] "أحْلَفَ الغُلامُ: جاوزَ رِهاق الحُلُمِ فهو مُحْلِف وقال بعضهم: أخْلَفَ بالخاء" و المراد به الأزهري[10] لأنه هو الذي أورد رواية الكلمة بالخاء ثم اجتهد في ردها.

وفي فكه[11] قال: "الفاكهةُ قد اختُلِفَ فيها، فقال بعضُ العُلَماءِ :كلّ شيء قد سُمّي في القرآن من الثِّمار نحو العنب والرُمّان فإنّا لا نُسميه فاكهةً، ولو حَلَفَ أن لا يأكل فاكهةً فأكَل عِنَباً ورُمّاناً لم يكنْ حانثاً، وقال آخرون: كلُّ الثّمار فاكهةٌ، وإنّما كرّر في القرآن

---

(1) قلعط ٢٩٣/٢.
(2) قلعط ٣٠٧/١.
(3) ٢٩٣/٢
(4) عنقر.
(5) عنقر ١٨٣/٣.
(6) ٢٩٨/٢.
(7) عبقر ١٨٧/٣.
(8) قرأ "عباقري" الجحدري وابن محيض وغيرهما – انظر: المحتسب ٣٠٥/٢.
(9) ٢٣٢/٣
(10) حلف ٤٤/٥.
(11) ٣٨١/٣

فقال عز و جل ﴿ فيهما فاكهة ونخلٌ ورُمّان﴾ [1] لتفضيل النخْل والرُّمَّان على سائر الفواكه، وذلك أسلوب اللغة العربية، ... والبعض الذي أسند إليه هذا الكلام قد صرح الأزهري بأن هذا هو النعمان ابن ثابت، وفي نشل[2] قال بعض النّاس: إنّها لمنشولة اللَّحْم والنّاشلةُ أصوب، وقال بعضهم: فَخِذٌ منهوشةُ اللَّحْم ولا أعرف منشولة". وقد نسب قول منشولة إلى الأصمعي، قال ابن سيده: إذا دَقَّت العُضد قيل لها عَضُد ناشِلة ومَنْشُولَة الأخيرة أعْرَفُهما في كلام أهل الحجاز، الأصمعي[3] " فإذا كان القول لم يعرف إلا عن طريق الأزهري، فهو بلا شك عندي مما أضيف استدراكا على العين.

ووجدت في الكتاب قراءة مثبتة لا يمكن أن تكون للخليل ولا لليث لأن التأليف في اللغة واعتماد المؤلفات مصادر ينقل عنها لم يأخذ موقعه في أواخر القرن الثاني، ولأن مضمون ذلك النص لم يشتهر بين أصحاب المعجمات، فمادة خنسر لم ينقل عن العين منها شيء كما يظهر من خلال التهذيب [4] ومع ذلك ورد في العين[5] "قرأت في كتاب: الخَنَاسِرة واحده خِنْسير، وهم الذين يشيِّعون الَجنائز" والدلالة التي أثبتت في العين ليست في المعجمات اللغوية[6] مما يوضح بجلاء أن هذه الإضافة وقعت ممن قرأ العين واشتغل به في أزمنة متأخرة.

* * *

---

(1) سورة الرحمن ٥٥.

(2) ٢٦٤/٦.

(3) المخصص ١٣٨/١.

(4) خنسر ٦٦٧/٧.

(5) خنسر ٣٣٢/٤.

(6) انظر: التهذيب السابق.

القسم الثاني:المعينون:

يشتمل الكتاب على أكثر من عشرين اسماً كلها مذكورة في تاريخ علم اللغة العربي عدا ثلاثة وهم :

١- رافع ٢- موسى ٣- أبو أحمد حمزة بن زرعة

فهؤلاء الثلاثة لم أستطع أن أصل إلى زمنهم ومعالم شخصياتهم وموقعهم في الدرس اللغوي وأما البقية فهم على قسمين: أعراب فصحاء منهم من كان في زمن الخليل ومنهم من ليس في زمنه وهم:

أبو الدقيش، أبو ليلى، عرام، أبو خيرة، زائدة، مبتكر، مزاحم، حماس.

وأما العلماء من البصرة والكوفة وبغداد فهم:

أبو عمرو بن العلاء، أبو عبيدة معمر بن المثنى، أبو عبيد القاسم ابن سلام، سيبويه، ابن الأعرابي، القاسم بن معن، أبو سعيد الضرير، الليث، القتيبي.

أبو الدقيش :

أبو الدقيش القناني الغنوي[١]، أعرابي فصيح، سكن البصرة، و عاشر الطبقة الأولى من اللغويين، أمثال الخليل، والنضر بن شميل، وأبي حنيفة الدينوري، وشمر، وذكر أبوحيان التوحيدي رحمه الله أنه شاعر[٢]، وقد تكرر اسمه في المعجم العربي[٣] وأسندت له روايات كثيرة بعضها متعلق بالشعر، وبعضهامتعلق بتوضيح دلالة، وبعضها متعلق بإيراد صيغة استعملها الفصحاء للألفاظ، وفي تهذيب الأزهري نقول عنه، من طريق كتاب العين، و من غير طريق العين، بل من طريق أبي عبيدة وشمر، والنضر بن شميل، وأبي زيد، وابن دريد، وقد وردت أقواله في العين في جميع أجزائه الثمانية، كما سيأتي في أقواله، وقد تعددت صيغ ماحكي من أقواله في تلك الأجزاء، فكان من الغالب فيها أسلوب الاستفهام، والاستفسار: قلنا أو قلت لأبي الدقيش ماكذا؟ وسألت أبا الدقيش عن كذا، أو بأسلوب إسناد الروايه: قال أبو الدقيش، أو إسناد التفسير الدلالي

---

(١) انظر الفهرست، الوافي بالوفيات ٤/٤٢٧، تاريخ التراث العربي ٨/١/٤٦.

(٢) في البصائر والذخائر ٣/٨٩ وذكره باسم ((الدقيش))، وقال في الأمثال للسدوسي ٥/١: قال أبو فيد: سمعت أبا الدقيش: يقول: قد خرجت جنادعه والشر ليس وادعه.

(٣) انظر مثلا الجمهرة ٦٥١،٨٤٩،١٣٠،التهذيب ٣٢٩/١،٣٨٥،٤٠٥،٤٢٠.

إليه، بعبارة وهو قول أبي الدقيش، ويظهر فيما دار بين الخليل وبينه، ذلك الأسلوب الذي دار به الكلام بين عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وبين نافع بن الأزرق، وذلك في كلمة " العَصْد" الآتية قريبا،وحينا يكون الحديث عما حكاه، أو خالف فيه، وحينا بمعارضة قوله بأقوال اللغويين والفصحاء الآخرين، ولا سيما أباخيرة وحِماسا الأعرابيين، وقد وقف الخليل بين أقوالهم موقف الموازن المختار، المرجح لما يسنده الدليل، على نحو ماسنرى في كلمة " الموق" فقد عارض الخليل قول أبي الدقيش، بقول أبي خيرة، ورجّح قول أبي الدقيش، مستشهداً بالحديث، وكذلك فعل في كلمة "امرأة بِظْرير"، وقد تناثرت هذه الأقوال في الكتاب من أوله إلى آخره بتشابه بين الأساليب، وهو دليل على الارتباط الوثيق بين الأول والآخر من الكتاب، وما أسند لأبي الدقيش قد خلا من الطبيعة التي تكون عليها أساليب الاستدراك في المعجمات، فأقوال أبي الدقيش لم تورد على سبيل رد ما أورد الخليل، ولا على سبيل تكميل مافاته من دلالات أو نقصه من شواهد، بل على سبيل تأسيس مادة الكتاب، ولم أقف على رواية من هذه الروايات قد أسندت إلى الليث عن أبي الدقيش، إلا مرة واحدة، وهي قوله: " قال ليث لأبي الدقيش: هل لك في زُبدٍ ورُطَب؟ فقال: أشدَّ الهلِّ وأوحاه" وهذه الرواية في مقدمة الكتاب، وقد وردت في مادة "هلل"بأسلوب "قال الخليل لأبي الدقيش" ونقلت في المعجمات بهذه الرواية، مما يؤكد إدراج عبارة "قال ليث"، وقد استمرأ الأزهري –رحمه الله– زيادة "قال الليث" على كل عبارة نقلت في العين عن أبي الدقيش، بصيغة "قال أبو الدقيش، وسمعت أباالدقيش وسألت أبا الدقيش".

لتكون: "قال ليث: قال أبو الدقيش" مع أن رواية الخليل عن أبي الدقيش غير مستغربة، فقد ورد في الجمهرة "وأخبر عن الخليل أنه قال: سمعت أبا الدقيش يقول في كلامه: بُزوز العراق من قُزُوزها وخُزُوزها"[1] ومن الأقوال والمرويات المنسوبة لأبي الدقيش في العين:

"فإن صيرت الثاني مثل قدْ وهل ولو اسما أدخلت عليه التشديد فقلت هذه لوٌّ مكتوبة، وهذه قدٌّ حسنة الكِتْبة، زدت واوا على واو، ودالا على دال ثم أدغمت وشدَّدت،

---

(١) الجمهرة ١٣٠/١.

فالتشديد علامة الإدغام، والحرف الثالث كقول أبي زبيد الطائي:

ليت شعري وأين مني ليتُ   إن ليتاً وإن لوّاً عناء

فشدَّد لوّا حين جعله اسما، قال ليث: قلت لأبي الدقيش هل لك في زُبد ورُطب؟ فقال أشدّ الهلِ وأوحاه، فشدد اللام حين جعله اسما[1]" وقد وردت هذه الرواية في موقع آخر من الكتاب[2] بصيغة "قال الخليل لأبي الدقيش:......" وهي هكذا في التهذيب[3]، اللسان[4]، وقد أكد ابن بري أنها من رواية الخليل فقال: قال ابن حمزة: روى أهل الضبط عن الخليل أنه قال لأبي الدقيش أو غيره فالقائل هو الخليل[5]" وفي الاشتقاق[6] بلفظ "وذكر عن الخليل قال: قلت لأبي الدقيش "وكذا في الجمهره[7]" والمحكم[8] وفي دقش "قلنا لأبي الدقيش: ما الدقيش؟ قال لا أدري، ولم أسمع له تفسيرا، قلنا: فتكنّيت بما لا تدري! قال: الأسماء والكنى علامات، من شاء تسمّى بما شاء لا قياس ولا حَتْم[9]" وابن جني في المبهج[10] جعلها من كلام ليث، فقال: قال الليث: قلت لأبي الدقيش وفي الجمهرة[11] والمحكم[12]: قال يونس: سألت أبا الدقيش، وفي الاشتقاق[13]: قال: واحتجوا بما ذكره الخليل بزعمهم أنه سأل أبا الدقيش، وقد حدا بابن دريد إلى عبارة التشكك استبعاده أن يسأل الخليل عن شيء، وفي التهذيب[14] والمقاييس[15] ذكرت

---

(١) ١/ ٥٠.
(٢) ٣/ ٣٥٢.
(٣) هلل.
(٤) هلل.
(٥) لسان العرب – هلل.
(٦) ٦٠.
(٧) ١/ ٤٧٤.
(٨) ٢/ ١٢٧.
(٩) ١/ ١٩٠، ٥/ ٣٤.
(١٠) ١/ ٢٥.
(١١) ١/ ٣٤٧.
(١٢) ٢/ ٤٨٠.
(١٣) ٤.
(١٤) دقش ٣/ ١٣٥.
(١٥) ٢/ ٢٣٦، ٢٨٩.

بلفظ "سئل أبو الدقيش".

وفي عصد[1] "قلت لأبي الدقيش: ما العَصْد؟ قال تَقْليبك العَصِيدة في الطِّنجِير بالمِعْصَدة، تقول عَصَد يعْصِد عَصْدا، قلت: هل تعرفه العرب العاربة ببواديها؟ قال: نعم، أما سمعت قول غَيلان:

على الرَّحْل مما مَنَّه السيرُ عاصدُ ....

أي يذبذب رأسه ويضطرب، شَبَّه الناعس بالذي يَعْصِد لخِفَّة رأسه، وقال بعضهم: العاصد في هذا البيت هو الميت وهو خطأ".

وقد أورد الأزهري[2] هذا القول بتغيير الصيغة، وإسناد القول إلى الليث وحذف "أبو الدقيش".

وفي -وعي-[3] قال أبو الدُّقَيْش: "وَعَتِ المِدَّةُ في الجُرْح، ووَعَتْ جايِئَتُه"وهو في التهذيب[4] بتغيير في الصياغة،وهو في المحكم[5] دون إسناد.

وفي علكم[6] " عُلْكُوم: الناقة الجسيمة السمينة، قال لبيد:

بكرتْ به جُرَشيةٌ مَقْطُورة   تَرْوي الحدائقَ بازلٌ عُلكومُ

قوله جُرَشية يعني ناقة منسوبة إلى جُرَش، وهو موضع، والمقطورة المطلية بالقَطِران، قال أبو الدقيش: عَلْكَمَتُها: عِظَم سنامها" وهو في التهذيب[7] بإسناد القول إلى الليث.

وفي سرع[8] "واليُسروع والأُسْروع: دود تكون على الشوك والحشيش، الواحد يَسْروعة وأُسْروعة، والجمع الأساريع، قال امرؤ القيس:

وتَعْطو برَخْصٍ غيرِ شَثْن كأنه   أساريعُ ظَبْي أو مساويكُ إسْحِل

---

(1) ٢٨٨/١.
(2) التهذيب ٣/١.
(3) ٢٧٢/٢.
(4) ٢٦٠/٣.
(5) وعي ٣٣٩/١.
(6) ٣٠٩/٢.
(7) علكم ٣٠٨/٣.
(8) ٣٣١/٢.

نسب الدود إلى رمل يسمى ظَبْيا، وقال أبو الدقيش: نسبها إلى الظبي، لأن الظباء تأكل هذا الضرب من الدود ،كما تأكل النمل، وضمٌّ الياء لغة وجمعه يَسَاريع قال: ونحن نُسَمي تلك الدود السُّرْفة ويُجْمع على سُرَف " وليس في التهذيب.

وفي كوع[1] "الكُوع والكَاع، زعم أبو الدقيش أنهما طرفا الزَّندين في الذراع مما يلي الرسْغ، والكُوع منهما طَرَف الزنَّد الذي يلي الإبهام، وهو أخفاهما، والكاع طرف الزند الذي يلي الخِنْصر، وهو الكُرْسُوع" وهو في التهذيب[2] مسند لليث دون أبي الدقيش، وكذا في المحكم[3] فهو فيه دون ذكر لأبي الدقيش.

وفي هوع[4] "رجل هاعٌ لاعٌ أي حريص، سيء الخُلقُ، والفعل من هذا لاع يَلُوع لَوْعا، ولُوُوعا ويجمع على الألواع واللاعين، والمرأة اللَّاعة ويقال اللاعة بلامين التي تغازلك ولا تمكنك، قال أبو خَيرة: هي اللَّاعة بهذا المعنى، والأول قول أبي الدقيش" ومقابلة القولين– قول أبي الدقيش بقول أبي خيرة عمل لغوي أصيل ، لكن الأزهري حكاه منسوباً إلى الليث، وضبط الكلمة بلامين عن أبي الدقيش خطأ، لأن اللام فاء وهي لاتشدد، والذي في التهذيب ، والمحيط أن أبا الدقيش قال: " اللَّعَّة" وقد أورد هذه الرواية وأشار إلى أبي الدقيش.

وفي قزح[5] حين تحدث عن قوس قُزَح "قال أبو الدُقَيْش: القُزَح الطرائق التي فيها، الواحدة: قُزْحة: القُزَح: اسم شيطان". وقد انتقلت هذه الحكاية عن أبي الدقيش إلى المعجمات فهي في التهذيب[6] يجعلها كالعادة من طريق ليث،وهي في الفائق[7] دون ذكر للحاكي أهو الخليل أم الليث؟، وفي شرح ديوان الحماسة[8] : "قال الخليل حكاية عن أبي الدقيش: "تقزيحة: طرائقة، واحده قُزَحَة، والجمع قُزَح".

---

(1) ١٨١/٢.
(2) كوع ٤١/٣.
(3) كوع ٢٠٠/٢.
(4) ٢٥٠/٢.
(5) في ٣٨/٣.
(6) ٢٨/٤.
(7) ١٩٠/٣.
(8) ٢٧٧/٣.

وفي طوح[1] "وسألتُ أبا الدُّقَيْش عن المُدَوِّمةِ الطّواحي. فقال: هنّ النّسور تستدير حوالي القَتْلَى"وهو في التهذيب[2] بإسناد السؤال إلى الليث وفي حبو[3] قال:"ويقال للمسايل إذا اتصل بعضها ببعض: حبا بعضها إلى بعض وأنشد:

تَحْبُو إلى أَصْلابه أَمْعاؤُهُ" ....

وقال أبو الدقيش: تحبو ههنا: تتصل، والمِعَى: كل مِذْنب بقرار الحضيض" وهذا القول في التهذيب[4].

وفي حوح[5]"ويقال لابن مائة لاحاء ولاساء أي لا محسن ولا مسيء ويقال: تفسيره أنّه لا يستطيعُ أن يقول: حا وهو أمرٌ للكَبْش عند السِّفاد، يقال: حأحأت به وحاحيت به. قال أبو خيرة: حَأْحَأْ . وقال أبو الدُّقَيْش: أُحُو أُحُو" .

وفي سلهب[6]: السّلْهَبُ: الطّويل من الخَيْل والنّاس، وسمعت أبا الدُّقَيْش يقول: امرأة سَرْهَبَة كـ السَّلْهبة في الخيل. في الجسم والطُّول".

وفي كمخ[7]: أَكْمَخَ الرّجلُ إكماخاً، إذا جَلَسَ جُلُوس المُتَعَظِّمِ في نفسه، حكاه لنا أبو الدُّقَيْش، فَلبِسَ كِساءً له، ثم جَلَس جُلُوسَ العَرُوسِ على المِنَصّة، وقال: هكذا يُكْمِخُ من البَأْوِ والعَظَمة".

وفي زلخ[8]: الزّلْخُ: رَفْعُكَ يَدَكَ في رَمْيَ السَّهْمِ إلى أَقْصَى ما تَقْدِرُ عَلَيْه، تريد بُعْدَ الغَلْوة، قال:

من مائةٍ زَلْخٍ بمريخٍ غالْ ....

وسألت أبا الدقَيْش عن هذا البَيْت بعَيْنِه. فقال: الزَّلْخُ أَقْصَى غاية المغالي".

---

(١) ٣/٢٧٧.
(٢) ٥/١٨٢
(٣) ٣/٣٠٩.
(٤) ٥/٢٦٥.
(٥) ٣/٣١٦.
(٦) ٤/١٢٢.
(٧) ٤/١٥٧.
(٨) ٤/٢٠٩

وفي فقس[1] "وإذا ماتَ المَيِّتُ يقالُ: فَقَسَ فُقُوساً، هكذا أخبرنيه أبو الدُّقَيش".

وفي سقب[2] "وسألتُ أبا الدُّقَيْش عن قول أبي دُواد: كالقَمَر السَّقْبِ قال: هو الذي امتَلأ وتَم، عَامٍ في كل شيءٍ من نحوِه".

وفي موق[3] "المُوق: مؤخر العين، في قول أبي الدقيش، والماق مُقَدَّمها، ومؤخر العين مما يلي الصُّدغ، ومقدم العين ما يلي الأنف، وآماق العين: مآخيرها ومآقيها: مقاديمها، قال أبو خيرة: كل مَدْمع مُوق من مُؤَخَّر العين، ومقدمها، وقد وافق الحديث قول أبي الدقيش "جاء في الحديث أن رسول الله كان يكتحل من قِبَل مُوقه مرةً ومن قِبَل ماقه مرة" أي مُقَدَّمه مرة، ومن مؤخرها مرة، وهذا القول في التهذيب[4] ، باختلاف في الصياغة، وقد علق على الحديث فقال: إنه غير معروف" وقد وردت الحكاية في الفائق[5] فنسبها إلى الليث.

وفي شثث[6]" الشثّ: شجر طيب الريح مرُّ الطعم ينبت في جبال الغَوْر ونجد، قاله أبو الدقيش، قال في صفة النساء:

وفيهن مثلُ الشَّثِّ يُعْجِبُ ريحُه وفي عينه سُوءُ المذاقة والطعمُ

قال حماس: الشَّثُّ لا ينبت بنجد وأظنه الدِّفلَى ،أي من النساء مثل الشثّ حَسَن المنظر، وفي مخبرتها وصحبتها ما يخالف منظرتها من سوء خلقها وخبث غرضها وعيوب نفسها فمثل الشاعر بها".

وفي بظر[7]" قال أبو الدقيش امرأة بِظْرير شبَّه لسانها بالبظر وهو معروف، وامرأة بِظْرير وهي الصخَّابة الطويلة اللسان، وروى بعضهم بطرير لأنها قد بَطِرت وأشِرت وقول أبي الدقيش إلى الصواب أقرب" ولأبي الدقيش في العين أقوال مبثوثة في الكتاب من أوله إلى آخره كلها يتصل بمادة الكتاب المؤسِّسة له، تجدها في:

(1) ٥/٨٣

(2) ٥/٨٥.

(3) ٢٣٤.

(4) ٦-٩/٢٧٢.

(5) ٣/٣٤١.

(6) ٦/٢١٦.

(7) ٨/١٩٥.

٣٤٧/٢، ١٥١، ٢٧٧، ٣١٦، ٤١١ – ٩٣/٤، ١٢٢، ١٥٧، ٢٠٩ – ٣٥/٥، ٨٣، ٨٥، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٦٤ – الكاشر، ٣٢٢، ٣٨٢، ٣٣/٦، ٤٣، ٨٢، ١١٢، ٢١٦، ٢٣٩، ٢٩٩ – ١٦٩/٧، ٢٣٢، ٢٨٨، ٢٩٧، ٤٠٤ – ١٢٢/٨، ١٩٥، ٢٦٣، ٢٩٦، ٣٠٥، ٣٣٤، ٣٦٨، ٣٩٤ .

أبوليلى :

لم أقف على اسم له، وإنما أشارت بعض المصادر[1] إلى أنه أحد الأعراب الذين انتقلوا إلى الحواضر، وأخذ عنهم اللغويون، ويبدو أن ماخلص إليه د. سزكين[2] من أنه ممن عاشوا في الربع الأول من القرن الثالث صحيح، يؤيده ظهور ما يفيد بمعاصرته عرّاما بن الأصبغ السلمي، فقد عرضت آراؤه التي دونت في العين على عرام، فأنكرها مثل ماحدث في تفسير كلمة "شرعا"، وبعضها لم يعرفه أبو ليلى، وعرفه عرّام مثل الحديث عن كلمة "العمش" وحينا يجمعان على عدم معرفة كلمة مثل كلمة "الصناع" وحينا يفسران كلمة واحدة بتفسيرين مثل كلمة "العصف" وقد رويت أقوال أبي ليلى اللغوية من طريق المنذري عن أبي الهيثم في تهذيب اللغة، ولكن غالب ماورد في العين من أقواله لم يرد في التهذيب، مما يدل على أنها ليست في نسخة العين الأصلية وطبيعة أقواله المروية في العين تدل على طبيعتها الاستدراكية مما يدل على أنها أدرجت في العين تعليقات عليه بعد أن استعرض اللغويون في أول القرن الثالث كتاب العين وشغلوا بمادته العلمية .

ففي عفك[3] الأَعْفَك: الأحمق، وقال أبو ليلى: الأعفك الذي لا يُحْسن عملا ولا خير عنده، قال:

صاح ألم تعجب لقول الضَّيْطَرِ   الأَعْفَك الأَحْذَلِ ثم الأَعْسَرَ

فأبو ليلى استدرك دلالة جديدة، وما استدرك أبو ليلى موجود في التهذيب[4] بإسناد الكلام إلى الليث وكذا هو في التاج[5] .

---

(١) الفهرست.
(٢) في تاريخ التراث العربي ٦٤/١/٨.
(٣) ٢٠٦/١.
(٤) ٢٠٩/١
(٥) عفك.

وفي عكم[1] يقال عكمت المتاع أعكمه عكما، إذا بسطت ثوبا وجمعت فيه متاعا فشددته، فيكون حينئذ عكمة، والعكمان عدلان يشدان من جانبي الهودج، قال أبو ليلى: هما شبه الحقيبتين تكون فيهما ثياب النساء، وتكون على البعير، والهودج فوقهما، وإضافة أبي ليلى في توضيح دلالة العكمين ليست في المعجمات عدا المحيط[2].

وفي عجم[3] قال سعد بن مسمع:

ذا سُبْحَةٍ لو كان حُلْوَ المَعْجَمِ ....

أي: ذا جمال وهذا من سُبُحات الوجه، وهو محاسنه ولأنك إذا رأيته قلت سبحان الله، وقوله "لو كان حلو المعجم"، أي: لو كان محمود الخُبْر كان قد تم أمره، ولكنه جمال دون خُبْر، قال أبو ليلى: المعجم ههنا المذاق عجمته ذقته وما أضافه أبو ليلى قد خلت منه المعجمات العربية.

وفي عرش "وعَرْشُ البيت: سَقْفه، وعَرْش البئر: طَيُّها بالخشب. قال أبو ليلى: تكون بئرٌ رخوٌ الأسفل والأعلى فلا تُمْسِك الطيَّ لأنها رملة، فيُعرِّشُ أعلاها بالخشب بعدما يُطوى موضع الماء بالحجارة، ثم تقوم السُّقاة عليه فيستقون قال:

وما لِمَثَابات العُروش بقيةٌ إذا ... استَلَّ من تحت العُرُوش الدعائمُ

وكلام أبي ليلى لا زيادة فيه، ولكنه توضيح وبسط لما أورده الخليل لا يخرج عن طبيعة الاستدراك ولا يمكن أن يجهله الخليل.

وفي عشم[4]: العيشوم ما هاج من الحُمَّاض. وييس، الواحدة بالهاء، وقد استدرك أبو ليلى، فقال: هي عندنا نبت دقيق طوال يشبه الأسَل محدد الرأس. كأنها شوك تتخذ منه الحُصُر الدقاق المصبغة، فأبو ليلى قد وجه دلالة العيشوم توجيهاً مغايراً لما أورد الخليل، وهذا يدل على أن هذا الكلام لا يمكن أن يكون من صنيع مؤلف الكتاب.

وأقوال أبي ليلى مبثوثة في الكتاب وهي بكثرة في الجزء الأول والثاني، وطبيعتها وأسلوبها وارد بمثل ما أوردت من أمثلة، وهي في:

---

(1) ٢٠٨/١.

(2) ٢٣٣/١.

(3) ٢٣٩/١.

(4) ٢٦٦/١.

٢١٩/١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٧، ٢٩٢، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٩، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٩، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٤٢، ٣٤٤ – ٢/٨، ٢٧، ٥٩، ١٠٦، ١٥٥، ٣٨٦ – ٨/٣٩٤.

عرام :

هو عَرَّام بن الأَصْبغ السُّلمي، أعرابي فصيح من طبقة أبي ليلى وزائدة القيسي، عارف بأسماء جبال جزيرة العرب ومجاهلها راوية للشعر، روى عنه أبو تراب، إسحق بن الفرج، وابن بُزْرج، وقد تردد اسمه كثيرا في العين وأثره في الدراسة الجغرافية واضح[١]، ولكني لم أجد أحدا أشار إلى أثره في الدرس اللغوي مع أهمية ماورد في العين عنه، وكذلك في التهذيب وأقواله الواردة في العين ليست بواردة في التهذيب، عدا كلامه عن "القدوع" مما يدل على أن نسخة العين التي اعتمدها الأزهري كانت خالية من هذه الأقوال، وواضح من خلال الأسلوب الذي وردت به أقواله في الكثير منها أن نسخة العين قد قرئت وعرضت عليه، فقد صرح من عرضها عليه بعدم معرفته لبعض الكلمات، وأثبتت معرفة أبي ليلى، أو العكس، وحينا تثبت عدم معرفته من غير إيراد أقوال لغيره، وطبيعة أقواله الاستدراكية واضحة كل الوضوح مما يحتم القول بدخولها العين بعد انتشار نسخه، ولا يمكن بحال أن يكون مؤلف العين هو من أدخلها ومن تلك الأقوال ما ورد .

في مادة عهن[٢]: قال الخليل: ويقال كل صوف عهن قال عرام لا يقال إلا للمصبوغ فدلالة الكلمة عند الخليل غير ما هي عليه عند عرام، وبعيد أن يؤلف الخليل أو غيره الكتاب ثم يرضى بإيراد قول يناقض قوله دون مناقشة، ومثل هذا ماورد في مادة خلع[٣] .

"الخليع القدح الذي يفوز أولا والجمع أخلعة والخليع من أسماء الغول قال عرام: هي الخلوع لأنها تخلع قلوب الناس ولم نعرف الخليع"

وفي قطع[٤] قال: والتقطيع مغس تجده في الأمعاء قال عرام مغص لا غير.

---

(١) انظر: كتابه – أسماء جبال تهامة وسكانها.

(٢) ١/١٠٨.

(٣) ١/١١٩.

(٤) ١/١٣٦.

وفي لبك[1]: يقال ما ذقت عَبْكَة ولا لَبْكَة، العَبْكَة: قطعة من شيء أو كسرة واللّبكة لقمة من ثريدة ونحوها قال عرام: العَبكة ما تردته من خبز وعبكت بعضه فوق بعض واللبك سمن تصبه على الدقيق أو السويق ثم ترويه.

وفي عجد[2]: العَجَد الزبيب وهو حب العنب أيضا ويقال: بل هو ثمرة غير الزبيب شبيهة به، ويقال: بل هي العَنْجَد لا يعرف عرام إلا العَنْجَد.

العثوج: البعير السريع الضخم المجتمع الخلق يقال اعثوثج اعثيثاجا لم يعرفه عرام ٢٢١/١.

وفي جلع[3]: المُجالعة التنازُع عند شُربٍ أو قِمارٍ أو قِسْمةٍ قال:

ولا فاحش عند الشراب مجالع

وروى عرام مجالح أي مكابر وقال عرام: المجالعة أن يستقبلك بما لم تفعله ويبهتك به، وقد استمرت أقوال عرام على هذه الشاكلة التي تنبئ عن الاستدراك، وانظر:

٩٧/١، ٩٨، ١٠١، ١٠٨، ١٢٤، ١٣٩، ١٤٥، ١٤٧، ١٨٩، ٢٣٥، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦٧، ٢٨١، ٢٨٤، ٢٨٦، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١١، ٣١٢، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٣١، ٣٣٧ – ٥٩/٢، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٣١٧ – ٣٥٠/٤.

أبو خيرة :

نهشل بن زيد العَدَوي، أعرابي فصيح، دخل الحواضر وأقام بها، وأكثر الناس من الأخذ عنه، وهو من طبقة أبي الدقيش معاصر للخليل كما سيتضح من أقواله، له الحشرات، والصفات، وقد تعددت أقواله في المعجم العربي، وقد نقل عنه الخليل وروى عنه، وكذا أبو عمرو بن العلاء، والنضر بن شميل[4]، وما أخذه عنه الخليل جاء معارضاً بأقوال أبي الدقيش غالباً، وهو لا يعدو سبعة أقوال .

---

(١) ٢٠٧/١.

(٢) ٢٢١/١.

(٣) ٢٣١/١.

(٤) انظر: الفهرست ٦٨، إنباه الرواة ١٠٨/١ – ٤ /١١١، بغية الوعاة ٣١٧/٢، تاريخ التراث العربي ٨ /٤٣/١، الأعراب الرواة ٢٤٦، مرويات شمر بن حمرويه ٤٠.

ففي رعظ[1] قال: أبو خيرة المَرْعُوظ: الموصوف بالَّضَّعْف.

وفي لوع[2]: والمرأة اللاَّعة، ويقال: اللاّعة بلامين:التي تغازلك ولا تمكنك، قال أبو خيرة: هي اللاعة بهذا المعنى، والأول قول أبي الدقيش".

وفي هوح[3] قال: حأحأت به، وحاحيت به، قال أبو خيرة: حأحأ وقال أبو الدقيش: أُحُوْ، أُحُو.

وفي موق[4] قال: المؤق: مؤخر العين في قول أبي الدقيش... قال أبو خيرة: مَدمع موق من مُؤخر العين ومُقَدَّمها.

وفي كثث[5] قال: الكَثُّ والأكثُّ: نعت للكبير اللحية ...... قال أبو خيرة: رجل أكث ولحية كثّاء بينة الكثث.

وفي أول[6] قال: في وصف الثور والكلاب:

جَهامٌ تحت الوائلاتِ أواخِرُه ....

رواية أبي الدقيش، وقال أبو خيرة:

جَهامٌ تحت الأوّلات أواخرُه ....

زائدة :

ورد اسمه هكذا في العين في مواضع كثيرة، كما سيأتي في أقواله التي ترددت تردداً ليس له نظير في الكثرة، إلا أقوال أبي الدقيش وعرّام، وقد أورد اسمه الأزهري بطريقتين ففي عثن[7] قال: زائدة البكري، وفي خضم[8] قال القيسي، أما النديم[9] فقد سماه زائدة البكري، ولا تناقض في رأيي بين النسبتين لأن في بني بكر بن وائل قيسا، وقد

---

(1) ٢/٨٤.
(2) ٢/٢٥٠.
(3) ٣/٣١٦.
(4) ٣/٢٣٤.
(5) ٥/٢٧٦.
(6) ٨/٣٦٨.
(7) ٢/١٩٩، وكذا في ٣/١٠١، ٢٢٠، ٨/١٩٣، ٩/١٦٢.
(8) ٧/٥٦.
(9) ١/١٤٩.

قرنت في العين روايته في قعث[1] برواية مبتكر، وأما أبو تراب فقرن روايته برواية حَتْرش الأعرابي،[2] ولم يدر اسمه في المعجمات العربية دورانه في العين، إلا في مرات قليلة فقد روى له الأزهري من طريق أبي تراب،[3]، واقتصرت رواية الأزهري عنه على بعض المسائل ذات الطابع الصوتي.

وما أورده في العين عنه، جاء بأسلوب واحد هو "قال زائدة" ليس فيه من أسلوب النقاش والمساءلة والاستفسار شيء مماظهر واضحا عند أبي الدقيش ، كما أنه خلا من المقارنة بأقوال الأعراب، عدا مرة واحدة حين تحدث عن العَبيبة فقال: ومافي التهذيب من أقواله ليس في العين، كما أن كل مافي العين ليس في التهذيب، وليس في البارع ولا المعجمات الأخرى مع أهميته، وجدارته بأن يحظى بنقاش ومحاكمة، مما يدل على أن النسخة التي اعتمد عليها الأزهري من العين، هي نسخة مغايرة، لأني أستبعد أن يتعمد الأزهري ترك أقواله في حال وجودها في العين، وربما يعود هذا الأمر إلى أن أقوال زائدة دخلت العين عن طريق عرض مادة العين عليه في إحدى نسخ العين، وهذا هو الأقوى في نظري، ويرجح هذا طبيعة تلك الأقوال فأغلبه جاء على نمط الاستدراك والتعقيب؛ مما يظهر أن نسخة من العين كانت موجودة في أواخر القرن الثاني، وهي غير النسخة التي اعتمدها الأزهري، لأن زائدة الأعرابي عاش إلى الربع الأول من القرن الثالث، وأسلوب إيراد أقواله يدل على أنه كان يناقش ويستدرك على مادة العين وهي تُعْرض عليه، ولا يمكن أن يكون ذلك الأسلوب وتلك الاستدراكات من فعل غيره، كما يظهر من أقواله الآتية:

ففي قعقع[4] قال زائدة: "القَعْقعان ضربٌ من التمر" وهو إضافة على ما في العين واستدراك على جمع الخليل وقد وردت الكلمة ثانية في عقد[5] فقال: والعَقْدان ضَرْبٌ

---

(1) تهذيب اللغة ٩/١٦٢.

(2) انظر: السابق.

(3) السابق، ٢/١٩٩، ٣/١٠١، ٢٢٠، ٨/١٩٣، ٩/١٦٢، ١٨٤.

(4) ١/٦٥.

(5) ١/١٤١.

من التمر، سمعت به، وليس من لغتي وأعرف القَعْقَعان من التمر" ولم يورد المعجميون هذه الكلمة بهذه الدلالة.

وفي نعنع[1] قال: والنَّعْنع بقلةٌ طيبة الريح وهو الفَوذنج، واستدرك زائدة فقال: الذي أعرفه النعناع" ولم ينقل قول زائدة في المعجمات مسنداً إليه بل ذكرت صيغة نَعْناع – وذلك في الصحاح، والمحيط والأساس. وكان موضع توهيم في القاموس، ولو عُرف قول زائدة وشهر لما بقيت محل توهيم.

وفي عبب[2] "والعَبيبة شرابٌ يُتخذ من مَغافر العُرْفط، وهو عَرَق كالصَّمْغ يكون حلواً يُضْرَبِ بمِجْدَح حتى يَنْضَج ثم يُشرب" وقد استدرك زائدة فقال: هو بالغين، وهو شراب يُضْرب بالمجدحة ثم يجعل في سِقاء حارٍ يوماً وليلة، ثم يمخض فيخرج منه الزَّبَد ، وقد وردت الكلمة بالعين في التهذيب[3] عن غير ابن الأعرابي فقال: "وقال غيره: العَبيبة بالعين: شيء يَقْطر من المغافير" .

وفي عهن[4] قال: والعِهْنة انكسار في قَضيب من غير بَيْنونة، إذا نظرت إليه حسبته صحيحا، وإذا هززته انثنى، وقضيب عاهِن أي منكسر، وسمي الفقير عاهِناً لانكساره، وقد استدرك زائدة فقال: لا أعرف العِهْنة في ذلك ونحن نسميه الشَّرَج، انشرجت القوس والقناة أي أصابها انكسار غير باتٍ" وقول زائدة ليس في المعجمات.

وفي عرض[5] – "عارض وجهك ما يبدو منه عند الضحك، قال زائدة مستدركا: أقول عارض الفم لا غير" فالخليل يتحدث عن عارض الوجه، وإضافة عارض إلى الوجه لم ترد في المعجمات، والوارد هو ما أشار إليه زائدة[6].

وفي عضر قال: العَضْر لم يُستعمل في العربية، ولكنه حيٌّ من اليمن ويقال: بل هو اسم موضوع لموضع، قال زائدة: عَضَر بكلمة أي باح بها وهل سمعت بعدنا عَضْرة أي خَبَرا. فزائدة استدرك هذه الدلالة ولم يرد في المعجمات استدراك زائدة إلا في تاج

---

(١) ٩١/١.

(٢) ٩٣/١، وذكر قول زائدة مرة أخرى في ٣٥٠/٤.

(٣) غفر ٣٢/١.

(٤) ١٠٨/١.

(٥) العين ٢٧٦/١.

(٦) انظر: التهذيب – عرض ٢٩٦/١.

العروس[1] نقلاً عن الصغاني.

وفي عرزل[2] قال: العِرْزال ما يجمعه الأسد في مأواه من شيء يُمَهده لأشباله كالعُشِّ، قال زائدة: العِرْزال جُحْر لحية، وذكره أبو النجم في شعره" وما أورد زائدة مستدركاً على الخليل ليس في المعجمات.

وفي حكم[3] فرس مَحْكومة في رأسها حَكَمَة، وقد استدرك زائدة فقال: مُحْكَمَة وأنكر مَحْكُومة وما أنكره زائدة مذكور في المعجمات[4]، واستدراكه يستدعي الرد عليه ممن اهتموا بالمعجمات، ولكن بقاء ذلك الكلام وغيره دون رد هو موضع تساؤل.

وفي ملج[5] قال: المَلْج تناول الضَّرْع والثدي بأدنى الفم، وفي الحديث "لا بأس بالإملاجة والإملاجتين" وهو أن يتناول الصبي من ثدي أمه مَلْجَة أو مَلْجتين شُرباً يسيراً ثم تَقْطع ذلك عنه، فلا يُحرِّم به النكاح وفيه اختلاف، قال زائدة اللَّمْجَة واللَّمْجتين ولم تعرف الإملاجة واستدراك زائدة موضع تساؤل فهو لم يرد في المعجمات، كما أن ما استدرك به يوجب الردَّ ولا يستدعي التسليم؛ لأن ورود الإملاجة والإملاجتين ظاهر في الحديث[6] فاش في المعجمات[7]، هذه بعض أقوال زائدة في العين وهي توضح الطبيعة الاستدراكية لأقوال زائدة، وله أقوال أخرى في:

٩٧/١، ١٠٣، ١٣٤، ١٤١، ١٤٢، ١٤٨، ١٤٩، ٢٢٢، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٨٥، ٢٨٨، ٢٩١، ٢٩٨، ٣٢١، ٣٢٤، ٣١٤، – ٢٤١/٢، ٣٤٦، ٣٤٧ – ٢٣/٣، ٣٦، ٥٤، ٥٥، ٥٩، ٦٠، ٧١، ٩٦، ١١٥، ٣١٧، ٣٥٠، – ١٢/٦، ٢٣، ٢٦، ٢٨، ٣٣، ٣٨، ٤٦، ٨٩، ٩٢، ٩٤، ١٠٠، ١٠٥، ١٠٧، ١١١، ١٤٥، ١٥٨، ١٩٥.

مُبْتكر:

هو الكلابي[8] وهو أحد الأعراب الذين أخذ عنهم اللغويون حينما انتقلوا إلى

---

(١) عضر.

(٢) ٣٣٤/٢

(٣) ٦٧/٣

(٤) انظر: الاشتقاق لابن دريد ٧٥، ١٤٧، الزاهر ٣٤٤/١، المحكم – حكم ٤٢٨/١، التهذيب حكم ٧١/٤.

(٥) ١٤٠/٦.

(٦) انظر: سنن سعيد بن منصور ١٣٧/١، ٢٤١.

(٧) انظر: الجمهرة ملج ٤٩٢/١، التهذيب ٧٢/١١، النهاية ملج.

(٨) انظر: تاريخ التراث العربي ٧٥/٨.

الحواضر، وقد ورد اسمه في العين في مواضع قليلة، وقد قُرن قوله بقول عَرّام مرة واحدة في العين، وقد ورد له في التهذيب واللسان أقوال كثيرة حكاها عنه أبو سعيد الضرير الكوفي ١٧٨هـ – ٢٨٢هـ وأبو تُراب، وما ورد في العين من أقوال له لم يرد في التهذيب، وعدم قبوله لما يراه عرام في كلمة ((اقتعطت)) دليل على أن مادة العين قد عرضت عليه في فترة مبكرة، وأقواله في العين ليست بالكثيرة ومع قلتها في العين، لم تنتقل إلى المعجمات العربية عدا قول واحد أورده ابن عباد في المحيط.

ففي قعط[١] قال عرام: القَعْط شِبه العِصابة، والمِقْعَطَة ما تعصب به رأسك، ويقال قَطَعت العمامة في معى اقتعَطْتها، وأنكر مبتكر قَعَطْت بمعنى اقتعطت، ولم يذكر رأي مبتكر في إنكار قعطت في التهذيب[٢]، ولكنه وارد في المحيط دون إسناد لمبتكر "فقال: قعطت العمامة واقتعطت لم أدرها تحت الحنك[٣]".

وفي قعث[٤] قال:

أقْعَثني منه بسَيْب مُقْعِث ليس بمنزورٍ ولا بريِّثِ

والقعث الكثرة، وإنه لقعيث أي كثير واسع من المعروف ونحوه، قال مبتكر الأعرابي اقتعث وقعث وعذم له من ماله واعتذم وعثم له واعتثم. وليس قوله في المعجمات التي اطلعت عليها.

وفي جعن[٥]: جَعْوَنة اسم رجل من البادية، قال مبتكر: بنو جَعْوَنة بطن من بني تميم، وليس قول مبتكر في المعجمات .

وفي جمل[٦]: قال مبتكر: الجَميل اسم للحَرّ، وهذا القول فيه إضافة دلالية، ولم أقف عليه في المعجمات التي رجعت إليها .

مزاحم :

لم أستطع الوصول إلى معلومات تحدد شخصية هذا العلم؛ لأن كتب اللغة لم

---

(١) ١٣٩/١

(٢) قعط ١٢٨/١

(٣) المحيط قعط ١٤٦/١.

(٤) ١٤٩/١.

(٥) ٢٣٢/١.

(٦) ١٤٣/٦.

تذكره، وكذلك كتب تاريخ علم اللغة، وكنت أظن أنه مزاحم بن الحارث بن مُصَرِّف الذي تكرر ورود اسمه في المعجمات العربية وفي الكتب اللغوية، إلا أن السمات التي كانت عليها شخصية مزاحم العقيلي أبت هذا وردته، فمزاحم العقيلي شاعر، وليس بلغوي وهو متقدم على زمن تأليف العين، فهو معاصر لجرير والفرزدق، وأما مزاحم الوارد اسمه في العين فهو متأخر عن الخليل والليث؛ لأن أبا تراب روى عنه كما قال الأزهري في مادة زنجل، كما أنه قد علق على كلمة البِرِّيت الواردة في شعر رؤبة ورؤبة عاش إلى ١٤٥هـ [1] وقد استدرك أبو زيد الأنصاري على الخليل تفسير دلالة كلمة قبعثرى٠٠٠٠ فقال هي ... وفي مادة قبعثر في العين وجدت حكاية موافقة مزاحم لأبي زيد في العبارة الآتية: وقال بعضهم ليس ذا بشيء ووافقه مزاحم، قال: ولكن القبعثرى دابة من دواب البحر لا ترى إلا منقبعة في الثَّرى أو على ساحل البحر، وهذا دال على أن أقواله الستة التي وردت بصيغة الاستدراك في العين إنما هي من عمل غير الخليل، وأنه من طبقة غير طبقة الخليل والليث، وجميع ماورد من أقواله في العين لم يجد طريقه إلى المعجمات التي اعتمدت العين مصدراً لها مثل الجمهرة والتهذيب و البارع، مما يسند خلو العين منها أصالة، ومما يدعم صحة القول بدخولها العين في فترة بعد عصر الخليل .

والتأمل في هذه الأقوال بأدنى فحص وبأسرع قراءة يظهر الطبيعة الاستدراكية لهذه الأقوال، ومن غير المقبول عقلا وواقعا أن يورد الخليل استدراكات غيره عليه، ثم يتوقف عن مناقشتها أو الرد عليها.

ففي عرز[2] قال: والتَّعْرِيز كالتعريض في الخصومة، ويقال العَرْز اللوم، قال مزاحم: التعريز التوذير وإفساد الشيء وتعييبه. وما استدركه مزاحم من معنى دلالي للتعريز ليس في المعجمات.

وفي جشب[3] قال: والجُشاب من الندى الذي لا يزال يقع على البقل. قال:

رَوْضاً بِجَشَّاب الندى مَأْدُوما ....

قال مزاحم: كل شيء وقع على شيء فقد جشبه، وجَشَبَك الله شَبابك أي أماته

---

(١) انظر وفيات الأعيان ٢/٣٠٥.

(٢) ١/٢٥٢.

(٣) ٦/٣٩.

وذهب، وأقول جشب الندى البقل أي رده يعني ركبه، فكاد يغيبه، وقول مزاحم لم يأخذ طريقه إلى المعجمات العربية.

وفي سنج[1]: السناج أثر دخان السراج على شيء أو الجدار، قال مزاحم سَنَّجت الشيء إذا كَهَّبته بلون سوى لونه، وهو كل ما لَطَّخْت شيئا بشيء فقد سنَّجته، وما استدرك به مزاحم لم يجد طريقه للمعجمات.

وفي زجر[2]: والأزجر من الإبل الذي في فَقار ظهره انخزال أو من دَبَر، قال مزاحم: الأزجر من الإبل مثل الأفزر، والفزر في الظهر، وناقة زَجْراء ونوق زُجْر، وكذلك قوم فُزْر وجمل أزْجر. وقول مزاحم ليس في سوى العين معجم آخر سوى العين.

وفي شسيف[3] قال: واللحم الشَّسِيف الذي كاد يَيْبس وفيه نُدُوَّة بعد، قال مزاحم بالباء والفاء أقولهما جميعا، وبالفاء أحسن، وقول مزاحم ليس في سوى العين.

وفي برت قال: "البَرْت: الفأس بلغة اليمن، والبرت بلغتهم السكر الطبرزد، وقال مزاحم: المُبَرِّت والبِرِّيتُ في شعر رؤبة اسم اشتق من البرية في قوله:

يَنْشَقُّ عني الخَرْقُ وَالبَرْيَتُ ....

فكأنما أسكن الياء فصارت الهاء تاء فغلبت وجعله اسما للبرية وهو الصحراء والجمع البراريت فصارت التاء كأنها أصليةفي التصاريف كما لزمت التاء في عفريت".

حماس :

لم أستطع الوصول إلى ماينبئ عن شخصية هذا الرجل في كتب اللغة وكتب تاريخ علم اللغة، والذي يبدو لي أنه من طبقة متأخرة عن الخليل والليث، فأقواله ذات طبيعة استدراكية لايمكن أن يكون الخليل هو من دونها في كتابه، ثم إن هذه الأقوال لم تجد طريقها إلى المعجمات العربية، ولو كانت هذه الأقوال الاستدراكية موجودة في نسخ العين المتقدمة لوجدنا من يحتفل ويهتم بها، وخصوصا الأزهري، والقالي، والأقوال المنسوبة لحماس في العين أخذت منحى الاستدراك والتعقب بوضوح ظاهر بين.

---

(١) ٦/٥٦.

(٢) ٦/٦١.

(٣) ٦/٢٢٩.

ففي عكر[1] قال: والعكر القطيع الضخم من الإبل فوق خمسمائة قال:

فيه الصَّواهلُ والرايات والعَكَر ....

فقال "حماس رجال معتكرون أي كثير" بإضافة كلمة "معتكرون" في حق الرجال.

وفي زمع[2]: الزمع هنات شبه أظفار الغنم في الرسغ في كل قائمة زمعتان كأنهما خلقتا من القرون تكون لكل ذي ظلف ويقال: للأرانب زمعات خلف قوائمها، ولذلك يقال لها زموع قال الشماخ:

وما تنفك بين عُوَيرضاتٍ تَجُرُّ برأس عِكْرِشَةٍ زَموع

قال حماس: زموع فردة من الأرانب تكون وحدها. فالأرنب زموع عند الخليل لوجود الزمعات، وهي زموع عند حماس لأنها فردة.

وفي عدل[3] والعَدَوْلية: ضَرْبٌ من السفن نسب إلى موضع يقال له عَدَوْلاة أميت اسمه، قال حماس وأرويه أيضا عَدُولية من الاستواء والاعتدال، فحماس يرى الكلمة من العَدْل والاعتدال برواية جديدة.

وفي عدو[4] لأنه إذا كان فقيرا لم ير الناس له قيمة ولا ينتفعون بحلمه ولا يهابونه وإذا كان غنيا هيب واحتمل له وإن كان جهولا طمعا فيما عنده، قال:

أما تريني اليومَ لا أعدو غَنَم أعين ما اسطعتُ وعَوْني كالعَدَم

قال حماس: قوله لا أعدو غنم أي ليس لي فضل على الغنم، أي على حفظها، ويكون المعنى ليس عندي منفعة ولا كفاية، إلا مثل كفاية شاة من الغنم، فقول حماس بهذا القول إنما هو توجه مغاير لماهو عليه عند الخليل، وهذه هي طبيعة الاستدراك لا طبيعة المادة الأصلية في الكتاب.

وقد استمرت أقواله في الكتاب على هذا الشكل .

وانظر: ٦/ ٢١٦، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٤٨، ٢٨٠، ٢٨٤.

أبو عمرو : وهو ابن العلاء :

أحد القراء السبعة المشهورين، وإمام أهل البصرة في القراءات والنحو واللغة،

---

(١) ١/ ١٩٧.

(٢) ١/ ٣٦٧.

(٣) ٢/ ٤٠.

(٤) ٢/ ٥٧.

أخذ عن جماعة من التابعين ومات سنة ١٥٩هـ وميلاده ووفاته قبل الخليل مما جعل الزبيدي يعده في الطبقة الرابعة قبل طبقة الخليل[١] وقد وردت أقواله في العين في مواضع معدودة، وما ورد من أقوال له في العين لا يؤثر في مسألة نسبة الكتاب، لأن أبا عمرو أسبق من الخليل، لكنني مع هذا أستبعد أن تكون هذه الأقوال في العين أصالة، لأنها لم تأخذ طريقها إلى المعجمات التي صدرت عن العين، وما ورد منها في تلك المعجمات فقد صرح بروايته عن طريق ليس هو طريق الخليل وتلك الأقوال هي:

عين[٢] قال: يوصف بسعة العين فقال بقرة عيناء وامرأة عيناء ورجل أعين ولا يقال ثور أعين وقيل يقال ذلك وروي عن أبي عمرو وهو حسن العينة والعين والفعل عين عينا وقول أبي عمرو ليس في معجمات اللغة .

وفي حزن[٣] قال: الحُزْن والحَزَن لغتان إذا ثقّلوا فتحوا، وإذا ضموا خففوا، يقال أصابه حُزْن شديد وحَزَن شديد، ويقال حَزَنني الأمر يُحْزنني فأنا مَحْزون وأَحْزنني فأنا مُحْزَن، وهو مَحْزون لغتان أيضا، ولا يقال حازن، وروي عن أبي عمرو إذا جاء الحزن منصوبا فتحوه، وإذا جاء مرفوعاً أو مكسورا ضموا الحاء، وقول أبي عمرو في التهذيب[٤] فيما رواه يونس عنه، وهو في اللسان والتاج[٥].

وفي حير[٦] قال: والحارة كل مَحَلّة دنت من منازلهم، فهم أهل حارة، قال أبو عمرو أنشدتني امرأة من حمير وهي تُرَقِّص ابنا لها:

يا ربنا من سَرَّه أن يَكْبَرا   فهب له أهلاً ومالاً حَيِّرا

والحَيِّر الكثير من الأهل والمال، ورواية أبي عمرو في الجمهرة[٧] من رواية أبي حاتم عن الأصمعي عن أبي عمرو، وهو في التهذيب [٨].

---

(١) انظر طبقات النحويين واللغويين ٣٥، بغية الوعاة ٢٣١/٢.

(٢) ٢٥٥/٢/٢.

(٣) ١٦٠/٣.

(٤) حزن ٢١١/٤.

(٥) حزن .

(٦) حزن .

(٧) ٢٨٩/٣.

(٨) حير ٢٦٨/١.

وفي بلغ[1] قال: شيء بالغ أي جيد والمبالغة أن تبلغ من العمل جُهْدك قال الضرير: سمعت أبا عمرو يقول: البَلْغ ما يبلغك من الخبر الذي لا يعجبك القول "اللهم سَمْعٌ لا بَلْغٌ" أي اللهم نسمع بمثل هذا فلا تُنْزِله بنا وليس في شيء من المعجمات حسب اطلاعي.

وفي جلب[2] قال: والجُلْبة العُوذة التي يخرز عليها الجِلْد وجمعها الجلب، وقال علقمة يصف فرسا:

بغَوْجٍ لَبانه يُتَمُّ بَريمُه   على نَفْث راقٍ خشيةَ العين مُجْلِبِ

الغَوج: الواسع جلد الصدر، والبريم خيط يعقد عليه عُوذة، ويتم بريمه أي يطال إطالة لسعة صدره "والمُجْلب الذي يجعل العُوذة في جِلْب ثم يخاط على الفرس عن أبي عمرو، وكلام أبي عمرو في التهذيب[3]، وما في التهذيب ليس في اللسان.

وفي صرصر[4] قال: وقال أبو عمرو الصَّرْصَراني من البُخْت: العظيم" وقول أبي عمرو ليس في المعجمات العربية عامة، ولا فيما صدر عن العين منها خاصة كالتهذيب.

وفي صور "قال أبو عمرو والصوار ريح المسك، قال:

إذا تقومُ يضوعُ المسكُ أصورةً   والعنبرُ الوردُ من أردانها شَمِلُ

ورواية أبي عمرو لم يُشَر إليها في المعجمات، وإنما قيل وروى بعضهم كما هو في المخصص[5]، لسان العرب[6].

وفي بدي قال:

وهُمُ أيسارُ لقمانَ إذا   أغلت الشتوةُ أبداء الجُزُرْ

وقال أبو عمرو: الأبداء: المفاصل، والواحد بَدَى مقصور، وكلام أبي عمرو في التهذيب[7]، اللسان والتاج.

---

(1) ٤/٤٢١.
(2) ٦/١٣٢.
(3) جلب ١١/٦٤.
(4) ٧/٨٣.
(5) ٥/١٤٨.
(6) مادة – صور.
(7) بدى ١٤/١٤٤.

أبو عبيدة :

هو معمر بن المثنى أخذ عن أبي عمروبن العلاء، ويونس بن حبيب وعيسى بن عمر، وأبي الخطاب الأخفش، وقد ولد سنة ١١٠هـ وبرع في علوم العربية وتوفي سنة ٢١٣هـ تقريباً[١]، ولم يتردد اسمه كثيرا في العين فلم يرد سوى مرتين تتصلان بإيراد شاهدين على دلالة وردت في العين وهما:

"والخنذيذ: البذيء اللسان، والخنذيذ الخطيب الماهر الفائق في كل شيء وأنشد أبو عبيدة يصف الشاعر الخنذيذ:

عنا .... صدودَ البَكْر عن قَرْم هِجان[٢]"

وفي قصر[٣]: والقَصَرة: أصل العنق، وكذلك عنق النخلة أيضا، ويجمع القَصَر والقَصَرات، وقال أبو عبيدة: كان الحسن يقرأ ﴿ إنها ترمي بشرر كالقَصَر كأنه جملت صُفْر ﴾[٤] ويفسر أن الشرر يرتفع فوقهم كأعناق النخل ثم ينحط عليهم كالأينق السود. ولم أقف على قوليه في مجاز القرآن.

أبو عبيد :

القاسم بن سلام الهروي المتوفى سنة ٢٢٤هـ وقد ورد اسمه مرتين في كتاب العين، ولم يكن من تلاميذ الخليل ولا الليث، ولكنه من تلاميذ تلاميذ الخليل فقد أخذ عن النضر بن شميل، وما ورد له في العين متصل بكلمتين "الجِعَة وصَمَح" وهما من الألفاظ الواردة في لغة الحديث، فالكلمة الأولى لم يوردها مؤلف العين، ووردت استدراكا على نقص مادة العين، ومن أوردها فيه من المحشين جعلها في مادة "هجع" وهي في غريب الحديث لأبي عبيد وفي التهذيب واللسان في مادة "جعو" والكلمة الثانية وردت في العين أصلا والمنقول عن أبي عبيد فيها يتصل بإضافة شاهد لها من الحديث.

ففي هجع[٥] الهِجْعَة ومثلها الجِعَة عن أبي سعيد: نبيذ الشّعير والذُّرة وعن أبي

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ١٧٥، بغية الوعاة ٢/٢٩٤.

(٢) ٤/٢٤٥.

(٣) ٥/٥٩.

(٤) سورة المرسلات: آية ٣٣.

(٥) ١/٩٨.

عبيد نبيذ الشعير، وكلام أبي عبيد في غريب الحديث[١].

وفي صمح[٢]: صمحه الصيف: كاد يذيب دماغه من شدة الحر ... وفي حديث مقتل حُجْر بن عَدي عن أبي عبيد في ذكر سُمية أم زياد "إنها لوَطْباء شديدة الصِّماح تحب النكاح" أي: شديدة الحَرّ. وقول أبي عبيد هذا في غريب الحديث[٣]، وكتاب غريب الحديث ألف بعد زمن الخليل.

سيبويه:

هو عمرو بن عثمان بن قنبر، أحد تلاميذ الخليل النابهين توفي سنة ١٨٠هـ[٤] وقد ورد ذكره مرتين في العين.

ففي كرع[٥]: قال سيبويه الكُراع الماء الذي يُكْرَع فيه، والذي في الكتاب[٦] "وقالوا كَرَع كُرُوعاً، والكَرَع الماء الذي يُكْرَع فيه".

وفي جدع[٧]: والجَدْعة موضع الجَدْع من المجدوع، قال سيبويه: يقال جَدَّعته أي قلت له جَدْعاً، وهذا القول في الكتاب[٨].

ووفاة الخليل قبل ظهور كتاب سيبويه، مما يؤكد إضافة القولين – تعليقا.

أبو عبد الله:

وردت كنيته هذه في مواضع قليلة في العين، ويبدو أنه من العلماء لا من الأعراب يظهر هذا واضحا من خلال حديثه عن البناء والقياس والاشتقاق والجموع، ويغلب عندي أنه ابن الأعرابي أبو عبدالله محمد بن زياد ١٥٠هـ – ٢٣١هـ [٩] وورود استدراكاته يضفي كثيراً من الشك على صحة القول إن كتاب العين ظل غير معروف عند جيل الخليل وطلابه.

---

(١) ١٢٩/٣.

(٢) ١٣٥/٢.

(٣) ١٧٦/٢.

(٤) طبقات النحويين واللغويين ٦٦، بغية الوعاة ٢٢٩/٢.

(٥) ٢٠٠/١.

(٦) ٤٣/٤.

(٧) ٢١٩/١.

(٨) ٥٨/٤.

(٩) طبقات النحويين واللغويين ١٩٥، بغية الوعاة ١٠٥/١.

ودوران أقواله في العين، لم يتجاوز سبعة مواضع، تتضح فيها جميعاً طبيعة المادة الاستدراكية أو التوضيحية التي تدل على أن ورود أقواله إنما كان مُدرجاً في الكتاب بعد عَرْضه عليه وقراءته له. ففي عقق[1] قال أبو عبد الله: أصل العَقِّ الشَّقُّ وإليه يَرْجع عُقوق الوالدين، وهو قطعهما، لأن الشقّ والقطع واحد. يقال عّقّ ثوبه إذا شقّهّ وعقّ والديه يَعُقُّهما عقاً وعُقُوقا" وقد روى المفضل جزءاً من هذه المادة توضح بجلاء مدى صعوبة استجلاء قول الخليل من قول المستدركين عليه أحيانا، وقد أورت كلام المفضل فيما سبق[2].

وفي نصع[3] "النَّصِيعُ: البَحْر، قال:

أدليتُ دلوي في النَّصِيع الزاخر ....

لم يعرفه عرام ولم ينكره، قال أبو عبد الله هو بالضاد والباء وكذلك البيت ولم يشك فيه، وقال هو مأخوذ من البّضْع وهو الشّق كأن هذا البحر شُقَّة شُقَّت من البحر الأعظم" وقد اعتمد هذا القول الأزهري في التهذيب دون أن يشير إلى "أبي عبدالله" ودون ردّ أورد في العين بالصاد "النصيع".

وفي علط[4] العِلاط كيٌّ وسِمَة في العنق عَرْضا، وثلاثة أَعْلِطة، ويجمع على عُلُط، عَلَطتُ البعير أَعْلُطه عَلْطا، قال أبو عبد الله: هو أن تَسِمَه في بعض عُنُقه في مُقَدَّمه، واسم تلك السِّمة العِلاط، وما قاله أبو عبدالله ليس في المعجمات عند تحديد معنى كلمة عِلاط، إلا ما كان من ابن فارس في معجم المقاييس فقد قال: "وهي كيٌّ وسِمَة تكون في مقدم العنق عَرْضا"[5].

وفي عفر[6] قال: ولقيته عن عُفْر أي بعد حين، وأنشد:

أعكرمَ أنت الأصلُ والفرعُ والذي ... أتاك ابن عمٍ زائراً لك عن عُفْر

قال أبو عبدالله يقال إن المُعَفَّر المفطوم شيئا بعد شيء، يحبس عنه اللّبن للوقت

---

(1) ٦٣/١.
(2) ص ١٢.
(3) ٣٠٦/١.
(4) ٢-١٠.
(5) المقاييس علط ٤/١٢٤.
(6) ٢-١٢٤.

الذي كان يرضع شيئاً ثم يعاد بالرضاع ثم يزاد تأخيرا عن الوقت، فلا تزال أمه به حتى يصبر عن الرضاع فتفطمه فِطاماً باتّاً، وما قاله أبو عبدالله شارحاً كلمة "معفر" ليس في المعجمات العربية مما يوضح أمرين:

١- أن هذه الاستدراكات قد علقها العلماء على العين في فترة مبكرة، وظلت في بعض نسخ العين عاريةً منها نسخ أخرى، ولو كانت من لدن الخليل لما أهمل مثل هذا التعليق الذي له أثر واضح في توجيه الدلالة كل من أعتمد العين مصدراً له. كابن دريد والأزهري.

٢- أن كتاب العين قد أهمل ووجد الصدود ممن ألفوا في المعجمات بعد حملة الأزهري عليه ولذا بقي ما عُلِّق به على الكتاب وما استدرك به عليه في دائرة التجاهل.

وفي بغث[1] قال: البُغاث طير كالبواشيق لا تصيد شيئا من الطير الواحدة بُغَاثة ويجمع على البِغْثان، قال أبو عبد الله: هو الرخم وشِبْهه واستدراك أبي عبدالله بأن البُغاث هو الرَّخم ليس له وجود في المعجمات، والميل بالكلمة إلى دلالة لم تُورَدْ أمرٌ يلفت الأنظار وهو جدير بالاهتمام وإثباته ومناقشته، لكن هذا لم يكن لأن العين قد غيب عن الساحة.

القاسم :

هو ابن معن من رؤساء النحويين الكوفيين[2] روى عنه الكسائي، ومحمد بن إسحق بن عيسى، وكان من طبقة أبي عمرو بن العلاء، وهو ممن سمع عن العرب[3] ومات في خلافة هارون الرشيد سنة ١٧٥هـ[4] وأقواله التي في العين لم تتردد كثيراً .

ففي نغف[5] قال: النَّغَف دود عُقْف ينسلخ عن الخنافس ونحوها. قال القاسم النَّغَف: دود في عَظْمي الوجنتين لكل رأس نَغْفَتان أي عظمان ويقال من تحركهما يكون العطاس. وما قاله القاسم بنص مختصر في المحيط[6]، ومنه تسرب إلى الفائق[7].

---

(١) ٤/٤٠٢.

(٢) انظر طبقات النحويين واللغويين ١٣٣، بغية الوعاة ٢/٢٦٣.

(٣) اللباب في علوم الكتاب ١٧/٢٨٠، المحرر الوجيز ٥/٥٤، ٣٣٤.

(٤) الثقات لابن حبان ٧/٣٣٩، الوافي بالوفيات ٧/٢١٧ سير أعلام النبلاء ٨/١٩٠، معجم الأدباء ٢/٢٧٤.

(٥) ٤/٤٢٤.

(٦) ٥/٩١ .

(٧) نغف .

والتاج[1]، وليس في المعجمات المتقدمة التي أعتمدت العين كالتهذيب والبارع .

وفي سقي[2]: والسَّقْي ماء أصفر يقع في البطن، وفي الحديث "سقيت الشراب" أي ما اتخذ من خَشَب أو خَزَف أو قَرَع، وقال القاسم لا أعلمه إلا من الجلود وليس هذا القول للقاسم في المعجمات العربية.

وفي قوز[3]: القَوْز من الرمل مستدير صغير تشبَّه به أرداف النساء، قال القاسم: هو طويل معقب وهذا هو الكثيف، وليس قول القاسم في المعجمات العربية.

وفي وقر[4] قال القاسم: وُقِرت دواب ويقال وَقِرتَ، وليس قول القاسم في المعجمات العربية.

وفي سرج[5] سرج الله وجهه وبهجه أي حسنه، قال العجاج:

وفاحِماً ومَرْسِناً مُسَرَّجا ....

لم يعن به أنه أفْطس مُسَرَّج الوسط، لكن عنى به الحُسْن والبهجة، قال القاسم: شبَّه حسن الأنف وامتداده بالسيف السُّريجي، وهو ضرب من السيوف، وليس قول القاسم في المعجمات التي اعتمدت العين ولا غيرها حسب اطلاعي وتنقيبي.

وواضح أن أقوال القاسم هذه على سبيل الاستدراك والزيادة على مافي العين وأنها دخلت العين في فترة متأخرة، ولو وجدت في نسخه الأصلية الأولى لما أغفل من نقلوا مادة العين هذه الأقوال.

الضرير:

هو أبو سعيد أحمد بن خالد البغدادي، لغوي أديب سمع من أبي عمرو الشيباني، وابن الأعرابي، وسكن نيسابور، وأخذ عن الأعراب الذين أقدمهم ابن طاهر كأبي العميثل وعَوْسجة، وقد عاش عمراً طويلا وأخذ عنه ابن الفرج وغيره، وقيل إنه توفي سنة ٢٨٢هـ [6] وقد تردد اسمه في المعجمات العربية عن طريق التهذيب، وغالب ماورد عنه متعلق بلغة

---

(١) نغف.

(٢) ١٩٠/٥.

(٣) ١٩/٥.

(٤) ٢٠٧/٥.

(٥) ٥٣/٦.

(٦) انظر بغية الوعاة ٣٠٥/١.

الحديث، والمصدر الذي أفاد منه الأزهري ومن ثَمَّ غيره، هو كتاب الرد على أبي عبيد في غريب الحديث، يؤيد هذا الألفا ظ التي تعلقت أقواله بها في التهذيب واللسان مثل البَبَّان ،السَّبَجَة، الأَرْصَح، ابهارَّ، الخامة، النَّذْر، ألأرْزَن، التِّيعة، قَصْعُ الجِرَّة، الزاحف، الكاهل، الشَّنْق .

وقد تردد اسمه في العين كثيراً، غالباً بلقبه الضرير ونادراً بكنيته"أبو سعيد"، وما ورد له في العين لم أقف عليه في المعجمات العربية وخصوصا الجمهرة والتهذيب وماطبع من البارع، وهذا يدل على أن:

١- أن كتاب العين يخلو في نسخته الأصلية من هذه الروايات الكثيرة عن أبي سعيد، إذ لو كانت موجودة لما تجاهلتها هذه المعجمات التي نقلت كل مافي العين .

٢- أن نسخة العين ظلت متداولة بين أيدي العلماء في الفترة من ١٨٥هـ إلى ٢٨٨هـ وهي الفترة التي عاش فيها أبو سعيد عند عرض مادة العين عليه، فقد صرح بعدم معرفة الضرير لكلمة "العِلَّوض".

٣- أن هذه النقول والروايات المروية عن أبي سعيد لا يمكن بحال أن تكون من عمل مؤلف العين، سواء كان الخليل أو الليث لأنها استدراكات وردود لما قاله المؤلف، ولايتصور أن مؤلفاً سيذكر ما يراه ثم يورد أقوال من هم دون طبقته لرد أقواله وتسفيه حُجَجه ولننظر الأمثلة الآتية:

ففي نزع قال[1]: المَنْزَعة إذا نزعت يدك عن فيك بالإناء فنحَّيته، تقول إن هذا الشراب لطيب المنزعه.

قال الضرير: المَنْزَعة: الاجتذاب، وهو أن يَجْرع جرعاً شديداً، وواضح أن أبا سعيد توجه بالدلالة إلى معنى مغاير لما أثبت الخليل، وليس قول الضرير في المعجمات.

وفي رَجَع[2] قال: الاسترجاع أن تقول إنا لله وإنا إليه راجعون، قال الضرير أقول رجع ولا أقول استرجع. وليس قول الضرير في المعجمات.

وفي عهق[3] قال: والعَيْهقة عَيْهَقة النشاط والاستِنان قال:

---

(١) العين ٣٥٨/١.

(٢) ٢٢٦/١.

(٣) ٩٧/١.

إن لِرَيْعان الشبابِ عَيْهَقا ....

قال الضرير: هو بالغين وهو الجنون وقد عاقب بين العين والغين، قال زائدة هو بالعين المهملة، واستدراك الضرير هذا، أورده الأزهري لا على أنه من كلام الضرير بل قال: "سمعناه من الثقات"[1].

وفي زعج[2] قال: "الإزعاج نقيض القَرار، أزعجته من بلاده فشَخَص، ولا يقال فَزَعَج، ولو قيل انزعج وازدعج لكان صوابا وقياسا، قال الضرير لا أقوله، ولكن يقال أزعجته فَزَعَج زَعْجاً".

وقد تناثرت أقوال الضرير الاستدراكية في أجزاء العين جميعها فهي في:

١/٩٨، ١٠٩، ١٤٥، ١٧٤، ١٩٢، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٧٩، ٢٩٥، ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٢٩، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦٦ – ٣/٢٨، ٩٢، ٢٤٧ – ٤/٢٢٠، ٢٢٤، ٢٤٤، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٦٦، ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٤٧، ٣٨٦، ٤١٨، ٤٢١، ٤٢٤، ٢٧٣، ٢٧٥، ٣٣٠، ٣٣٨، ٣٤٨، ٣٥٤ – ٥/٣٥٧، ٣٦٩، ٤٠١ – ٦/٢٦، ٢٨، ٢٩، ٧٢، ٢٩٨ – ٧/٢٧، ٣٢٧، ٣٨٢.

الليث بن المظفر:

ابن نصر بن سيار، بارع في اللغة والنحو، واشتغل بالكتابة عند البرامكة، وهو أحد تلاميذ الخليل المقربين منه، وهو قريب من الخليل سنا فقد ولد في سنة ١٢٠هـ تقريبا وتوفي سنة ١٩٥هـ[3]، وهذه الفترة قريبة من تاريخ وفاة الخليل وماورد له من ذكرفي العين كان في ثلاثة عشر موضعا أخذت الأساليب الآتية:

١- الرواية والنقل "قال الليث قال الخليل".

٢- الحوار والاستفسار "قال الليث: قلت فكيف".

٣- الاستدراك والزيادة، وقد ورد في ثلاثة مواضع في "العقيقة" و"الكسع" و"الحب" وهذه الأقوال المسندة لليث لم يرد منها في التهذيب سوى قول الليث عن "الحب والكرامة": سمعت هاتين بخراسان.

وقد اجتهد الأزهري ونسب كل ما في العين لليث مما جعل اسمه يتردد في

---

(١) تهذيب اللغة عهق ١/٢٥.

(٢) العين ٢/٢١٧.

(٣) انظر: ترجمته في نزهة الألباء ٤٦، ١٩٦، بغية الوعاة ٢/٢٧٠.

التهذيب في كل صفحة، في حين أنه لم يرد في العين إلا مرات قليلة لا يمكن عند النظر إليها وعند فحص مضمونها أن تكون مؤثرة في توجيه نسبة العين إلى غير الخليل، وتلك الأقوال هي:

"قال أبو معاذ عبد الله بن عائذ حدثني الليث بن المظفر بن نصر بن سيار عن الخليل بجميع ما في هذا الكتاب، قال الليث "وهذا أسلوب متبع في رواية الكتب.

وفي مقدمة العين[1]: قال الليث قال الخليل في العربية تسعة وعشرون حرفا" وفي المقدمة[2] أيضاً "قال الليث قلت: فكيف تكون الكلمة المولدة المبتدعة غير مشوبة بشيء من هذه الحروف فقال نحو الكشعثج ".

ومثل هذا أيضاً "قال الليث قال الخليل فالعين والحاء والخاء والغين"[3] ومثل هذا الأسلوب ورد في ١/٥٩، ٢/٣٤٥، ٣/٢١٥.

ومما جاء بصيغة السؤال ما ورد في مادة عشر[4].

"قال الليث قلت: للخليل زعمت أن عشْرين جمع عشْر والعِشْر تسعة أيام، فكان ينبغي أن يكون العشرون سبعة، وعشرين يومان، حتى تستكمل ثلاثة أتساع، فقال الخليل: ثمانيَ عشر يوما عِشْران، ولما كان اليومان من العِشْر الثالث مع الثمانية عِشْر يوماً، سميته بالجمع، قلت: من أين جاز لك ذلك، ومثله ما ورد في ١/٣١٢، ٣/ ٥.

ومما جاء بصيغة الاستدراك قول الليث في مادة عقق[5]، قال الخليل العرب تقول عَقّ الرجل عن ابنه يَعِقُّ إذا حلق عَقيقته وذبح عنه شاة وتسمى الشاة التي تذبح لذلك عقيقة قال ليث توفر أعضاؤها فتطبخ بماء وملح وتطعم المساكين ومثل هذا ما ورد في مادة كسعَ[6] وحبب.

القتيبي :

وهو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة البغدادي ولد سنة ٢١٣هـ أي بعد وفاة

---

(١) ١/٥٧.

(٢) ١/٥٢.

(٣) ١/٥٨.

(٤) ١/٢٤٦.

(٥) ١/٦٢.

(٦) ومثله ما ورد في كسع ١/١٩٢ و حبب ٣/ ٣٢.

الخليل والليث رحمها الله ومات سنة ٢٦٧ هـ [١] وقد ورد له ذكر في العين في مادة سهر وفي مادة وصر.

ففي سهر[٢]: والساهور من أسماء القمر، وقال القتيبي: بل هو في ليل تمامه" وهذا قول متعقب مستدرك، ولم أقف على هذا الكلام في غريب الحديث لابن قتيبة، ولكن الأزهري أورده في التهذيب قائلا:وقال غيره: الساهور للقمر كالغلاف للشيء ... قاله القتيبي" وفي وصر[٣] قال: قال القتيبي: الوِصْر : كتاب الشراء، والأصل: إصر ...."

وقول ابن قتيبة في غريب الحديث [٤].

وإذا عرفنا أن ما في العين من أقوال لابن قتيبة منقولة بنصها من غريب الحديث فهل يصح أن تحمل على غير أنها من عمل المستدركين الذين رأوا في عمل الخليل بعض الفُرَج فاجتهدوا في سدها؟إن مؤلف العين أكان الخليل أم الليث لا يمكن بحال أن يكون من أضاف هذه الأقوال ،بل إن الاستدلال بها على التشكيك في نسبة الكتاب غير وجيه ولا مقبول.

رافع :

ورد اسمه في العين مرة واحدة ففي مادة .

ثعل[٥] قال: والأنثى من الثعالب ثُعالة، ويقال للذكر أيضا ثُعالة. قال رافع: الثُّعْل دويبة صغيرة تكون في السقاء إذا خبث ريحه" وقد انتقل هذا القول إلى المحيط، ومنه إلى القاموس والتاج. ورافع المذكور لم أستطع التعرف على شخصيته وربما يكون من الأعراب، وربما يكون هو رافع والد الليث بن المظفر.

موسى :

ورد اسمه مرتين في العين، ولم أستطع التعرف عليه. وقد ورد قوله على سبيل إضافة دلالة كلمة من صفات الفرس ففي مادة ضبع قال موسى: فرس ضابع إذا كان يتبع أحد شِقّيه فيثني عُنُقه، وهو أن يركض فيقدم إحدى رجليه ويُجْمع ضَوابع"، ولم تظهر

---

(١) بغية الوعاة ٢/٦٣.

(٢) العين ٤/٧..

(٣) العين ٧/٧..

(٤) ٢/١٩٨.

(٥) ٢/١٠٩.

هذه الكلمة في المعجمات إلا في المحيط، التاج.

وفي عفط قال: يقال يعفط في كلامه عَفْطاً، ويَعْفِتُ كلامَه عَفْتاً، وهو عَفّاتٌ عَفّاط، ولا يقال على وجه النسبة الأعفطي، والعَفْطة ريح الجوف المصوت، قال موسى: العافط كلام الراعي للإبل، والنفيط للشاء ضائنها وماعزها والكلمتان واردتان في المعجمات، وهما في العين على سبيل الاستدراك. ولا وجود لهذا الكلام منسوباً إلى موسى في المعجمات العربية حسب اطلاعي.

أبو أحمد حمزة بن زرعة :

لم أتمكن من التعرف على هذا العلم، ولم أجد له ذكرا فيما اطلعت عليه من مصادر ومراجع، وقد ذكرفي العين باسمه وكنيته في موضعين وذكر باسمه في ثلاثة مواضع، وما دون في العين من رأي له ليس في المعجمات التي اعتمدت العين مصدرا لها، وآراؤه في العين تدل على أن طبيعتها استدراكية تعقبية، وهي تنم عن شخصية علمية لا عن راوية.

ففي مقدمة العين[1] تحدث الخليل عن حذف الحرف الثالث (الياء من يد) فقال: فلما جاء التنوين ساكنا جُمع ساكنان، فثبت التنوين لأنه إعراب، وذهب الحرف الساكن" قال أبو أحمد حمزة بن زرعة معقباً: قوله يد دخلها التنوين وذكر أن التنوين إعراب، قلت: بل الإعراب الضمة والكسرة التي تلزم الدال في يد في وجوه، والتنوين يميز بين الاسم والفعل ألا ترى أنك تقول تفعل فلا تجد التنوين يدخلها، وألا ترى أنك تقول رأيت يدك وهذه يدك وعجبت من يدك فتعرب الدال وتطرح التنوين، ولو كان التنوين هو الأعراب لم يسقط، فأما قوله فموان فإنه جعل الواو بدلا من الذاهبة، فإن الذاهبة هي هاء وواو، وهما إلى جنب الفاء، ودخلت الميم عوضا منهما، والواو في فموين دخلت بالغلط، وذلك أن الشاعر يرى ميما قد أدخلت في الكلمة، فيرى أن الساقط من الفم هو بعد الميم فيدخل الواو مكان ما يظن أنه سقط منه، ويغلط. وفي مقدمة[2] العين قال الخليل: "أما البناء الرباعي المنبسط فإن الجمهور الأعظم منه لا يعرى من الحروف الذُّلق، أو من بعضها، إلا كلمات نحوا من عَشْر جئْن شواذ ومن هذه الكلمات العسجد والقَسَطوس والقُداحس والدُّعْشوقة والهُدَعة والزَهْزَقة وهي مفسرة

(١) ٥١/١.

(٢) ٥٣/١.

في أمكنتها" قال أبو أحمد حمزة بن زرعة: هي كما قال الشاعر:

ودُعْشُوقَة فيها ترَنَّحَ دَهْثَمٌ   تَعَشَّقْتها ليلاً وتحتي جُلَاهقُ

فأضاف ابن زرعة هذا الشاهد.

وفي كثع[1] "يقال شفة ولثة كاثعة، أي كادت تنقلب من كثرة دمها وامرأة مكثعة، والفعل كثعت تكثع كثوعا. فاستدرك ابن زرعة فقال: قال أبو أحمد مكثعة على غير قياس، وعسى أن تكلمت به العرب، وعن غير الخليل لبن مكثع أي قد ظهر زبده فوقه".

وفي حنذ[2] "الحنذ اشتواء اللحم المحنوذ بالحجارة المسخنة تقول أنا أحْنِذُه حَنْذًا قال العجاج:

ورَهِبا من حَنْذِه أن يَهْرَجا   ....

يعني الحمران يحنذها حرُّ الشمس على الحجارة، قال أبو أحمد الحنذ مصدر والحنيذ والحَنْذ اسمان للحم، وقد يسمى الشيء بالمصدر، إلا أن هذا لم يرد به المصدر، وقوله تعالى: (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) أي: مشوي.

وفي حبذ[3] "حبذا أي: أحبب بهذا، قال أبو أحمد أصلها حبب ذا فأدغمت الباء الأولى في الثانية، ورمي بضمتها". وواضح من خلال هذه الأقوال:

١- أن أبا أحمد ورد كلامه في أسلوب الاستدراك.

٢- أنه أحد العلماء فهو يتكلم عن القياس والاشتقاق والإدغام وهذا غالباً ليس بمذهب الرواة.

وليس في المعجمات أثر لهذه الأقوال فيما اطلعت عليه، كما أن اسمه لم يرد فيها.

* * *

---

(١) ١٩٦/١.

(٢) ٢٠١/٣.

(٣) ٢٠٣/٣.

الخاتمة:

بعد نظر وتنقير في العين وفيما صدر عنه من المعجمات وفيما قيل فيه عبر تاريخ علم اللغة العربي يمكن أن أخلص إلى:

١- أن الكثير مما قيل عن الكتاب ومؤلفه لم يصدر عن نظر في الكتاب منهجاً ومادة – بل عن صورة أسهم في تشكيلها ووضْع إطارها العلماء من باب إمكانية الحدوث أو استحالته. لا من منطلق المادة والمنهج.

٢- أن مادة العين في الصورة التي وصل بها إلينا فيها الكثير من التعليقات والاستدراكات التي ليست في المعجمات التي صدرت عن العين خصوصاً ولا هي في المعجمات العربية عموما.

٣- أن أول كتاب العين لا يخالف آخره وأقوال العلماء والرواة واستدراكاتهم وتعليقاتهم مبثوثة في أول الكتاب وفي آخره.

٤- أن المادة العلمية التي سجلها العلماء في العين مستدركين عليه هي المادة الأولى للاستدراك في المعجمات العربية، ومع أهميتها وعظم شأنها واستحقاقها الدراسة والاهتمام ظلت بعيدة عن التأثير في الصورة التي وصل إليها المعجم العربي عند المتأخرين لأن من صدروا عن الكتاب كابن دريد والأزهري والغالي صدروا من نسخ ليست فيها هذه الاستدراكات بعيدة عن الدراسة وعن الدخول في المعجمات العربية ولا تناقش إلا كمسوغ للشك في نسبة الكتاب.

٥- أن ادعاء وجود أقوال في العين لعلماء عاصروا الخليل أو جاؤوا بعده لم يشر إليها من عني بالكتاب في المشرق العربي ممن اعتمدوه مصدراً كالأزهري ولم تظهر إلا عند الزُّبيدي .

٦- أن خلو المعجمات العربية التي جاءت في المرحلة الثانية كالجمهرة والتهذيب والبارع مما ورد في العين من أقوال أولئك االعلماء والإشارة إليها عند الزُّبيدي تدلل دلالة قاطعة على أن نسخة العين الأصلية خالية من تلك الأقوال.

٧- أن طبيعة تلك الأقوال استدراكية تعقيبية فهي تناقض ما أورده مؤلف الكتاب أو تكمل نقص جمعه وتدوينه ويستحيل مع هذه الطبيعة أن تكون لمؤلف الكتاب.

٨- بعض الأقوال قد ورد بصيغة استفهام وفي سياق مناقشة وبمادة علمية هي من

المادة التي تؤسس للكتاب، مما يدل على أن موردها هومؤلف الكتاب نفسه ويتمثل هذا في أقوال أبي الدقيش وأبي خيرة وعرام.

٩- أن أقوال العلماء والرواة المتقدمين في الكتاب والأقوال التي نقلها المتقدمون عن الخليل كابن المعتز والحربي وأمثالهم يدل على أن قول أبي حاتم أن الكتاب لم يعرف غير مسلم له به.

١٠- أن أقوال العلماء في العين وردت بصيغتين صيغة قال غيره أو قال غير الخليل وبصيغة الإسناد إلى أناس معينين كانوا من الأعراب المعاصرين للخليل وممن جاؤوا بعده وكانوا من العلماء الذين جاؤوا بعد طبقة الخليل وقد وصل مجموع من نص على اسمه في العين واحدا وعشرين شخصا.

١١- أن الحملة التي تحمس لها الأزهري ومن بعده نالت من قيمة الكتاب عند المهتمين بالمعجمات فبقي أثر العين المباشر في المعجمات المتأخرة محصورا فيما ظهر لي في ثلاثة معجمات هي مقاييس اللغة ومجمل اللغة لابن فارس ومحيط اللغة لابن عباد على أن الدارس يلمح أثر الكتاب في الدراسات اللغوية بوجه عام على نحو ما نجده عند ابن هشام اللخمي في المدخل إلى تقويم اللسان.

١٢- أن من تعرضوا لكتاب العين ومؤلفه كانوا على أربعة أقسام قسم ينسبه للخليل مع اختلاف في المقدار، وقسم يتوقف وينقل عنه بإسناد ما نقل إلى صاحب العين دون تحديد، وقسم ينفي صلة الخليل بالكتاب، وقسم يجعل بعضه مع اختلاف في المقدار للخليل وبعضه لليث.

١٣- لا تزال الأقوال الواردة في العين على سبيل الاستدراك والتعقب على ما أورده الخليل بحاجة إلى دراسة تضعها في إطارها من حيث الصحة والخطأ في مجال الأصوات والتصريف والدلالة.

١٤- أن متقدمي النحاة الكوفيين قد اهتموا بالكتاب أكثر من اهتمام البصريين ولذا ورد من أقوالهم وتعليقاتهم واستدراكاتهم أكثر مما ورد للبصريين وذلك لأبي سعيد الضرير وللقاسم بن معن وابن الأعرابي. ولعل المصطلحات الكوفية التي وردت في الكتاب جاءت عن طريق هؤلاء.

١٥- حاجة المصطلحات والقراءات القرآنية والشواهد في الكتاب إلى تتبع يدحض ما

ورد من شبهات حولها أو يدعمها.

16- ذكر الزُّبيدي وبعض المحدثين أسماء ممن قالوا إن لهم أقوالاً في العين وهم غير موجودين فيما حقق من نسخة العين الموجودة الآن كالمسعري والأصمعي والزجاج.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين فاتحة كل خير وتمام كل نعمة.

* * *

فهرس المصادر والمراجع:

١- أخبار النحويين – للسيرافي، تحقيق طه محمد الزيني، مكتبة الحلبي القاهرة.

٢- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمقري – إحياء التراث الإسلامي – ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

٣- استدراك الغلط للزبيدي – عبدالعلي الودغيري، المناهل – العدد الثامن، السنة الرابعة، ١٩٧٧م.

٤- الاستذكار لابن عبدالبر –دار الكتب العلمية تحقيق سالم محمد عطا ،محمد علي معوض.

٥- أسماء جبال تهامة وسكانها، لعرام بن الأصبغ، تحقيق عبدالسلام هارون. ط١ – ١٣٧٣هـ.

٦- أبوزيد الأنصاري ونوادر اللغة . د. محمد عبدالقادر أحمد، ١٩٨٠م – النهضة المصرية.

٧- الاشتقاق لابن دريد، تحقيق عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي – ١٣٧٨هـ – ١٩٥٨م.

٨- الأعراب الرواة. د. عبدالحميد الشلقاني.

٩- أولوية تدوين المعاجم – يوسف العش.

١٠- البارع للقالي – تحقيق د. هاشم الطعان، بغداد – مكتبة النهضة ١٩٧٥م.

١١- البديع – لابن المعتز، نشر – أغناطيوس كراتشقوفسكي – مكتبة المثنى – بغداد.

١٢- البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي – تحقيق د. وداد القاضي – ط١ – دار صادر بيروت.

١٣- بغية الوعاة – للسيوطي، تحقيق محمد أبوالفضل ––– المكتبة العصرية – بيروت.

١٤- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة – للفيروزآبادي، تحقيق محمد المصري – ط: ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م. جمعية إحياء التراث.

١٥- تاريخ آداب العرب – جرجي زيدان.

١٦- تاريخ الإسلام – للذهبي، تحقيقق عمر تدمري، ط١ – ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م دار الكتاب العربي – بيروت.

١٧- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المكتبة السلفية – المدينة المنورة.

١٨- تاريخ قضاة الأندلس–أبو الحسن المالقي–دار الآفاق الجديدة –بيروت – ١٤٠٣هـ–١٩٨٣– ط٥.

١٩- تداخل الأصول اللغوية وأثره في بناء المعجم العربي – د. عبدالرزاق الصاعدي ط١.

٢٠- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، دار إحياء التراث – بيروت.

٢١- تقويم اللسان – لابن هشام اللخمي، تحقيق – د. حاتم الضامن، ط١ ١٤٢٤هـ دار البشائر الإسلامية.

٢٢- **تهذيب اللغة** لأبي منصور الأزهري، تحقيق – عبدالسلام هارون، المؤسسة المصرية العامة.

٢٣- **ثمار القلوب** للثعالبي، تحقيق – إبراهيم صالح، ط١ ١٤١٤هـ – ١٩٩٤ – دار البشائر.

٢٤- **الثقات** لابن حبان–دار الفكر–ط١–١٣٩٥هـ –١٩٧٥–تحقيق السيد شرف الدين أحمد.

٢٥- **جذوة المقتبس**.للحميدي: تحقبق محمد بن تاويت. مكتب نشر الثقافة الإسلامية.

٢٦- **جمهرة اللغة** – لابن دريد، تحقيق – رمزي البعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، ط١ – ١٩٨٨م.

٢٧- **الخصائص** لابن جني، تحقيق د. محمد النجار، دار الكتاب العربي – بيروت.

٢٨- **الخليل**، كتاب العين – د. هادي حمودي، ١٩٩٤م – عمان.

٢٩- **دائرة المعارف الإسلامية**. دار الشعب ١٣٨٩هـ.

٣٠- دراسات **في المعاجم العربية** د. إميل يعقوب ط١ –١٩٨١م–دار العلم للملايين.

٣١- الدلائل – للسرقسطي، تحقيق – محمد القناص، ط١ – ١٤٢٢هـ – مكتبة العبيكان.

٣٢- **ذيل تاريخ بغداد**. لابن النجار – دائرة المعارف – الهند – ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨.

٣٣- **الرد على الانتقاد على الشافعي في اللغة** – لأبي بكر البيهقي، تحقيق – د. عبدالكريم بكار – دار البخاري.

٣٤- **الزاهر في معاني كلمات الناس** لابن الأنباري تحقيق حاتم الضامن ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م – مؤسسة الرسالة.

٣٥- **سنن سعيد بن منصور**.دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ

٣٦- **سير أعلام النبلاء** – للذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة – بيروت ط٤ ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

٣٧- **شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف** – للعسكري، تحقيق – عبدالعزيز أحمد، ط١ – ١٣٨٣هـ – ١٩٦٣م، البابي الحلبي.

٣٨- **ضحى الإسلام** – أحمد أمين، ط ١٠ – دار الكتاب العربي – بيروت.

٣٩- **طبقات الشعراء** – لابن المعتز – تحقيق – عبدالستار فراج. دار المعارف بمصر ط٤.

٤٠- **طبقات النحويين واللغويين** للزبيدي – تحقيق محمد أبوالفضل. دار المعارف ط٢.

٤١- **شرح صحيح البخاري** – دار القكر ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٤٢- **عمدة القاري**.شرح صحيح البخاري لابن حجر . دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٤٣- **العين في ضوء النقد اللغوي** - د. نعيم البدري، ط١ - ١٩٩٩م - دار أسامة.

٤٤- **العين** للخليل بن أحمد، تحقيق د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، دار الرشيد ١٩٨٢م.

٤٥- **الفاخر** للمفضل بن سلمة، تحقيق عبدالعليم الطحاوي ط١ - ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م، دار إحياء الكتب العربية.

٤٦- **فتح الباري**.بشرح صحيح البخاري. دار الفكر. ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

٤٧- **الفهرست** - للنديم، تحقيق - رضا تجدد المازندراني - إيران.

٤٨- **في أصول اللغة** - د. طنطاوي محمد دراز.

٤٩- **غريب الحديث** لابن قتيبة، تحقيق - د. عبدالله الجبوري، مطبعة العاني - ١٩٧٧م.

٥٠- **غريب الحديث** للحربي، تحقيق، د. سليمان العايد، ط١ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م جامعة أم القرى.

٥١- **اللباب في علوم الكتاب** لأبي حفص عمر بن علي الدمشقي -دار الكتب العلمية -بيروت -لبنان ١٤١٩هـ ط١.

٥٢- **لسان العرب** لابن منظور، دار صادر - بيروت.

٥٣- **لسان الميزان** لابن حجر العسقلاني_مؤسسة العلمي للمطبوعات -بيروت ط٣-١٤٠٦-١٩٨٦.

٥٤- **المبهج في تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة** لابن جني ط٢ ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م . دار الكتاب العربي .

٥٥- **مجلة الحكمة** - العدد الثاني والعشرون، محرم ١٤٢٢هـ.

٥٦- **محاولة جديدة في دراسة كتاب العين**. د. صلاح مهدي الفرطوسي . من مجلة المجمع العلمي العراقي ط١ - المجلد الثامن والثلاثون - ١٩٨٧م.

٥٧- **المحتسب** لابن جني، تحقيق - علي البحتري ورفقاه، دار سزكين. ط٢ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٥٨- **المحرر الوجيز** لابن عطية، دار الكتب العلمية.

٥٩- **المحيط** - لابن عباد، تحقيق - محمد آل ياسين، عالم الكتب - بيروت.

٦٠- **مختصر العين** - للزبيدي، تحقيق - نور حامد الشاذلي، ط١ ١٩٩٦م - عالم الكتب.

٦١- **مختصر العين** للزبيدي - تحقيق - د. عبد العزيز الحميد - رسالة محفوظة في كلية

اللغة العربية بالرياض.

٦٢- **المخصص** لابن سيده. ط - ١٣١٦هـ - المطبعة الأميرية ببولاق.

٦٣- **مراتب النحويين.** لأبي الطيب اللغوي، تحقيق محمد أبوالفضل، دار نهضة مصر.

٦٤- **مرويات شمر بن حمرويه** - جمع وتحقيق - د. حازم البياتي - مركز جمعه الماجد - دبي.

٦٥- **المزهر في علوم اللغة** للسيوطي، دار الفكر.

٦٦- **مشكلات في التأليف اللغوي.**

٦٧- **المعاجم العربية** - د. إبراهيم نجا - ١٩٨١م - مطبعة السعادة.

٦٨- **المعاجم العربية** - د. إميل يعقوب. دار العلم للملايين - بيروت.

٦٩- **المعاجم العربية.** د. أمين فاخر ط١ - ١٩٨٤م. مطبعة حسان

٧٠- **المعاجم العربية** - د. عبدالله درويش - ١٤٠٦هـ المكتبة الفيصا ة.

٧١- **معجم الأدباء** - ياقوت الحموي - مطبعة عيسى البابي الحلبي.

٧٢- **المعجم العربي** - د. حسين نصار - دار مصر للطباعة، ط٢ - ١٩٦٨م.

٧٣- **معجم ما استعجم** للبكري - تحقيق مصطفى السقا، ط٣ - ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م. عالم الكتب - بيروت.

٧٤- **المعجمية العربية** - أبحاث الندوة التي عقدها المجمع العلمي العراقي - ١٩٩٢م، مطبوعات المجمع العلمي العراقي.

٧٥- **مقاييس اللغة** لابن فارس - تحقيق عبدالسلام هارون - دار الكتب العلمية - إيران.

٧٦- **مقدمة ابن خلدون.** دار الكتب العلمية. ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٧٧- **نزهة الألباء في طبقات الأدباء.** لابن الأنباري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم _ دار نهضة مصر.

٧٨- **النهاية في غريب الحديث والأثر** لابن الأثير - تحقيق د. طاهر الزاوي ود. الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت.

٧٩- **نوادر اللغة** لأبي زيد الأنصاري، تحقيق محمد عبدالقادر أحمد - دار الشروق - بيروت ط١ ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٨٠- **الوافي بالوفيات** للصفدي، ط٢ - مجموعة من المحققين صادر - بيروت.

٨١- **وفيات الأعيان** - لابن خلكان - تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة.

نَقْدُ مذهب التَّقي السُّبكي في دلالة التقديم على الحَصْر
دراسة بلاغية

أ.د. محمود توفيق محمد سعد
قسم الدراسات العليا العربية ـ كلية اللغة العربية
جامعة أم القرى

نَقْدُ مذهب التقي السُّبكي في دلالة التقديم على الحَصْر

دراسة بلاغية

أ.د. محمود توفيق محمد سعد
قسم الدراسات العليا العربية
كلية اللغة العربية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

ملخص البحث:

يقوم هذا البحثُ على مراجعة علمية ناقدة مذهب التقيّ السُّبكي (٦٨٣- ٧٥٥هـ) فيما ذهب إليه من التفريقِ بين الاختصاصِ والحصر، وإلَى أنّ تقديم المعمول على عامله يفيد الاختصاص، ولا يفيد الحصر ، مستدلاً بأنّ الفضلاء من أهل العلم لم يقل أحدٌ منهم بأن هذا التقديم يفيد الحصر، ولم يجرِ هذا المصطلح على ألسنتهم، وما جرى هو إفادته الاختصاص . وقد أبان البحثُ عن مرجعية مذهب التقي في هذا، وناقشه، وأبان عمَّا فيه من مجاوزة منهجية ، وما في تأويله البيان من نظرٍ . وانتهى إلى أنّ الّذي عليه البلاغيون من أنّ بعض صور تقديم المعمول على عامله في بعض السياقات يُفيد الحصر بمدلوله الاصطلاحي عند البلاغيين، وأنّ العلماء الذين استند إليهم التَّقي السُّبكيّ لا يذهبون مذهب التقيّ . وأثبت البحثُ أنّ من جلة العلماء المتقدمين من صرح بإفادة التقديم الحصر على خلافِ ما زعمَ ، ولو أنّ التقيّ السُّبكي قال بأنّ الاختصاص هو الغالب والحصر نادر، لكان لما قال وجهٌ يُسكت عن مراجعته، ولو أنّه راجع ما قال أهلُ العلم مراجعة استقرائية ناقدة لرجع عما ذهب إليه، فالتقيّ علَى الرغمِ منْ أنّه أصوليّ فقيه لم يستْثمر عقله الأصُولي في الالتزام بضوابط المُناقدة العلمية للبلاغيين في هذه المسألة.

من معهود جمهرة أهل العلم في زمن التقيّ السبكيّ : عليّ بن عبد الكافي بن عليّ بن تمّام السبكي (٦٨٣- ٧٥٥هـ) [١] تدوين رسائل في مسائل مفردة، هي أشبه بالمقالات العلمية في زماننا ، فما يكاد العالم يناقشُ مسألة إلا ويسجل ما يذهبُ إليه في رسالة، فكثرت الرسائل العلمية المنسوبة إلى أهل العلم ، وهذا نهجٌ حميدٌ حفظ لنا غير قليلٍ مما أنتجته عقولهم.

التقيّ السبكي تعددت رسائله ، وكان لولده تاج الدين السُّبكيّ فَضلٌ في رصد أسماء رسائل أبيه العلمية ، ومؤلفاته ، وهذا ما تراه في ترجمته في طبقات الشافعية ، وهو متداولٌ في أيدي أهل العلم . ونقل بعضًا من رسائله في مجموع فتاوى السبكي من خطّ أبيه التقيّ كما صرح في فاتحة الفتاوى . ورسائل التقيّ السبكيّ متنوعة فنونها ، والذي يعنينا الآن ما هو ذو علاقة ببلاغة العربية ، ومن أهم تلك الرسائل :

- رسالة : الاقتناص في الفرق بين الحصر والقصر والاختصاص .
- رسالة : الإغريض في الفرق بين الحقيقة والمجاز والكناية والتعريض[٢].
- رسالة : الرّفدة في معنى وحده[٣].
- رسالة : نيل العلا في العطف بـ(لا)[٤].
- أحكام (كلّ) وما عليه تدلّ[٥].
- الإقناع في الكلام على أن (لو) للامتناع .

---

(١) من شاء مزيدًا من ترجمة التقي السّبكيّ فدونه كتاب ولده التاج السُّبكي " طبقات الشافعية " تحقيق : عبد الفتاح الحلو ، ومحمود الطناحي . الجزء العاشر – طبعة الحلبي بالقاهرة فهو أوثق وأوفى ما ترجمه من المصادر.

(٢) قدّمتُ الرسالة محققة مشروحة في مجلة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر . المنوفية .

(٣) نشرالدكتور زيان أحمد الحاج إبراهيم هذه الرسالة محققة في مجلة معهد المخطوطات العربية مج:٢٨ ع ٢ – شوال : ١٤٠٤هـ . .وهي منشورة في كتاب (الأشباه والنظائر في النحو للجلال السيوطي،مراجعة فايز ترحيني ، دار الكتاب العربي – بيروت – ط ١٤١٤هـ . :ج٤ ص١٤٣–١٥٢.

(٤) نشرالدكتور خالد عبد الكريم جمعة الرسالة محققة في مجلة معهد المخطوطات العربية مج٣٠ج١ –الكويت:شوال:١٤٠٦هـ .ونشرت أيضاً بتحقيق د.جمال مخيمر في القاهرة ١٩٨٩م، وهي منشورة في كتاب الأشباه والنظائر في النحو للجلال السيوطي– (م.س) ج٤ ص ١٣٧– ١٤٢.

(٥) نشرت بتحقيق د.جمال مخيمر بالقاهرة ١٩٨٥م.ثم بتحقيق د. طه محسن في بغداد ٢٠٠٠م.

- بيان حكم الربط في اعتراض الشرط على الشرط[1].
- التعظيم والمنة في (لتؤمنن به ولتنصرنه).
- وشي الحلى في تأكيد النفي بـ(لا).
- البصر الناقد في" لا كلمت كل واحد".

ورد نصّ رسالته " الاقتناص في الفرق بين الحصر والقصر والاختصاص" في كتاب "عروسِ الأفراح في شرح تلخيص المفتاح" لولده البهاء السّبكي"(ت ٧٧٣هـ) في مبحث "تقديم معمولات الفعل عليْه" [2] وفي كتاب " فتاوى السبكي" التي جمعها ولده "التاج (ت ٧٧١هـ).

وورد في كتاب " الإتقان في علوم القرآن " للسيوطي ، وفي كتاب "مفتاح السعادة ومصباح السيادة" في موضوعات العلوم لطاش كبرى زاده.

ويعدُّ كتاب " عروس الأفراح " للبهاء السبكي ، و"فتاوى السبكي " جمعُ التّاج السّبكي من أوثق المصادرفي هذا ، فالفتاوى يقولُ ولده التاج في مفتتحها:

" وبعد فهذه آيات متفرقة، وفتاوى في مسائل من الفقه متعددة، من كلام شيخ الإسلام الشيخ الإمام تقي الدين آخر المجتهدين أبي الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الشافعي، تغمّده الله برحمته، منقولة من خطه حرفا حرفا. فإذا قلنا: قال الشيخ الإمام، إلى أن نقول:" انتهى" فاعلم أنّ ذلك كلّه كلامه نُقل من خطه ، ولم يُنقل عنه شيْءٌ بالمعنى ، بل بالعبارة ، وكذلك إذا أطلقنا ، وكذا المسألة، فاعرف أنّها منقولةٌ من خطّه حرفًا حرفًا".

فهذان مصدران عاليان يوثَقُ بنقلهما ، بل ما في "الفتاوى " نقلٌ من نسخة المؤلف ، وما في "العروس" إن لم يكن نقلا من نسخته، فالناسخ إمام في علم البلاغة، فوق أنه ولد المؤلف.

* * *

---

(١) حققت في جامعة أم القرى سنة ١٤١٤هـ.

(٢) عروس الأفراح ج٢ ص١٥٤ (ضمن شروح التلخيص–ط: عيسى الحلبي – القاهرة) وعروسِ الأفراح – تحقيق: خليل إبراهيم – ط: دار الكتب العلمية :١٤٢٢هـ. مج:١ ص ٤٧٨.

محاور مقال التقيّ السبكي (٦٨٣-٧٥٥هـ) في رسالته "الاقتناص":

قام قول التقيّ السبكيّ في رسالته على محاور منها:

١- تقرير موقف الناس من إفادة تَقْدِيمِ الْمَعْمُولِ الاخْتِصَاصَ، فَمنهم من قالَ بِه، ومنهم مَنْ يُنْكِرُ ذَلِكَ وَيَقُولُ: "إنّما يفيد الاهتمام ،وهو مفاد مذهب سِيبويْهِ إذ قال فِي كِتَابِهِ: وَهُمْ يُقَدِّمُونَ مَا هُمْ بِهِ أَعْنَى. أمّا الْبَيَانِيُّونَ فَعَلَى إِفَادَتِهِ الاخْتِصَاصَ ومن النّاسِ من يفهم من الاختصاص الحصر. وَلَيْسَ كَذَلِكَ. وَإِنَّمَا الاخْتِصَاصُ شَيْءٌ وَالْحَصْرُ شَيْءٌ آخَرُ. وَالْفُضَلاءُ لَمْ يَذْكُرُوا فِي ذَلِكَ لَفْظَةَ الْحَصْرِ. وَإِنَّمَا قَالُوا الاخْتِصَاصُ".

٢- أخذ فِي إيراد مقالات أهل العلمِ معتمدًا على الزمخشريّ في تفسيره "الكشّاف عن حقائقِ التنزيل وعيُونِ الأقَاويل فِي وُجُوهِ التَّأويل"، ساعيًا إلى تأويل مقالتهم. ومناقشا من يذهبُ إلى القولِ بإفادة التقديم الحصر.

٣-يقرّرُ أنَّ من يتتبع مواقع تقديم المعمولِ في الكتابِ والسنة، وأشعارِ العرب لا يرى إفادة الحصر، بل الاختصاص، ويدفعُ مقالةَ القائلين بالحصر، ويتعجب من ذلك.

٤- يُبين لنا أنَّ مسالك الحصرِ في العربية ثلاثة، ويجعل أسلوب التقديم أدناها - على فرضِ التسليم الجدليّ عنده - وهو لا يعدُّ منها هنا العطف بلا ولكنْ وبل ،على الرّغم منْ أنّه فيها يقول بإفادة قولنا: "زيد كاتبٌ لا شاعر". قصر الموصوف إفرادًا كما يقول البلاغيون[1] وكذلك لم يعدّ تعريفَ الطرفين، ولا ضمير الفصل ،على الرَّغم من أنّ الأصوليين يقولون بإفادتهما الحصر، ولم يذكر ما عدّه الأصوليون من أساليب مفهوم المخالفة، وتخصيص العامّ بالمتصل.

وهذا ما يعملُ هذا البحثُ على مناقدته تفسيرًا وتقويمًا، كشفًا لوجه الحقّ في المسألة بالحجة والبرهان.

* * *

(١) ينظر: الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي: ٤/ ١٤٧.

نَقْدُ التصور العلمي لدلالة التقديم عند التقيّ السّبكي:

تنتمي المسألةُ التي يتكلمُ فيها التّقيُّ إلى باب : دلالة الصُّورة (الأسلوب) على المعنى، ووجه دلالتها ، ومستوى دلالتها ، وهي مسألة تقوم في عدة فنون من العلم، منها علْم أصولِ الْفقهِ ، وعلْمِ التّفسير ، وعلم البيان .... ولكلِّ علمٍ من هذه العلوم منهاجه وأدواته وغايته التّي يحط رحالَه عندها ، وهي غاياتٌ متفاوتةٌ ، أبعُدها غايةُ البلاغِيّ ، وأقربُها غاية المفسّر، فهَمُّ المفسّر كشفُ المعنى المكنون في الصورة (الأسلوب) وليس منَ همّه الحكمُ عليه ، ولا من هَمّه بيانُ جهة دلالة الصورة على المعنى ، ولا كيفية الدّلالة ، ولا مستوى دلالة الصورة على المعنى ، هو مهمومٌ باستنباط المعاني المكنونةِ على تنوّعها سواء كانت معانيَ عقليّةً أو نفسيّةً، أو معانيَ عقديّةً أو شرعيّةً أو أخلاقية . كلّ ذلك عنده سواءٌ ، فإذا ما قام بذلك فقد وفّى حقّ الفريضة ، وليس بالمسؤول عن ما وراء ذلك .

والأصوليُّ غايتُه استنباطُ المعاني الشّرعيّة القائمة بالأمر والنّهي ، ومهمُومٌ ببيان مستويات الدّلالة ، والعلاقة بين هذه المعاني الشرعية عموما وخصوصًا ، وإطلاقا وتقييدا ، ومهمومٌ بدرجات الدّلالة ليفاضل بيْنها حين تتعارضُ كما هو معهودٌ في النّظر الأصُوليّ في النّصُوصِ الّتي تحتمل وجوهًا متنوّعة.

والبلاغيّ غايتُه أبعد ، وأبسطُ مجالاً ، وأكثرُ أبعادًا ، هو لا يقتصرُ نظرُه على استنباط نوعٍ من المعاني ، ولا على تحليل صورِ المعاني أو ما يعرفُ بخصائص التراكيب ، ومن يقرأ مفتتح كتابِ " أسرار البلاغةِ " يقفُ عند قول عبدِ القاهر الكاشفِ عن مقصِده من هذا الكتاب :

"واعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته ، والأساس الذي وضعته ، أن أتوصّل إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف وتتفق ، ومن أين تجتمع وتفترق ، وأفصل أجناسها وأنْواعها ، وأتتبّع خاصّها ومُشَاعَها، وأبين أحوالها في كرم مَنْصبها من العقل، وتمكُّنَها في نِصَابه، وقُرْب رَحِمِها منه، أو بُعدها- حين تُنسب- عنه، وكَوْنها كالحَلِيف الجارِي مجرى النّسَب، أو الزّنيم الملصَق بالقوم لا يقبلونه، ولا يمتعضون له، ولا يَذُبُّون دونه [1].

---

(١) أسرار البلاغة، لعبد القاهر، قراءة وتعليق محمود شاكر. ط: الخانجي .القاهرة ـ ص٢٦.

هذا يدلك على موقف البلاغي من المعنى، على تنوعه وتعدده، وأنّ أسرارَ بلاغة أيّ خطابٍ عالٍ إنما مَعْدنُها ومكنَزُها هو المعنى، وخصائصُ المعاني فِي صدرِ المتكلّمِ هي مُنْتجُ خصائصِ التراكيب في لسانِه، فما خصائصُ التراكيبِ إلا ولائدُ خصائصِ المعاني التي تفعم قلبَ المتكلم، يقُول صُحَارٌ العبديّ ﷺ لسيدنا معاوية ﷺ في هذا: " ذلك شيْء تَجيشُ بِه صدورنا فتقذفه على ألسنتنا ".

وتقرأ في مفتتح كتابِه "دلائل الإعجاز" قولَه:

"ومن المعلوم أنّ لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها [يقصد البلاغة والفصاحة والبراعة والبيان] ممّا يفردُ فيه اللفظُ [أي الصورة] بالنّعت والصفة، وينسب فيه الفضلُ والمزيّةُ إليه دون المعنى [أيْ الغرض والمعنى غير المصور المطروح في الطريق] غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة، ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين، وآنق وأعجب، وأحق بأن تستولي على هوى النفس، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب، وأولى بأن تطلق لسان الحامد، وتطيل رغم الحاسد.

ولا جهة لاستعمالِ هذه الخصالِ غير أنْ يُؤتى المعنى من الجهةِ الَّتِي هي أصحُّ لتأديتِه، ويختارَ له اللفظَ الذي هو أخصُّ به، وأكشفُ عنه، وأتمُّ له، وأحرَى بأن يُكسبَه نُبلاً، ويظهرَ فيه مزيَّة "[1].

تقرأ ذلك فتقف على موقف البلاغي من تشكل المعنى في صدر المتكلّم، ثُم تصويره في لسانه، ثُمّ دلالة صورة المعنى المتقاذفة على لسانه على المعنى المكنون في صدره، ومستوى الدلالة، جلاءً وخفاءً، قوةً وضعفًا، وكذلك جهةُ دلالتها على المعنى.

كلُّ ذلك مشغلة العقلِ البلاغي، فهو أكثر العقُول الثلاثة عملاً في النّصِّ.

والتقيّ السبكي الغالبُ عليْه العقلُ الأصولي الفقهي، والعقلُ المفسر، فقد ألف تفسيرًا مات قبلَ تمامه: " تفسير الدُّر النّظيم في تفسير القرآن العظيم" كما أنَّه تولّى تدريس تفسير " الكشاف عنْ حقائق التنزيل " للزّمخشريّ، ويأتي العقل البلاغيُّ عنده منْ دونهما. وهو في هذه المسألة ينقد أمرًا أهله العقلُ البلاغيّ. ولم يكن في

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر. قراءة وتعليق محمود شاكر. ط: الخانجي. القاهرة ـ ص ٤٣.

نقده متخذًا أدوات البلاغيّ في النظر .

تناول هذه المسألة من جهة النظر العلمي ، ثُمَّ عرض لتأويلِ بعضٍ من الآيات على منهاج تصوره العلمي للمسألة.

يستفتح قوله في الرسالة بأنّهُ " قَدْ اشْتَهَرَ كلامُ النَّاسِ فِي أنّ تَقْدِيمَ الْمَعْمُولِ يُفِيدُ الاخْتِصَاصَ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُنْكِرُ ذَلِكَ ، يَقُولُ : إنَّما يفيد الاهتمام ، وَقَدْ قَالَ سِيبَوَيْهِ فِي كِتَابِهِ : وَهُمْ يُقَدِّمُونَ مَا هُمْ بِهِ أَعْنَى "[1].

كأنّه يدفعُ هنا مقالة مَنْ يمنع القولَ بإفادة التقديم الاختصاص ، ويقصرها على الاهتمام ، والّذين أنكروا إفادة التقديم " الاختصاص " كأستاذه أبي حيان في " البحر المحيط " بناءً على أنَّ معنى " الاختصاص" عنده هو " الحصر" ، وهو المعنَى المعهود المشهور ، وليس بمعناه عند التقي السّبكيّ، فالاختصاص عنده غير " الحصر"، وليس " الحصرُ " عنده درجة من درجات "الاختصاص " ، بل هو ضربٌ آخر من المعاني لا يفترقُ عن الاختصاص في الدّرجة، وإنما في المعنى والمدلول، فهما مصطلحان متباينان عنده .

وعلى ذلك يكون عنده القائلون بنفي الاختصاص ، وقصر دلالة التقديم على الاهتمام، هم في مآل قولهم قائلونُ بنفي دلالة التقديم على الحصر.

والتقيّ يستشهدُ بقولِ سيبويهِ في باب" الفاعل الذي يَتعدّاه فعلُه إلى مفعول" وهو يتحدثُ عن تقديمِ المفعولِ على الفاعل :

" فإن قدمتَ المفعولَ وأخّرتَ الفاعل جرَى اللفظُ كما جرَى في الأوّل ، وذلك قولك :"ضَرَبَ زيداً عبدُ الله " لأنّك إنّما أردت به مُؤخّرا، ما أردت به مقدَّمًا ، ولم تُرد أن تَشغلَ الفعل بأوّلَ منه وإنْ كان مؤخراً في اللفظ ، فَمن ثمَّ كان حدُّ اللفظ أن يكون فيه مقدَّما . وهو عربيٌّ جيِّد كثير، كأنّهم إنَّما يقدّمون الذي بيانه أهمُّ لهم ، وهُمْ ببيانه أعْنَى ، وإن كانا جميعاً يُهِمّانِهم ويَعنِيانهم "[2].

وغير خفيّ أن هذا النصّ من سيبويه في تقديم المفعول على الفاعل ، لا على الفعل ، وكلامُنا إنّما هو في تقديم المفعولِ على الفعل ، فهو الّذي يدلُّ على الحصر أحيانًا عند البلاغيين . وليس تقديم المفعول على الفاعل . وعلى هذا لا يكون استشهادُ أو

---

(١) عروس الأفراح للبهاء السبكي (ضمن شروخ التلخيص–ط: عيسى الحلبي)ج٢ ص١٥٤.

(٢) الكتاب لسيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون ، ط : دار الجيل ،بيروت.ج١ص٣٤ .

استئناسُ التقيّ السّبكيّ بعبارة سيبويه محكمًا .

ولسيبويه عبارةٌ أخرى هي أولى بالاستشهاد ، وهي قوله في " باب ما يكون فيه الاسمُ، مبنياً على الفعل قُدِّمَ أو أُخِّرَ، وما يكون فيه الفعلُ مبنيّا على الاسم " :

" فإذا بنيتَ الاسمَ عليه قلتَ : "ضربتُ زيدا " وهو الحدُّ ؛ لأنّك تريد أن تُعْمِلَه وتَحملَ عليه الاسمَ كما كان الحدُّ "ضَربَ زيدٌ عمراً " حيث كان زيدٌ أوّلَ ما تشغَل به الفعل ، وكذلك هذا إذا كان يَعْمَلُ فيه . وإن قدمتَ الاسمَ ، فهو عربيٌّ جيّد ، كما كان ذلك عربيّا جيّدا ، وذلك قولك : "زيداً ضربتُ" .

والاهتمامُ والعناية هنا في التقديم والتأخير سَواءٌ مثلُه فِي "ضَرَب زيدٌ عمرا" و"ضَرَبَ عمراً زيدٌ "[1].

وعبد القاهر عندما ذكر نصّ سيبويه ، وبيان النُّحاة له أيضًا، نَعَي على بعضِ أهل العلم أنَّهم لا يُعنون ببيان علة العناية ، فقال عن التفاتهم إلى دلالة التقديمِ على العناية بالمفعول، سواء قُدّم على الفعل أو الفاعل :

" فهذا جيدٌ بالغٌ إلا أنَّ الشّأن في أنَّه ينبغي أن يُعرف في كلّ شيْء قدّم في موضع من الكلام مثلُ هذا المعنى، ويُفسَّر وجه العناية فيه هذا التفسير . وقد وقع في ظنون النَّاس أنَّه يكفي أن يُقال: إنّه قدّم للعناية ، ولأن ذكره أهمّ من غير أن يذكرَ من أين كانت تلك العناية؟ وَبِمَ كان أهم ؟ ولتخيّلهم ذلك، قد صَغُر أمرُ التقديم والتأخير في نفوسهم "[2].

والتقيّ يبيّنُ أنَّ البيانيين على إفادة التقديمِ الاختصاص ، ولكنه لا يرى أن الاختصاصَ عندهم هو الحصر ، بل هو التّوكيد والتقرير ، وينعَى على أناسٍ أنَّهم يفهمُون من الاختصاصِ الحصر ، فإذا قُلْتَ : زيْدًا ضَرَبْتُ " يقُولُ معْنَاهُ : ما ضَرَبْتُ إلاَّ زَيْدًا . وَيدفعُ ذلك ، فالاخْتِصَاصُ شَيْءٌ وَالْحَصْرُ شَيْءٌ آخرُ . ويؤكّدُ أنَّ الْفُضَلاء لَمْ يَذْكُرُوا فِي ذَلِكَ لَفْظَةَ الْحَصْرِ . وَإِنَّمَا قَالُوا الاخْتِصَاصُ.[3]

وهو بهذا يفرقُ بيْن المصطلحين ، ومجملُ التفريق عنده أنَّ الاختصاص افْتِعَالٌ مِنْ

(١) الكتاب: ١/ ٨٠-٨١ .

(٢) دلائل الإعجاز : ١٠٧- ١٠٨.

(٣) عروس الأفراح ٢/ ١٥٥.

الْخُصُوصِ . وَالْخُصُوصُ مُرَكَّبٌ مِنْ شَيْئَيْنِ :

أَحَدُهُمَا عَامٌّ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ شَيْئَيْنِ أَوْ أَشْيَاءَ .

وَالثَّانِي : مَعْنًى مُنْضَمٌّ إِلَيْهِ يَفْصِلُهُ عَنْ غَيْرِهِ كَضَرْبِ زَيْدٍ، فَإِنَّهُ أَخَصُّ مِنْ مُطْلَقِ الضَّرْبِ . فَإِذَا قُلْت: ضَرَبْت زَيْدًا، أَخْبَرْت بِضَرْبٍ عَامٍّ وَقَعَ مِنْك عَلَى شَخْصٍ، فَصَارَ ذَلِكَ الضَّرْبُ الْمَخْبَرُ بِهِ خَاصًّا لِمَا انْضَمَّ إِلَيْهِ مِنْك وَمِنْ زَيْدٍ .

وَهَذِهِ الْمَعَانِي الثَّلَاثَةُ، أَعْنِي مُطْلَقَ الضَّرْبِ، وَكَوْنَهُ وَاقِعًا مِنْك ، وَكَوْنَهُ وَاقِعًا عَلَى زَيْدٍ، قَدْ يَكُونُ قَصْدُ الْمُتَكَلِّمِ لِهَا ثَلَاثَتِهَا عَلَى السَّوَاءِ ، وَقَدْ يَتَرَجَّحُ قَصْدُهُ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ . وَيُعْرَفُ ذَلِكَ بِمَا ابْتَدَأَ بِهِ كَلَامَهُ . فَإِنَّ الِابْتِدَاءَ بِالشَّيْءِ يَدُلُّ عَلَى الِاهْتِمَامِ بِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الْأَرْجَحُ فِي غَرَضِ الْمُتَكَلِّمِ . [1]

القولُ بأن الابتداء بالشّيءِ يدلُّ على الاهتمام به ... ليس على إطلاقِه ، وإنّما يتحقق هذا إذا كان الابتداء معدُولا به عما هو معهودٌ ، فأنتَ إذا ما قلت : " كتب محمدٌ الدّرس" لم يكن تقديمك الفعل" كتب " دالاً على اهتمامك بالفعل، لا الفاعل أو المفعول ، لأنَّ الابتداء بالفعل هو المعهود، فليس ثَم عدولٌ عن المعهود يلفت إلى شيْءٍ زائد، فعبارة التقي غير محررة.

ولهذا كان قولُه من بعدُ :" فَإِذَا قُلْت :"زَيْدًا ضَربتُ" عُلِمَ أَنَّ خُصُوصَ الضَّرْبِ عَلَى زَيْدٍ هُوَ الْمَقْصُودُ . [2] هو المشتمل على الابتداء بما ليس معهودًا الابتداء به ، فكان هذا حاملا دلالة زائدة على ما يحمله التركيبُ المعهود .

وأنت إذا ما نظرت في عبارتِه تلك، كان لك أنْ تحلّها إلى قولك :" إثبات خصوص الضربِ على زيد ، ونفيه غيره، أي ضرب غيره ."

وهذا جامعٌ في مآل معناه بيْن مدلولين : نفي وإثباتٌ ، والمنفي ضد المثبت ، وهذا هو جوهر مدلول الحصر .

ثم انظر قوله: " هو المقصود" . ألا يفيدُ هذا معنى الحصر؟ فضمير الفصل : (هو) يفيدُ في هذا التركيب معنى الحصر تأسيسًا أو توكيدًا لما أسّسَ بغيره ، كما في " محمدٌ هو الكريم لا خالدٌ " ، والأصوليون على أنّ ضمير الفصلِ مسلكٌ من مسالك الحصر عندهم،

---

(١) السابق ٢/١٥٦.

(٢) السابق:٢/ ١٥٦.

وكذلك البلاغيون [1]

ويزيد التقيُّ الأمرَ بيانًا على فهمه، وهو " أنَّ كُلَّ مُرَكَّبٍ مِنْ خَاصٍّ وَعَامٍّ لَهُ جِهَتَانِ. فَقَدْ يُقْصَدُ مِنْ جِهَةِ عُمُومِهِ، وَقَدْ يُقْصَدُ مِنْ جِهَةِ خُصُوصِهِ، فَقَصْدُهُ مِنْ جِهَةِ خُصُوصِهِ هُوَ الاخْتِصَاصُ، وَأَنَّهُ هُوَ الأعَمُّ الأهَمُّ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ. وَهُوَ الَّذِي قصد إفَادَتَهُ السَّامِعُ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ وَلا قَصْدٍ لِغَيْرِهِ بِإِثْبَاتٍ وَلا نَفْيٍ. [2]

كلامه هذا قائمٌ على تَحَكُّمٍ في قصد المتكلم بالتقديم، وهذا لا يسلّم له إلاّ باستقراء تامّ لما جاء عن العرب من صور التقديم، ولما جاء عنهم من فهم لمدلول هذه الصور، فالقول بأنّ التقديم تركيبٌ يقصد من جهة خصوصه لإفادة معنى متعين لا غير، هو قصد إفادة السامع أن المقدم هو الأهم عند المتكلم، من غير أن يقوم في قصد المتكلم الإشارة إلى حكم غيره.

وهذا ما لا يمكنه أن يدعيه، فيسلّم له، فإذا ما ثبت أن من العربِ من يقدم ويفيد الأمرين معا :إفادة السّامع أن المقدم هو الأهم بل المخصوص بالحكم، وأنَّ ما عداه لا يثبت له الحكم.

فهذا يدلّ علَى أنّه من معهودِ العربِ في خطابِها فهمًا وإفهامًا.

" روى ابن وهب عن مالك عن أبي الرجال عن أمة عمرة أن رجلين استبا في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال أحدهما للآخر: والله ما أبي بزان ولا أمي بزانية، فاستشار عمر في ذلك فقال قائل: مدح أباه وأمه، وقال آخرون: قد كان لأبيه وأمه مدح غير هذا، نرى أن يجلد الحد، فجلده عمر ثمانين "[3].

وعمرُ العدل لا يقيمُ الحدّ إذا ما كانت شبهةٌ في دلالة العبارة على أنّ الرجلَ يدلُّ بمنطوقِ عبارتِه على نفي الفاحشة عنْ أمّه، ويثبتها لأم المخاطب. وهذا هو جوهرُ الحصر ولو كانت دَلالة النظم على هذا مرجوحة أو ضعيفة، لما أقام عمرُ الحدّ بهذه

---

(1) ينظر: البحر المحيط في أصول الفقه لبدر الدين الزركشي، ط: وزارة الأوقاف ،الكويت. ١٤٠٩هـ: ٤/ ٥٦، والمطول للسعد، ط: تركيا ،سنة ١٣٣٠، ص ١٠٤.

(2) عروس الأفراح: السابق: ٢/ ١٥٦.

(3) المغني في فقه الإمام أحمد، لأبي محمد ابن قدامة المقدسي، ط(1) ١٤٠٥هـ، دار الفكر – بيروت. ج١٠/ ٢٠٤، و مختصر اختلاف الفقهاء للطحاوي: ج٢/ ٢٨٦، والمجموع في الفقه الشافعي: ج٢٠ص٦٠، والحاوي في فقه الشافعي – الماوردي، ط (1) دار الفكر. بيروت: ج١١/ ١٣٢.

العبارة.

وإذا ما نظرتَ فِي مادة (خصّ) ألفيتَ أنّ مدلولها قائمٌ من أمرين :

الأوّل أن تجعل شيئًا لشيءٍ ، والآخر ألا يكون ذلك الشيء لغيره ، فكلّ مَنْ يسمع قولك : خصصتُ محمدًا بالدخولِ، يفهمُ فطرةً أنّ الدخول مقصُورٌ على محمّدٍ ، وغيره ليس مسكوتًا عن حالِه، بل غيره مفهومٌ حالُه أنّه لا يشارك محمدًا فِي الدخولِ ، وإلا كان قولك: خصصت محمدًا بالدّخول، مساويًا قولك : أذنت أو سمحت لمحمدٍ بالدخول ، وهذا لا يقال .

يقول ابن منظور في لسان العرب: "خصّه بالشيء يخُصّه خَصّاً وخُصوصاً وخَصُوصِيّةً وخُصُوصِيّةً- والفتح أفصح - وخِصِّيصَى وخصّصَه واخْتصّه أفْرَدَه به دون غيره".

فالمعنى الوضعي للاختصاص هو إفراد شيءٍ بشيءٍ ، ولا يكون إفراد إلا إذا كان هنالك إثباتٌ ونفي . أي إثبات أمرٍ (الدخول) لأمر(محمد) ، ونفيه (الدخول) عن غيره (غير محمد).

فالقول بأن ما عدا المذكور مسكوتٌ عنه ليس هو من المعنى الوضعي لهذه الكلمة، لأنه لا يكونُ تمييزٌ وإفرادٌ لشيءٍ، بشيءٍ ونحن لا نعلمُ حكم غيره منْ مشاركته فِيه أو عدم مشاركته فيه . ولو قلت لأي سامع : أريد بقولي :"خصصت محمدًا بالدخول " وفهمَ أن غيره قد يكون مأذونًا له بالدخول معه ، لكان هذا منكرًا عليه ، لأنه يخالفُ معهودَ العربِ في خطابها فهمًا وإفهامًا . فالمدلولُ الحقيقيّ للتخصيص هو إفراد شيءٍ بأمر، ومنع غيره من أن يشاركه فيه ، وهذا هو جوهر الحصر [1].

ويبيّن التقيّ مدلول "الحصر" بأنّ " مَعْنَاهُ نَفْيُ غَيْرِ الْمَذْكُورِ، وَإِثْبَاتُ الْمَذْكُورِ. وَيُعَبَّرُ عَنْهُ بِمَا وَإِلاَّ ، أَوْ بِإِنَّمَا .

فَإِذَا قُلْت : مَا ضَرَبْتُ إلا زَيْدًا، كُنْتَ نَفَيْتَ الضَّرْبَ عَنْ غَيْرِ زَيْدٍ وَأَثْبَتَّهُ لِزَيْدٍ ، وَهَذَا الْمَعْنَى زَائِدٌ عَلَى الاخْتِصَاصِ . [2]

---

(١) لمزيد من التدقيق راجع كتابي : دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين . ط (٢) : مكتبة وهبة . القاهرة سنة١٤٣٠. ص ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) عروس الأفراح:٢/١٥٦.

ما جاء بِه غيرُ مدفوع أوله ، وغيرُ مسَلَّم عموم آخره ، وهو " وَهَذَا الْمَعْنَى زَائِدٌ عَلَى الاخْتِصَاصِ " فليس "الحصر" معنىً زائدًا على الاختصاص، بل هو درجة من درجات الاختصاص ، يُفهم بالسِّياقِ والقرائن . ولهذا ذهب البيانيون إلى أنّ إفادَةَ التقديم الحصرَ إنما هو بالفحوى ، وليس بالوضع كما في النفي والاستثناء ، وإنما ، والعطف بلا ، ونحوها [1] .

طرق الحصر عند التقي في رسالة " الاقتناص " :

يجعل التقي للحصر طريقين ، ثم يذكر الثالث على سبيل التسليم الجدليّ :

الطريقُ الأول:(ما وإلاّ) .

والطريق الثاني (إنما).

يقول:" .... الْحَصْرُ عَلَى ثَلاثَةِ أَقْسَامٍ :

(أَحَدُهَا) : بِـ" مَا وَإِلاَّ " كَقَوْلِك : " مَا قَامَ إلاَّ زَيْدٌ "، صَرِيحٌ فِي نَفْيِ الْقِيَامِ عَنْ غَيْرِ زَيْدٍ ، وَيَقْتَضِي إثْبَاتَ الْقِيَامِ لِزَيْدٍ ، قِيلَ بِالْمَنْطُوقِ وَقِيلَ بِالْمَفْهُومِ .

وَهُوَ الصَّحِيحُ ، لَكِنَّهُ أَقْوَى الْمَفَاهِيمِ ، لأنَّ "إلا " موضوعةٌ للاستثناء ، وهو الإخراج ، فدلالتها علَى الإخراجِ بالمنطوقِ لا بالمفهوم ، ولكنَّ الإخراجَ منْ عدم القيامِ ليسَ هو عينُ الْقيامِ ، بلْ قد يستلزمه ، فلذلك رجَّحنا أنّه بالمفهوم." (٢)

دلالة الاستثناءِ على حكم ما قبل " إلا " بطريقِ اللغة منطوقًا، وعلى ما بعدها بِمقتضَى العقل الدّالّ على أنَّ إخراجَ " إلاَّ " ما بعدها عمَّا قبلها يلزمُهُ دخُوله فيمَا هُو نقيضُ ما حكم بِه عليْهِ ، فيتعيّنُ الدّخولُ في الإثبات ، فالدّلالةُ علَى حكمِ ما بعدَ " إلاَّ " من بابِ دلالة اللفظِ علَى لازمِ مسمَّاه، لا من بابِ دلالةِ اللفظِ علَى نفسِ مسمّاه . [٣]

وإذا ما كانت دلالته على الإثبات بالمفهوم ، وعلى المنفي بالمنطوق ، فإنّ المقصُود

---

(١) مفهوم الفحوى هنا هو المفهوم البلاغيّ، وليس الأصولي، فالفحوى عند الأصوليين هو ما يعرفُ بمفهوم الموافقة ، وكلامنا هنا في مفهوم المخالفة. ينظر : مفتاح العلوم للسكاكي.ط: مصطفى الحلبي – ١٣٥٦هـ ، ص١٤١، وعروس الأفراح:٢/٢٠٣–٢٠٤ . والمطوّل للسعد . ط: تركيا سنة١٣٣٠ : ص:٢١٤، ودلالات التركيب .دراسة بلاغية ، للدكتور محمد أبوموسى ط(٢) ١٤٠٨هـ . مكتبة وهبة ، القاهرة : ص ١٧٢.

(٢) عروس الأفراح: ٢/١٥٨.

(٣) لمزيد من المراجعة في هذا ينظر كتابي : دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين.دراسة منهجية تحليلية. ص ٢٩٨.

الرئيس هو إثبات الحكمِ لما بعد إلاّ، وليس نفيه عن غيره ، بل نفيه عن غيره مقصودٌ تبعًا، فإذا قلت :" ما قامَ إلا زيدٌ "، فقصدك الرئيس، هو إثبات القيامِ لزيدٍ وحده، ونفيه عن غيرِهِ مقصُودٌ تبعًا. ولا معارضةَ بيْن أن يكونَ المقصُودُ الرئيسُ هو الإثبات ، وطريقُ الدّلالة عليه هو المفهوم .

(وَالثَّانِي) : الْحَصْرُ بِـ " إنَّمَا " وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ الأَوَّلِ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ جَانِبُ الإِثْبَاتِ فِيهِ أَظْهَر ، فَكَأَنَّهُ يُفِيدُ إثْبَاتَ قِيَامِ زَيْدٍ إذَا قُلْت :" إنَّمَا قَامَ زَيْدٌ " بِالْمَنْطُوقِ وَنَفْيِهِ عَنْ غَيْرِهِ بِالْمَفْهُومِ .[1]

التقيّ في قولِه بإفادة "إنّما" " الحصر" يجري على مذهب إمامه الشّافعيّ في كتابِه "الأمر" فقد جاء تأويله قول النبي صلى الله عليه وسلم : "إنما الولاء لمن أعتق"[2].

قال الشافعيّ : " بَيّنٌ في قوله " إنما الولاء لمن أعتق " أنه لا يكون الولاء إلا لمن أعتق"[3].

وهذا من الشافعي حجةٌ قوية، فهو ممن يحتج بلغته أداءً، وبفهمه لسان العربية . فيؤخذ منه البيانُ وتبيينه .

وفي كلام التقيّ إشارةٌ إلى وجه المفارقة بين " إنما" و "ما ، و إلا " فيما يتعلق بركني الحصر : (الإثبات والنفي) .

في "إنما" (الإثبات) مدلول عليه بمنطوق العبارة ، والنفي بمفهومها ، وفي " ما ، وإلا " النّفي مدلولٌ عليه بمنطوق العبارة ، والإثبات بمفهومها.

---

(١) القولُ بإفادة (إنما) الحصر دائما ليس متفقًا عليه عند الأصوليين ، فمنهم من يذهب إلى أنّ إفادتها توكيد الحكم هو المطرد، كما عند الآمدي في الإحكام في أصول الأحكام ، وكذلك أبو حيان من النحاة وشدد على ذلك. وقالت طائفة هي تفيد الحصر أحينا ، وهو موقوف على الدليل من الاحتمالِ .
ينظر: البحر المحيط في أصول الفقه للزركشيّ ج٢ص ٣٢٤.ج٤ص٥٠ .وانظر كتابي (سبل الاستنباط من الكتاب والسنة ،دراسة بيانية ناقدة . ط: الأمانة – القاهرة ١٤٠٢هـ . فقد بسطت فيه القول ص ٣٦٦-٣٨١.

(٢) روى البخاري في كتاب(البيوع) من صحيحه بسنده عنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ – رضي الله عنهما – أَنَّ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَرَادَتْ أَنْ تَشْتَرِىَ جَارِيَةً فَتُعْتِقَهَا . فَقَالَ أَهْلُهَا نَبِيعُكِهَا عَلَى أَنَّ وَلاَءَهَا لَنَا . فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – فَقَالَ : «لاَ يَمْنَعُكِ ذَلِكِ ، فَإِنَّمَا الْوَلاَءُ لِمَنْ أَعْتَقَ » . ورواه مسلم في كتاب (العتق) من صحيحه .

(٣) الأم، للشافعيّ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. ط(٢) ج٤ص٨١ .

وكأنّ في قولِ التّقِيّ السبكيّ هنا إشارةً إلى أنّه إذا ما كانت منازعة في ركن من ركني الحصر ، فالأعلى أن يُتّخذَ الطريقُ الذي هو أدل على المنازع فيه بمنطوقه . فإذا كان المنازع فيه الإثبات، فالأعلى اتخاذُ طريق " إنّما" وإذا ما كان المنازعُ فيه النفي ، فالأعلى اتخاذُ طريق النفي والإثبات .

ويأتي القسم الثالث الذي يذكره على سبيل التسليم الجدليّ وهو التقديم ، فيذهب فيه إلى أنّ " الْحَصْرُ الَّذِي يُفِيدُهُ التَّقْدِيمُ ، لَيْسَ هُوَ عَلَى تَقْدِيرِ تَسْلِيمِهِ، مِثْلَ الْحَصْرَيْنِ الأوَّلَيْنِ، بَلْ هُوَ فِي قُوَّةِ جُمْلَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا مَا صَدَرَ بِهِ الْحُكْمُ نَفْيًا كَانَ أَوْ إِثْبَاتًا ؛ وَهُوَ الْمَنْطُوقُ .

وَالأُخْرَى مَا فُهِمَ مِنْ التَّقْدِيمِ .

وَالْحَصْرُ يَقْتَضِي نَفْيَ الْمَنْطُوقِ فَقَطْ دُونَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ الْمَفْهُومِ ؛ لأَنَّ الْمَفْهُومَ لا مَفْهُومَ لَهُ ، فَإِذَا قُلْت : " أَنَا لا أُكْرِمُ إلاَّ إِيَّاكَ " أَفَادَ التَّعْرِيضَ بِأَنَّ غَيْرَكَ يُكْرِمُ، غَيْرَهُ ولا يَلْزَمُكَ أَنَّكَ لا تُكْرِمُهُ . [1]

يفرّق التقي بين جهة دلالة التقديم على الحصر عندَ القائلين بها ، وجهة دلالة "ما وإلاّ" ، و"إنما" عليه بأن "الحصر" في "ما " و" إلاّ " كان النفيّ هو المنطوقُ لزامًا ، والإثباتُ هو المفهوم ،وفي " إنّما " الأمر بعكسِه تعيينًا " أمّا التقديم" فالأمر فيه على غير ذلك ، فالتعيين لنوعِ المقدم ، فإن كان في حيز نفيّ، فالمنطوق هو النفي ، والمفهوم هو الإثباتُ " ما محمدًا لقيتُ " وإن كان المقدم في سياقِ إثبات ، فالإثباتُ هو المنطوق ، والنّفي هو المفهوم "محمدًا لقيت ".

ويقررُّ أنّ "الْحَصْرُ يَقْتَضِي نَفْيَ الْمَنْطُوقِ فَقَطْ، دُونَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ الْمَفْهُومِ ؛ لأَنَّ الْمَفْهُومَ لا مَفْهُومَ لَهُ ، فَإِذَا قُلْت : " أَنَا لا أُكْرِمُ إلاَّ إِيَّاكَ " أَفَادَ التَّعْرِيضَ بِأَنَّ غَيْرَكَ يُكْرِمُ غَيْرَهُ، ولا يَلْزَمُكَ أَنَّكَ لا تُكْرِمُهُ"[2].

في المثال الذي ذكر طريقان للحصر : تقديم (أنا) على الفعل المنفي (لا أكرم) وهذا لا يلزم في كل سياقٍ دلالته على الحصر.

---

(١) عروس الأفراح: ٢/١٥٨.

(٢) الأفصح أن يقول: أنا لا إكرم إلا أنت ، فالإتيان بالضمير المنصوب المفصل بعد إلا غير فصيح. ولا ضرورة تحمله على ما ارتكب.

والآخر النفي والاستثناء: (لا أكرم إلا إيّاك) وهذا دلالته على الحصر وضعية لازمةٌ.

مفاد الأول على القول بأنه للاختصاص، أنّ غيرك يكرمُ غير المخاطب، وأنك لا تفعل، وهذا معنى أنّه، "وفيه تعريضٌ بأنّ غير المتكلم يكرم غيرَ المخاطب"، ولكنّ التقيَ يرى أنّ هذا لا يلزم أن يكون المتكلم لا يكرم غير المخاطب، بل يحتملُ أنه يكرمه، وألا يكرمه.

وهذا من التقيّ محل نظرٍ، لأنه إذا استُفيد الحصرُ من التقديم (أنا لا أُكرم...) فإنه يلزمه أمران:

تقرير نفي إكرام المتكلم غير المخاطب، وهذا بمنطوق العبارة.

وتقرير ثبوت إكرامه المخاطب.

فزعمه أنّ هذا التركيب لا يلزم المتكلم أنه لا يكرم غير المخاطب، لا يتبيّن له وجهٌ عندي.

وقوله: "أنا لا أكرم إلا إياك" في قوة معنى "أنا لا أكرم غيرك" أيفهم من هذا أنه لا يلزم أنّ المتكلم لا يكرم غير المخاطب؟

التقيّ لم يستوفِ طرائق الحصر لا في مذهبِ البيانيين، ولا في مذهب الأصوليين، وهي عند الأصوليين أكثر منها عند البلاغيين، ومن تلك الطّرق العطف بلا، وأخواتها، وتعريف الطرفين، وضمير الفصل... والأصوليون يقُولون بذلك [1].

المهمّ أنّه ممّا مضَى يتبيّن لنا أنّ التّصوّرَ الْعِلميّ للمسألة لدَى التقِيّ السّبكيّ ليسَ محررًا، وأنّه ليس من طائفة القائلين بأن التقديم للاهتمام، ولا يفيد الاختصاصَ، كأبي حيان.

ولا من طائفة القائلينَ بِأنَّه يفيدُ الاهتمام في مقامٍ، والاختصاصَ(الحصرَ) فِي مقامٍ، وأنَّ القرائن هي السبيل إلى تعيين المستفادِ من التقديم، كما هو الشّأنُ عندَ البيانيين.

وإنما التقي على مذهب أنّ التقديم يفيد الاختصاص الذي هو الاهتمام والعناية، مسويًا بين المصطلحين، نافيًا أن يكون الاختصاص هو الحصر أو منه الحصر، فأضافَ مذهبًا آخر في المسألة بناه على أمرٍ لا يُسلَّمُ له، لافتقاره إلى حجةٍ: معهودِ العربِ في

---

(١) ينظر: البحر المحيط في أصول الفقه للزركشيّ: ج٤ص ٥٢-٥٦.

خطابها إنشاءً وفهمًا.

وبيانُ الوحي قرآنًا وسنةً إنما جاء في نظمه ودلالته على معاني الهدى علَى معهودِ العربِ في خطابها، ونحوها في الفهمِ والإفهامِ ، وكلُّ مذهبٍ لا يؤسَّسُ علَى هذا الأصل، هو حاملٌ فيه عواملَ نقضِه ودفعِهِ .

* * *

نقد تأويله المعنى في آياتٍ من الذكر الحكيم :

التقيُّ السبكيّ مفسرٌ، وأصوليّ فقيه، ومثله يمارسُ التأويل وفقَ ضوابطه: من نزوله علَى معهود العربِ في خطابها، ومناسبتِه لسياقِ القول، وغاياتِه، ومقاصده الجزئية والكليّةِ، ومناسبته لما يليقُ بحال المتكلّم به، فهذه هي الضوابطُ الكلية التي لا يُقبَلُ تأويلٌ غير آخذٍ بها.

تناولَ التّقِيُّ السُّبكيُّ عدةَ آياتٍ من الذكرِ الحكيمِ بالتأويل، وناقشَ بعضِ أهل العلمِ في فهمهم لها، وأوّل مُرادات بعضِهم في تأويلها، وكلٌّ ذلك جديرٌ بأن ينظرَ في أمره تفسيرًا وتقويمًا.

عرضَ لقول الزَّمَخْشَرِيّ فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥):

" وَتَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ لِقَصْدِ الاخْتِصَاصِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى :﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ ﴾ (الزمر:٦٤)، ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا ﴾(الأنعام:١٦٤) والمعنى نَخُصُّك بالعِبادةِ، ونَخُصُّكَ بِطلَبِ المَعُونَةِ [١].

استشهد التقي السُّبكي بهذا التأويل على أنّ الزَّمخشريّ لم يصرح بمصطلح "الحصر" في دلالة التقديم، وأنّه نصّ على قصدِ الاختصاص، وهو عند التقِيّ غير الحصر، ففهم مدلول الحصر عند الزَّمخشريّ على وفق مدلوله عنده هو، وهذا غير حسنٍ، فلا يستقيمُ أن أتأوَّلَ مدلولَ مصطلحٍ عندَ عالمٍ على مدلولِه عندي، ولكلٍّ منا مدرسته، فالزَّمخشريّ مفسّر بيانيٌّ، وليس بأصوليّ، بل إنّهُ لا يجري في هذه المسألة علَى مذهبه الفقهي: المذهب الحنفيّ، الدّافعِ القولَ بمفهومِ المخالفة الّذي يبني عليْه البلاغيون القولَ بإفادة التقديمِ "الحصر". فالزَّمخشريّ في دلالة التَّقديمِ غيرُ آخذٍ بما عليْهِ الحنفيّة، وإنّما هو آخذٌ بمَا عليْهِ الْبَيانِيُّونَ. وكان حريًّا بالتّقِيّ أن يستقرِئَ مواقع القول بالاختصاصِ في كتابِ الكشافِ لينظر أجاء في مواضع منه ما يقطع بإرادة الحصر من قولِه بمصطلح الاختصاصِ، أمْ أنَّ كلّ موضعٍ جاءِ فيه مصطلح الاختصاص المستفادِ بالتقديمِ مدلولُه القَطعِيّ أو الرَّاجح هو الاهتمام والعناية والتوكيد، لا الحصر، وأنّه مصروفٌ إلى تقريرِ الحكمِ للمذكورِ دون الالتفات أدنى التفاتٍ إلى حكمِ ما عدا

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل للزمخشري. تحقيق :خليل مأمون شيحا. ط دار المعرفة بيروت سنة١٤٢٤هـ ص ٢٨.

المذكور.

هذا هو الذي يجبُ أن يكونَ عليه الاستشهادُ بمقالِ الزّمخشريّ فِي هذا، وتقريرِ أنّه لا يريد من مصطلح "الاختصاصِ" المُستفادِ بالتّقديمِ غيرَ التوكيد لحكمِ المذكور، دون التفاتٍ لغيرِه. فإذا ما ثبتَ غيرُ ذلك، فقد انتقضَ ما قامَ عليه نظرُ التّقِيّ فِي المسألةِ.

قولُ الزّمخشريّ: " وَتَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ لِقَصْدِ الاخْتِصَاصِ كِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا ﴾ والمعنى نَخُصُّك بالعِبادةِ، ونَخُصُّكَ بِطِلَبِ المَعُونَةِ "

ظاهرُه دالٌ على أنّ الاختصاصَ هنا قائمٌ من معنيين: تأكيدُ ثبوتِ الحكمِ للمذكورِ، ونفيِهِ عن غيرِه، لأن قوله: " والمعنى نَخُصُّك بالعِبادةِ..." لا يفهم منها إلا أن غير الله تعالى لا يعبد، فليس القصدُ بمنحصرٍ فِي إثباتِ العبادة لله سبحانه وتوكيدها وتأطيدها، فلو قلت لأحدٍ: ما أخصك بكذا، ثم منحت غيره شيئًا منه، اعترضَ عليْك بأنك أخبرته بأنّه هو المخصُوصُ بهذا الأمر لا يشركه فيه أحد. ذلك معهود الفهم من عبارة: " أخصه بكذا" ومن قال بغير ذلك خالفَ معهودَ الخطاب فهمًا وإفهامًا.

والتقيّ في موضعٍ من الرسالة يذهبُ إلى أنَّ الحصر الذي يفهم من قوله تعالى: ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين﴾ ليس من خصوصِ التركيب التقديم، بل من خصُوص المادّة، فمعنى العبادة هو الذي يقرر هذا التخصيص، لأنّه لن تكونَ العبادة مقبولة إلا إذا كانت مُنحصرة في إلهٍ واحدٍ، وهذا يعني أنّه إذا قيل: نعبدك و نستعينك، فالحصر قائمٌ غيرُ زائلٍ مع زوالِ التقديم.

يقول فيما عرضَ له الزّمخشريّ: فَهَذِهِ الآيَاتُ كُلُّهَا لَمْ يَذْكُرِ الزَّمَخْشَرِيُّ لَفْظَةَ الْحَصْرِ فِي شَيْءٍ مِنْهَا. وَلا يَصِحُّ إلا فِي الآيَةِ الأولَى فَقَطْ. [يعني قول الله تعالى: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين﴾]. [1]

أمّا قولُه: " وَلا يَصِحُّ إلا فِي الآيَةِ الأولَى فَقَطْ " فهو محلٌّ نظرٍ ناقدٍ، كما سيأتِي.

ثم يقول فيها: " وَإِنَّمَا جَاءَ هَذَا فِي ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ لِلْعِلْمِ بِأَنَّهُ لا يُعْبَدُ غَيْرُ اللَّهِ وَلا يُسْتَعَانُ غَيْرُهُ. " [2]

---

(١) عروس الأفراح: ٢/١٥٦.

(٢) الموضع السابق.

فخصُوص المادة هو جهة الدلالة على الحصر لا التركيب ، وهو بهذا يحرّر جهةَ دلالة الآية على الحصر على مذهبِه .

وهذا يسلّم له إذا ما ثبت أنّ هذا المعنى لا يفهم إلا إذا كان القولُ في العبادة ، فإنْ فُهم من غيرها مع التقديم ، فلا سبيلَ إلى أنّ جهةَ الدّلالة خصُوصُ مادّة العبادة والاستعانَة ، لِزوال هذه المادة ، فيزول معنى الحصرِ بزوالِه ، وهذا ما سيأتيك بيانُه مقررًا بحجتِه وبرهانه .

ويذهب التقيّ إلى تأويل آخر لقولِ الله تعالى : ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعين ﴾ يقول :

" بَلْ أَقُولُ إنَّ الْمُصَلِّيَ قَدْ يَكُونُ مُقْبلاً عَلَى اللَّهِ ﷻ وَحْدَهُ لا يَعْرِضُ لَهُ اسْتِحْضَارُ غَيْرِهِ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ . وَغَيْرُهُ أَحْقَرُ فِي عَيْنِهِ مِنْ أَنْ يشتغل به، يُقْصَدَ فِي ذَلِكَ الوقت بِنَفْيِ عِبَادَتِهِ ، وَإِنَّمَا قَصَدَ الإِخْبَارَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَوَّلُ مَا حَضَرَ فِي ذِهْنِه عَظَمَةُ مَنْ هُوَ وَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين، لِيُطَابِقَ اللَّفْظُ الْمَعْنَى، وَيَتَقَدَّمُ مَا تَقَدَّمَ حُضُورُهُ فِي الْقَلْبِ وَهُوَ الرَّبُّ ﷻ ، ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ عِبَادَةٍ ، وكَمَعْنَى اخْتِصَاصِهِ بِالْعِبَادَةِ، اخْتِصَاصُهُ بِالإِخْبَارِ بِعِبَادَتِهِ وَغَيْرِهِ مِنْ الأَكْوَانِ لَمْ يُخْبِرْ عَنْهُ بِشَيْءٍ بَلْ هُوَ مُعْرِضٌ عَنْهَا . [1]

ما قاله التَّقيّ السُّبكيّ في هذا مبني على أنّ سورة " الفاتحة" إنّما نزلت ملاحظةً حال المصلي التي هي أشرف أحوال العبد .

والقول بأنَّ المُصلي قد يبلغُ مبلغا يستغرق فيه ، فيصل إلى درجة فناء الأغيار ، فلا يرى غير الله ﷻ مستحقا أن يذكر ولو على سبيل تنزيه الله ﷻ ، فلا يستحضر غير الله ﷻ بوجه من الوجوه– إنّما هو من الإغراق الذي يتهافت إليه أدعياءُ التَّصوفِ .

إنَّ من كمال التوحيد أن يجمعَ العبدُ بين إثبات وحدانية الله ﷻ وانتفاء الأُلوهيّة عمَّا عداه ، ألا ترى أنَّ كلمة الشهادة لم تُقمْ على إثبات وحدانية الله ﷻ وادعاء أنّ غير الله ﷻ أحقرُ من أن يقصد إليه بنفي أو غيره .

الشّهادة التي هي مفتاح الدُّخول إلى الإسلام قائمةٌ أولاً على نفي الأُلوهيّة عن غير الله ﷻ ثُمَّ على إثباتها لله ﷻ وحده ، فكيف يزعم التقيُّ السُّبْكِيُّ أنَّ تجريدَ قلبِ

---

(١) السابق:٢/١٥٧.

المُصلّي من ملاحظة الأغيار على سبيل نفي الألوهيّة عنهم، من كمال الاستغراق في تجريد التوحيد ؟!! فيرتّبُ على هذا أنَّ الآيةَ قائمةٌ على إثبات العبادة لله ﷻ دون ملاحظة حال غير الله ﷻ بإثباتٍ أو نفيٍ ؛ لأنَّ غيرَ الله ﷻ أحقرُ من أن يلاحَظ بنفي أو إثبات .

غلوٌ في التأويل ، ومثلُ هذا الغلوّ كثيرًا ما يطربُ له أدعياء التصوف والدّهماء ،وهو في حقيقته غيرُ قويم . وهو غَيرُ مُنضبط بما أشرتُ إليه في مفتتح القولِ من الأخذِ بضَوابطِ التأويل المقبولِ .

ولو بقي التّقيُّ السبكيُّ على مذهبه أنَّ الحصرَ في هذه الآية من خصوص المادة، لكان أفضل ممَّا قاله هنا.

ويعرضُ التقيّ لتأويل الزّمَخْشَرِيّ قولَ الله ﷻ :﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة:٤).

" وَفِي تَقْدِيمِ ﴿الآخِرَةِ ﴾ وَبِنَاءِ ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ عَلَى ﴿ هُمْ ﴾ تَعْرِيضٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ وَبِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ إِثْبَاتِ أَمْرِ الآخِرَةِ عَلَى خِلافِ حَقِيقَتِهِ، وَأَنَّ قَوْلَهُمْ لَيْسَ بِصَادِرٍ عَنْ إيقَانٍ، وَأَنَّ الْيَقِينَ مَا عَلَيْهِ مَنْ آمَنَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْك وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِك ." [١]

ويقضي بأن " الَّذِي قَالَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ . [٢]

ووجه استحسان التقي تأويلَ الزّمخشريّ أنّه لم يَقل بالتَّخصيص في التَّقديم ، ولذلك أنكرَ على من اعترضَ على الزَّمخشري بتركه القولَ بالحصر في الآية ، يقول التقي:

" وَقَدْ اعْتَرَضَ بَعْضُ النَّاسِ عَلَيْهِ فَقَالَ: تَقْدِيمُ الآخِرَةِ أَفَادَ أَنَّ إيقَانَهُمْ مَقْصُورٌ عَلَى أَنَّهُ إيقَانٌ بِالآخِرَةِ لا بِغَيْرِهَا .

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْقَائِلُ بَنَاهُ عَلَى مَا فَهِمَهُ مِنْ أَنَّ تَقْدِيمَ الْمَعْمُولِ يُفِيدُ الْحَصْرَ . وَلَيْسَ كَذَلِكَ لِمَا بَيَّنَّا .

ثُمَّ قَالَ هَذَا الْقَائِلُ :" وَتَقْدِيمُ ﴿ هُمْ ﴾ أَفَادَ أَنَّ هَذَا الْقَصْرَ مُخْتَصٌّ بِهِمْ، فَيَكُونُ إيقَانُ

---

(١) الكشاف: ٣٩.

(٢) عروس الأفراح:٢/١٥٧.

غَيْرِهِمْ بِالآخِرَةِ، إيمَانًا بِغَيْرِهَا حَيْثُ قَالُوا : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ [١] وَلَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ [٢].

وَهَذَا مِنْ هَذَا الْقَائِلِ اسْتِمْرَارٌ عَلَى مَا فِي ذِهْنِهِ مِنْ الْحَصْرِ ، أَيْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لا يُوقِنُونَ إلاَّ بِالآخِرَةِ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ يُوقِنُونَ بِهَا وَبِغَيْرِهَا .

وَهَذَا فَهْمٌ عَجِيبٌ !!!

ثُمَّ قَالَ هَذَا الْقَائِلُ : ثُمَّ إنَّ التَّعْرِيضَ فِي قوله :﴿ يا أهلَ الكتاب ﴾ ﴿وبما كانوا ﴾ أنَّ قولهم " ظاهر معنى قول الزمخشريّ . قال هذا القائل :" وَأَمَّا في قَوْله وَأَنَّ الْيَقِينَ ... إلَخْ مُشْكِلٌ ، لأنَّهُ لَيْسَ فِيهِ تَعْرِيضٌ بِأَنَّ الْيَقِينَ مَا عَلَيْهِ مَنْ آمَنَ . بَلْ تَصْرِيحٌ .

قُلْت مُرَادُ الزَّمَخْشَرِيِّ أَنَّ التَّصْرِيحَ بِأَنَّ مَنْ آمَنَ يُوقِنُونَ، تَعْرِيضٌ بِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لا يُوقِنُونَ . فَكَيْفَ يُرَدُّ عَلَيْهِ هَذَا .

ثُمَّ قَالَ هَذَا الْقَائِلُ :" فَالْوَجْهُ أَنْ يُقَالَ : " وَإِنَّ الْيَقِينَ ..." عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ " تَعْرِيضٌ " لا عَلَى مَعْمُولاتِهِ مِنْ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ... ﴾ وَكَأَنَّهُ قَالَ : وَفِي تَقْدِيمِ ﴿الآخِرَةِ﴾ وَبِنَاءِ ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ عَلَى ﴿ هُمْ ﴾ تعريضٌ ، و أنَّ الْيَقِينَ .....

قُلْت : مُرَادُ الزَّمَخْشَرِيِّ أَنَّهُ تَعْرِيضٌ بِنَفْيِ الْيَقِينِ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: دُونَ غَيْرِ مَنْ آمَنَ . فلا يُرَدُّ عَلَيْهِ، ولا يَحْتَاجُ إلَى تَقْدِيرِ الْعَطْفِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ هَذَا الْقَائِلُ.

وَهُوَ إمَّا أَنْ يُقَدَّرَ دونَ غَيْرِهِمْ أَوْ لا . فَإِنْ قُدِّرَ فَهُوَ تَعْرِيضٌ لا تَصْرِيحٌ ، وَإِنْ لَمْ يُقَدَّرْ فَلا يَحْتَاجُ إلَى بِنَاءِ ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ عَلَى ﴿ هُمْ ﴾ ، فَحَمْلُ كَلامِ الزَّمَخْشَرِيِّ عَلَى مَا زَعَمَ هَذَا الْقَائِلُ لا يَصِحُّ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ ، وَهَذَا الْقَائِلُ فَاضِلٌ. وَإِنَّمَا أَلْجَأَهُ إلَى ذَلِكَ فَهْمُهُ الْحَصْرَ وَهُوَ مَمْنُوعٌ . [٣]

المعترضُ بهذا هو قطب الدين الرّازي التّحتانيّ المتوفى سنة (٧٦٦هـ) في حاشيته على الكشاف والتي وصل فيها إلى أول سورة الأنبياء [٤] واعتراضُه على الزّمخشريّ محل اعتراضٍ . ولكن ليس من الجهة التي نظر إليها التقيّ السبكيّ .

---

(١) قال الله ﷻ : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:١١١).

(٢) قال ﷻ : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٨٠) .

(٣) السابق :١٥٧/٢-١٥٨

(٤) ينظر اعتراضه في حاشيته على الكشاف ورقة ٢٣ب برقم ٣٥٣ تفسير تيمور – دار الكتب المصرية.

وجه خطأ المعترض (القطب التحتاني) على الزمخشريّ ليس كما فهمه " التقي السبكي، وإنما وجهه أنه جعل المنفي في الحصر المستفاد من تقديم (الجار والمجرور) هو كلٌّ ما عدا الآخرة الحقَّة ممَّا يجبُ الإيمان به ، فجعل المنفيَّ عامًّا ، فكان القصر حقيقيا ، وهذا غير صحيح ، بل القصر هنا إضافيٌّ ، والمنفي خاصٌّ هو المقابل لحقيقة الآخرة ، وهو ما عليه أهل الكتاب في شأن الآخرة ، وعلى هذا يكون معنى التقديم : إنَّما يؤمنون بالآخرة الحقَّة التي جاء بها القرآن الكريم، لا بالآخرة التي يظنُّها أهل الكتاب ، فإن ما يظنونه باطلٌ ووهمٌ.

فالتقي السّبكي لم يحرر مناط الخطأ في اعتراض القطب التحتانيّ على الزّمخشريّ .

وهو أيضًا لم يحرّر مدلول " بغيرها " في قول القطب التحتانيّ:" وَتَقْدِيمُ ﴿ هُمْ ﴾ أَفَادَ أَنَّ هَذَا الْقَصْرَ مُخْتَصٌّ بِهِمْ ، فَيَكُونُ إيقَانُ غَيْرِهِمْ بِالآخِرَةِ إيمَانًا بِغَيْرِهَا" .

قول التحتانيّ: " غيرها" هنا ليسَ هو غير الآخرة مطلقا ، بل هو غير حقيقة الآخرة التي جاء بها القرآن الكريم ، فالتَّردّدُ هنا بين حقيقة الآخرة التي اختص المتقون بالإيمان بها ، والّتي جاء بها القرآن الكريم ، وغير حقيقتها ممّا توهّمه أهل الكتاب في شأنها .

ولو التفت التقيّ السُّبكيُّ إلى قول القطب التحتانيّ " حَيْثُ قَالُوا :﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ ﴾ و﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ لعلم أنَّ غيرها هو ما فهمه أهل الكتاب من شأن الآخرة ، وهو فهم باطل.

فما قاله القطبُ التّحتانيّ معترضًا به على الزّمخشريّ ليس مناط ما فيه من مؤاخذة هو اعتماده على إفادة التقديم الحصر في الموضعين، بل عدم تحرير ما عطف عليه قوله " وأن اليقين " وذهابِه إلى أن المعطوف عليه هو قوله " تعريضٌ" لا على معمولاته ، وهذا غير دقيق من التحتاني، وهذا ما ناقشه أهل العلم فيه [1] .

أمّا ما ذهب إليه التحتانيّ من إفادة التقديم الحصر فليس مناط مؤاخذته .

وأعلى ممَّا قاله القطبُ التحتاني ما فهمه شرفُ الدين الطيبيّ(٧٤٣هـ) من أن عبارة الزمخشري هنا مفيدة أن التقديم للتخصيص (الحصر) " قوله : "وفي تقديم الآخرة"

---

(١) حاشية السيد الشريف على الكشاف –ط: عيسى الحلبي – القاهرة :١٣٧/١.

وقوله:"وبناء يوقنون" على سبيل النشر ، فدلّ التقديم على التخصيص، وأنّ إيمانهم مقصورٌ على الآخرة الحقيقيّةِ ، لا يتجاوز إلى ما أثبته اليهود، وهو أنّه لا يدخلُ الجنة إلا من كان هُودًا ، وأنّه لا تَمسّهم النار إلا أيامًا معدوداتٍ "[1].

ويعرِضُ التقيّ لتأويل الزمخشريّ في قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ۝ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ (الزمر: ٦٤ – ٦٥) : "مَعْنَاهُ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَعْبُدُ بِأَمْرِكُمْ ."[2]

وهذا أيضًا عند التقي السبكيّ لمّا كانت المادة هي العبادة، كان الحصر مستفادًا منها لا من التقديم ، وعلى هذا يستوي عند التقيّ استفادة الحصر من نظم الآية ، ومن قولنا: أتأمروني أعبد غير الله ، فيكون الإنكار منصبًا على الأمر بعبادة غير الله ﷺ .

وَقَالَ التقيّ فِي تأويل الزمخشريّ قَوْلَ الله تَعالَى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (الأنعام:١٦٤) : " الْهَمْزَةُ للإنكَارِ، أَيْ مُنْكِرًا أَنْ أَبْغِيَ رَبًّا غَيْرَهُ [3].

و فِي تأويل الزّمخشريّ قَوْل الله تَعَالَى : ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾ (الزمر: ١٤): "إِخْبَارٍ بِأَنَّهُ يَخُصّ اللَّهَ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ بِعِبَادَتِهِ مُخْلِصًا لَهُ دِينَهُ ." [4]

وَفي تأويل الزّمخشريّ قول الله تعالى:﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (آل عمران:٨٣) .

" قَدَّمَ الْمَفْعُولَ الَّذِي هُوَ "غَيْرَ دَيْنِ اللَّهِ" عَلَى فِعْلِهِ لأَنَّهُ أَهَمُّ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الإِنْكَارَ الَّذِي هُوَ مَعْنَى الْهَمْزَةِ مُتَوَجِّهٌ إِلَى الْمَعْبُودِ بِالْبَاطِلِ. [5]

---

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، للطيبي،تحقيق:صالح بن عبدالرحمن الفايز – رسالة دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، إشراف :د/حكمت بشير ياسين ، كلية القرآن ، قسم التفسير، الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة –١٤١٣هـ ج١ ص ٢٢٢ .

(٢) الكشاف: ٩٤٦ .

(٣) السابق:٣٥٤ .

(٤) السابق ٩٣٦ .

(٥) السابق:١٨٠.

وَفي تأويل الزّمخشريّ قول الله تعالى: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ (الصّافات: ٨٦) : إنَّمَا قَدَّمَ الْمَفْعُولَ عَلَى الْفِعْلِ لِلْعِنَايَةِ، وَقَدَّمَ الْمَفْعُولَ لَهُ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ، لأَنَّهُ كَانَ الأَهَمَّ عِنْدَهُ أَنْ يُكَافِحَهُمْ بِأَنَّهُمْ عَلَى إفْكٍ وَبَاطِلٍ فِي شِرْكِهِمْ .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ " إفْكًا " مَفْعُولا بِهِ ، يَعْنِي أَتُرِيدُونَ إفْكًا ، ثُمَّ فَسَّرَ الإفْكَ بِقَوْلِهِ ﴿ ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ ﴾ عَلَى أَنَّهَا إفْكٌ فِي أَنْفُسِهَا . وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَالا .[١]

في كلّ هذا يقول التقيّ السّبكيُّ :" فَهَذِهِ الآيَاتُ كُلُّهَا لَمْ يَذْكُرْ الزَّمَخْشَرِيُّ لَفْظَةَ الْحَصْرِ فِي شَيْءٍ مِنْهَا . وَلا يَصِحُّ إلا فِي الآيَةِ الأولَى فَقَطْ . وَالْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ فِي الآيَاتِ الاهْتِمَامُ ، وَيَأْتِي الاخْتِصَاصُ فِي أَكْثَرِهَا .[٢]

ما قاله التقيّ فيه نظرٌ، فتشبثه بعدم التّصريح بلفظ الحصر من الزّمخشريّ، لا ينفِي فهمه وإرادته معنى الحصر . ألا ترى أنّ الزمخشريّ في تأويله قولَ اللهِ ﷻ: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾ (الزمر: ١٤):قال :" فإن قلت : ما معنى التكرير في قوله : ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ (الزمر:١١) وقوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾ قلت : ليس بتكرير؛ لأنّ الأوّل إخبار بأنّه مأمورٌ من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص.

والثاني : إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له دينه ، ولدلالته على ذلك قدّم المعبودَ على فعل العبادة، وأخره في الأوّل. فالكلام أوّلاً واقع في الفعل نفسه ، وإيجاده ، وثانياً فيمن يفعل الفعل لأجله، ولذلك رتّب عليه قوله : ﴿ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ "[٣] ألا ترى أنّه كالمصرح بالحصر، فماذا يفهم أي سامعٍ من قولِ الزّمخشريّ :" إِخْبَارٍ بِأَنَّهُ يَخُصّ اللّهَ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ بِعِبَادَتِهِ مُخْلِصًا لَهُ دِينَهُ، ولدلالته على ذلك قدّم المعبود على فعل العبادة "؟

أيتأتى لأحدٍ أن يقُول: إن ذلك ليس هو مضمون مصطلح الحصر ؟

وقوله:﴿ مخلصًا له ديني﴾ في قوله تعالى﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾ مؤكدٌ لمعنى التقديم ، وهو في قوله تعالى قبله :﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ مؤسّس للحصر، لأنَّ الإخلاص يقتضِي الإفراد بالعبادة . وهو من التّصريف البيانيّ للمعاني .

---

(١) السابق:٩٠٨ .

(٢) عروس الأفراح:١٥٦/٢ .

(٣) الكشاف: ٩٣٦ .

وتشبثُ التقيّ بأنَّ الزّمخشريّ لم ينطق في هذا بلفظ الحصر، تشبثٌ لا يُعْهَدُ من أهل العلم ، فجمهرتهم ، ولاسيّما الأصوليون على أنّ الاعتداد بالمعاني لا بالألفاظ . والتقِيّ وهو الأصولي الفقيه ، والقاضِي أيضًا لابدَّ أن يقضي على من قال لزوجِه: حبلك على غاربك، أو أنت حرة، وهو يريد الطلاق- بطلاقها منه ، وهو لم ينطق بلفظ الطلاقِ ، وبابُ الطلاقِ يعتدّ بكثير من الألفاظ المرادِ بها الطلاق، وليس فيها مادة الطلاق، ولكن فيها معناه إرادةً من المتكلّم.

يقُول الشافعيّ :" أخبرنا مالك أن كتب إلى عمر بن الخطاب من العراق في رجل قال لامرأته :"حبلك على غاربك" فكتب عمر إلى عامله :أن مره يوافيني في الموسم ، فبينا عمر يطوف بالبيت .إذ لقيه الرجل ، فسلم عليه ، فقال :" من أنت" ؟ فقال : "أنا الذي أمرتَ أن أجلب إليك" فقال عمر:" أنشدك برب هذه البنية، هل أردت بقولك :حبلك على غاربك الطلاق" ؟ فقال الرجل :" لو استحلفتني في غير هذا المكان ما صدقتك، أردت الفراق" فقال عمر:" هو ما أردت ".

قال الشافعي: رحمه الله تعالى : فبهذا نقول ، وفيه دلالةٌ على أنَّ كل كلام أشبه الطلاق لم نحكم به طلاقا، حتى يسأل قائله، فإن كان أراد طلاقا فهو طلاق، وإن لم يرد طلاقا لم يكن طلاقا ولم نستعمل الأغلب من الكلام على رجل احتمل غير الأغلب ، فخالفتم عمر في هذا فزعمتم أنه طلاق، وأنه لا يسأل عما أراد." [1]

فهذا قاطعٌ في أنّ الاعتداد بالمعاني لا بالألفاظ . فإذا أريد بكلمة"الاختصاص" معنى الحصر فكيف يتشبث بأنه لم ينطق بكلمة الحصر، وإمامه الشافعيّ لم يتشبث في باب (الطلاق) بأنه لم ينطق بكلمة الطلاق حين قال:" حبلك على غاربك" .

وعلَى هذا فَقولُ التقيّ السبكيّ : " وَقَدْ يَتَكَلَّفُ لِمَعْنَى الاخْتِصَاصِ فِي ذَلِكَ كَمَا فِي بَقِيَّةِ الآيَاتِ . وَأَمَّا الْحَصْرُ فَلَا . [2] إنّما هو غيرُ قويمٍ ، بل إنّ عدم القولِ بالحصر هو المتكلّف المخالف لمعهود العربِ في الخطابِ فهمًا ، وإفهامًا ، ولذا جاء تأويل غير قليلٍ من أهل العلم ببيان القرآن مصرحًا أوْ كالمُصرّح بالحصر أو معناه ، ولولا الإطالة لرصدتُ غير قليلٍ من تأويلهم هذه الآيات .

---

(١) الأم: ٧/ ٢٤٩.

(٢) عروس الأفراح:٢/١٥٦.

وممّا تشبثَ بِه التقيّ أنّ قولَ الله تعالى:﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (آل عمران:٨٣) "لو جعل "غير دين الله يبغُون" فِي مَعْنَى "مَا يَبْغُونَ إِلاَّ غَيْرَ دَيْنِ اللَّهِ". وَهَمْزَةُ الإِنْكَارِ دَاخِلَةٌ عَلَيْهِ، لَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْمُنْكَرُ الْحَصْر؛ لا مُجَرَّدُ بَغْيِهِمْ غَيْرَ دَيْنِ اللَّهِ، وَلا شَكَّ أَنَّ مُجَرَّدَ بَغْيِهِمْ غَيْرَ دَيْنِ اللَّهِ مُنْكَرٌ.[1]

هذا من التقيّ عجيب ، لأنّ الزّمخشريّ لم يقل بأنّ التقديم هنا للاختصاص حتى يؤول الاختصاص بمعنى الحصر، والزّمخشريّ مدركٌ أن التقديم للاهتمام ، وأن معنى الإنكار متجه إلى ابتغاء غير دين الله ﷺ ، والذي يقولُه التقيّ يلزم مَنْ يقُول إن الحصر لازم التقديم ، لزومه "الاستثناء المفرغ" ، و"إنّما" ، وهذا لا يقول به أحدٌ ممّن يعتدُّ بقولهم ، فلم يحتج لمذهبِه بما لم يقل الزّمخشريّ إن التقديم فيه للاختصاص.

هذا في عرفِ المباحثة خروجٌ عن مناط النظر. فالتقيّ هنا فرضَ فرضًا لم يثبت ، وبنى عليه نتيجة يتشبثُ بها لإثباتِ مذهبِه . فصنيعه هنا ينقُضُهُ أمران :

الأول أنَّ الزمخشري لم يقل في قولِ الله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ إن التقديم للاختصاص، كما قال في غيرها.

والأخر أنَّ الزّمخشري لم يقل إنّ التقديم دالٌ على الحصر حيثُ وقع ، بل ذلك يكون في مقامٍ دونَ مقامٍ . فدلالة التّقديم على الحصر دلالة سياقية ، ولذا قالوا إنّها دلالة بالفحوى.

والتقيّ يزعمُ أنّك "إِذَا تَأَمَّلْت مَوَاقِعَ ذَلِكَ [أي التقديم] فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَشْعَارِ الْعَرَبِ تَجِدْهُ كَذَلِكَ. [أيْ لا يُفيد الحصر] : يقول : "أَلاتَرَى قَوْلَ الشَّاعِرِ :

أكلّ امْرِئٍ تَحسَبِينَ امرأً ونارٍ تَوقّد بالليلِ نارًا

لَوْ قَدَّرْت فِيهِ الْحَصْرَ بِ "مَا وَإِلاَّ" هَلْ يَصِحُّ الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ ؟[2]

ليس الأمر كما زعم التقيُّ السّبْكِيُّ. بل إنَّ غير قليل من مواقع التقديم ، ولاسيما تقديم المفعول على الفعل، يفيدُ التقديمُ فيها معنى الحصر ، وسوف أُورد من بعدُ مواطنَ من تفسير الزمخشري وغيره تقطعُ بأنَّ التقديم فيها مفيد للحصر.

---

(١) السابق : ١٥٧/٢.

(٢) السابق .

فإنْ أراد أنَّ تقديم المفعول على فعله في حيز الاستفهام الإنكاري لا يكون مفيدًا في شيْء من الكتاب والسنة وأشعار العرب الحصر، فإنَّ الإمام عبد القاهر قد عقد مبحثا لتقديم المفعول على فعله في حيز الاستفهام قال فيه:

" واعلم أنَّ حال المفعول فيما ذكرنا كحال الفاعل، أعني تقديم اسم المفعول يقتضي أن يكون الإنكار في طريق الإحالة والمنع من أن يكون بمثابة أن يوقَع به مثل ذلك الفعل، فإذا قلت: أزيدا تضرب؟ كنت قد أنكرت أن يكون زيد بمثابة أن يضرب، أو بموضع أن يجترأ عليه ويستجاز ذلك فيه.

ومن أجل ذلك قُدّم "غير "في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ (الأنعام:١٤) وقوله ﷻ- عزّ وجلّ :﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الأنعام:٤٠) وكان له من الحسن والمزية والفخامة ما تّعلم أنّه لا يكون لو أخر فقيل: قل أتتخذ غير الله وليا؟ وأتدعون غير الله؟ وذلك لأنّه حصل بالتقديم معنى قولك: أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا؟ وأيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك؟ وأيكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك؟

ولا يكون شيْءٌ من ذلك إذا قيل: أأتخذ غير الله وليًا. وذلك لأنّه حينئذ يتناولُ الفعلَ أن يكون فقط، ولا يزيد على ذلك، فاعرفه.

وكذلك الحكم في قوله تعالى: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ (القمر:٢٤)وذلك لأنّهم بنوا كفرهم على أنَّ من كان مثلهم بشرًا، لم يكن بمثابة أن يتبع ويطاع، ويُنْتَهى إلى ما يأمر ويصدّق أنّه مبعوث من الله – تعالى – وأنّهم مأمورون بطاعته كما جاء في الأخرى:﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ (إبراهيم:١٠) وكقوله ﷻ: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون:٢٤) [1].

---

(١) دلائل الإعجاز. ص١٢١-١٢٢.

ما قاله الإمام عبد القاهر هنا دالٌّ على أنَّ الاستفهام الدَّاخل على المفعول المقدَّم على فعله، لا يمنع إفادةَ التقديم الحصر . ودالٌّ على أنَّ الإنكار معناه أن المقدم ليس أهلاً لأن يوقع عليه ذلك الفعل . فهو مصرِّحٌ بإنكار ونفي أهلية المقدَّم لذلك ، وهذا يؤخذُ من مفهومه أن نقيض المتقدم، هو المستحق أن يوقع عليه الفعل .

و البيت الذي ذكره التَّقِيُّ (أكلّ امرئ ...)هو لأبي دواد الإياديّ : حارثة بن الحجاج، وهو شاعر قديم فاق في وصف الفرس ، وأكثر شعره فيه . وقيل البيت لعدي بن زيد ،وهو من شواهد الكتاب ، وهو في كثير من مصادر النحو ، والنحاة يستشهدون به على جواز أن يحذف المضاف مع ترك المضاف إليه على إعرابه، كما في قوله" ونار" تقديره: وكلّ نار، فحذف " كل " مع بقاء جرّ كلمة "نار ".

والمعنى :أتحسبين كلَّ رجلٍ رجلا كاملا في رجولته ، وأتحسبين كل نارٍ توقد بالليل نار قرى وكرم، بل الرجل هو من كان كريما شجاعًا ، والنار هي النار الموقدة لقرى الضيفان، والاستفهام هنا إنكاريٌّ بمعنى النفي، وهو متضمن أيضًا معنى التوبيخ على الضلالة في الحسبان . فكأنَّه قال: ما كل رجل بكامل الرجولة، فهو ينفي الرجولة عن كل أحد ، ويثبتها لمن كان شجاعا كريما .

وكأنّه قال: ما كلُّ نار توقد بالليل نارٌ جديرةٌ بالإقدام عليها والفرح بها ، بل ذلك لنار القرى وحدها ، فهو ينفي أن تكون كل نار مستحقة ذلك، ويثبته لنار القرى وحدها .

أليس هذا هو تأويلُ الحصر لو قال :(إنما الرجل الكريم الشجاع) أو (ما الرجل إلا الكريم الشجاع) وإنما النار نار القرى، أو ما النار إلا نار القرى .

والتَّقيُّ السُّبكيُّ مقرٌ بأنَّ (إنما) و(ما وإلا) طريق حصر، فالبيت وإن كان تأويلُ نظمه الحصر الذي بينته لك ، فإنّ في الاستفهام معنىً زائدًا على معنى الحصر ، ولهذا عدل الشّاعر إلى أسلوب الاستفهام والتقديم ، فلو أنّه أعرض عن التقديم والاستفهام لما كان في الكلام ما يوحي بمعنى العتب والتنبيه على الضلالة فيما كان منها ، وذلك معنى رئيس ، وإن كان لاختيار كلمة (تحسبين) أثرٌ في هذا أيضًا . فالحسبان الغالبُ عليْه أن يأتي في البيان القرآنيّ في سياق ما لا يستقيم اعتقاده ، وهذا كالمطرد في بيانِ الوحي، فحيثُ وردت مادة "الحسبان" التي هي من باب الاعتقاد أو العلم، كان متعلقه باطلاً مدفُوعا ، وإن كان في غير البيان القرآنيّ لا يطرد فِيه ذلك ، وهذا من إحكام

البيان القرآني .

وممَّا عَرَضَ لتأويله، وهو محل منازعة قولُ الله ﷻ : ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً... ﴾ (النور: ٣).

ويرى أنّه يفيدُ أنّ العفيف قد ينكحُ غير الزانية ، وهو ساكتٌ عنْ نكاحه الزانية، فقال سبحانه وتعالى بعده:﴿ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ (النور: ٣) بيانا لما سكت عنه في الأولى "[1].

ما ذهب إليه التقي في فهم الآية يعني أنه لو لم يأت قوله ﷺ : ﴿ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ " لكان للعفيف أن ينكح الزانية، لأنّه ليس في صدر الآية ما يمنع منه تصريحًا أو تلويحا، ولذا جاء عجز الآية مقررًا ذلك .

هذا من التقيّ بعيدٌ عن السنة البيانية للقرآن الكريم ، فالقرآن الكريم في مقامات لا يكتفي فيها بالإبانة عن المعنى بطريقِ اللزوم ، بل يضيف إلى التلويح تصريحًا لمزيد تقرير المعنى، ألا ترى أنه كثيرًا ما يجمع بيان إنما ونفي ضد ما يثبت بمنطوقها .يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء: ١٧– ١٨).

أيتأتّى للتقيّ أن يقول إن قوله تعالى:﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ ... ﴾ جاء لأنّ الآية قبلها لا تفيد النفي ، فصرّح بِه في الآية التي بعدها ؟

الآيتانِ من سورة النساء، اشتملت الأولى على إثبات التوبة لطائفة (الذين يعملون السّوء بجهالة ثُم يتوبون من قريبٍ) بالمنطوقِ ، ونفيها عن غيرها بالمفهوم ، وجاءت الآية الأخرى بعدها لتقرر بالمنطوق ما قرر بالمفهوم في الأولى ، وهو نفي التوبة عن تلك الطائفة :الذين يعملون السيئات...

وكذلك تجد الأمر في قول الله ﷻ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (الجن:

---

(١) الموضع السابق .

٢٠) قوله ﷺ : ﴿إنّما أدعو ربّي﴾ يثبت بمنطوقه دعوته ربه ، وينفي بمفهومه أن يشرك أحد في هذه الدعوة ، وهذا ما قرره قوله ﷺ من بعد ﴿ ولا أُشرِكُ بربّي أحدًا﴾ أيقال إنّه لو لم يقلْ ﴿ ولا أشرك...﴾ لفُهِم من صدر الآية احتمالُ أن يدعو غير ربّه ؟

المعنى المصطفى عندي في آيةِ سورة "النور" : الزاني لا يرغب في نكاح غير الزانية أو المشركة ، والزانية لا يرغب في نكاحها غيرُ الزاني أو المشرك.

فالآية خبرٌ بغالب ما يقومُ في الواقع ، وهو على بابه ، وليس صدر الآية تشريعًا ، وإنما التشريع بالنّهي جاء في مقطعها ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى المُؤْمِنِينَ ﴾ أي حرمت الرّغبة في نكاح الزانية أو الزاني على المؤمنين ، وإذا ما حرمت الرغبة ، فقد حرم النكاح نفسه بطريق الأولى .

وهذا الذي اصطفيته متوافقٌ مع ظاهر البيان وسياق الكلام ، ومع أسباب النزول.

وما اصطفيته يمكنك أن تجعل تقديم المسند إليه على الخبر المنفي في (الزاني لا ينكح) مفيدًا للحصر ، ولا يمنع المعنى منه، أي أنك تحصر الزاني في وصف عدم الرغبة في نكاح غير الزانية أو المشركة ، وهو من قبيل حصر الموصوف في الصفة ، ومن البَيِّنِ أنَّا إذا ما حصرنا الموصوف في صفة، فإنا لا ننفي عنه كل صفة عداها، فذلك لا يقال البتة، بل ننفي عنه الصفة التي هي من جنس الصفة المثبتة له، فإذا قلت : ما المتنبي إلا شاعر ، فأنت لا تنفي عنه كلّ الصفات، فهو إنسان وعربي ومسلم وطويل أو قصير ، وأبيض أو أسمر ...إلخ ، ولكنك تنفى عنه الصفات التي هي من جنس الصفة المثبتة، أي الصّفات التي هي من جنس موهبة الإبانة كالخطابة والكتابة الفنية ، وعلى هذا ننفي عن الزاني الرغبة في نكاح العفيفة ، ولا ننفي عنه الصفات كلها على إطلاقها .. والواقع يؤكد صدق هذا الخبر ، فإن الزاني الذي صار الزّنا من سماته وكان من شأنه تلك الموبقة، الغالب أن تنصرف نفسه كلية إلى الرغبة في نكاح الزانية أو المشركة، ومن كان منهما بسبيل ، وكذلك الزانية التي من شأنها الزّنا الغالب أن لا يرغب في نكاحها إلا زان أو مشرك أو من كان منهما بسبيل .

نَقْد تشبثِ التقيِّ السبكي بأن الفضلاء ولاسيّما الزمخشريّ في تفسيرِه يقولون في دلالة التقديم بالاختصاص، ولا يقُولون بالحصر.

إذا ما كان أبو حيان النحوي الأندلسي(٦٥٤- ٧٤٥هـ) شيخ التقيّ السّبكيّ في تفسيره "البحر المحيط " وغيره يرفضُ إفادة التقديم "الاختصاص" ، فذلك بناءً على أنّ الاختصاصَ عندهُ هو الحصر ، ويزعمُ غير موفقٍ عند تأويله قول الله ﷻ ﴿ بسمِ الله الرّحمنِ الرّحيم﴾ أنّ الزّمخشريّ يذهبُ إلى أنّ التقديم على العامل يوجب الاختصاص [1] فإنّ تلميذه تقيّ الدّين السّبكيّ (ت:٧٥٥هـ) يذهبُ إلى أنّ الزَّمخشريّ لا يقولُ بإفادة التقديم الحصر، وإنما يقول بالاختصاص، ويفرّقُ التّقيّ السّبكيّ بيْن الحصر والاختصاص ، وهو فِي رسالتِه "الاقتناص" يستندُ إلى أنّ الفضلاءَ منْ أهل العلمِ لم يرد عنْهم القول بإفادة التقديم الحصر، ومن أولئك الزّمخشريّ في كشّافِه.

والتقيّ السبكيّ ذو صحبةٍ تدريسيّة لتفسير الزَّمخشري " الكشاف " بلغت به إلى الآية الثالثة والأربعين من سورة التوبة . قال ﷻ ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ (التوبة:٤٣) ثُم كفّ عنْ تدريسه ، وأنشأ رسالة سماها "سبب الانكفاف عن إقراء الكشاف" . وهو يقينا قد توقّف عند آيات جاء فيها تقديم كلمات على بعض ، وقال الزّمخشريّ فيها بالتخصيص، وفسّر التقديم فيها بما هو معنى الاستثناء المفرغ، الذي هو عمدة الحصر باعتراف التقيّ نفسِه في رسالة "الاقتناص" أن المسلك الرئيس للحصر هو النفي والاستثناء ، وإثباتُ أمرٍ لأمرٍ ونفيه عن غيره هو مضمون الاستثناء المفرغ ، وأيضًا مضمونُ معنى التّخصيص الحصريّ الذي يأبى التّقيّ السّبكيّ أن يكون مفاد التّقديم .

وإذا ما كان عمدة مذهب التقيّ هو الاعتماد على مقالة أهل العلم ، واصطفى منهم الزّمخشريَّ ، فحسنٌ مناقدةُ معتمدِه .

وإذا ما كان التّقيّ السّبكيّ يقومُ إلى المنازعة في تقديم المعمول" المفعول" على فعلِه الحصر ، ولم يتعرضْ لغيره إلاّ لِمامًا ، وكان ولده البهاء في " العروس " يقول:

---

(١) البحر المحيط .دار النشر / دار الفكر .ج ١ ص ٣ . هذا من أبي حيان غير دقيقٍ . فالزَّمخشري وسائر البلاغيين لا يقولون بوجوبِ إفادة التقديم التخصيص (الحصر) بل يقولون إنه يفيده غالبًا لا لازمًا . وكُتب البلاغيين ملآنة بصورٍ من التقديم لا يقولون إنها للتخصيص (الحصر) وكذلك الزمخشري . فالتخصيص (الحصر) واحدٌ مما يفيده التقديم في بعضِ صُوره . وفي بعض السياقاتِ والمقامات .

" سلك الوالدُ رضي اللهُ عنه فِي الاختصاصِ حيثُ وقع– إما بتقديم الفاعلِ المعنوي ،أو بتقديمِ المعمولِ– مسلكًا غير ما هو ظاهر كلام البيانيين"[1] ، فإن الأكمل أن أُبين عن مذهب الزّمخشري في دلالة التقديم عمومًا على الاختصاص غير الحصريّ أو الاختصاص الحصريّ ، ولنْ استقرئ مواطن ذلك في الكشاف، ولا أبسط البيان، فالمقامُ لا يتسع له، بل قد يكفي أحيانًا إيرادُ النّصّ .

وسوف أكتفي ثَمّ بثلاثة أصنافٍ من التقديم جاء فيها تأويل الزمخشري التقديم بالتخصيص، الذي هو تقريرٌ لحكم المذكور وبيانٌ، لأن المسكوت عنه محكوم عليه بضد ما حكم بِه على المذكور ،وهذا هو جوهر الحصر عند البلاغيين .

*تقديم المسند (الخبر)على المسند إليه (المبتدأ)

*تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي .

*تقديم المفعول به على فعله.

أولا : تقديم المسند (الخبر)على المسند إليه (المبتدأ) .

١– دلالةُ تقديمِ المُسندِ على المُسندِ إليه في قول الله ﷻ : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة:١٣٤) على الحصر.

يقول الزَّمخشري " ...﴿ تلك ﴾ إشارة إلى الأمَّة المذكورة التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون. والمعنى : أنَّ أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدماً كان أو متأخراً ، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا ، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم. وذلك أنهم افتخروا بأوائلهم.(٢)

قوله :" لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا ، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم" قاطعٌ في دلالة التقديم على الاختصاص الحصريّ عنده ، فقد فسّر التّقديم بمعنى الاستثناء المفرغ. وهو وإن لم يصرح بمصطلح "الحصر" هنا فقد صرح بمعناه الاصطلاحي عند أهل ذلك الاصطلاح ، وليس لِغير البلاغيّ أن يُشاحَّ في مصطلح البلاغيين ، وإن كان لكلِّ واحدٍ منهم أن يشاحَّ فيه ، فقولهم : "لا مشاحة في المصطلح" يُعنى بِه: لا مشاحة لمن ليس من أهل هذا المصطلح أن يشاحَّ أهله فيه ، فليس لنحوي أو فقيه أن يشاح بلاغيًا

---

(١) عروس الأفراح: ٢/ ١٥٤.

(٢) الكشاف : ص٩٨ .

في مصطلحه البلاغيّ، وإن كان لقرينه البلاغيّ أن يشاحّ فيه، والتّقي السبكي ليس من أهل علم البلاغة، بينما ولده البهاء صاحب "عروس الأفراح" له أن يُشاح، ولم يفعلْ.

٢ – ومن تقديم المسند على المسند إليه المفيد للحصر عند" الزمخشري" قولُ الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنعام:٥٢).

يقول: " ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ كقوله: ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ (الشعراء:١١٣) وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم فقال: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ بعد شهادته لهم بالإخلاصِ وبإرادة وجه الله في أعمالهم على معنى: وإن كان الأمر على ما يقولون عند الله، فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر والاتسام بسيمة المتقين، وإن كان لهم باطنٌ غير مرضي فحسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم إليك، كما أنّ حسابك عليك لا يتعداك إليهم كقوله: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (الزمر: ٧)"[1].

قوله: " كقوله: ﴿ إنْ حسابهُم إلاّ عَلَى ربِّي ﴾ دالٌ دلالة قطعيّة على أنَّ المعنى على الحصر الذي هو معنى النّفي والاستثناء. فقد سوَّى بين دلالة التقديم في سورةِ (الأنعام) ودلالة النفي والاستثناء في آية سورةِ (الشعراء).

وقوله: " فحسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم " جامعٌ بين الإثبات والنفي الذي هو معنى الحصر. ولا يملك أحد أن يقول إنّ الزمخشري هنا لا يرى في التقديم دلالةً على الحصر.

٣ – ومن إفادة تقديم المسند على المسند إليه الحصر قولُ الله ﷻ: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف:١٣٩) يقول: " ﴿ وباطلٌ ما كانوا يعملُون﴾ أي ما عملوا شيئًا من عبادتهم فيما سلف إلاّ وهو باطلٌ مضْمَحِلٌّ لا ينتفِعونَ بِهِ، وإنْ كان في زعمهم تقربًا إلى الله ....

---

(١) السابق: ٣٢٩.

وفي إيقاع (هؤلاء) اسمًا لإنَّ وتقديم خبر المبتدأ من الجملةِ الواقعةِ خبرًا لها، وَسْمٌ لعبدة الأصنام بأنَّهُم هم المعرّضون للتّبار، وأنّه لا يعدونهم البتةَ..." [1].

هذا دالٌ على أن كلمة : ﴿ باطل﴾ خبرٌ عن ﴿ ما ﴾ في ﴿ ما عملوا ﴾ وأن هذا الخبر قُدِّم فأفاد ما يفيد النفي والاستثناء بدليل قوله : " أي ما عملوا شيئًا من عبادتهم فيما سلف إلا وهو باطل " فجعل مآل معنى التقديم هو مآل معنى النفي والاستثناء . وهذا قاطع في إفادة التقديم عنده الحصر الذي يفيد النفي والاستثناء .

٤- الزمخشريُّ حين يَرِدُ تركيبٌ في آيةٍ يحتمل التقديمَ والتأخير، ثُمَّ يأتي التأخير يُبَيِّنُ لنا وجه اختيار التأخير بعدمِ إرادة الحصر، ممّا يدلّ على أنّه لو كان التقديمُ لأفادَ الحصر الذي لا يقتضيه المقام في هذا السياق .

يقولُ في قول الله ﷻ : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:٢) " فإن قلت: فهلا قدَّم الظرفَ على الريب، كما قدم على " الغَول " في قوله تعالى: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ (الصافات :٤٧) ؟

قلت: لأنَّ القصدَ فى إيلاءِ الرَّيبِ حرفَ النَّفي نفيُ الرَّيب عنه، وإثباتُ أنَّه حقٌ وصدقٌ لا باطلٌ وكذبٌ كما كان المشركون يدعونه، ولو أولَى الظرف لقصد إلى ما يبعدُ عن المراد وهو أن كتاباً آخر فيه الريب، كما قصد في قوله: " لا فيها غول " تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنّها لا تغتال العقول كما تغتالها هي، كأنه قيل: ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة [2].

تخليص كلامه هذا أنّه لو قُدِّم المسند ﴿ فيه﴾ على المسند إليه: ﴿ريب﴾ لفُهم أنَّ القصدَ إلى الإشارة إلى أنَّ كتابًا غيرَه فيه ريبٌ ، فيجتمع في القصد معنيان:

الأول: نفي أن يكون في القرآن الكريم ريب .

والآخر : إثبات الرَّيب في غيره من الكتب .

والثاني ليس ممّا يقصد إليه هنا. فحسُنَ عدمُ التقديم كي لا يفهمَ منه ما ليس بالمقصودِ إليْهِ .

وهذا من الإحسان إلى السَّامع ، فإنَّ من بلاغة المتكلم أن يعينَ سامعَه على أن

---

(١) السابق:٣٨٢ .

(٢) السّابق : ٣٦ .

يفهم ما يقصد إليه دون أن يزلّ إلى ما لا يقصد إليه، ولا تجد هذا كمثل ما أنت واجده في القرآن الكريم.

وإذا ما جئت إلى آية الصافات التي أشرنا إليها: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ (الصافات:٤٧) تجدها قد اشتملت على ثلاثة أضربٍ من التقديم:

- تقديم المسند (فيها) على المسند إليه (غول).
- تقديم المسند إليه (هم) على المسند (ينزفون) في حيز النفي.
- تقديم المتعلّق (عنها) على ما تعلّق به (ينزفون) وهذا يحملنا إلى النظر فيما جاء به الزّمخشريّ في تفسير هذه الآية لعلنا نُبصرُ ما ينفع في هذه القضية.

يقول الزمخشري: " المعنى: لا فيها فساد قطّ من أنواع الفساد التي تكونُ في شرب الخمر من مغَصٍ أوْ صُداعٍ أو خمارٍ أو عَرْبَدَةٍ أوْ لَغْوٍ أو تأثيمٍ أو غَيْرِ ذلِك.

ولا هُمْ يسْكرونَ، وهو أعظمُ مفاسدِها، فأفرزه وأفرده بالذكر "[1].

اكتفى هنا في الدَّلالة على أنَّ في التقديم نفي وصف عن شراب أهل الجنة بقوله: " لا فساد فيها قط " وإثبات هذا المنفي لغيره بقوله: " التي تكون في شرب الخمر" فكان المعنى عنده: لا فيها غول بل خمر أهل الدنيا.

واكتفى في التقديم الذي في ﴿ولا هُمْ عَنْهَا يُنزفون﴾ بقوله: " ولا هم يسكرون، وهو أعظم مفاسدها " معنيًا بوجه ذكر هذه الجملة بعد جملة ﴿لا فيها غولٌ﴾ بأنّ هذا من باب ذكر الخاصّ بعد العام، لما أنّ الخاص من أعظم ما في العامّ وأجمله وكأنه أصلٌ لسائر ما في العام المذكور أولا.

ولم يتعرض للتقديمين اللذين في هذه الجملة؛ لأنَّ السياق لا يصلح أن يراعى فيه قصد إثبات المنفي لغيرها، فإنّه لا يقال في تأويل تقديم ﴿هم﴾ على ﴿ينزفون﴾ القصد إلى أنّ غيرَهم هم الذين يسكرون بها؛ لأنّه ليس في الجنة غيرُهم حتّى يُخبر عن حالهم معها، ولا يقال في تأويل تقديم ﴿عنها﴾ على ﴿ينزفون﴾ القصد إلى أنَّ أهل الجنة ينزفون عن غير هذا الشراب، أمَّا هذا الشّراب فلا ينزفون عنه، لأنَّ أهل الجنة لا يذهب عقلهم، وليس في الجنة البتة شرابٌ يؤدّي إلى ذلك، فانتفى ما يمكن أن تثبت

---

(١) السابق: ٩٠٥.

له الصفة المنفية عن الشراب الذي الكلام فيه.

وبهذا يتبيّن لك وجه عدم إشارة الزّمخشريّ إلى إفادة التقديم في ﴿هم عنْها ينزفُون﴾ الحصر، وأنه لم يدع ذلك لعدم قولِه بإفادة التقديم الحصر، بل ترك ذلك هنا لأنّ المقام لا يستقيمُ معه القول بإفادة التقديم هنا الحصر. ولو كان المقام يليق بِه ذلك لقالَ. فالمانعُ من القولُ هو السياقُ، وليس عدم إفادة التقديم الحصر.

وهذا يبيّن لك جليًا أن التقديم لا يدلُّ دلالةً لزومية في كلّ سياقٍ على الاختصاص الحصريّ كما في الاستثناء المفرغ. فهو يفيده بمعونة السّياق والقرائن؛ لأنّه ليس بالموضوع له وضعًا تحقيقيا، لا شخصيا ولا نوعيا، بل هو موضوع له وضعًا تأويليا تقديريا تنزيليًا يفتقر فيه إلى السياق والقرائن افتقارًا رئيسيًا، وهذا ما يؤكده البلاغيون، ويقررون أن إفادة التقديم الحصر بالفحوى.

وبهذا يتضح لك جيدًا أنّ تقديم المسند إليه على خبره الفعلي في حيز النفي، لم يوضع للدلالة على الاختصاص الحصريّ الذي يدل عليه الاستثناءُ المفرغ وضعًا تحقيقيًا يلازمُه في كلّ سياق ومقام. بل تقضي بعضُ السّياقات والقرائن تجرّده من تلك الإفادة خاصّة. وإن أفاد فائدةً معنويّةً أخرى. والفوائدُ المعنوية للتقديم غيرُ محصورة في فائدة الاختصاص الحصريّ.

ثانيا: تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي:

إذا ما كان الذي مضى هو نمط تركيبي قُدّم فيه المسند على المسند إليه، سواء في سياق الإثبات أو في سياق النفي، فإن ممّا يفيد تقديمه الحصر عند الزّمخشري تقديمَ المسند إليه على خبره الفعلي في سياق إثبات أو غيره. وهذا النّمط فيما أذهب إليه أصلُه الجملة الفعلية التي وقع فيها عدول بتقديم الفاعل المعنوي على فعله لأمرٍ معنويٍّ. فالأصل في العربية هو الجملة الفعلية، وليست الاسمية. فكيف إذا ما كانت الاسمية فعلية العجز؟.

١- يقول الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (يونس: ٤٢ – ٤٣).

يقول الزمخشريُّ: " وقوله: ﴿ أفأنت ﴾ ،﴿أفأنت﴾ دلالة على أنّه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله عزّ وجلّ بالقسر والإلجاء. كما لا يقدر على ردّ الأصمّ

والأعمى المسلوبي العقل، حديدي السمع والبصر، راجحي العقل إلا هو وحده "[1] .

صريحٌ هذا في ذهابه إلى أنّ تقديم المسند إليه ﴿ أنت﴾ على الخبرِ الفعليّ ﴿ تسمع﴾، ﴿ تهدي﴾ في حيز الاستفهام، مفيدٌ في كلٍّ معنى الحصر ، ولذلك أوَّل المعنى إلى الاستثناء المفرغ المقطوع بدلالته على الحصر.

ولست هنا في سياق النظر في مناقشة تأويل معنى الاستفهام وعلاقته بقوله: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ وموقع " الفاء " في ﴿ أفأنت﴾ فذلك وإن كان في نفسه مهما يحرر معنى الاستفهام وعلاقته بخطاب رسول الله – صَلَّى اللهُ عليْه وعَلى آلِهِ وَصَحْبِه وسَلَم – من جهة ، وبتصوير حال المطبوع على قلوبهم من الكافرين ، ولكنّي في سياق النظر في إفادة تقديم " المسند إليه" ﴿ أنت﴾ على الخبر الفعلي ﴿ تسمع ﴾، ﴿ تهدي﴾ في حيز الاستفهام أو غيره .

٢ – في قول الله ﷻ : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود:٦١) .

يقول الزمخشري :" ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ لم ينشئكم منها إلا هو ، ولم يستعمركم فيها غيره، وإنشاؤهم منها خلق آدم من التراب ... "[2] .

قوله :" لم ينشئكم منها إلا هو ، ولم يستعمركم فيها غيره" صريحٌ في أنَّ معنى التقديم هو معنى (الاستثناء المفرغ) الذي فسَّره به .

وهذا من حصر الصفة في الموصوف في الجملتين معا . وذلك على أنَّ قوله : ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ من عطف الجملة على الجملة، أي هو أنشأكم ،وهو استعمركم ، وليس من عطف ﴿ اسْتَعْمَرَكُمْ﴾ على ﴿ أنشأكُم﴾ عطف مسند على مسند ، وإلاَّ لقال الزّمخشريّ: لم ينشئكم منها ولم يستعمركم فيها إلا هو . و الذَّهاب إلى استقلال كلِّ جملة أعلى ؛ لأنَّا إنْ قلنا بأنَّه من عطف المسند على المسند ، فقد يتوهم أنَّ الجمع بينهما " الإنشاء والاستعمار معا " هو مناط النظر ، أيْ لم يجمع بينهما إلا الله ﷻ وغيرُه قد يقعُ منه واحد منهما ، كمثل أن تقول لأحدهم : " لم يطعمك ويعلمك إلا فلان "

---

(١) السابق:٤٦٥ .

(٢) السابق :٤٨٩ .

تريد: لم يجمع لك بينهما إلاّ فلان ، أمّا غيُره فإنّه قد يعلمك أو يطعمك، أمّا أن يجمع بينهما فلا ، ولا ريب في أنّ هذا ليس بالمعنى الذي جاءت به الآية ، وهذا يبين لك وجها من دقّة الزّمخشريّ في تأويله وتعبيره .

٣ – يقول الله ﷻ :﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (النمل:٣) يقول الزّمخشري : " فإن قلت :﴿ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ كيف يتصل بما قبله؟

قلت: يحتمل أن يكون من جملة صلة الموصول ، ويحتمل أن تتم الصّلة عنده ، ويكون جملة اعتراضية ، كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، هم الموقنون بالآخرة، وهو الوجه .

ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ الذي هو ﴿ وهم ﴾ حتى صار معناها : وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق "(١).

فسّر الزّمخشريّ التقديم هنا بالاستثناء المفرغ الذي هو العَلَم في الدّلالة على معنى الحصر : " وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ...".

فهو من حصر الصفة في الموصوف ونفيه عما عداه .

وهذا يُبيّن ما جاء في تفسيره آية البقرة : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة:٤) فالمسند إليه﴿ هم﴾ في الآيتين مقدمٌ على خبره ﴿ يُوقنون﴾ وعدم تقدم ﴿ هم﴾ على ﴿ بالآخرة﴾ فِي آية سُورة (البقرة) لا يؤثرُ فيما نحن فِيه من أن تأويل التقديم فِي آية سُورةِ (البقرة) هُو تأويلها في آية سُورة (النمل) من أن السياقَ سَواء ، والنظم الّذِي هو محلّ النّظر سواء. وإن كان تصريح الزمخشري بمعنى الحصر في تأويل آيةِ سُورة (النمل) أظهرُ .

٤ – ومن هذا ما جاء عنه في تأويلِ قول الله ﷻ :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ

---

(١) الكشاف : ٧٧٥ .

أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:١٦٧) .

يقول: "﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ ﴾ هم بمنزلته في قوله[١].

هم يَفرشـون اللبد كلّ طِمرّة

في دلالته على قوة أمرهم فيما أسند إليهم لا على الاختصاص"[٢].

قوله :" في دَلالته على قُوّة أمرهم " ،يريدُ به التوكيد، وتقوية الحكم ، وهو المعنى الذي جعله التقيّ السُّبكيّ مدلول "الاختصاص" عنده ،فجَعْلُ الزّمخشريّ هذا عديلاً لقوله" لا على الاختصاص" قاطعٌ بأنّ "الاختصاص" هو الحصر، وليسَ التوكيد وتقويةِ الحكم .

كلّ هذا يبيّن بيانًا جليًا قويًا لا يُتوقفُ فيه أنّ الزمخشري يؤول التقديم في مواضع بمدلول الحصر.

ثالثًا : تقديم المفعولِ به عَلَى الْفِعْلِ :

وممّا جاء تأويل التقديم فيه على إفادة الاختصاص(الحصر) عند الزمخشريّ ،وهو الذي عُنِيَ التّقِيُّ السّبكيّ برده ما يأتي :

١- قول الله ﷻ:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) .

يقول الزّمخشَرِيُّ : "...وتقديم المفعول لقصد الاختصاص كقوله تعالى :﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴾ (الزُّمر:٦٤)، ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا ﴾ (الأنعام:١٦٤) والمعنى "نخصك بالعبادة ونخصك بطلب المَعُونَة" [٣].

---

(١) البيت تمامُه (وأجرَدَ سبّاح يَبذُّ المُغاليا). وهو للمعذل بن عبد الله الليثي(من شعراء الحماسة):وقبله .

جــزَى اللهُ فتيــانَ العَتيــكِ وإن نــأتْ ... بيَ الدّارُ عنهُم خيرَ ما كانَ جازيا
هــمُ خَلَطُـوني بــالنّفوسِ وأكرَمُـوا ... الـصَّحابَةَ لمَّا حُمَّ ما كُنْتُ لاقِيا

والزمخشري في فهمه دلالة التقديم في البيت جارٍ على مذهبِ عبد القاهر فيه . يقول عبد القاهر:" لم يرد أن يدعي لهم هذه الصفة دعوى من يفردهم بها . وينص عليهم فيها حتى كأنه يُعرّض بقوم آخرين . فينفي أن يكونوا أصحابُها . هذا محال . وإنما أراد أن يصفهم بأنهم فرسان يمتهدون صهوات الخيل . وأنهم يقتعدون الجياد منها . وأن ذلك دأبهم من غير أن يعرض لنفيه عن غيرهم . إلا أنه بدأ بذكرهم لينبه السامع لهم. ويعلم بديا قصده إليهم بما في نفسه من الصفة، ليمنعه بذلك من الشك . ومن توهم أن يكون قد وصفهم بصفة ليست هي لهم . أو أن يكون قد أراد غيرهم . فغلط إليهم " (دلائل الإعجاز: ١٢٩-١٣٠)

(٢) الكشاف: ١٠٦-١٠٧.

(٣) الكشاف ٢٨.

ويقول في سياق تأويل الالتفات في سورة الفاتحة :

" قيل:" إيَّاك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به"[١].

فانظر قوله :" لا نعبد غيرك ولا نستعينه ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به .

أليس هذا مناديًا أنّ التقديم عنده دالٌ على الحصر؟

٢- ومن إفادة تقديم المفعول الحصر عنده ما في قول الله ﷻ :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ٤٠-٤١) .

يقول الزمخشري :" ثم بكّتهم بقوله:﴿ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾ بمعنى: أتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضر أم تدعون الله دونها ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي ما تدعونه إلى كشفه ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ إن أراد أن يتفضل عليكم ولم يكن مفسدة ..." [٢] .

فانظر قوله : " بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة) فهذا قاطعٌ في أنّ تقديم المفعول مفيد الحصر . فالمسكوت عنه . وهو (الآلهة) ثابت له عنده ضد ما ثبت للمذكور، وهو الله سبحانه وتعالى . وهذا هو مدلول الحصر عند البلاغيين.

وقد علق ابنُ المنَيِّر على هذا بقوله:"وتقديم المفعول عنده يفيد الاختصاص والحصر " [٣] .

٣- وممَّا هو جلي في أنّ التقديم عند الزمخشري قد يفيد الاختصاص الذي هو الحصر ما جاء في تأويله قولَ الله ﷻ ﴿ سَآءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٧).

يقولُ الزّمخشَريّ : " وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب . وتقديم المفعول به للاختصاص كأنه قيل: وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعدها إلى غيرها " [٤] .

---

(١) السابق : ٢٩ .

(٢) السابق ٣٢٧ .

(٣) الانتصاف لابن المنير ٣٢٧:٢/١٨- هامش الكشاف(م.س) .

(٤) الكشاف : ٣٩٦ .

فهذا ظاهرُ الدّلالة على أنّ التقديم مفيدٌ للاختصاص، وأنَّ معنى "الاختصاص" هنا هو معنى "الحصر" بدلالة قوله: لم يتعدها إلى غيرها".

٤- وما يجري على تقديم المفعول على عامله يجري على تقديم المتعلقات على العامل، ومن هذا تأويل الزمخشريّ قولَ الله ﷻ:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام:٩٠) يقول الزّمخشريّ: " فاختص هداهم بالاقتداء ولا تقتد إلا بهم. وهذا معنى تقديم المفعول ...) [1] هذا ظاهر الدلالة على أنّ تقديم المتعلّق" الجار والمجرور" "فبهداهم" على متعلّقه" اقتده".

وكذلك تأويله قولَ الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال:٢).

يقول: "وعلى ربهم يتوكلون" ولا يفوضون أمورهم إلى غير ربهم، لا يخشون ولا يرجون إلا إياه. جمع بين أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة" [2].

٥ - وجاء في تأويله قول الله ﷻ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (يونس: ٥٧-٥٨).

قوله: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ ﴾ أي قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد ﴿ و ﴾ هو ﴿ شِفَآء ﴾ أي دواء، ﴿ لما في ﴾ صدوركم من العقائد الفاسدة، ودعاء إلى الحق ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ لمن آمن به منكم.

وأصل الكلام: بفضل الله وبرحمته فليفرحوا، فبذلك فليفرحوا، والتكرير للتأكيد والتقرير، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا، فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه، والفاء داخلة لمعنى الشرط؛ كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح، فإنّه لا مفروح به أحق منهما [3].

---

(١) السابق: ٣٣٦.

(٢) السابق: ٤٠٣.

(٣) السابق: ٤٦٦.

أيمكن أن يقول قائلٌ إنّ قول الزّمخشريّ:" وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا" لا يريد منه مدلول مصطلح "الحصر"؟ إن كان، فإنّما هو خارجٌ في فهمه عن معهود العربِ في خطابِها فهمًا وإفهامًا.

٦ – وفي تأويله قول الله ﷻ :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الإسراء:١٠٥).

يقول :" ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ وما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة المقتضية لإنزاله ،وما نزل إلا متلبسًا بالحقِ والحكمة، لاشتماله على الهداية إلى كلّ الخير .

أو ما أنزلناه من السماء إلاّ بالحقّ محفوظًا بالرصد من الملائكةِ ، وما نزل على الرسول إلا محفوظًا بهم من تخليط الشياطين " [١] .

قوله هذا صريحٌ كالشمس في أن مدلول التقديم في الآية الحصر .

٧ – ومن هذا تأويله قول اللهِ ﷻ :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الرّوم:٢٧) .

وهو يناظره بقول الله ﷻ :

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ (مريم:٨ – ٩) .

يقول :"﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ فيما يجب عندكم وينقاس على أصولكم ويقتضيه معقولكم ؛ لأنّ من أعاد منكم صنعة شيء كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها ، وتعتذرون للصانع إذا خَطِئَ في بعض ما ينشئه بقولكم : أوّل الغزو أخرق ، وتسمون الماهر في صناعته معاوداً ، تعنون أنه عاودها كرّة بعد أخرى ؛ حتى مرن عليها وهانت عليه .

فإن قلت : لم ذكر الضمير في قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ والمراد به الإعادة ؟

قلت : معناه : وأن يعيده أهون عليه . فإن قلت : لم أخرت الصلة في قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وقدّمت في قوله : ﴿ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ (مريم :٩) ؟

---

(١) السابق: ٦١٠ .

قلت : هناك [أي في آية سورة مريم] قصد الاختصاص وهو محزه . فقيل : هو عليّ هين . وإن كان متعصياً عندكم أن يولد بين هرم وعاقر، وأما هاهنا فلا معنى للاختصاص . كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أنّ الإعادة أسهل من الابتداء ، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى " [1].

لو كان الاختصاص في فهم الزمخشريّ كما يذهب التّقيّ السّبكيّ هو مجرد التوكيد اهتمامًا واعتناء . فما الذي يمنع التوكيد هنا والاهتمام والاعتناء . ذلك لا يكون إلا إذا كان مدلول الاختصاصِ عند الزمخشريّ هنا هو "الحصر" .

وقد كان ناصر الدين ابن المنيّر المالكي(ت٦٨٣هـ) أوْعَى لمقال الزّمخشريّ وأفقه، ولذا قال في كتابه" الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ". معلقًا على مقالة الزَّمَخشَرِيّ هنا:" كلامٌ نفيسٌ يستحقُّ أن يُكتبَ بِذوبِ التّبر، لا بالحبرِ .وإنّما يلقَى الاختصاص من تقديم ما حقّه أن يؤخّرَ. قد علمت مذهبه في مثلِ ذلك" [2]

٨ – وفي قول الله تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٣) يقول : " إلى ربها ناظرة " تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره وهذا معنى تقديم المفعول ألا ترى إلى قوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ (القيامة:١٢) ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ (القيامة:٣٠) ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (الشورى:٥٣) ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (آل عمران: ٢٨) ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود: ٨٨) كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص...

ثُمَّ يقول:" والمعنى: أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه" [3].

أيحتاج من له أدنى إلمام بالعربية أن يبيَّن له أنَّ الزمخشري قاطع بأن تقديم المفعول وما في حكمه كما في الآيات التي ذكرها دال على الاختصاص الحصري الذي هو في معنى (ما) و(إلا) : الجامع بين النفي والإثبات" ؟.

والزمخشريّ في هذه الآية على الرغمِ منْ أنّه لم يجعل النظر على ظاهره . وأوَّله بمعنى التوقع، فإنه قائل بإفادة التقديم الاختصاص الذي هو الحصر عنده هنا بناء على

---

(١) السابق: ٨٢٨ .

(٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال : ٨٧٩(على هامش الكشاف) .

(٣) الكشاف: ١١٦٢.

تصريحه بقوله : " والمعنى: أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه"[1].

وهو الّذي يهمنا هنا . وقد أكّد ابن المنير صحة اجتماع إفادة التقديم هنا الحصر، وبقاء معنى "النظر" على حقيقته دون تأويل[2].

وقول الزمخشريّ هنا:" تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول ألا ترى إلى قوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ (القيامة:١٢) " نّصٌ قاطعٌ منادٍ بأن تقديم المفعول عند الزمخشري يفيد فيما يفيد معنى الحصر .وأنه في إفادته هذه كدلالة الاستثناء المفرغ عليه .

ولن يكون بملك " التقي السبكي أن ينازع في أنّ الزمخشريّ ممن يقرّر أن تقديم المفعول قد يفيد الحصر: (القصر) وأن الاختصاص عنده حينئذٍ متوافق مع الحصر والقصر في المسمى الاصطلاحي .

وإذا ما كان التقيّ السّبكيّ قد اصطفى الزّمخشريّ مستندًا لمذهبه ، وتبيّن أنّه لا يصلح مستندًا لهذا المذهب ، فإن جمهرة من المفسرين من قبل الزّمخشريّ ، ومن بعده يذهبون في بعضِ المواضع من تفسيرهم إلى أن التقديم في بعضِ الصور وبعضِ السياقات يتضمن معنى الحصر: (النفي والإثبات) ولذا يؤولون المعنى على الاستثناء المفرغ، أو إثبات شيءٍ ونفيه عن غيره .

يقول الطبري في تأويل قول الله ﷻ :﴿ إياك نعبُد﴾

قال أبو جعفر: وتأويل قوله ﴿ إيَّاكَ نعبُد﴾ : لك اللهم نَخشعُ ونَذِلُّ ونستكينُ . إقرارًا لك يا رَبنا بالرُّبوبية لا لغيرك."

ومعنى قوله:﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾: وإياك رَبنا نستعين على عبادتنا إيّاك وطاعتنا لك وفي أمورنا كلها -لا أحدًا سواك، إذْ كان من يكفُر بك يَستعين في أموره

---

(١) ليس مناط الرّد على الزمخشريّ أنّه أوّل قوله ﷻ ﴿ ناظرة﴾ بمعنى منتظرة . فذلك قال به بعضَ أهل السنة والجماعة. قال مجاهد :" تنتظر ثواب ربها "كما رواه الطبري في تفسيره ط:شاكر (٧٢/٢٤) وإنما الرد أنه اختار هذا التأويل لمنع القول بالنظر إلى الرب ﷻ يوم القيامة . فلولا أنّه يوظف هذا التأويل لمعتقده غير القويم لما كان باعثًا قويًا إلى رده.

(٢) ينظر تعقيب ابن المنير في الانتصاف على هامش الكشاف ص ١١٦٢ .

معبودَه الذي يعبُدُه من الأوثان دونَك، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة [1].

ألا ترى أن قوله " إقرارًا لك يا رَبنا بالرُّبوبية لا لغيرك."و" نستعين على عبادتنا إيّاك وطاعتنا لك وفي أمورنا كلها –لا أحدًا سواك." دالٌ دلالة بينة على أن التقديم متضمن معنى الإثبات ،والنفي ، فقوله:" لا غيرك" ،" لا أحدًا سِواك" ناطقٌ بذلك ،لا يُتغافلُ عنْه البتة .

وفي قول الله ﷻ :﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (يونس:٤٣) يقول :" يقول: أفأنت يا محمد تحدث لهؤلاء الذين ينظرون إليك وإلى أدلتك وحججك ، فلا يوفقون للتصديق بك أبصارًا لو كانوا عميا يهتدون بها ويبصرون؟ فكما أنك لا تطيق ذلك ولا تقدر عليه ولا غيرك ، ولا يقدر عليه أحد سواي ، فكذلك لا تقدر على أن تبصِّرهم سبيل الرشاد أنت ، ولا أحد غيري ؛ لأنَّ ذلك بيدي وإليّ " [2] .

وفي تأويله قول الله ﷻ :﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النحل:٧٧) يقول : " ولله أيها النّاسُ ملك ما غاب عن أبصاركم في السموات والأرض دون آلهتكم التي تدعون من دونه ، ودون كلِّ ما سواه ، لا يملك ذلك أحد سواه..." [3] .

وفي مثل هذا الباب يقول الطبري في قول الله ﷻ :

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (الروم:٥٣) يقول:" يقول تعالى ذكرُهُ : وما أنت يا مُحمّدُ بِمُسدّد من أعماه الله عن الاستقامة ومحجة الحق ، فلم يوفقه لإصابة الرشد ، فصارفه عن ضلالته التي هو عليها ، وركوبه الجائر من الطرق إلى سبيل الرشاد ، يقول ليس ذلك بيدك ولا إليك ، ولا يقدر على ذلك أحد غيري ؛ لأني القادر على كلِّ شيءٍ"[4] .

---

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن : محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، ،تح: أحمد محمد شاكر ،الناشر : مؤسسة الرسالة ،الطبعة : الأولى، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م ، ج١ ص ١٥٧–١٥٨.

(٢) السابق: ٩٦/١٥ .

(٣) السابق :١٧/ ٢٦٤ .

(٤) السابق :١١٦/٢٠.

ومن هذا الباب الذي يفيد فيه تقديم المسند على المسند إليه الحصر ما جاء عن الطبري في تفسير قول الله ﷻ:

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:٨٨).

يقول "الطبري": "... وقوله: (له الحُكْمُ) يقول: له الحكمُ بينَ خلقِهِ دون غيره، ليس لأحد معه فيه حكم ..."

فقول الطبريّ: (دون غيره) تصريح بما فهم تلويحا من الإثبات في (له الحكم) وهذان هما عنصرا الحصر (الإثبات والنفي في جملة واحدة)، وهو النهج الذي يتخذه الزّمخشريّ من بعده أحيانا.

و من هذا قول الطبري في قول الله ﷻ:

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الزمر:٦٦):

" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا تعبد ما أمرك به هؤلاء المشركون من قومك يا محمد بعباته، بل الله فاعبد دون كل ما سواه من الآلهة والأوثان والأنداد.....ونصب اسم الله بقوله (فاعبد) وهو بعده، لأنه رد كلام..." [١].

كلُّ هذا جلي ظاهر في أن تقديم المفعول مفيد للحصر.

وعبد القاهر، وهو شيخ البلاغيين، يقرّر أن التقديم قد يكون للحصر، وقد يكون لغيره.

يَقُول: " ... إذا عمدت إلى الذي أردت أن تحدّثَ عنه بفعلٍ، فقدّمتَ ذكرَه، ثُمّ بنيْت الفِعلَ عليه فقلت " زيد قد فعل" ، و" أنا فعلتُ" و"أنت فعلتَ" اقتض ذلك أن يكون القصدُ إلى الفاعلِ، إلا أنّ المعنى في هذا القصد ينقسمُ قسمين:

أحدهما جلي لا يشكل وهو أن يكون الفعلُ فعلاً قد أردت أن تنصّ فيه على واحدٍ، فتجعلَه له، وتزعمَ أنّه فاعلُه دون واحدٍ آخرَ، أو دون كلِّ أحدٍ.

والقسم الثاني: أن لا يكونَ القصدُ إلى الفاعل على هذا المعنى، ولكن على أنّك أردت أن تحقِق على السامع أنّه قد فعلَ وتمنعُه من الشّك، فأنت لذلك تبدأُ بذكره

---

(١) السابق: ٢١/ ٣٢٣.

وتوقعُه أولاً ومن قبلِ أن تذكرَ الفعلَ في نفسِه، لكي تباعدَه بذلك من الشُّبهة وتمنعه من الإنكار، أو من أن يظن بك الغلط أو التّزيد "[1].

أليس قولُه : " أحدهما جلي لا يشكل وهو أن يكون الفعلُ فعلاً قد أردت أن تنصَّ فيه على واحدٍ ، فتجعلَه له ، وتزعمَ أنّه فاعلُه دون واحدٍ آخرَ . أو دون كلِّ أحدٍ . " هذا قاطعاً في أنّ التقديم عند البلاغيين – وفي صدارتهم عبد القاهر الذي كانت عنايته بتبيين معاني التقديم جدٌّ عظيمة – لا يقول أحدٌ منهم إنّ التقديم محصورة معانيه في الاختصاص (الحصر) ؟!!

وتأمل كيف أنّ عبد القاهر جعل إفادة التقديم الحصر جلي لا يشكل ، وكأنّ هذا هو الذي لا يستقيم المنازعة فِيه، فإنّه جليّ لا يُشكل. بخلاف الآخر (إفادته التقرير والتوكيد) لم يقل فيه "جليّ لا يُشكل". وكأن حاجة القولِ بِه إلى السّياقِ أقوى من حاجة الأوّل. ولكن التقيّ السبكي يقلبُ القضيةَ بغير برهان.

ومن قبلِ عبد القاهر ذهب ابن جنّي (ت٣٩٢هـ) إلى أنّ تقديم الفاعل المعنوي، وهو نكرة على فعله يأتي ليفيد حصر الفعل في هذا الفاعل المعنوي المقدم ، تجد هذا جليًا في تأويل ابن جنّي قول العرب:" شَرٌّ أهرَّ ذا نابٍ " . يقول:

" وأمَّا قولهم :" شرٌ أهرَّ ذا نابٍ " فإنّما جاز الابتداء بالنكرة من حيث كان الكلام عائدًا إلى معنى النفي، أي: ما أهرَّ ذا نابٍ إلا شرٌ. وإنما كان المعنى هذا ؛ لأنَّ الخبرية عليه أقوى . ألا ترى أنّك لو قلت : أهرَّ ذا نابٍ شرٌّ " لكنت على طَرف من الإخبار غير مؤكد، فإذا قلت :" ما أهرّ ذا ناب إلا شرٌّ" كان ذلك أوكد.

ألا ترى أنّ قولك : ما قام إلا زيد، أوكد من قولك: " قام زيد" .

وَإنّمَا احتِيجَ إِلَى التّوكيدِ فِي هذَا الْموْضِع منْ حيثُ كَانَ أمْرًا عَانِيًا مُهِمًا ، وذَلِكَ أنَّ قَائلَ هذَا الْقَولَ سَمعَ هَريرَ كلبٍ ،فَأَضَافَ مِنْهُ وَأشفَقَ لاستِماعِهِ أنْ يَكونَ لِطارق شَرٍّ ، فقال : " شرٌّ أهرَّ ذا نابٍ" أي " ما أهرّ ذا نابٍ إلاَّ شرٌّ" تعظيمًا عند نفسه أو عند مستمعه ، وليس هذا في نفسه كأنْ يَطرقَ بابَهُ ضَيْفٌ أوْ يُلِمّ بِه مُسْترشِدٌ ، فَلَمَّا عَنَاهُ وَأَهمّهُ وَكّدَ الإخبارَ عنْهُ ، وأخرجَ الْقَولَ مَخرجَ الإغلاظِ بِهِ ،والتَّأهيبَ لَما دَعَاهُ إِليْهِ " [2] .

---

(١) دلائل الإعجاز –تح : شاكر ص ١٢٨

(٢) الخصائص .لابن جني . تح: محمد علي النجار . ط: سلسلة الذخائر.رقم(١٤٦) وزارة الثقافة المصرية

ما قاله ابن جني صريحٌ في أن تقديم الفاعل المعنوي على فعله أفاد حصر الفعل فيه، ولذلك أوله بالنفي والاستثناء، وبيّن ما فيه من التوكيد، بل وبيّن مقتضَى هذا التوكيد والحصر، وكان بيانه لا يفتقر أحد إلى مزيد عليه.

وهذا الذي قاله "ابن جني" هو أصل ما قاله من بعده "عبد القاهر" وهو من الشهرة عند طلاب علم العربية بمكان [1].

وننظر في مقالة عصريٍّ لعبد القاهر هو إمامٌ فيما كان التقي فيه إمام عصره، إنه إمام الحرمين أبو المعالي الجويني : عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الشافعيّ (٤١٩ – ٤٧٨ هـ) لنرى تصريحه بإفادة التقديم الحصر.

ترى ذلك جليّا سافرًا في تأويله التقديم في ما رواه أبوداود في كتاب الطهارة من سننه بسنده عَنِ ابْنِ عَقِيلٍ عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : "مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ". (قال الألباني:حسن صحيح)[2].

يقول الجويني:"قوله ﷺ : وتحريمها التكبير" فمقتضاه الحصر لا محالة [كذا] وليس هذا من فن المفهوم المتلقى من تخصيص الشيء بالذكر ... وهذا يقرر من وجهين :

أحدهما النقل والاحتكام إلى ذوي الحجا والإحكام في كل لسان ولغة، فإذا قال القائل :"زيد صديقي" لم يتضمن هذا نفي الصداقة عن غيره والقول بالمفهوم لا يتضمن في سياق هذا الكلام حصرا للصداقة ولا قصرا لها على زيد المذكور صدرا ومبتدأ.

ولو قال القائل "صديقي زيد" اقتضى هذا أنّه لا صديق له غيره، وهذا مما لا يبعد ادعاء إجماع أهل اللسان فيه، ومن أبدى في ذلك مراء كان مباهتا محكوما عليه بالعناد، فهذا وجه، والوجه الآخر أن ترتيب الكلام أن تقول:"زيدٌ صديقي" فإن وضع المبتدأ ذكر معرف تبتدره الأفهام حتى إذا فهم أسند إليه خبر لا يستقل معلوما في نفسه،

٢٠٠٦/ ج١ ص٣١٩.

(١) دلائل الإعجاز. قراءة محمود شاكر: ١٤٣–١٤٤.

(٢) الحديث رواه أيضًا الترمذي في كتاب الصلاة من جامعه. وابن ماجه في كتاب الطهارة من سننه. وأحمد في مسند عليّ. والدارمي من كتاب (الطهارة) من سننه.

فينتظم من ارتباط الخبر به في إفادة السامع ما يقدر المتكلم أنه ليس عالما به، فإذا قلب الكلام وقال: " صديقي زيدٌ" لم يصلح قوله: "صديقي" صدرا مبدوءا به ، فإنه يترقب بعد البداية به خبره، فحملت العرب تقديمه وصرف الاهتمام به على حصر معناه في زيد المذكور بعده، ولولا ذلك لما انتظم الكلام، وهذا معنى لا يفضي إلى القطع بنفسه، والمعتمد القاطع النقل كما ذكرناه "[1].

كلام الجويني في دلالة التقديم على الحصر ، وتصريحه بمصطلح الحصر والقصر ، لا يتوقف فيه سامعٌ ، والاحتجاج بأنّ كلامه في تقديم الخبر على المبتدأ ، لا في تقديم المفعول على فعله، تعنت لا يلتفت إليه، وإلا وجب إبداء فرق موضوعيّ أسلوبي منسول من معهود العرب في خطابها فهما وإفهاما يفرق بين التقديمين .

ويقُول ابن العربي المالكيّ:

"قال رسول الله ﷺ : "تحريم الصلاة التكبير" وتحليلها التسليم". فقال علماؤنا: لا يجوز التعظيم ولا التسبيح بدلا من التكبير. وقال أبو حنيفة رحمه الله يجوز افتتاح الصلاة بكل ذكر لأن ذكر التكبير لا يقتضي أن غيره بخلافه، وحمل علماؤنا هذا الحديث على طريقين: أما أحدهما فقالوا إنه دليل الخطاب وردوا المسألة إليه .

الثاني أنهم قالوا هذه عبادة وقد عينت للتكبير وعين لها، فإلحاق غيره به من باب القياس ولا مدخل له في العبادات . والمختار عندي أنه من باب الحصر"[2].

وأختم القول بموقفِ ولده البهاء السبكيّ من دلالة التقديم على الحصر:

البهاءُ السبكيّ عليمٌ بمذهب أبيه التقي في هذه المسألة ،ونقل رسالته "الاقتناص" في خاتمة القول في تقديم المفعول على فعله، والبهاء قائمٌ على أنّ هذا التقديم يكون لأمورٍ منها:التخصيص الذي هو الحصر عنده ، وقد ختم الفصل بقولِه :

" تنبيه، وقد اجتمع الاختصاصُ وعدمه فِي آيةٍ واحدةٍ ، وهي قولُه تعالى:

﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ٤٠- ٤١) .

---

(١) البرهان في أصول الفقه .لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني ، تحقيق: عبد العظيم الدّيب ، ط(٤) دار الوفاء ،المنصورة : ج١ص ٣١٧ .

(٢) المحصول في أصول الفقه،لأبي بكر بن العربي المعافري المالكي .تح: حسين علي البدري . ط: دار البيارق – الأردن . ١٤٢٠هـ . ص١٠٦-١٠٧.

فإنَّ التقديم الأول قطعًا ليس للاختصاص ، وفي ﴿ إيّاه ﴾ قطعًا للاختصاص ،كما يظهرُ بالتّأمّل" [1].

فهذا دالٌّ على أنّ التقديم في ﴿ إياه تدعون﴾ قطعًا للاختصاص الذي هو الحصر، لأن الاختصاص بمفهومه عند أبيه قائمٌ في ﴿ أغير الله تدعون﴾ وهو قد أباه ، ولو أنه بمعنى الحصر عنده ما أباه .

وهو يعلّقُ على ما جاء عن الزّمخشريّ في تأويل قول الله تعالى :﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:١٦٧) من عدم القول بالاختصاص(الحصر) في التقديم : ﴿وما هم بخارجين منَ النّار﴾ قائلاً :

:" وهيَ دسيسةٌ اعتزالٍ ؛ لأنّه لو جعلها هنا للاختصاص، لزمه تخصيص، عدم خروج الكفار، فيلزمُ خروج أصحابِ الكبائرِ من المسلمين كمذهبِ أهل السنةِ ، والزّمخشريّ أكثرُ النّاسِ أخذًا بالاختصاص[يريد الحصر لا محالة ، لا التوكيد وتقوية الحكم] في مثلِ هذا وغيرِهِ منْ قواعِد البيانيين ، فإذا عارضه الاعتزال فزعَ من قواعدهم إليه" [2].

وفوق هذا هو لم ينازع في كتابه العروس في باب "القصر" عَدّ التقديم ممًّا يفيد القصر أحيانًا. هل بقيَ علينا شيءٌ من كلام التقيّ السبكي يُمكن أن يؤيده فيما ذهب إليْه من أنَّ التقديم يفيد الاختصاص"الاهتمام توكيدًا وتقويةً للحكم، ولا يفيد الحصر .؟

من هذا الذي قلته يجبُ على طلاب العلم ألاَّ يسلموا عقولهم وقلوبهم لغير بيان الوحي كتابا وسنة ، وعليْهم أن يجعلوا كلَّ بيان من دون بيان الوحي قرآنًا وسُنّة مناطَ مفاتشة ومناقدة ومباحثة تستقرئُ وتستنبط وفقا لأصول وضوابط الاستقراء والاستنباط والاستنتاج ، وبهذا نحقق طاعة الرسول ﷺ فيما نهانا عنه قائلا : "لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا " رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب .

---

(١) عروس الأفراح:٢/١٥٤.

(٢) عروس الأفراح:١/ ٤٢٤ .

فانظر قوله ﷺ : " وإن أساؤوا فلا تظلموا " كيف أنّه جعل متابعة المسيء ظلمًا.

وانظر قوله ﷺ :" وطّنوا أنفسكم" فإن فيه هدايةً بالغةً إلى أن الفريضة ترويض النفس وتدريبها على أن تسكن إلى الإحسان وتصبر على إتقانه فـ " إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِين" .

إنّ علينا أن ننظر في كلّ ما جاءَ عن غيرِ اللهِ ﷻ ورسُوله ﷺ بعقلٍ موضوعيّ ناقد يُحقّ الحق . ويدفعُ غيرَه بحجة وبرهانٍ موضُوعيّ لا بالهوى والعصبية .

وصلّى الله وسلّم على عبده ونبيه ورسوله سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وأمته في كلّ لمحة ونفسٍ، عدد ما في علم الله العظيم، صلاة دائمة بدوام الله العظيم .

والحمد لله رب العالمين

* * *

فهرس المصادر والمراجع:

- **أسرار البلاغة**. لعبد القاهر، قراءة وتعليق محمود شاكر. ط: الخانجي .القاهرة.
- **الأشباه والنظائر في النحو** للجلال السيوطي،مراجعة فايز ترحيني ٠ دار الكتاب العربي – بيروت – ط ١٤١٤هـ.
- **الأم**، للشافعيّ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط(٢).
- **البحر المحيط في أصول الفقه** لبدر الدين الزركشي ، ط : وزارة الأوقاف .الكويت، ١٤٠٩هـ .
- **البرهان في أصول الفقه** .لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني . تح: عبد العظيم الدّيب . ط (٤) دار الوفاء ، المنصورة.
- **جامع البيان في تأويل آي القرآن** : محمد بن جرير أبو جعفر الطبري. .تح: أحمد محمد شاكر .الناشر : مؤسسة الرسالة .الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠ م.
- **حاشيته قطب الدين التحتاني على الكشاف** (مخطوطة) رقم ٣٥٣ تفسير تيمور – دار الكتب المصرية .
- **الخصائص** .لابن جني ، تحقيق: محمد علي النجار ، ط: سلسلة الذخائر،رقم (١٤٦) وزارة الثقافة المصرية سنة٢٠٠٦ .
- **دلائل الإعجاز** ، عبد القاهر . قراءة وتعليق محمود شاكر –ط: الخانجي .
- **دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين : دراسة منهجية تحليلية** ط (٢) : مكتبة وهبة . القاهرة سنة١٤٣٠هـ.
- **سبل الاستنباط من الكتاب والسنة: دراسة بيانية ناقدة** . ط: الأمانة – القاهرة ١٤٠٢هـ.
- **طبقات الشافعية** " تحقيق : عبد الفتاح الحلو ، ومحمود الطناحي– طبعة الحلبي بالقاهرة.
- **عروس الأفراح** (ضمن شروح التلخيص)– ط: عيسى الحلبي – القاهرة .
- **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب**، لشرف الدين الطيبي،تحقيق:صالح عبدالرحمن الفايز – رسالة دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، إشراف :د.حكمت

بشير ياسين، كلية القرآن ، قسم التفسير، الجامعة الإسلامية ، المدينة المنورة .
- الكتاب لسيبويه، تح: عبد السلام هارون ،،ط:دار الجيل ،بيروت .
- الكشاف عن حقائق التنزيل. للزمخشري، تح:خليل مأمون شيحا، ط دار المعرفة بيروت سنة ١٤٢٤هـ .
- المحصول في أصول الفقه، لأبي بكر بن العربي المعافري المالكي .تح: حسين علي البدري ، ط: دار البيارق – الأردن ،١٤٢٠هـ.
- المطول شرح التلخيص في علوم البلاغة. للسّعد التفتازانيّ ، ط: تركيا ،سنة :١٣٣٠ .

* * *

أثر القرآن الكريم في شعر أبي تمام

د. علي بن محمد الحمود
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي ـ كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

أثر القرآن الكريم في شعر أبي تمام

د. علي بن محمد الحمود
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي
كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

يعدُّ أبو تمام في طليعة شعراء العربية، فهو شاعر موهوب يجمع بين الطبع والصنعة، ولا شك في ذلك، لكنه في الوقت ذاته شاعر صنعة، يبحث عن التجديد في الصور والمعاني . وهذا البحث وقف عند خطابه الشعري المنفتح على القرآن الكريم ، والمعبر عن مكونات شخصيته وثقافته المتنوعة التي كان القرآن الكريم في مقدمة مصادرها. ومن هنا اتجه هذا البحث إلى دراسة أثر القرآن الكريم في تشكيل تجربته الشعرية المتميزة.ووقف البحث عند ثلاث صور من صور ذلك الأثر،هي : التلميح والاقتباس والعقد .وأظهر أن نماذج التلميح في شعر أبي تمام كانت الأكثر حضوراً ، تلتها نماذج الاقتباس ،أما العقد فكان أقل تلك الصور.وبين البحث أن أبا تمام كان غالباً ما يحافظ على قداسة القرآن الكريم ومكانته ، لكن هناك نماذج لم يوفق فيها ، وقد أشار إليها البحث ، وفيها أورد أبو تمام بعض أساليب القرآن الكريم ومعانيه في سياقات لا تليق بقداسته . وأخيراً ، فإن حضور القرآن الكريم في شعر أبي تمام كان عاملاً مهماً من العوامل التي أسهمت في إغناء تجربته الشعرية ، وتزويدها بطاقات فنية وموضوعية ، ومنحها بُعداً دينياً ، وهي تجربة فريدة في تاريخ الشعر العربي : قديماً وحديثاً ، ما زالت تحتاج إلى دراسات أخرى ، تكشف عن جوانب غائبة في إبداعات أبي تمام الشعرية .

المقدمة:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيعدُّ القرآن الكريم من أهم المصادر التي أفادَ منها الشعراء العرب: قديماً وحديثاً في إغناء تجاربهم الشعرية؛ لأنهم يرون فيه الأنموذج الفريد المعجز للبلاغة والفصاحة. ومن هذه الرؤية نجد أنه قد تأثر كثير من الشعراء العرب بأساليب القرآن الكريم ومعانيه وقصصه، فانتهلوا من معينه الذي لا ينضب، محققين غايات شعرهم، من إدهاش وإبهار وتأثير.

ومن خلال اهتمامي بشعر أبي تمام حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٣١هـ) [١] تبين لي أنه من أكثر الشعراء العرب تأثراً بأساليب القرآن الكريم ومعانيه، إذ بدا شعره متلبساً بالقرآن الكريم: أسلوباً وفكراً، وممتزجاً به في نماذج كثيرة.

لقد جاء خطاب أبي تمام الشعري المنفتح على القرآن الكريم معبراً عن مكونات شخصيته وثقافته المتنوعة التي كان القرآن الكريم في مقدمة مصادرها. ومن المصادر الأخرى المتعددة التي أسهمت في تشكيل تجربته الشعرية المتميزة: السنة النبوية، وتاريخ العرب، وتاريخ الأمم الأخرى، وكلام العرب: شعره ونثره، والفلسفة، وعلوم اللغة والعقائد، وغيرها من المصادر [٢] التي لن يجد المتلقي كبير عناء في التعرف إليها.

ويعدُّ أبو تمام في طليعة شعراء العربية، فهو شاعر يجمع بين الطبع والصنعة، فهو شاعر موهوب، ولا شك في ذلك، لكنه في الوقت ذاته شاعر صنعة، يبحث عن التجديد في الصور والمعاني. ومنهجه الشعري يتمثل في أنه " لا يرتجل القول ارتجالاً، ولا يرسله

---

(١) ولد أبو تمام في قرية جاسم في بلاد الشام. واختلف حول تاريخ مولده. فقيل: (١٩٠هـ). وفي رواية أخرى قيل: (١٨٨هـ). وابن خلكان ذكر أنه ولد عام ١٧٢هـ. أما وفاته فكانت عام (٢٣١هـ).
والمجال هنا لا يتسع للحديث عن حياته وأدبه. فالمصادر التاريخية والأدبية والدراسات الحديثة أغنت هذا الجانب. وأحيل القارئ إلى كتاب: أبو تمام الطائي (حياته وحياة شعره) لنجيب البهبيتي. فقد غطى في هذا الكتاب كثيراً من الجوانب المتعلقة بحياة أبي تمام ونسبه وقبيلته وشخصيته وشعره. وسيجد القارئ إحالات إلى المصادر التي ترجمت لأبي تمام.

(٢) ينظر: الفن والصنعة في شعر أبي تمام: د. محمود الربداوي: ١٤٢– ١٦٤.

إرسالاً، وإنما يقوّمه ويثقفه، ويتخير المستجاد منه؛ ليذيعه بعد ذلك على الناس "[1].

وكان في بحثه عن الجديد يوفق، فيأتي بما لم يستطعه الأوائل، ويخفق، فيأتي بالشعر الرديء، ومن هنا كان التفاوت سمة بارزة في شعره، إنه مثل الغواص الذي يبحث عن اللؤلؤ، فيحصل أحياناً على مبتغاه، وأحياناً أخرى لا يحصل على شيء ذي بال، فمن شعره ما يرقى به إلى قمة الشعر العربي، ومنه ما كان صيداً سهلاً لنقاده، ومن الأقوال التي تجسد هذا المعنى قول البحتري عندما سُئل عن " أيما أشعر، أنت أو أبو تمام ؟ فقال : جيّدُه خير من جيدي، ورديئي خير من رديئه . قال أبو بكر : وقد صدق البحتري في هذا، جيدُ أبي تمام لا يتعلّق به أحد في زمانه، وربما اختلّ لفظه قليلاً لا معناه، والبحتري لا يختلُّ "[2].

وعلى الرغم من كثرة الدراسات النقدية التي قُدمت: قديماً وحديثاً عن شعر أبي تمام، إلا أنني لم أقف على دراسة مستقلة درست هذا الجانب في شعره، مع الإقرار بوجود إشارات كثيرة جاءت ضمن بعض الدراسات النقدية والبلاغية التي اهتمت بشعره، وقد استعنت بكثير منها في هذه الدراسة، واستفدت منها فائدة واضحة، وذكرتها في ثبت المصادر والمراجع .

والدراسة التي أقدمها اتجهت إلى الوقوف عند ظاهرة حضور تراكيب القرآن الكريم ومعانيه في شعر أبي تمام ؛ بهدف إبراز أثر ذلك الحضور في تشكيل تجربته الشعرية المتميزة.وقد رأيت أن يكون عنوان هذه الدراسة (أثر القرآن الكريم في شعر أبي تمام)؛ لأن هذا العنوان يحقق أهداف الدراسة، فأنا أرغب في دراسة أثر تراكيب القرآن الكريم ومعانيه في شعر أبي تمام، وفي التراث العربي : البلاغي والنقدي بعض المصطلحات التي تحقق هذا المفهوم، مثل : الاقتباس والعقد والتلميح ، فهذه المصطلحات من المصطلحات التي تحدثت عن عملية تداخل النصوص لكن الحديث عنها جاء ضمن الحديث عن مصطلح السرقات الأدبية [3]. وهذا الأمر – أعنى ارتباط تلك المصطلحات بمصطلح السرقات الأدبية – أدى إلى ضعف الاهتمام بها . يضاف إلى ذلك أنني لم أجد

---

(١) على هامش الأدب والنقد : علي أدهم : ١١٤.

(٢) أخبار أبي تمام : لأبي بكر بن يحي الصولي : ٦٧ .

(٣) ينظر : التفاعل النصي (التناصية : النظرية والمنهج) : نهلة فيصل الأحمد : ٢٤٨ – ٢٥٨ .

إطاراً واحداً يجمع بينها .

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن تكون الدراسة في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة وثبت للمصادر والمراجع .

تحدثت في المبحث الأول عن التلميح ، من خلال صور ثلاث ، هي : الإشارة إلى آيات القرآن الكريم. واستدعاء قصص القرآن الكريم، واستدعاء الشخصيات الواردة في القرآن الكريم .

وفي المبحث الثاني تحدثت عن الاقتباس .

وفي المبحث الثالث تحدثت عن العقد [1].

وقد ختمت الدراسة بخاتمة أوجزت فيها أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة .

وذيلت الدراسة بثبت للمصادر والمراجع التي استعنت بها في دراستي .

وقد استعان الباحث في دراسته بالمنهج الفني؛ لأنه الأنسب لطبيعة الموضوع . إذ قام الباحث بقراءة ديوان أبي تمام متتبعاً الشواهد التي تأثر فيها أبو تمام بمعاني القرآن الكريم وتراكيبه، ومن ثم قام بدراسة تلك النماذج وتحليليها ، وإبراز السياقات التي وردت فيها .

وأخيراً . فإن ما قدّمته في هذه الدراسة لا يعدو أن يكون مجرد محاولة لتسليط الضوء على ظاهرة من الظواهر الشعرية البارزة في شعر شاعر من كبار شعراء العربية هو أبو تمام . وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد .

* * *

---

(١) ترتيب المباحث خاضع لكثرة الشواهد .

المبحث الأول : التلميح :

في هذا المبحث ستتم دراسة التلميح الذي يعدّ صورة من أهم صور تأثر أبي تمام بالقرآن الكريم ، وفيه يعمد الكاتب إلى صياغة نصه صياغة جديدة تشير إلى النص السابق بصورة غير مباشرة، وذلك من خلال نقل مفردة أو عدة مفردات تشير إلى نص سابق أو قصة أو شخصية أو مثل أو موقفٍ ، أو قيام المعنى اللاحق باستحضار معنى سابق . وفي هذا إقرار بأهمية النص السابق، وبوقوع الكاتب تحت سطوته .

والتلميح في اللغة بمعنى " اختلس النظر كألمح ، والبرق والنجم لمحا لمحاً ولمحاناً وتلماحاً، وهو لامح ولموح ولمّاح، وألمحه جعله يلمح ، والمرأة من وجهها أمكنت من أن يُلمح، تفعل ذلك الحسناء تُري محاسنها ثم تخفيها ... "[١] .

وأخذ " أرباب الصناعة التلميح بمعنى النسبة إلى اللمح بأحد المعاني ؛ لأن الكلام الملمح محل اختلاس النظر إلى المعنى المشار إليه ، ومحل لمع المعنى المشار إليه كلمع البرق الخاطف ، ومحل دلالة المعنى المشار إليه "[٢] .

والتلميح اصطلاحاً هو " أن يُشار في فحوى الكلام إلى مثل سائر أو شعر نادر، أو قصة مشهورة ، من غير أن يُذكر "[٣] . أي من غير أن يذكر أنه إشارة إلى القصة أو المثل أو الشعر . وقد يسمى التمليح[٤] . ولا يخفى أنّ منه الإشارة إلى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة[٥] .

وفي شعر أبي تمام كان التلميح إلى القرآن الكريم حاضراً بقوة ، ومعبراً تعبيراً صادقاً عن تأثره بالقرآن الكريم الذي يعدّ رافداً من الروافد المهمة التي أسهمت في إغناء تجربته الشعرية وتشكيلها . ومن هنا فإن المتابع لشعره لن يجد كبير عناء في الوصول إلى أنه انطلق في إبداعاته من ثقافة دينية تشربت القرآن الكريم لفظاً ومعنى ، فجاء شعره ممتزجاً بذلك الأسلوب الفريد المعجز في عباراته ومعانيه ، وكان لهذا الامتزاج

---

(١) القاموس المحيط : مادة (لمح) .

(٢) الأطول : إبراهيم بن محمد عصام الدين الحنفي : ٢/ ٥١٩ .

(٣) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : فخر الدين الرازي : ٢٨٨ .

(٤) ينظر : عروس الأفراح : : بهاء الدين السبكي : ٣ / ٤٢٦ .

(٥) ينظر : الأطول : ٢ / ٥١٩ .

أثره في منح شعره مزيداً من التوهج والجاذبية ، فبدا القرآن الكريم عنصراً من عناصر تجربته الشعرية التي كانت وما زالت من التجارب الشعرية التي شغلت النقاد العرب : قديماً وحديثاً .

وقد أشار أحد النقاد إلى ظاهرة حضور المعاني القرآنية في شعر أبي تمام قائلاً : " فالمعاني القرآنية ماثلة في ذهنه دائماً ، فحيثما وجد مقتض الحال يتطلب ذلك لجأ إلى تلك المعاني يستمد منها ما يريد ، وينتزع منها ما يشاء ... " [1].

ومن خلال تتبع شعر أبي تمام بدا أن التلميح بصوره المختلفة كان أكثر حضوراً من الاقتباس والعقد ؛ لأن التلميح يمنح الشاعر حرية أكبر في استثمار معاني القرآن الكريم، أما في الاقتباس والعقد فيكون الشاعر أقل حرية؛ فهناك قيد الالتزام بالمفردة القرآنية ، وحركة إعرابها ، ناهيك عن قيد الوزن والقافية .

وقد اتخذ هذا الحضور صوراً عدة، من أبرزها: الإشارة إلى الآيات القرآنية ، واستدعاء قصص القرآن الكريم ، واستدعاء الشخصيات الواردة في القرآن الكريم .

أولاً : الإشارة إلى الآيات القرآنية الكريمة :

وتعدُّ هذه الصورة من أكثر صور التلميح وروداً في شعر أبي تمام ، إذ كان كثيراً ما يشير إلى آيات القرآن الكريم ، مستحضراً معانيها ، ومستثمراً ما تنطوي عليه من بيان معجز في التعبير عن رؤاه وأفكاره؛ مما أسهم في إغناء تجربته الشعرية التي كان لها حضور بارز عبر تاريخ الأدب العربي حتى يومنا هذا .

وقد تمثل استثمار أبي تمام الآيات القرآنية الكريمة في سياق الاستدلال بها على موضوعات شتى في شعره، وإصابة المعنى المراد ، كقوله :

ليس يدري إلا اللَّطيفُ الخبيرُ أيَّ شيءٍ تُطوى عليه الصُّدُورُ ! [2]

أشار أبو تمام في بيته السابق إلى آيات قرآنية عدة، منها قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾ (التغابن : ٤) .

استثمر أبو تمام معنى الآية القرآنية السابقة في إصابة المعنى المراد ، فجاء بيته في مطلع مقطوعة شعرية مكونة من ستة أبيات عاتب فيه رجلاً كان يلقاه بوجه كئيب ،

---

(١) الفن والصنعة في مذهب أبي تمام : د . محمود الربداوي : ١٤٤ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : : الخطيب التبريزي : ٢ / ٣٨٣ . مطلع مقطوعة يعاتب فيها عياشاً الحضرمي .

على الرغم من أن الناس كانوا يمدحونه بسبب دفاعه عن أصدقائه في غيبتهم، فدعاه أبو تمام في مقطوعته إلى إظهار البِشْر في أثناء لقائه، فالناس تعلم الظاهر، أما ما تكنه الصدور فهو مما اختص الله تعالى به.

وفق أبو تمام في استحضار معنى الآية القرآنية الكريمة السابقة في مطلع المقطوعة السابقة، فكان بمثابة البداية القوية التي مكنته من إصابة المعنى المراد وتأكيده.

وقوله:

رمى بكَ الله بُرجيها فهدّمها ... ولو رمى بكَ غيرُ اللهِ لمْ يُصبِ [1]

استوحى أبو تمام معنى بيته السابق الذي مدح فيه المعتصم من قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأنفال: ١٧).

أرجع أبو تمام تحقيق ممدوحه النصر على أعدائه في موقعة عمورية إلى توفيق الله تعالى له، فكان النصر على الأعداء؛ بسبب إخلاصه في نصرة الدين، فالله تعالى رمى به الأعداء، فأصابهم في مقتل.

والملاحظ أنّ أبا تمام في بعض أبيات قصيدته التي أوردتُ منها البيت السابق عمل على الربط بين تحقيق النصر في الموقعة وصلاح الممدوح وتدينه، فنجده يقدّمه في قصيدته بصورة المجاهد في سبيل الله تعالى [2].

وكان حضور الآية الكريمة بمثابة الدليل على ما أراد أبو تمام أن يؤكده في قصيدته، وهو صلاح ممدوحه وتقواه.

واستحضر أبو تمام في بيتين من الشعر قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ (الشرح: ٥ – ٦).

البيت الأول قوله:

حتى انثنى العُسْرُ إلى يسره ... وانحَتَّ عن خديه ذاك العُبُوسْ [3]

---

(١) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ٤٢، من قصيدة يمدح بها المعتصم، ومطلعها:

السيف أصدقُ أنباءً من الكتب ... في حدّه الحدُّ بين الجدِّ واللعب

(٢) ينظر على سبيل المثال: الأبيات (١٢، ١٤، ١٩، ٢٤، ٢٥، وغيرها).

(٣) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ٢٧٨، من قصيدة يمدح بها الحسن بن رجاء، ويطلب منه فرساً، ومطلعها:

جرَّت له أسماءُ حبلَ الشَّموسْ ... والوصلُ والهجرُ نعيمٌ وبُوسْ

والآخر قوله :

وما من شدَّةٍ إلا سيأتي لها من بعدِ شِدَّتها رخاءُ [1]

استوحى أبو تمام البيتين السابقين من معنى الآيتين الكريمتين السابقتين استيحاءً على سبيل الاستدلال على المعنى المراد . ففي البيت الأول كان حضور الآيتين في سياق تجسيد صورة الممدوح الذي عاد إليه اليسر وفارقه العبوس بعد زوال همّه وحزنه على فراق حصانه .

وفي البيت الثاني أورد معنى الآيتين الكريمتين في سياق الاستدلال على المعنى المراد ، إذ أراد أبو تمام أن يُعزي نفسه بعدما تعرض له بعض بني حُميد بإسماعه ما يكره بعد مقتل محمد بن حميد . فجاء بهذا البيت ضمن مقطوعة شعرية مكونة من تسعة أبيات.

ومن النماذج الأخرى التي أشار فيها أبو تمام إلى آيات من القرآن الكريم، قوله :

مستيقناً أن سوف يمحو قتلُه ما كان من سهوٍ ومن إغفالِ

مِثلُ الصلاةِ إذا أُقيمتْ أصلحتْ ما قبلها من سائر الأعمالِ [2]

عدّ أبو تمام في البيتين السابقين قتل المعتصمِ بابك من الأعمال الجليلة التي تحسب له . وشبّهه بالصلاة التي تكفر صغائر الذنوب [3] . مستدعياً قول الله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ (هود : ١١٤) .

استثمر أبو تمام الآية الكريمة السابقة في الاستدلال على فكرته . إذ جعل في قتل المعتصم عدوه (بابك) إكمالاً لما يقع لأعماله من سهو وإغفال . وفي ذلك دلالة واضحة على استيعابه المعاني القرآنية الكريمة . ومن ثم حضورها في شعره وامتزاجها به ؛ مما أكسب شعره مزيداً من القوة والجمال .

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٣١١ . من مقطوعة يُعرّض بها ببعض بني حُميد . ومطلعها :

إذا جاريت في خُلُقٍ دنيئاً فأنت ومن تجاريه سواءُ

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٦٣ . من قصيدة يمدح بها المعتصم . ومطلعها :

آلتْ أمورُ الشركِ شرَّ مآلِ وأقرَّ بعدَ تخمُّطٍ وصِيَالِ

(٣) ينظر : الكشاف : الزمخشري : ٢ / ٤١٨ – ٤١٩ .

وتفسير أبي السعود : (المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: للإمام أبي السعود : ٢ / ٢٤٦ .

ومن نماذج ذلك – أيضاً – قوله :

لك في رسولِ اللهِ أعظمُ أسوةٍ وأجلُّها في سنة وكتابِ
أعطى المؤلفةَ القُلُوبِ رِضَاهم كرماً، وردَّ أحاديد الأحزابِ [1]

في البيت الثاني دعا أبو تمام ممدوحه إلى التأسي بالرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي أعطى المؤلفة قلوبهم من أشراف العرب من الصدقات ؛ استمالة لهم ليسلموا، وأعطى (صلى الله عليه وسلم) – أيضاً – بعض حديثي العهد بالإسلام من الذين دخلوا الإسلام ؛ ليؤلف قلوبهم ، وهم الذي ذُكروا في آية الصدقة [2]. وتمثلت دعوته له في طلبه منه العفو عنهم ، تأسياً بالرسول (صلى الله عليه وسلم) .

استوحى أبو تمام بيته السابق من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ (التوبة : ٦٠) .

والملاحظ أن أبا تمام في البيتين السابقين استثمر القرآن الكريم ، ففي البيت الأول اقتبس ، وفي الثاني ألمح ؛ وذلك بهدف الاستدلال على فكرته ، وتحقيق مراده المتمثل في دفع الممدوح إلى العفو عن الذين أساءوا إليه ، فوجد في القرآن الكريم باباً واسعاً يمكن الولوج منه إلى تحقيق المراد.

وقوله :

للّٰه درُّ بني عبد العزيز فكم أرْدُوا عزيز عِدىً في خدّه صَعَرُ ! [3]

استدعى أبو تمام في بيته السابق قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴾ (لقمان : ١٨) .

والآية الكريمة تدعو إلى التواضع والإقبال على الناس [4] ، وأبو تمام استثمر المعنى

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١/ ٥٥ . من قصيده يمدح بها مالك بن طوق التغلبي ، ومطلعها :

لو أن دهراً ردَّ رَجْع جوابِ أو كفَّ من شأويه طُولُ عِتابِ

(٢) ينظر : تفسير أبي السعود : ٢ / ٧٦ .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٣١ . من قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز الطائي ، ومطلعها :

يا هذه أقصري ما هذه بشرُ ولا الخرائدُ من أترابها الأُخرُ

(٤) ينظر : الكشاف : ٣ / ٤٨٢ .

القرآني في الاستدلال على مراده ، إذ جعل ممدوحه وقومه من القوة بمكان ، فعدوهم الذي قتلوه متكبر عزيز في قومه ، وفي هذا مزيد من إسباغ صفات القوة على الممدوح وقومه .

وقوله :

أوما رأت بُرديَّ من نسْج الصِّبى ورأت خِضابَ الله ، وهو خضابي ؟ [1]

أخذ أبو تمام البيت السابق [2] من قوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (البقرة : ١٣٨) .

ومعنى الآية الكريمة أن الله تعالى يُطهّر النفوس بالإيمان من أوضار الكفر [3] ، فصبغة الله تعالى بمثابة الحلية التي تزيّن المؤمنين ، كما شأن الثوب الذي تزينه الصبغة [4] .

أما أبو تمام في بيته فاستدل بالمعنى القرآني على فكرته ، فهو في مقتبل العمر ، وشعره لم يخضبه ، فالسواد الذي فيه هو خضاب الله تعالى . ونجد التشابه بين الآية الكريمة وبيت أبي تمام ماثلاً في أن الصبغة في الآية الكريمة تعبر عن الإيمان الذي يكمل صاحبه ، أما الخضاب في بيت أبي تمام فيعبر عن اكتمال الشباب والقوة .

استثمر أبو تمام المعنى الذي اشتملت عليه الآية السابقة في تحقيق المعنى المراد ، وتوضيحه بصورة جلية ؛ فالخضاب في الآية الكريمة وفي بيت أبي تمام السابقة يعبر عن الكمال ، ومن هنا برزت موهبة أبي تمام الشعرية القادرة على استيعاب معاني القرآن الكريم المعجزة الفريدة ، ومزجها في شعره ؛ للاستدلال بها على فكرته .

وقوله :

شِعريَ ، أنّى هربْتَ في الطَّلَبِ ولو صَعِدْتَ السماءَ في سببِ [5]

يخاطب أبو تمام شعره في البيت السابق ، معاتبه على تأخر حضوره ، ومتوعداً

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٥١ . من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق التغلبي ، ومطلعها :

لو أنَّ دهراً ردَّ رجع جوابِ أو كفَّ من شأويه طُولُ عِتابِ

(٢) ينظر : شرح مشكلات ديوان أبي تمام : المرزوقي : ١٤٩ .

(٣) ينظر : الكشاف : ١ / ١٩٤ .

(٤) ينظر : تفسير أبي السعود : ١ / ١٦٨ .

(٥) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٣١٥ .مطلع قصيدة يرد فيها على عتبة الذي كان قد هجا بني عبد الكريم من الطائيين .

خصمه بأنّ شعره سيطاله . وقد استحضر فيه قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾ (الحج : ١٥) .

تحدثت الآية الكريمة عن أنه " كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطؤون ما وعدهم الله ورسوله ، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون ألا يثبت الأمر . فنزلت . وقد فُسِّر النصر : بالرزق . وقيل : معناه إن الأرزاق بيد الله لا تُنال إلا بمشيئته ، ولا بد للعبد من الرضا بقسمته ، فمن ظنَّ أن الله رازقه ، وليس به صبر واستسلام . فليبلغ غاية الجزع ، وهو الاختناق ، فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يردّه مرزوقاً " [١] .

استدل أبو تمام بمعنى الآية الكريمة السابقة على تحقيق المعنى المراد وتقويته . فالمهجو لن ينجو من شعره مهما تأخر الشعر في انقياده له .

وقوله :

يُرَى في كلِّ وادٍ أنت فيه بِلؤمكَ سائراً أبداً يَهيمُ [٢]

أشار أبو تمام في بيته السابق إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ (الشعراء : ٢٢٤ – ٢٢٦) .

تحدثت الآيات السابقة عن هيام بعض الشعراء في أودية القيل والقال ، وسلوكهم في شعاب الوهم والخيال ، ومسالك الغي والضلال .فهم " يهيمون على وجوههم لا يهتدون إلى سبيل معين من السبل ، بل يتحيرون في فيافي الغواية والسفاهة ، ويتيهون في تيه المجون والوقاحة ... " [٣].

أما أبو تمام فاستحضر المعنى السابق واستثمره في تقبيح المهجو والتشنيع به . فجعل شعره يتتبع لؤم المهجو الذي كان سبب إثارة القوافي لهجائه .

---

(١) الكشاف : ٣ / ١٤٤– ١٤٥ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٣٧٠ .من قصيدة يهجو بها أبا الوليد محمد بن أحمد بن أبي داود . ومطلعها :

أتدري أيَّ بارقةٍ تشيمُ ومهلكةٍ إليها تستَنيمُ ؟

(٣) تفسير أبي السعود : ٦ / ٢٧٠ .

وقوله

إلاّ تكن أرواحُها لكَ سُخّرت فالعزمُ طَوْعُ يديْكَ والإجذامُ [1]

أشار أبو تمام في بيته السابق إلى قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾(الأنبياء:٨١) . والمعنى أنّ الله تعالى قد سخّر الريح لسليمان (عليه الصلاة والسلام) تنقاد لأمره انقيادًا كلياً ، فتأتمر بأمره وتنتهي بنهيه [2] .

ذهب أبو تمام إلى أن ممدوحه لم تُسَخّر له الرياح كما سخّرها الله تعالى لنبيه سليمان (عليه الصلاة والسلام) ، لكنه يملك عزماً مكّنه من بلوغ غاياته بسرعة ، قال شارح الديوان : " إنْ لم تكن كسليمان الذي سُخِّرت له الرياح ، فقد جُعل العزمُ والإسراع في السير مسخرين لك تبلغ بهما ما أردت ، والإجذام الإسراع في السير" [3].

استثمر أبو تمام المعنى القرآني الوارد في الآية السابقة في منح ممدوحه مزيداً من العزة والقوة ، من خلال استحضار الموقفين ، فالريح سخرها الله تعالى لسليمان (عليه السلام). أما أنت فهمتك دفعتك إلى تحقيق ما تصبو إليه .

وقوله :

حمتنا الطَّيْفَ من أم الوليد خُطُوبٌ شيَّبَتْ رأسَ الوليدِ [4]

استوحى أبو تمام بيته السابق من قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾ (المزمل : ١٧).

تحدثت الآية القرآنية الكريمة عن أهوال يوم القيامة الذي فيه تشيب نواصي الأطفال ، من شدة الأهوال [5] . أما أبو تمام فاستدعى معنى الآية واستثمره في سياق التهويل والتعظيم لمعنى مختلف . إذ جعل مرد امتناع طيف أم الوليد عن إتيانه في منامه إلى

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٧٤ . من قصيدة يمدح بها المأمون . ومطلعها :

دمنٌ ألمَّ بها فقال سلامُ كم حلَّ عقدةَ صبرهِ الإلمامُ ؟

(٢) ينظر : تفسير أبي السعود : ٦ / ٨٠ .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٧٤.

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٢٥٠ . من قصيدة يمدح بها أبا سعيد . ومطلعها :

أظنُّ دموعها سننَ الفريد وهي سِلكاه من نحرٍ وجيدِ

(٥) ينظر : الكشاف : ٤ / ٦٢٨ .

الخطوب المدلهمة التي يتوقع أن يلقاه في الحرب .

استدل أبو تمام بالمعنى القرآني الكريم الذي جسّد أهوال يوم القيامة على صعوبة ما هم مقدمون عليه في لقاء عدوهم ، وشتان بين الأمرين .

ونجد أبا تمام يشير إلى بعض آيات القرآن الكريم في سياق إبراز بعض صفات ممدوحيه ، كقوله :

لـه خُلُـقٌ نهـى القـرآنُ عنـه	وذاك عطـاؤه السـَّرَفُ البِـدَارُ
ولـم يـكُ منـك إضـرارٌ ولكـن	تمـادت فـي سـجيتها البحـارُ[1]

أراد أبو تمام بالخُلق المنهي عنه بالقرآن التبذير والإسراف ، قال المرزوقي (ت٤٢١هـ) : " يعني بالخلق المنهي عنه : إسرافه في العطايا وتجاوزه في بسط اليد كلَّ حدٍّ " [2] . فهو أراد أن يبالغ في منح ممدوحه صفة الكرم ، فعطاؤه " لا يشوبه مطلٌ ، ولا يلحقه تسويف ، ولكن يبادر إلى فعله ، ويسارع في إنجازه وإمضائه " [3] .

وفي البيت الثاني احترس أبو تمام من أن يكون في عطائه إضرار ، فهو كالبحر الذي يوصف عطاؤه بأنه سجية فيه .

وقيل بأن أبا تمام أخذ معنى بيته من قوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾ (النساء : ٦) .

وقيل بل أخذه من قوله تعالى : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الإسراء : ٢٦ – ٢٧) .

ويبدو لي أن أبا تمام أخذ المعنى من سورة الإسراء، لأن الآية الأولى الواردة في سورة النساء تحدثت عن أوصياء الأيتام ، بينما الآيتان الواردتان في سورة النساء فتحدثتا عن

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣١٢ .

(٢) شرح مشكلات ديوان أبي تمام : ١٠٣ .

(٣) شرح مشكلات ديوان أبي تمام : ١٠٤ .

التبذير بصورة عامة[1].

وفي موضع آخر يشير أبو تمام إلى صفات أمر القرآن الكريم بالالتزام بها، كقوله:

مَلِكٌ غدا جارَ الخلافة منكمُ　　　والله قد أوْصى بحفظ الجارِ[2]

في البيت السابق ألمح أبو تمام إلى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (النساء: ٣٦).

والملك في بيت أبي تمام المعتصم، وقد وصفه أبو تمام بأنه جار للخلافة، وحفظ الجار / الخلافة مما أوصى به الله تعالى. وبهذا المعنى يكون أبو تمام قد استثمر المعنى القرآني استثماراً بديعاً وطريفاً، متجهاً في المعنى الذي قدّمه إلى منح ممدوحه بعداً دينياً، وهذا الأمر من الخصائص المعنوية لقصيدة المدح عنده.

ومن النماذج البديعة التي أشار فيها أبو تمام إلى آيات القرآن الكريم، قوله:

لا تنكروا ضربي له من دُونِهِ　　　مثلاً شروداً في النَّدى والباسِ

فاللهُ قد ضرب الأقلَّ لنُوره　　　مثلاً من المِشْكاةِ والنِّبراسِ[3]

يعدُّ البيتان السابقان من بديع شعر أبي تمام، وقد ارتجلهما تعليقاً على من أراد الطعن في شعره الذي مدح به أحمد بن المعتصم، وبخاصة بيته المشهور الذي قال فيه:

إقدام عمرو في سماحة حاتمٍ　　　في حلم أحنفَ في ذكاء إياسِ[4]

فقال له بعض حاسديه: إن الأمير فوق من وصفت. فأطرق أبو تمام قليلاً ثم زاد في القصيدة البيتين السابقين، فتعجب الحضور من سرعة فطنته[5].

---

(١) ينظر: شرح مشكلات ديوان أبي تمام: ١٠٣. وشرح ديوان أبي تمام: ١ / ٣١٢.

(٢) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ٣٣٥. من قصيدة يمدح بها المعتصم، ومطلعها:

الحق أبلج والسيوفُ عوارِ　　　فحذارِ من أسد العرينِ حذارِ

(٣) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ٣٦٢. من قصيدة يمدح بها أحمد بن المعتصم، ومطلعها:

ما في وقوفك ساعة من باس　　　نقْضي ذِمام الأربع الأدراسِ

(٤) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ٣٦٢.

(٥) ينظر: أخبار أبي تمام: لأبي بكر بن يحيى الصولي: ٢٣١ – ٢٣٢.

في البيتين السابقين استدعى أبو تمام قوله تعالى : ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ (النور : ٣٥) .

تُبرز القصة السابقة مقدرة أبي تمام الشعرية وموهبته الفذة ، وفي الوقت ذاته تبين عمق تأثره بمعاني القرآن الكريم . فكان حضور معنى الآية القرآنية السابقة في ذهنه في ذلك الوقت الحرج سبباً في حسن تخلصه من المأزق الذي وضعه فيها بعض حسّاده ، فكان تمثله معنى الآية الكريمة مفحماً لهم ، ومخرجاً له من المأزق الذي وضعوه فيه .

وأبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) عدّ البيتين السابقين من الاقتباس، وذلك في قوله تعليقاً عليهما : " اقتبس الطائي الآية أحسن اقتباس ، وأوقعه موقعه " [١].

ويلحظ أن الثعالبي يتوسع في مفهوم الاقتباس،فيدخل فيه ما ليسمنه،كالتلميح[٢].

– ثانياً – استدعاء قصص القرآن الكريم :

تعدُّ القصة القرآنية وسيلة من الوسائل المهمة التي اعتمدها القرآن الكريم في تحقيق غاياته العقدية والتربوية ، وهي تمثل ركيزة قوية من ركائز الدعوة إلى الإسلام ، والدعوة إلى التأمل والتبصر بما حلّ بالأمم السابقة .

والمتأمل في شعر أبي تمام سيلحظ تأثره بقصص القرآن الكريم ، وذلك من خلال استدعائه قصص الأنبياء (عليهم السلام) . وقصص الأمم السابقة الواردة في القرآن الكريم ، مما أسهم في منح شعره بعداً قصصياً . ويمكن إرجاع ذلك إلى ما تحويه تلك القصص من معانٍ جليلة . وعبر ظاهرة ، فاستثمرها في التعبير عن الواقع المعاصر . فكانت قصص القرآن الكريم بما تحويه من أخبار الأمم السابقة ، وما حلّ بها من هلاك – عاملاً معيناً على فهم الحياة الواقعية .

أ– استدعاء قصص الأنبياء :

نجد في شعر أبي تمام إشارات عدة إلى قصص الأنبياء (عليهم السلام) . فقد

---

(١) الاقتباس من القرآن : أبو منصور الثعالبي : ٢ / ١٥٤ .

(٢) ينظر : الاقتباس من القرآن : ١ / ٢٣٤ .

تكررت في شعره الإشارة إلى مشاهد متعددة من قصة موسى (عليه الصلاة والسلام). ومن ذلك قوله :

فكأنهم بالعِجْلِ ضَلُّوا حِقْبةً   وكأنَّ مُوسى إذ أتاهم مُوسى [1]

في البيت السابق استحضر أبو تمام مشهداً من مشاهد قصة موسى (عليه الصلاة والسلام). واستثمر كونّ اسم ممدوحه هو اسم نبي الله موسى . قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (الأعراف : ١٤٨).

وموسى الأول هو الممدوح . أما الآخر فهو نبي الله (عليه الصلاة والسلام). وقد شبه أبو تمام ضلال قوم الممدوح بضلال قوم موسى باتخاذهم العجل . فأنقذهم الممدوح مما هم فيه من ضلال . كما كان نبي الله موسى (عليه الصلاة السلام) سبباً في إنقاذ قومه من الضلال .

وفي موضع آخر استثمر أبو تمام – أيضاً –كون اسم ممدوحه موسى . فاستحضر مشهداً آخر من مشاهد قصة نبي الله موسى (عليه الصلاة والسلام). وذلك في قوله :

عُذنا بموسى من زمان أنشرتْ   سطواتُه فرعونَ ذا الأوتاد [2]

أشار أبو تمام في بيته السابق إلى قصة موسى (عليه الصلاة والسلام) مع فرعون الذي لم يقوَ على مواجهة ما أحل به من مصائب ،كان الغرق آخرها [3].

وأبو تمام في بيته السابق يشير إلى أنه " لجأ إلى ممدوحه هرباً من مصائب الدهر التي لم يقوَ عليها فرعون مصر " [4].

استثمر أبو تمام في النموذجين السابقين كون اسم ممدوحه هو اسم نبي الله موسى (عليه الصلاة والسلام) نفسه ، فاستحضر مشهدين من مشاهد قصته ؛ لإسقاط

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٧٢ . من قصيدة يمدح بها موسى بن إبراهيم . ومطلعها :

أقشيبَ رَبْعِهِمِ أراكَ دَرِيسا   وقِرَى ضُيوفِكَ لوعةً ورَسِيسَا

(٢) شرح ديوان أبي تمام :١ / ٢٩٧ . من قصيدة يمدح بها موسى بن إبراهيم . ومطلعها :

لَطَمَحتَ في الإبراقِ والإرعادِ   وغدا عليَّ بسيلِ لومكَ عادِ

(٣)ينظر :سورة البقرة: آية ٥٠ ، و : سورة الأنفال : آية ٥٤ .وغيرهما من الآيات التي تحدثت عن مصير فرعون .

(٤) شرح ديوان أبي تمام :١ / ٢٩٧ .

الماضي على الحاضر المعاش ، وذلك من خلال تقديم دروس إلى العصاة والطغاة ، فعاقبتهم ستكون مثل عاقبة سابقيهم، ومن هنا كان حضور تلك القصص عاملاً مساعداً في تعميق الفكرة ، ومنحها بعداً دينياً .

وفي موضع آخر من ديوانه يستدعي أبو تمام مشهداً آخر من قصة موسى (عليه الصلاة والسلام) ، وذلك في قوله :

كأنني قد رأيت زُلفَته ... عند إمامٍ بقربه أنِسِ
تُبْنى المعالي في ظله وله ... حظٌّ من المُلْكِ غيرُ مُخْتَلسِ
فإنَّ موسى وصلى على روحه الرَّبُّ م ... صلاةً كثيرةَ القُدُسِ
صار نبيّاً وعُظْمُ بُغيَتِهِ ... في جذوةٍ للصلاة أو قبسِ [1]

فممدوح أبي تمام في الأبيات السابقة كان يريد الوفادة لأمر هين، فتأول له أبو تمام بأن يُحظى بأكثر مما جاء من أجله ، فاستدعى أبو تمام قصة موسى(عليه الصلاة والسلام) الذي طلب جذوة من النار ، فأتاه الله تعالى النبوة [2] ، قال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝ ﴾ (طه : ٩ – ١٣) .

كان موسى (عليه الصلاة والسلام) في تلك الليلة يأمل الحصول على جذوة من النار ، أو يجد من يهديه إلى الطريق ، لكنه ظفر ،في تلك الليلة ، بالرسالة ، إذا ناداه الله تعالى ، وأخبره بأنه اصطفاه بالرسالة [3].

وفي موضع آخر يشير أبو تمام إلى مشهد آخر من قصة موسى (عليه الصلاة والسلام) ، تمثل في قوله :

لو لم يَكِد للسامريّ قبيلُهُ ... ما خار عجلهم بغيرِ خُوارِ [4]

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٥٧ . من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق، ويطلب فرساً ، ومطلعها :
قالتْ وعِيٌّ النساء كالخرسِ ... وقد يصبن الفصوص في الخُلسِ
(٢) ينظر : شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٥٧ .
(٣) ينظر : الكشاف : ٣ / ٥١ – ٥٢ .
(٤) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٤٠ . من قصيدة يمدح بها المعتصم ، ومطلعها :
الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عَوارِ ... فَحَذارِ من أسد العرين حذارِ

في البيت السابق استحضر أبو تمام مشهداً آخر من قصة موسى (عليه الصلاة والسلام)، يتمثل في قيام السامري باتخاذ عجل من ذهب في أثناء غياب موسى (عليه الصلاة والسلام) ، قال تعالى:﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (الأعراف : ١٤٨).

وجاء استحضار أبي تمام ذلك المشهد من قصة موسى (عليه الصلاة والسلام) في سياق تحريض المعتصم على قتل من بقي من أعدائه بعد أن قتل رئيسهم الأفشين ؛ لأنهم هم الذين أعانوه على فعله، وكذلك كان الأمر مع السامري، فلولا مساعدة قومه إياه لما تمكن من القيام بما قام به [١] .

وحضرت في شعر أبي تمام قصص أخرى لأنبياء الله تعالى (عليهم السلام) ، منها الإشارة إلى قصة يوسف (عليه الصلاة والسلام)، وذلك في قوله :

هنَّ عوادي يُوسُفٍ وصَواحِبُهْ فعزماً فقِدْماً أدْرَكَ السُّؤْلَ طالِبُهْ [٢]

في البيت السابق يحث أبو تمام ممدوحه على المضي على ما عزم عليه ، ويطالبه بترك الاستماع إلى رأي النساء، فأبو تمام في بيته " ينسبهنّ إلى ضعف الرأي وقلة العقل ، وأنهن لا يصلحن لقبول المشورة منهن ، فقال : هُنَّ اللواتي أردن صرف يُوسُف النبي (عليه السلام) عن طريق الرشاد، وصواحبه بما كان منهن، فلا تلتفت إليهن ولا تُعوِّل في الأخذ والترك عليهن وعلى رأيهن، واعزم على السير عزماً، فقديما أدرك طالب الثأر وتره، أي سافر فإن وتْرك وثأرك عند الأيام ، لديها ستُدركُه، ويجوز أن يُضرب بهذا مثل ، والمعنى قديما من طلب شيئاً ناله " [٣] .

اتخذ أبو تمام من قصة نبي الله يوسف (عليه الصلاة والسلام) درساً في الحث على البعد عن الاستماع إلى نصائح النساء ، والمضي قدماً في الأمور ؛ فهنّ اللواتي كدن ليوسف (عليه الصلاة والسلام)؛ لذا فإنه حث ممدوحه على الإقدام على ما عزم عليه.

وأبو تمام شاعر يبحث عن المعاني الجديدة ، فيعصر ذهنه ، ويكد خاطره ، ويحفر في

(١) ينظر : شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٤٠ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ١١٩ . مطلع قصيدة يمدح بها أبا العباس عبد الله بن طاهر .

(٣) شرح مشكلات ديوان أبي تمام : ٢٠٢ .

الصخر ، ليظفر بمعنى غير مسبوق ، وهو شاعر يجمع بين الفن والصنعة ، وقد علق أحد النقاد على كثافة المعاني في البيت السابق قائلاً : " كأني بالشاعر يحمل المعنى ، ويحمل معه شيئاً من مشقة المعاناة ، فكان فكره متبرمٌ به كتبرم الحامل أثناء مخاضها ، فإذا أودع معانيه المتزاحمة في بيت شعره ، فكأنما حطّ عن كاهله عناء ما كان يحمله . وقد تشعر بكثافة المعاني في البيت الواحد، وازدحام شطريه بها عندما تحاول أن تفسر هذا البيت أو تشرحه ، فتجدك مضطراً إلى شرح البيت الواحد بعدة أسطر " [1] .

ب – استدعاء قصص الأمم السابقة الواردة في القرآن الكريم :

حضرت بعض قصص الأمم السابقة الواردة في القرآن الكريم في شعر أبي تمام ، وتمثل ذلك في استدعائه بعضها ؛ مسقطاً إياها على الواقع المعاصر ؛ داعياً إلى الاعتبار والعظة بمصير تلك الأمم ، ومن نماذج ذلك قوله :

وما تبرح الأيام تحذِفُ مدّتي ... بعدّ حسابٍ لا كعدّ حسابيا

لتمحوَ آثاري وتُخْلِقَ جِدتي ... وتخلي من ربعي بكرهٍ مكانيا

كما فَعَلَتْ قبلي بِطَسْمٍ وجُرْهُمٍ ... وآلِ ثمودٍ بعدَ عادِ بن عاديا [2]

استدعى أبو تمام في بيته الأخير مصير بعض الأمم السابقة ، فما حلّ بها من فناء واندثار سيحل به. والقصيدة كاملة جاءت في الزهد ، وعبّرت أجمل تعبير عن نظرة إيمانية صادقة سيطرت على مشاعره في تلك المرحلة .

وفي الأبيات التي تلت الأبيات السابقة استدعى أبو تمام – أيضاً – قصصًا أخرى لأمم سابقة جاء ذكرها في القرآن الكريم ، حيث قال :

كما أسكنتْ ساماً وحاماً ويافثاً ... ونوحاً ومن أضحى بمكةَ ثاويا [3]

أسهم حضور قصص ما حلّ بالأمم السابقة في القصيدة – في منحها بعداً إيمانياً ، إذ نقل الشاعر القارئ إلى تلك الأجواء المفعمة بالعبرة والعظة ، ودعاه إلى مراجعة النفس ومحاسبتها .

وكقوله :

---

(١) الفن والصنعة في مذهب أبي تمام : ١٧٩ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٤٦٣ . من قصيدة في الزهد ، ومطلعها :

ألم يأنِ تركي لا عليّ ولا ليا ... وعزمي على ما فيه إصلاحُ حاليا؟

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٤٦٣ .

كأنهم معاشرُ أُهلكوا مِنْ   بقايا قومِ عادٍ أو ثمودِ [1]

تحدث أبو تمام في بيته السابق عن المصير الذي آل إليه خصوم ممدوحه ، مشبهاً مآلهم بمآل قوم عاد وثمود . قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِٱلْقَارِعَةِ ۝ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝ ﴾ (الحاقة : ٤ – ٨) .

استدعى أبو تمام في بيته السابق قصة قوم عاد وثمود الواردتين في القرآن الكريم في مواضع كثيرة [2]، وفي ذلك تعظيم لقوة ممدوحه الذي ألحق الهزيمة النكراء بخصومه .

وكقوله :

وثمودُ لو لمْ يُدْهِنُوا في ربِّهم   لم تدْمَ ناقَتُه بسيفِ قُدَارِ [3]

استدعى أبو تمام مشهداً من قصة قوم ثمود تمثل في عقرهم الناقة . قال تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ۝ ﴾ (الشمس ١٠ – ١٥) .

استدل أبو تمام في بيته السابق بقصة قوم ثمود، فمن قتل الناقة ما كان ليفعل فعلته لولا أنه وجد مساندة من قومه ، كذلك الأفشين الذي لم يكن ليفعل ما فعله لو لم يسانده قومه . فعندما وجد أبو تمام أن المعتصم قد توقف عن قتل القوم . حرضه على قتلهم . مستدلاً بقصة قتل الناقة . فالقاتل لم يكن ليفعل لو لم يجد العون . فجاء استدعاء تلك القصة في سياق التحريض على قتل الخصوم .

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٢٥٣ . من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي ، ومطلعها :
أظنُ دموعها سنن الفريد   وهي سلكاه من نحرٍ وجيدِ

(٢) ينظر : التوبة : ٧٠ . و إبراهيم : ٩ . والحج : ٤٢ . والعنكبوت : ٣٨ . والنجم : ٥١ . وغيرها من المواضع .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٤٠ . من قصيدة يمدح بها المعتصم . ومطلعها :
الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عوارٍ   فحذارِ من أسد العرين حذارِ

وكقوله:

نظرتُ في السِّيرِ الأولى خلتْ فإذا	أيامُـهُ أكلـتْ باكـورة الأمـم
أفنى جَدِيساً وطَسْماً كلَّها وسطا	بأنجم الدَّهرِ من عادٍ ومن إرمِ [1]

استحضر أبو تمام في البيتين السابقين قصص الأمم السابقة ؛ للعظة والاعتبار من المصير الذي آلوا إليه، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ ﴾ (الفجر: ٦ – ٨).

يشير أبو تمام إلى أنه نظر في أخبار الأمم السابقة فوجد أنّ أيام البغي والظلم قد أهلكتهم وافنتهم، فينبغي أن يأخذ الناس العظة والعبرة من ذلك المصير.

في استدعاء أبي تمام بعض قصص الأمم السابقة الواردة في القرآن الكريم دعوة إلى الاعتبار والاتعاظ بما حلّ بهم، والزهد بما في هذه الحياة، فما حدث لتلك الأمم يمكن أن يتكرر. وحضور هذه القصص أضفى على شعر أبي تمام أجواء إيمانية تعبر عن نزعة دينية متأصلة في تجربته الشعرية.

والملاحظ على أسلوب أبي تمام في استدعاء تلك القصص اكتفاؤه باللمحة العابرة الخاطفة الموحية التي تُذكِّر المتلقي بمصائر تلك الأمم، وتدعوه إلى الاعتبار والعظة بما حلّ بها. ومن جانب آخر أحدث حضور تلك القصص في شعره تعانقاً وامتزاجاً مع القرآن الكريم – أسهم في منح شعره مزيداً من الجاذبية والإثارة والتوهج ؛ مشكلاً إضافة فنية وموضوعية عليه.

لقد وجد أبو تمام في موضوعات تلك القصص معانٍ جليلة استثمرها في التعبير عن رؤاه، وإصابة المعنى المراد، فعن طريقها أكد أفكارها، فجاءت تلك القصص بمثابة الأدلة على ما يقدمه في شعره. وفي الوقت ذاته عبرت عن ثقافة دينية عميقة، أكسبت تجربته الشعرية قوة وجمالاً، وعملت على تحريك فكر القارئ ووجدانه، من خلال ولوجه إلى تلك الأجواء الدينية المؤثرة.

---

(١) شرح ديوان أبي تمام: ٢ / ٩٤. من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق التغلبي، ومطلعها:

سلِّمْ على الربع من سلمى بذي سَلَمِ	عليه وسمٌ من الأيام والقدمِ

- **ثالثاً : استدعاء الشخصيات الواردة في القرآن الكريم :**

استدعاء الشخصيات الواردة في القرآن الكريم تعدّ صورة من صور تأثر الشعراء التي نطالعها في الشعر العربي عبر عصوره المتلاحقة [1] .

وفي شعر أبي تمام – أيضاً – نجد هذه الظاهرة ، إذ تنوعت صور حضور تلك الشخصيات في شعره ، فتطالعنا شخصيات جاء ذكرها في القرآن الكريم ، كالأنبياء (عليهم السلام) والصالحين والمنبوذين .

لقد استحضر أبو تمام في شعره بعض تلك الشخصيات ، مستثمراً تجاربها الغنية والمواقف التي مرت بها في إغناء تجربته الشعرية ، فكان ذلك الاستدعاء بمثابة التجربة الحية النابضة بالصدق والواقعية ؛ مما أسهم في منح شعره بُعداً دينياً ، نقل القارئ معه إلى تلك العوالم المشبعة بالعبرة والعظة . ومن جانب آخر كان تعبيراً صادقاً عن تأثر أبي تمام بالقرآن الكريم .

وكانت شخصيات الأنبياء (عليهم السلام) الأكثر حضوراً في شعره ؛ ولا غرو في ذلك ، فالأنبياء (عليهم السلام) هم أفضل مخلوقات الله تعالى ، وتجاربهم الأكثر عمقاً، وحضورهم – بطبيعة الحال – سيكون تأثيره أقوى من الشخصيات الأخرى ، فهم القدوة والمثال ، وهم صفوة خلق الله تعالى ؛ لذا نجدهم الأكثر حضوراً في شعره .

والملاحظ أن أبا تمام اعتمد في استدعائه بعض الأنبياء (عليهم السلام) الاقتصار على استدعاء صفة من صفاتهم التي عرفوا بها واشتهروا بها ، ومن ذلك اقتران الشكر بشخصية نوح (عليه الصلاة والسلام) ، قال أبو تمام :

لم يُلْبِسِ اللهُ نوحاً فضْلَ نِعْمَتِه ... إلا لما بَثَّهُ مِنْ شكره نوحُ [2]

استدعى أبو تمام صفة ارتبطت بنبي الله نوح (عليه الصلاة والسلام) ، وهي الشكر، قال تعالى : ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ (الإسراء : ٣) .

---

(١) ينظر على سبيل المثال :

- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر : د . علي عشري زايد .
- استلهام الشخصيات الإسلامية في الشعر العربي الحديث : د . محمد منور .
- استيحاء التراث في الشعر الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين ٤٠٠ – ٥٣٩ هـ) : د . إبراهيم الياسين .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ١٨٣ .من قصيدة يمدح بها أبا سعيد ، وقيل نوح بن عمرو . ومطلعها :

قلْ للأمير لقد قلَّدتني نِعَماً ... فُتَّ الثناء بها ما هبّتِ الريحُ

قيل عن نوح (عليه الصلاة والسلام) : إنه " كان إذا أكل قال الحمد لله الذي أطعمني، ولو شاء أجاعني . وإذا شرب قال : الحمد لله الذي سقاني . ولو شاء أظمأني . وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذي كساني . ولو شاء أعراني ..." [١] .

كان نوح (عليه الصلاة والسلام) عبداً شكوراً في جميع أموره . ودعا الله تعالى عباده – الذين هم من ذرية نوح – إلى أن يتخذوه قدوة لهم وأسوة في شكر الله في جميع الأحوال .

تمثل استدعاء أبي تمام شخصية نبي الله تعالى نوح (عليه الصلاة والسلام) في استدعاء صفة الشكر التي اتسم بها ؛ مستدلاً بها على أهمية شكر الله تعالى على نعمه التي لا تحصى . فبالشكر تدوم النعم .

وفي موضع آخر استدعى شخصية أبي الأنبياء إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) من خلال صفة الكرم التي اشتهر بها .فهو " أول من أضاف الضيف " [٢] ،وذلك في قوله :

وبيانُ ذلكَ أنَّ أولَ مَنْ حبا　　　وَقَرَى خليلُ اللهِ إبراهيمُ [٣]

في البيت السابق استدعى أبو تمام شخصية نبي الله تعالى إبراهيم (عليه الصلاة والسلام)

لقد كان ممدوح أبي تمام كريماً جواداً ، ولم يكتف أبو تمام بمدحه بالكرم ، بل ربط بين هذه الصفة وأبي الأنبياء إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) .

يلحظ أن أبا تمام في النموذجين السابقين عمل على الربط بين اتسام ممدوحيه بصفتي الشكر والجود والتدين ، من خلال الربط بين الصفتين ورسولين من أولى العزم من الرسل (عليهم الصلاة والسلام) . وهذا الملمح أجده ظاهرة في شعر أبي تمام تستحق الدراسة . فالمعاني الدينية حاضرة بقوة في شعره، وبخاصة في المدح، إذ كان حريصاً على جعل ممدوحيه يتمثلون قيم الإسلام ومعانيه، وذلك من خلال التقاطه بعض صفات أنبياء الله تعالى (عليهم السلام)، ومنحها ممدوحيه؛ لتأكيد تدينهم .

---

(١) الكشاف :٢ / ٦٢٣ .

(٢) قصص الأنبياء : ابن كثير : ١٩٧.

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ١٤٧ . من قصيدة يمدح بها محمد بن الهيثم . ومطلعها :

أسقى طُلُولَهُم أجَشُّ هَزِيمُ　　　وغدتْ عليهم نضرةٌ ونعيمُ

وفي مواضع عدة استحضر أبو تمام شخصية نبي الله يوسف (عليه الصلاة والسلام) متكئاً على صفة الحسن التي اتصف بها، فقد أُعطي شطر الحسن ، وكان في غاية الحسن البشري [1] . ومن ذلك قوله:

فأغضبتُه أن قلتُ له يا أحسنَ الورى ... وكاد بأن يُفضي إلى الشتم واللعن

إذا غاظَ وصفُ الناس بالحُسنِ أهلَه ... فَلِمْ لمْ يُخرِّقْ ثوبَه يوسفُ الحُسْنِ ؟ [2]

وذكْر يوسف (عليه الصلاة والسلام) في البيتين السابقين جاء في سياق استحضار صفة الحسن التي اتصف بها، وكان أبو تمام قد وصف امرأة بالحسن ، فغضبت ، فاستدل بحسن نبي الله تعالى يوسف (عليه الصلاة والسلام). فالحسن صفة لا تغضب صاحبها . والاستدلال هنا غير مقبول؛ لأن وصف أبي تمام امرأة بالحسن في مقطوعته جاء في غير موضعه؛ لذا لم تقبله تلك المرأة .

وقوله :

ما استُجمِعَتْ فِرَقُ الحُسْنِ التي افترقتْ ... عن يوسف الحُسْنِ حتى استجمعتْ فيه [3]

وقوله :

قرينُ الصِّبا في وجنَتَيْهِ ملاحةٌ ... ذَكَرْتُ بها أيامَ يوسفَ في الحُسنِ [4]

في الأبيات الثلاثة السابقة استدعى أبو تمام نبي الله تعالى يوسف (عليه الصلاة والسلام)، من خلال صفة الحسن التي اشتهر بها . فجعل من يتغزل به شبيهاً بيوسف في الحسن والجمال. وفي الأبيات السابقة – أيضاً – نجد أن كلمة الحسن اقترنت بيوسف (عليه الصلاة والسلام). وأشير هنا إلى أنَّ أبا تمام كثيراً ما كان يعمد إلى تكرار المعاني في شعره، فهو عندما يمسك بتلابيب المعنى، يكرره في سياقات عديدة متشابهة، وهذا التكرار أعدّه مأخذاً عليه .

وفي موضع آخر يستدعي شخصية رسول الله محمد (صلى الله عليه وسلم) من

---

(١) ينظر : قصص الأنبياء : ٢٥٣ – ٢٥٤ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٣٠٠ . من مقطوعة غزلية ، ومطلعها :

ومحتكمٍ في الخَمصِ طوراً وفي البُدن ... فقد دقَّ عن حِقْفٍ وقد جلَّ عن غصْنِ

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٣٠٦ . من مقطوعة غزلية ، ومطلعها :

نشرتُ فيك رسيساً كنتُ أطويه ... وأظهرتْ لوعتي ما كنتُ أخفيه

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٤٢٩ . من قصيدة يصف فيها مجلس للحسن بن وهب ، ومطلعها :

أفيكم فتى حيٌّ فيخبرَني عني ... بما شربتْ مشروبةُ الراح من ذهني

خلال وصفه بأنه عبد الله ، قال أبو تمام :

يا سميَّ النبي في سورة الجنِّ ويا ثاني العزيز بمصرِ [1]

أبو تمام يعني عبد الله الكاتب ، " ويعني بقوله (يا سمي النبي في سورة الجن)، قوله تعالى ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه ﴾ [2]. وعبد الله في هذا الموضع وصف وليس باسم علم ..." [3] . والمراد الرسول محمد (صلى الله وعليه وسلم) ، فالمراد هنا صفة الرسول (عبد الله) ، وليس اسمه . أما ثاني العزيز – كما ذهب شارح الديوان – فهو عبد الله بن أبي سرح الذي ولي مصر بعد عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) [4] .

وأرى أنّ أبا تمام لم يوفق في هذا البيت ؛ لأن فيه تكلفاً ظاهراً ، فالذي لا يعرف اسم الممدوح لا يصل إلى المراد، وفي الشطر الثاني – أيضاً – تكلف ظاهر، فهو سمي للوالي الثاني الذي ولي مصر بعد عمرو بن العاص (رضي الله عنه) ، بينما الأقرب أن يكون المراد بثاني العزيز يوسف (عليه الصلاة والسلام) .

وفي نماذج أخرى استدعى أبو تمام أكثر من نبي في الوقت ذاته، وبخاصة محمد ويوسف (عليهما الصلاة والسلام)، كقوله في مطلع مقطوعة شعرية مكونة من أربعة أبيات :

يا سميَّ الذي تبهَّلَ يدعو ربه مُخْلصاً له في " قل أوحي "

وشبيه الذي استقلتْ به العي رُ عن الجُبِّ خاضعاً كالطَّليح [5]

ففي البيت الأول يشير إلى أن اسم ممدوحه هو اسم الرسول محمد ﷺ ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ ﴾ (الجن : ١) .

وفي البيت الثاني استدعى شخصية يوسف (عليه الصلاة والسلام) من خلال صفة الحسن التي اشتهر بها، ويشير إلى أن ممدوحه شبيه بنبي الله يوسف (عليه الصلاة والسلام) .

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٢٦٧ . مطلع مقطوعة مكونة من أربعة أبيات يمدح بها عبد الله الكاتب .

(٢) سورة الجن : من الآية ١٩، وتمامها (... كادوا يكونون عليه لبداً) .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٢٦٧ .

(٤) ينظر : شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٢٦٧ .

(٥) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٢٥٩ .

وتكرر ذلك الأمر، حيث قال:

يوسفياً محمدياً حفياً   بذليل الثّرى رؤوفاً رحيماً [1]

استدعى أبو تمام شخصيتي: يوسف ومحمد (عليهما الصلاة والسلام) مشبهاً ممدوحه بهما، وبخاصة في صفة الرحمة والرأفة.

في النماذج السابقة تمثل استدعاء أنبياء الله تعالى من خلال استدعاء صفة من الصفات التي اشتهروا بها، فجاء الاستدعاء جزئياً مقتصراً على صفة من صفاتهم (عليهم السلام)، ولم يكن له أثر فني مهم في بناء القصيدة.

ونطالع في شعر أبي تمام استدعاء للملائكة، كقوله:

وكلُّ حسنٍ فَمِنْ عيْنَيْكَ أوَّله   مُذ خطَّ هارُوتُ في عينيك عَسْكَرَهُ [2]

في البيت السابق استدعى أبو تمام شخصية (هاروت) وهو أحد الملكين اللذين جاء ذكرهما في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (البقرة: ١٠٢).

وهاروت وماروت ملكان أنزل الله تعالى عليهما "علم السحر ابتلاء من الله للناس، من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً، ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به، ولكن ليتوقاه، ولئلا يغترّ به، كان مؤمناً..." [3].

وجاء استدعاء أبي تمام هاروت من خلال العلم الذي اشتهر به وهو السحر، للمبالغة في وصف جمال من يحب، فبداية الحسن من عيونه التي خطها عسكر هاروت.

---

(١) شرح ديوان أبي تمام: ٢ / ١١١. من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف، ومطلعها:

إن عهداً لو تعلمان ذميماً   أن تناما عن ليلتي أو تُنيما

(٢) شرح ديوان أبي تمام: ٢ / ٢٧٠. من مقطوعة من أربعة أبيات يتغزل بها، ومطلعها:

قد صنّف الحسنُ في خديكَ جوهره   وفيه قد خلّف التفاحُ أحمرهُ

(٣) الكشاف: ١ / ١٧٢.

وفي شعر أبي تمام استدعاء لشخصيات الصالحين الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم، كالعبد الصالح (الخضر)، ولقمان الحكيم، وملكة سبأ (بلقيس) .

ومن ذلك استدعاؤه شخصية العبد الصالح الذي أشارت بعض كتب التفسير إلى أنه الخضر [1]، وذلك في قوله :

يا خضرُ قد كُنتَ ذا استتارٍ في الحب حتى هتكت ستري [2]

استدعى أبو تمام شخصية الخضر من خلال صفة من الصفات التي اشتهر بها، وهي : الغموض والاستتار . فالقصة القرآنية لم تذكر من أين جاء ؟ وإلى أين ذهب ، بعد انقضاء رحلته مع موسى (عليه الصلاة والسلام) ؟ وهذا هو منهج القصة القرآنية ، إذ تكتفي بذكر الأحداث والأوصاف والمعلومات المهمة في تحقيق أغراضها الدينية والدنيوية، أما التفصيلات غير المهمة فلا تقف عندها، وهذا يتفق مع طبيعتها وغاياتها .

أما لقمان الحكيم فجاء استدعاؤه في مواضع عدة من ديوان أبي تمام، من خلال صفة الحكمة التي اتسم بها، ومن ذلك قوله :

لقمانُ صمتاً وحِكْمَةً فإذا قال لقَطْنَا المَرجانَ من خُطَبِهْ [3]

شبه أبو تمام ممدوحه بلقمان الحكيم ، ووجه الشبه بينهما صفة الحكمة التي وصفه القرآن الكريم بها، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (لقمان : ١٢) .

جعل أبو تمام ممدوحه حكيما في صمته، أما حينما يتحدث فكلامه يشبه المرجان. وهكذا نجد أبا تمام يتكئ على الشخصية المستدعاة في التعبير عن رؤاه وإصابة المعنى المراد، فاقتنص صفة الحكمة من شخصية لقمان الحكيم، ومنحها ممدوحه. وقد تكرر ذلك في شعره ، كقوله :

فإن شهد المقامةَ يوم فصلٍ رأيتَ نظير لقمان الحكيم [4]

---

(١) ينظر : الكشاف : ٢ / ٧٠٣ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام :٢ / ٢٦٨ . من مقطوعة شعرية غزلية مكونة من خمسة أبيات .

(٣) شرح ديوان أبي تمام :١ / ١٤٩ . من قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الملك . ومطلعها :

إنّ بكاءً في الدار منْ أرَبِهْ فشايعا مُغرماً على طربهْ

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٧٩ . من قصيدة يمدح بها بني عبد الكريم الطائيين . ومطلعها :

أرامةُ كنتِ مألفَ كل ريمِ لو استمتعتِ بالأنسِ القديمِ

في البيت السابق – أيضاً – استحضر أبو تمام شخصية لقمان الحكيم من خلال صفة الحكمة، إذ جعل من ممدوحه نظيراً للقمان في الحكمة.

وفي موضع آخر استدعى أبو تمام شخصية لقمان الحكيم للتأكيد أن الحرب قائمة لا محالة، فهي واقع لا يمكن رده، حتى إن لقمان الحكيم لو حضر ذلك الموقف، فلن يجد بداً من التخلي عن حكمته، وخوض غمار المعركة، وذلك في قوله:

في ساعة لو أن لقماناً بها وهو الحكيم لصار غيرَ حكيمِ [1]

يرى أبو تمام أن الحكمة تغيب في بعض المواقف، وذلك عندما تطل الحرب برأسها، فتحتاج من صاحب الحرب أن يتهور ويقدم وينسى العواقب.

واستدعى أبو تمام أيضاً شخصية ملكة سبأ، وذلك في قوله:

لولا حَدَاثَتُها وأني لا أرى عرْشاً لها لظننتُها بلْقيسا [2]

استحضر أبو تمام شخصية ملكة سبأ، مانحاً محبوبته صفاتها، فملكة سبأ جمعت محاسن شتى، منها: الحسن والملك والهيبة. قال تعالى: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴾ (النمل: ٢٣).

إن المرأة التي أشار إليها أبو تمام في بيته تشبه ملكة سبأ في كثير من الجوانب، وتختلف عنها في جانبين: الأول: أن ملكة سبأ متقادمة العهد، والآخر: أنها لا تملك عرشاً كملكة سبأ.

وأشير في هذا المقام إلى أن القرآن الكريم لم يذكر أن اسم ملكة سبأ بلقيس، لكن كتب التفسير صرّحت بذلك [3].

وفي مقابل شخصيات الأنبياء (عليهم السلام) والصالحين نجد أبا تمام يستدعي في شعره بعض شخصيات المنبوذين الواردة في القرآن الكريم،كفرعون وهامان وقارون[4]،

---

(١) شرح ديوان أبي تمام: ٢ / ١٣٥. من قصيدة يمدح بها إسحاق بن إبراهيم، ومطلعها:

يا ربعُ لو ربعُوا على ابن هُمُومِ مُسْتسْلمٍ لجوى الفِراقِ سقيمِ

(٢) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ٣٦٩. من قصيدة يمدح بها أبا المُغيث موسى بن إبراهيم، ومطلعها:

أقشيبَ ربعهِمِ أراكَ دريسا وقِرى ضُيوفِكَ لوعةً ورسيسا

(٣) ينظر: الكشاف: ٣ / ٣٤٩.

(٤) فرعون نموذج للحاكم المتسلط، وهامان نموذج للوزير المفسد المعين على الشر، وقارون نموذج لمن آتاه الله تعالى المال فجحد فضله. ينظر: خصائص القصة الإسلامية: د. مأمون فريز جرار: ٧٧.
و: نظرات في أحسن القصص: د. محمد السيد الوكيل: ٢ / ١٢٧.

ففي بيت واحد جمع بينهم، وذلك في قوله:

هيهات لم يعلمْ بأنكَ لو ثوى ... بالصين لم تَبْعُد عليكِ الصينُ

ما نال ما قد نال فرعونُ ولا ... هامانُ في الدنيا ولا قارونُ (١)

تحدث أبو تمام في بيته عن بابك الذي نال في حياته أكثر مما ناله فرعون وهامان وقارون، لكن الأفشين تمكن منه وقضى عليه، وعاقبته كانت كسابقيه من الطغاة.

والشخصيات الثلاث من الطغاة الذين يضرب بهم المثل في كثرة المال والتجبر، وقد جمعهم أبو تمام في بيت واحد، فالمهجو فاق في الغنى والملك كل أولئك الطغاة، لكن عاقبته كانت وخيمة، إذ تمكن الأفشين من القضاء عليه.

ومهارة أبي تمام برزت في الجمع بين الطغاة الثلاثة في بيت واحد، وفي شخص واحد، فشكل حضورهم مجتمعين تكثيفاً في المعنى، وتعميقاً للفكرة المقدمة.

وقوله:

أنت الذي يملك أضعاف ما ... حواه قارون من البُغضِ (٢)

استدعى أبو تمام شخصية قارون الذي اشتهر بكثرة المال، ووظفها في الهجاء، فجعل المهجو يملك أضعاف ما كان يملكه قارون من البغض.

ومن الشخصيات المنبوذة التي استدعاها أبو تمام في شعره شخصية إبليس، وقد استدعاه في قوله:

لو أن أسباب العفاف بلا تقىً ... نفعت لقد نفعتْ إذاً إبليسا (٣)

في البيت يدعو أبو تمام إلى الجمع بين العفاف والتقى والندى ،فإبليس " كان يتعبد مع الملائكة إلا أنه لم يتقِ، فصارت عاقبة أمره إلى ما كان، (وأسباب العفاف) هو الكف عن أكل الحرام وأخذ أموال الناس وغيرهما مما لا يتعاطاه، وهي حاصلة فيه، غير أنه لم يكن معها التقوى ولا الندى فلم ينتفع بها، فكذلك عفتك التي لزمتك إذا لم يكن معها

---

(١) شرح ديوان أبي تمام: ٢ / ١٦٣. من قصيدة يمدح بها الأفشين، ومطلعها:

بذَّ الجِلادُ البَذَّ فهو دفينُ ... ما إنْ به إلا الوحوشَ قطينُ

(٢) شرح ديوان أبي تمام: ٢ / ٣٤٨. من مقطوعة شعرية في هجاء ابن الأعمش، ومطلعها:

والله يا ابن الأعمش المبتلى ... ــــــــــــــ

(٣) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ٣٧٣. من قصيدة يمدح بها أبا المغيث موسى بن إبراهيم. ومطلعها:

أقشيبَ ربعهم أراك دريسا ... وقِرى ضُيوفِكَ لوعةً ورسيسا

تقى ولا ندى لم ينتفع بها المرء " [1].

جاء استدعاء إبليس من خلال افتقاده صفة التقوى، أما ما يتصف به إبليس من كفه عن أكل الحرام وأخذ أموال الناس،فحاصل دون فضل منه. استثمر أبو تمام هذا المعنى في الدعوة إلى الجمع بين التقوى والعفاف . وهو معنى طريف من المعاني الكثيرة التي نطالعها في شعر أبي تمام .

مما سبق يتضح تنوع صور التلميح في شعر أبي تمام ، وأبرزها : الإشارة إلى بعض آيات القرآن الكريم ، واستدعاء بعض قصص القرآن الكريم والشخصيات الواردة فيه؛ وبذلك كان للقرآن الكريم أثره الواضح في تشكيل عالمه الشعري ؛ مما أكسب شعره مزيداً من القوة والجمال ، ومنحه جاذبية وجلالاً وهيبة ، وكان بحق معبراً عن الحياة في ذلك العصر : مكاناً وزماناً .

لقد كان القرآن الكريم رافداً من أهم روافد أبي تمام الشعرية ، وقد استثمر براعة القرآن الكريم في التعبير عن المواقف المختلفة ، فجاء شعره ممتزجاً بذلك الأسلوب الفريد المعجز . وقد وصف أحد النقاد براعة أبي تمام في استثمار معاني القرآن الكريم بأنها تأتي : " على شكل تعبير عن مقتضى الحال ، منساقة انسياقاً طبيعياً ، متلاحمة مع السياق العام للنظم ، مستثمرة استثماراً فيه من الرشاقة والإبداع ما يتناسب وجلال القرآن " [2].

وإجمالاً يمكن القول : إنّ أبا تمام حافظ في كثير من النماذج التي ألمح فيها إلى القرآن الكريم على قداسته ومكانته الرفيعة ، لكن هناك نماذج قليلة أخفق فيها ، إذ أشار في بعض أبياته الشعرية إلى آيات قرآنية كريمة وقصصاً قرآنية وشخصيات في سياقات لا تتفق مع تلك القداسة ، منها قوله :

كونُكَ في صُلبِ أبينا آدمٍ　　　أهبَطَنا جمْعاً إلى الأرض ! [3]

في البيت السابق استدعى أبو تمام قصة هبوط آدم (عليه السلام) إلى الأرض ، قال

---

(1) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٢٧٣ .

(٢) الفن والصنعة في مذهب أبي تمام : ١٤٤.

(٣) شرح ديوان أبي تمام ٢ / ٣٤٨ .. من مقطوعة شعرية في هجاء ابن الأعمش ، ومطلعها :

والله يا ابن الأعمش المبتلى　　　-----------

تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (البقرة : ٣٦) [١] .

جعل أبو تمام في البيت السابق سبب هبوط آدم (عليه السلام) وذريته من السماء إلى الأرض كون المهجو من صلبه ومن سلالته . وفي هذا تجاوز غير مقبول لقضاء الله تعال وقدره.

وقوله :

فاجأتنا كَدْراءُ لم تُسبَ من تس	نيم جِرْيَالها ولا سلسبيلِ

...

وكأنّ الأنامل اعتصرتْها	بعد كدٍّ من ماء وجه البخيل
احتساباً بذلتَها أم تَصدَّق	ت بها رحمةً على ابن السبيل ؟![٢]

أشار أبو تمام في البيت الأول إلى قوله تعالى: ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ (الإنسان : ١٨) . فالآية الكريمة تحدثت عن عين في الجنة شرابها لذيذ [٣]. أما أبو تمام في بيته فتحدث عن خمر الدنيا ، وفضّلها على الشراب اللذيذ الذي تحدثت عنه الآية الكريمة، وفي هذا تجاوز غير مقبول .

المبحث الثاني : الاقتباس :

إذا كان التلميح يقوم بنقل مفردة أو عدة مفردات تشير إلى نص سابق أو قصة أو شخصية أو مثل أو موقفٍ ، أو يقوم المعنى اللاحق باستحضار معنى سابق ، فإن الاقتباس يقوم بنقل التراكيب دون تغيير أو مع تغيير يسير.

ويعدّ الاقتباس صورة من صور تأثر أبي تمام بالقرآن الكريم ، وفيه تحضر آية قرآنية أو جزء من آية قرآنية في شعره ، دون تحوير أو تغيير، أو مع تغيير طفيف . مع التأكيد أنه لا بد من مراعاة قدسية القرآن الكريم ومكانته .

ومصطلح الاقتباس يندرج في الدراسات النقدية الحديثة تحت مصطلح التناص . بوصفه

---

(١) ينظر : البقرة : ٣٨ . و : الأعراف : ٢٤ . و: طه : ١٢٣ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٤٠١ . من قصيدة يعاتب فيها أبا علي موسى القُمّي في نبيذٍ أهداه إليه . ومطلعها :

قد عرفنا دلائل المنع أو ما	يشبه المنعَ باحتباسِ الرسولِ

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن الكريم : القرطبي : ١٩ / ١٤٢ .

شكلاً من أشكال التداخل بين النصوص والتفاعل معها وامتصاصها واستلهامها واستدعائها. وصورة من صور تفاعل الأدباء مع القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بوصفهما المثال الأعلى والأنموذج الفريد للبلاغة [1].

والاقتباس في اللغة بمعنى الأخذ والاستفادة. فالقبس هو الشعلة من النار، واقتباسها الأخذ منها، والقبس الجذوة، ويقال قبست منه ناراً، أي أعطاني منه قبساً، واقتبست منه علماً – أيضاً – أي استفدته [2].

أما الاقتباس في الاصطلاح فهو "أن يُضمّن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث، لا على أنه منه" [3]. أما إذا قال المتكلم في كلامه: قال الله تعالى أو قال الرسول ﷺ ونحوه فإنّ ذلك حينئذٍ لا يكون اقتباساً [4]. والاقتباس يكون في الشعر والنثر.

وأشار أحد الباحثين إلى أن واضع مصطلح الاقتباس فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، حيث قال: "الاقتباس عند البلاغيين أحد الفنون البديعية، وأول من وضع هذا المصطلح فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) .وكان معروفاً قبل الرازي باسم التضمين" [5]. وقد عرّف الرازي الاقتباس بقوله: "هو أن تُدرج كلمة من القرآن، أو آية منه، في الكلام؛ تزيينا لنظامه، وتفخيماً لشأنه" [6].

ومن خلال تتبعي للمصنفات البلاغية وجدت أن أبا منصور الثعالبي صنع مؤلفاً في الاقتباس سماه (الاقتباس من القرآن)، قال في مقدمته: "هذا النبي ﷺ هو أفصح العرب لهجة، وأعذبهم عذْبةً [7]، وأحسنهم إفصاحاً وبياناً .وأرجحهم في الحكمة البالغة ميزاناً، وقد اقتبس من معاني القرآن وألفاظه في الكثير من كلامه، والجم من مقاله، وكذلك السلف الأفضل من الصحابة والتابعين (رضي الله عنهم أجمعين)، ومن بعدهم

---

(١) ينظر: التناص في شعر الرواد: : د. أحمد ناهم: ١٠٤.

و استيحاء التراث في الشعر الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين: ٤٠٠ – ٥٣٩هـ): ١٩.

(٢) ينظر: لسان العرب: مادة (قبس).

(٣) التلخيص: ٤٢٢.

(٤) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: الإمام جلال الدين السيوطي: ٣١١/١.

(٥) الاقتباس (أنواعه وأحكامه: دراسة شرعية بلاغية في الاقتباس من القرآن والحديث): د. عبد المحسن العسكر: ١٣.

(٦) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: ٢٨٨.

(٧) العذبة: طرف اللسان الدقيق. ينظر: لسان العرب: مادة (عذب).

إلى يومنا من كل طبقة ، فما أكثر ماعوّلوا على الاقتباس من القرآن فرصّعوا كلامهم ترصيعاً ، وتعاطوا فنونه جميعاً " [1] .

والثعالبي في كتابه لم يعرّف الاقتباس تعريفاً صريحاً ، لكن من خلال تتبع كلامه والشواهد التي ساقها يتضح أنه يتوسع في مفهومه ، فيدخل فنوناً أخرى كالتلميح ، فالاقتباس عنده يتسع ليشمل أخذ الألفاظ والمعاني ، ومن ذلك عدّه من الاقتباس قول أبي تمام :

أشْكُر نُعمى مِنْكَ مشكورةً ... وكافرُ النَّعْماءِ كالكافر [2]

أشار الثعالبي إلى أن أبا تمام اقتبس البيت السابق من قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النمل : ٤٠) [3] .

وبالنظر إلى الآية الكريمة وبيت أبي تمام نجد أنه لم يقتبس الآية السابقة ، بل أشار إليها ، فهو من باب التلميح لا الاقتباس .

ومن ذلك – أيضاً – عدّه من الاقتباس قول أبي تمام :

ليس الغبيُّ بسيدٍ في قومه ... لكن سيد قومه المُتغابي [4]

ذكر الثعالبي أنّ البيت السابق أخذه أبو تمام من قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأنعام : ٦٨) [5].

ومن خلال التأمل في الآية الكريمة وقول أبي تمام نجد أنه لا يوجد اقتباس ، حتى لو قلنا بأن هناك تلميحاً في البيت الشعري إلى الآية الكريمة لوجدنا اختلافاً كبيراً ظاهراً

---

(١) الاقتباس من القرآن : ١ / ٣٩.

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣١٥ . من قصيدة يمدح بها أبا سعيد ، ومطلعها :

قل للأمير الأريحي الذي ... كفّاه للبادي وللحاضر

(٣) ينظر : الاقتباس من القرآن : ١ / ٢٣٤ .

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٥٦ . من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق التغلبي ، ومطلعها :

لو أنّ دهراً ردّ رجعَ جواب ... أو كفّ من شأويه طُولُ عَتابِ

(٥) ينظر : الاقتباس من القرآن : ١ / ٢٣٤ .

بين معنى الآية الكريمة ومرادها والبيت الشعري ، فالآية الكريمة تتحدث عن الإعراض الذي كان نتيجة أمر صريح من الله تعالى لرسوله ﷺ بترك مجالستهم ، حتى يخوضوا في حديث غيره [1] . أما بيت أبي تمام فيشير إلى التغابي ، ويدعو سادة القوم إلى التغاضي عمّا يصدر عن أقوامهم من مواقف ، ويؤكد أنّ سادة القوم يتقوّنَ بأقوامهم ؛ لذا عليهم التجاوز عن بعض الزلات بالتغاضي عنها . فالسياق مختلف تماماً ، والصلة بعيدة بين الآية الكريمة والبيت الشعري ؛ ومن هنا أرى أنه لا يوجد في البيت السابق اقتباس أو تلميح .

ولم يغفل المصنفون في فنون الكتابة والأدب وصناعة الإنشاء " عن بيان قيمة الاقتباس من القرآن والحديث ، بل جعلوهما – أي القرآن والحديث – في مقدم ما يحتاج إليه المنشئ والبليغ والشاعر من آلات بها قوام صنعته " [2] .

والألفاظ المقتبسة من القرآن الكريم أو من الحديث النبوي الشريف " تزيد الكلام قوة وبلاغة ، كما تضفي عليه حسناً وجمالاً، إذ تبدو وسطه كالضياء اللامع والنور المشرق . والمتكلم عندما يقتبس يبني كلامه على الالتئام والتلاحم ؛ وبهذا يبدو كلامه قوياً بليغاً " [3] .

أما عن حكم الاقتباس من القرآن الكريم فنجد حوله كلاماً مفصلاً للعلماء المتقدمين ، مفاده الجواز ، وقد استدل العلماء على ذلك باقتباس الرسول ﷺ ، وكبار الصحابة (رضي الله عنهم أجمعين) [4] ، " فمجيء الاقتباس القرآني في السنة دليل على إباحته، ومما يستدل به على الجواز – أيضاً – ثبوت الاقتباس بالأسانيد الصحيحة عن كبار الصحابة : كأبي بكر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ بن جبل – رضي الله عنهم–، وثبوته كذلك عن التابعين ، ومن بعدهم الأئمة الأعلام ومشاهير الإسلام ... " [5] .

والاقتباس من حيث الحكم الشرعي ثلاثة أنواع :

– الأول : مقبول ، وهو ما كان في الخطب والمواعظ والعهود .

---

(١) ينظر : الكشاف : ٢ / ٣٣ .

(٢) الاقتباس : ٤٥ .

(٣) علم البديع (دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع) : د . بسيوني فيّود : ٢٦٨ .

(٤) ينظر : الاقتباس من القرآن : ١ / ٢٨٨ .

(٥) الاقتباس : ٦١ – ٦٢ .

- الثاني : مباح ، وهو ما كان في القول والرسائل والقصص .

- الثالث : مردود . وهو على ضربين : أحدهما ما نسبه الله تعالى إلى نفسه - ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه - . والآخر اقتباس آية في معنى هزل ، ونعوذ بالله من ذلك [1] .

أما من حيث النوع فنوعان :

أحدهما : وهو ما لم يُنْقَل فيه اللفظ المُقتبَس عن معناه الأصلي إلى معنى غيره .

والآخر : وهو ما نقل عن معناه قبل الاقتباس ، كأن ينقل المقتبس عن معناه الأصلي إلى معنى آخر [2] .

واختلف البلاغيون حول قضية التغيير اليسير للوزن وغيره ، فالخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) رأى أنه لا بأس في ذلك ، ووافقه إبراهيم بن محمد عصام الدين الحنفي (ت ٩٤٣هـ) الذي أشار إلى أن الكلام المقتبس ليس من القرآن الكريم . ولو أورده على أنه منه لما صحّ التغيير ، وابن معصوم المدني (ت ١١٢٠ هـ) يجيز تغيير لفظ المقتبس بزيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير ، أو وضع الظاهر مكان المضمر ونحو ذلك ؛ لأن المنقول ليس بقرآن ، بل كلام يماثله . وخالفهم بهاء الدين السبكي (ت ٧٧٣ هـ) الذي أشار إلى أن في تسمية ما أصابه بعض التغيير اقتباساً نظراً ، ودعا إلى اجتنابه ، وتنزيه كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ منه [3] .

وصور التغيير اليسير متنوعة ، منها : حذف التنوين في الشعر لأجل الوزن والقافية ، وحذف حرف وحذف ضمير وحذف كلمة ، وتغيير حركة ، ووضع الظاهر موضع المضمر ، أو تبديل اللفظ بلفظ يساوي مفهومه ، أو وضع ضمير راجع إلى ما يساوي مفهومه مفهوم لفظ في المقتبس موضعه ، وقد تجتمع أكثر من صورة من الصور السابقة . أما التغيير الكثير فيخرجه عن كونه اقتباساً [4] . وأرى أنه لا بأس من التغيير اليسير ؛ لأن المقتبس ليس قرآناً حقيقة .

وأبو تمام - وهو موضوع هذه الدراسة- يعدّ من أكثر الشعراء العرب الذين تأثروا

---

(١) ينظر : الإتقان في علوم القرآن : ١ / ٣١٢ .

(٢) ينظر : الإيضاح : الخطيب القزويني : ٥٧٨ .

(٣) ينظر : التلخيص : ٤٢٢ - ٤٢٤ . والأطول : ٢ / ٥١٠ - ٥١٢ . وأنوار الربيع في أنواع البديع : ٢ / ٢١٩ - ٢٢٠ . وعروس الأفراح : ٤ / ٤٢٢ - ٤٢٣ .

(٤) ينظر : الأطول : ٢ / ٥١١ .

بالقرآن الكريم . وعبر أحد دارسيه عن عمق ذلك الأثر بقوله : " لا أعرف شاعراً من شعراء العربية تأثر بالقرآن تأثر أبي تمام به ، فإن القارئ لا يكاد يمضي في الديوان ، حتى يعثر بين خطوة وأخرى بشاعر كأنما يضع نصب عينيه النقل من الكتاب الكريم " [1] .

استثمر أبو تمام ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه ومعانيه في إبداعه الشعري ، فكان القرآن الكريم حاضراً في شعره ؛ مما أكسب تجربته الشعرية مزيداً من التوهج الفني والموضوعي ، فمعانيه اكتسبت مزيداً من الوضوح ، وعباراته بدت أكثر قوة وجمالاً ؛ وهكذا كان القرآن الكريم رافداً من روافد شعره التي أسهمت في تشكيل شخصيته الأدبية المتميزة .

وفي هذا المبحث ستتم دراسة حضور التراكيب القرآنية عبر الاقتباس في شعر أبي تمام من خلال الوقوف عند صور الاقتباس الواردة في شعره المتمثلة في الاقتباس دون تغيير ، والاقتباس مع التغيير :

١- الاقتباس دون تغيير:

وفي هذه الصورة تُنقل الآية القرآنية الكريمة أو جزء منها دون تغيير في ألفاظها وحركاتها ، ودون حذف أو زيادة . ومن خلال تتبعي شعر أبي تمام لم أعثر سوى على بيت شعري واحد يمثل هذه الصورة ، وهو قوله :

فاضَ اللئامُ وغاضتِ الأحسابُ ... واجتُثَّتِ العلياءُ والآدابُ

فكأنَّ يومَ البعثِ فاجأهم فلا ... أنسابَ بينهم ولا أسبابُ [2]

اقتبس أبو تمام قوله (فلا أنساب بينهم) من قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (المؤمنون : ١٠١) .

أخذ أبو تمام جزءاً من الآية الكريمة السابقة دون أي تغيير ، ولم ينقل معنى البيت عن المعنى الأصلي للآية الكريمة التي تحدثت عن يوم القيامة ، إذ شبه أبو تمام في بيته حال ظهور اللئام واندثار العلياء والآداب ، بحال يوم البعث الذي تبطل فيه الأنساب ، فلا يعتدُّ بها ؛ "لزوال التعاطف والتراحم بين الأقارب ، إذ يفرُّ المرء من أخيه وأمه وأبيه

(١) أبو تمام الطائي (حياته وحياة أدبه) : نجيب محمد البهبيتي : ٦٧ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٣١٨ . مطلع قصيدة يهجو بها موسى بن إبراهيم الرافقي .

وصاحبته وبنيه "[1].

استثمر أبو تمام معنى الآية الكريمة في توضيح فكرته وتأكيدها، فجاء تشبيهه لحال اندثار العلياء والكرام وكثرة اللئام وعدم الاعتداد بأهل الفضل بحال يوم القيامة الذي تغيب فيه الأنساب، ففي ذلك الموقف يبحث كل إنسان عن خلاصه من الموقف العصيب. وأضفى حضور جزء الآية القرآنية الكريمة دون أي تغير على بيت أبي تمام جلالاً وهيبة في المعنى، وقوة وتوهجاً في العبارة، وبخاصة أنه جاء في مطلع القصيدة، وفي مقام الهجاء، فكان الحديث عن يوم البعث والحساب مناسباً لإظهار حنق الشاعر من انتشار اللؤم وكثرة اللئام، ومنهم المهجو.

وكان حضور جزء الآية الكريمة السابقة في بيت أبي تمام دون أي تغيير – معبراً عن تأثره العميق بالقرآن الكريم، ومبرهناً – في الوقت ذاته – على موهبة فذة يمتلكها الشاعر مكنته من إحداث التمازج التام بين جزء الآية المقتبس والبيت الشعري، وكان التشبيه وسيلته في ذلك التمازج، فحافظ على قداسة القرآن الكريم، من خلال استثمار الآية القرآنية الكريمة في السياق نفسه الذي وردت فيه في القرآن الكريم، والمقاصد التي سيقت من أجلها.

٢– الاقتباس مع التغيير:

وفي هذه الصورة تُنقل الآية الكريمة أو جزء منها مع تغيير فيها، وتطالعنا في شعر أبي تمام صورٌ متنوعة لهذا النوع من الاقتباس، هي:

أ – تغيير يسير مراعاة للوزن والقافية، كحذف التنوين من كلمة مقتبسة في نهاية البيت الشعري، مراعاة للوزن والقافية، ومنه قول أبي تمام:

هم صَيَّروا تلك البُروقَ صَواعِقا   فيهم وذاكَ العفوَ سَوْطَ عَذابِ [2]

أي هم الذين تعرضوا لغضب الممدوح الذي حلّ عليهم كالصواعق، وعفا عنهم بعد أن شفع فيهم أبو تمام، فكان عفوه عنهم بمثابة سوط عذاب. وقد اقتبس أبو تمام قوله (سوط عذاب) من قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (الفجر: ١٣).

---

(١) الكشاف: ٣ / ١٩٨.

(٢) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ٥٣. من قصيده يمدح فيها مالك بن طوق التغلبي. ومطلعها:

لو أن دهراً ردَّ رَجْعَ جوابِ   أو كفَّ من شأويه طُولُ عِتابِ

نقل أبو تمام المقتبس عن معناه الأصلي ، ففي الآية الكريمة كان العذاب من الله تعالى ، والمراد " أنّ ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعدّ لهم في الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يُعذب به " [1] . أما في بيت أبي تمام فعفو الممدوح كان بمثابة سوط العذاب ، وحذف التنوين من كلمة (عذاب) في آخر البيت ؛ مراعاة للوزن والقافية .

وقوله :

شَهِدْتَ لقد أَوَى الإسلامُ منه غداتئذٍ إلى ركنٍ شديدِ [2]

أخذ أبو تمام قوله (إلى ركن شديد) من قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (هود : ٨٠) .

نقل أبو تمام الجزء المقتبس من الآية الكريمة عن معناه الأصلي ، فالآية الكريمة تحدثت عن موقف لوط (عليه الصلاة والسلام) من قومه لما رأى استمرارهم في غيهم وضعفَ عنهم ، ولم يقدر على دفعهم ، تمنى أن يكون له ركنٌ يأوي إليه ؛ ليمنعه منهم [3] . أما أبو تمام في بيته فجعل ممدوحه الركن الشديد الذي يأوي إليه الإسلام . وحذف التنوين من كلمة (شديد) في آخر البيت ؛ مراعاة للوزن والقافية .

وقوله :

تردّى ثيابَ الموت حُمراً فما أتى لها الليلُ إلا وهي من سُندسٍ خضرُ [4]

أخذ أبو تمام قوله (سندس خضر) من قوله تعالى : ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (الإنسان : ٢١) .

تصف الآية الكريمة السابقة النعيم الذي يعيش فيه أهل الجنة ، ومنه وصف ثيابهم . وأبو تمام أخذ المعنى جاعلاً ثياب الموت التي ارتداها مرثيّه في الليل بعد مقتله ، من سندس وإستبرق ، وهي ثياب أهل الجنة كما ورد في الآية الكريمة . ولم ينقل أبو تمام

---

(١) الكشاف : ٤ / ٧٣٦ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٢٥٣ . من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي ، ومطلعها :

أظُنُّ دموعها سَنَنَ الفريدِ وهي سلكاه من نحرٍ وجيدِ

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ٥ / ٧٨ .

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٢١٩ . من قصيدة يرثي بها محمد بن حُميد الطائي . ومطلعها :

كذا فلْيَجِلَّ الخطْبُ ولْيَفْدح الأمرُ فليس لعين لم يَفِضْ ماؤها عُذْرُ

معنى الآية المقتبسة عن معناها الأصلي ، إذ تحدثت الآية الكريمة عن ثياب أهل الجنة ، وبيت أبي تمام تحدث عن ثياب مرثيه في الليل بعد مقتله . إذ أصبحت مثل ثياب أهل الجنة باعتبار المصير الذي سيؤول إليه مرثيه المجاهد في سبيل الله تعالى .

في الأبيات الثلاثة السابقة اقتبس أبو تمام من القرآن الكريم ، مع تغيير يسير تمثل في حذف التنوين من كلمات (عذاب ، شديد ، خضر) ؛ مراعاة للوزن والقافية ، والملاحظ أنّ الكلمات الثلاث جاءت في نهاية الأبيات الشعرية ؛ لذا حذف منها التنوين مراعاة للوزن والقافية .

وأشير هنا إلى أن ختم الأبيات الثلاثة بجزء مقتبس من الآيات القرآنية أكسبها مزيداً من القوة والجمال في التعبير ، فكانت التراكيب القرآنية الكريمة هي آخر ما يطالعه المتلقي في تلك الأبيات .

ومن جانب آخر كان حضور الآيات القرآنية الكريمة : لفظاً ومعنى معبراً بجلاء عن عمق تشبع ثقافة أبي تمام بالقرآن الكريم ، ومقدرته التي مكنته من مزج التراكيب القرآنية مع شعره ، مع مجرد تغيير يسير يتمثل في حذف التنوين من آخر الأبيات ، على الرغم من خصوصية الشعر الإيقاعية .

وفق أبو تمام في الجمع بين أسلوبين مختلفين بصورة فنية متميزة مع محافظته على قداسة القرآن الكريم ومكانته .

ب ـ **تغيير حركة مراعاة للموقع الإعرابي** ، ومنه قول أبي تمام :

جاءتك من نظم اللسان قِلادةٌ　　　سِمطانِ فيها اللُّؤلُؤُ المكنونُ [1]

اقتبس أبو تمام قوله (اللؤلؤُ المكنونُ) من قوله تعالى : ﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الواقعة : ٢٣) .

في الآية الكريمة تشبيه الحور العين باللؤلؤ المكنون ، " أي الذي لم تمسه الأيدي ، ولم يقع عليه الغبار فهو أشد ما يكون صفاءً وتلألؤاً " [2]. أما بيت أبي تمام فشبه الشِعر باللؤلؤ

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ١٦٧ ، من قصيدة يمدح بها الواثق بالله ، ومطلعها :

وأبي المنازلِ إنها لشُجُونُ　　　وعلى العُجومة إنها لَتُبينُ

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١٧ / ٢٠٥ .

المكنون، ناقلاً معنى المقتبس من معناه الأصلي إلى معنى آخر.

وقد أجاد أبو تمام في استثمار التركيب القرآني، إذ جعل شعره في الممدوح صافياً متلألئاً كاللؤلؤ المكنون الذي لم تمسه الأيدي. وقد غيّر أبو تمام في حركة المقتبس؛ مراعاة للموقع الإعرابي، فكلمتا اللؤلؤ والمكنون في الآية الكريمة جاءتا مجرورتين، أما في بيت أبي تمام فجاءتا مرفوعتين.

وقوله:

إن شئتَ أتبعتَ إحساناً بإحسانٍ فكان جودك منْ رَوْحٍ وريحانٍ [1]

اقتبس أبو تمام قوله (روحٍ وريحانٍ) من قوله تعالى: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ (الواقعة: ٨٩). وغيّر في حركة المقتبس مراعاة للمواقع الإعرابي، ففي الآية الكريمة كانت كلمتا روح وريحان مرفوعتين، أما في بيت أبي تمام فجاءتا مجرورتين بالكسرة. والرُّوح بمعنى الرحمة، والريحان بمعنى الرزق [2].

والروح والريحان في الآية الكريمة عطاء الله تعالى للمقربين من السابقين الذين جاء ذكرهم في بداية سورة الواقعة [3]. أما في بيت أبي تمام فكان عطاء الممدوح وسخاؤه من روح وريحان. وهكذا نقل أبو تمام في بيته معنى الآية الكريمة إلى معنى آخر، لكنه معنى مقبول؛ لأنه لم ينسب إلى نفسه ما نسبه الله تعالى إلى نفسه، ولم يورد الكلام المقتبس في معنى فيه هزل.

وقوله:

كواعبُ أتْرابٌ لغيداءَ أصبحتْ وليس لها في الحسنِ شكلٌ ولا تِربُ [4]

اقتبس أبو تمام (كواعبٌ أترابٌ) من قوله تعالى: ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ (النبأ: ٣٣). وكواعب جمع كاعب، وهي الناهد، والأتراب هم الأقران في السن، ومفردها ترب [د].

---

(١) شرح ديوان أبي تمام: ٢ / ١٧٠. مطلع مقطوعة يسأل فيها الحسن بن وهب أن يكلم أخاه سليمان في حاجة.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٢٣٢ – ٢٣٣.

(٣) ينظر: سورة الواقعة: ١٠ – ١١. وينظر: الكشاف: ٤ / ٤٤٦.

(٤) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ١٠٣. من قصيدة يمدح بها خالد بن يزيد الشيباني، ومطلعها:

قد أخذتْ من دار ماوية الحقبُ أنُحلُ المغاني لِلبِلى هي أم نَهبُ ؟!

(د) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٩ / ١٨٣.

والمراد بـ (كواعب أترابا) في الآية الكريمة الحور العين ، أما في بيت أبي تمام فهن صاحبات محبوبته . وهكذا نقل أبو تمام معنى الكلام المقتبس في بيته الشعري إلى معنى مخالف لما هو عليه في الآية الكريمة .

وأشير هنا إلى أنه على الرغم من أنّ أبا تمام أورد التركيب القرآني في سياق الغزل، إلا أنه غزل تقليدي جاء في مطلع القصيدة على عادة الشعراء ، وقد خلا من الفحش ، واقتصر على وصف ديار من يحب ، وسرعان ما انتقل إلى الغرض الرئيس لقصيدته ، وهو المدح .

ج – تغيير في الضمير ،كقول أبي تمام :

لا شمسه جمرةٌ تُشوى الوجوه بها يوماً ولا ظلهُ عنّا بمُنتقلِ [1]

اقتبس قوله (تشوي الوجوه) من قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الكهف : ٢٩) .

غيّر أبو تمام تغييراً يسيراً في جزء الآية المقتبس ، فبنى الفعل للمجهول ، ووضع التاء موضع (الياء) في الفعل (يشوي) ؛ لأن الفاعل في بيت أبي تمام قبل البناء للمجهول ضمير مستتر يعود على مؤنث مجازي التأنيث (جمرة) . وحكم تأنيث الفعل هنا واجب التأنيث. ونقل المقتبس من معناه الأصلي في الآية الكريمة إلى معنى آخر ، فالآية الكريمة قدّمت صورة عن حال أهل النار ، والعياذ بالله تعالى ، ومن ذلك الحديث عن شرابهم وهو ما أُذيب من جواهر الأرض ، فإذا قُدّم ليُشْرب انشوى الوجه من حرارته [2]. بينما وصف أبو تمام في بيته حال ممدوحه الذي " لا يأتيك أذاه فيبلغ إليك إن كنت وليّه ، ولا ينطوي عنك نفعُه وخيرُه " [3].

د – تغيير لفظ بلفظ مساوٍ له في المعنى ، كقوله :

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٤٥ . من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف ، ومطلعها :

ما لي بعادية الأيام من قبل لم يَثْنَ كبدَ النوى كيدي ولا حيلي

(٢) ينظر : الكشاف : ٢ / ٦٩١ .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٤٥ .

كيوسفَ لمَّا أن رأى أمر ربِّه   وقد همَّ أن يَعْرَويَ الذَّنْبَ أحجَما [1]

أخذ أبو تمام (أن رأى أمر ربه) من قوله تعالى : قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (يوسف : ٢٤) .

تحدث أبو تمام في البيت السابق عن هيبة ممدوحه في نفوس أصحابه ، وساق موقف أحدهم من الشجعان الذي كاد يتراجع عن القتال في الميدان من شدة ما واجه من الأعداء ، لكن هيبة الممدوح منعته من ذلك . وشبه أبو تمام حال هذا الشجاع بموقف يوسف (عليه الصلاة والسلام) حينما راودته امرأة العزيز عن نفسه ، فانصرف عنها بعد أن رأى برهان ربه . وأسهم استحضار التركيب القرآني المعبر عن موقف يوسف (عليه الصلاة والسلام) في توضيح المعنى المراد التعبير عنه ، وأسهم – أيضاً – في إكساب التعبير مزيداً من القوة والجمال والهيبة .

وغيّر أبو تمام لفظاً بلفظ يساوي مفهومه ، فقوله : أمر ربه قريب من برهان ربه . ولم ينقل معنى المقتبس من الآية الكريمة عن المعنى الأصلي ؛ لأنه ساق الجزء المقتبس من الآية الكريمة على سبيل التشبيه ، أي أنه استحضره ؛ لمجرد أن يشبه به حال ممدوحه مع أتباعه وأصحابه .

وفي هذا المقام لا بد من الإشارة إلى اختلاف الموقفين ، فيوسف (عليه الصلاة والسلام) انصرف عن ارتكاب المعصية بعد أن رأى برهان ربه ، وكتب التفسير ذكرت آراء عدة للمقصود بالبرهان [2] ، أما في بيت أبي تمام فانصراف الشجاع عن التقهقر كان بسبب تذكر هيبة الممدوح واستحياء منه ، وشتان بين الحياء من الله تعالى والحياء من البشر !

وقوله :

مَكْراً بنى ركْنيه ، إلا أنه   وَطَدَ الأساسَ على شفير هارِ [3]

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ١٢٠ . من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف ، ومطلعها :

عسى وطنٌ يدنو بهم ولعلّما   وأن تُعتِبَ الأيامُ فيهم فربما

(٢) ينظر : الكشاف : ٢ / ٤٣٩ – ٤٤٠ .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٣٦ .من قصيدة يمدح بها المعتصم ، ومطلعها :

اقتبس أبو تمام (على شفير هارٍ) من قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (التوبة : ١٠٩).

الآية الكريمة تحدثت عن الرجال المذكورين من أهل مسجد الضرار . ووازنت بينهم وبين الرجال الذين أسسوا مسجد قباء . والجرف " ما جرف السيل . أي استأصله واحتفر ما تحته . فبقي واهياً يريد الانهدام . والهار : الهائر المتصدع المشرف على السقوط من هار يهور أو هار يهير ... "[١].

أخذ أبو تمام التركيب القرآني (جرف هار) ووصف به مكر (الأفشين) للخليفة العباسي المعتصم بأنه مكر بُني على غير أصل [٢] . وغيّر أبو تمام لفظاً بلفظ مساوٍ له بالمفهوم . فقوله (شفير هارٍ) قريب من جُرُف هارٍ في المعنى [٣] . ونقل أبو تمام معنى المقتبس من القرآن الكريم . إذ وصفت الآية القرآنية الكريمة مسجد الضرار بضعف البنيان . أما بيت أبي تمام فوصف مكر الأفشين بالضعف .

عمّق الاقتباس من الآية السابقة الفكرة التي قدّمها الشاعر في بيته، وأغنى تجربته الشعرية من خلال امتزاجها بالأسلوب القرآني الفريد المعجز .

هـ – تغيير في بناء الكلمة المقتبسة، كقوله :

من القِلاصِ الخور والجلاد والمُقْرِبات الصُّفُنِ الجيادِ [٤]

اقتبس أبو تمام قوله (الصُّفُن الجياد) من قوله تعالى : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ ﴾ (ص : ٣١) . وغير في بناء الكلمة المقتبسة . فجاء بكلمة الصّفن بدلاً من الصافنات الواردة في الآية الكريمة ؛ مراعاة للوزن .

والصافنات جمع صافن . والمراد " الخيل جمع جواد للفرس إذا كان شديد الحُضْر ؛

الحقُّ أبلج والسيوف عوارٍ فحذارِ من أسدِ العرينِ حذارِ

(١) تفسير أبي السعود : ٢ / ١٠٣.

(٢) ينظر : شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٣٥ – ٣٣٦ .

(٣) ينظر : أبو تمام الطائي (حياته وحياة شعره) : ٦٧ .

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٤١٧ . من قصيدة يصف فيها المطر . ومطلعها :

حَمَادِ من نَوءٍ له حَمَادِ في ناحِراتِ الشّهر . لا الدّآدِ

كما يقال للإنسان جواد إذا كان كثير العطية غزيرها "[1].

والآية الكريمة وصفت جياد نبي الله سليمان (عليه الصلاة والسلام) بالصفون والجودة ، فجمعت " بين الوصفين المحمودين : واقفة وجارية . يعني : إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها "[2].

وأبو تمام في بيته لم ينقل الكلام المقتبس من معناه الأصلي ، إذ أورده في بيته لوصف الجياد الأصيلة المحمودة ، وهو المعنى نفسه الوارد في القرآن الكريم .

و – تغيير بتقديم أو بتأخير . كقوله :

ثانيهِ في كَبِدِ السماء ولم يكن　　　لاثنين ثانٍ إذ هما في الغارِ[3]

اقتبس أبو تمام (لاثنين ثانٍ إذ هما في الغار) من قوله تعالى : ﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴿٤٠﴾ ﴾ (التوبة : ٤٠) . وقدّم أبو تمام اثنين على ثاني مراعاة للوزن .

تحدث أبو تمام في قصيدته عن الأفشين الذي قتله المعتصم ، أما ثانيه فشخص يدعى (مازيار) قُتل – أيضاً – ، " والمعنى أن هذا الرجل ثانٍ للآخر ، وهما مذمومان . واللذان كانا في الغار محمودان "[4].

والملاحظ أن أبا تمام أورد جزء الآية الكريمة على سبيل المفارقة بين حالين ، فالآية الكريمة تحدثت عن اثنين محمودين ، هما الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأبو بكر الصديق (رضي الله عنه) . أما بيت أبي تمام فأشار إلى اثنين مذمومين ، كان مصيرهما القتل .

وقد أسهم حضور التركيب القرآني في إغناء الموقف الشعري ، وتعميق الفكرة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٥ / ١٩٢ .

(٢) الكشاف : ٤ / ٨٩ .

(٣) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٤٠ . من قصيده يمدح بها المعتصم ، ومطلعها :

رقت حواشي الدّهر فهي تمرمرُ　　　وغدا الثّرى في حَلْيِه يتكسّرُ

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٤٠ .

المطروحة وتوضيحها ، وإكساب الأسلوب قوة وجمالاً وهيبة من خلال امتزاجه مع التركيب القرآني المعجز الفريد .

والبيت السابق من الشواهد التي استشهد بها أبو منصور الثعلبي على الاقتباس ، وقد علّق على الآية الكريمة بقوله : " وقال في مصاحبته رسول ﷺ في الغار : (ثاني اثنين إذ هما في الغار) ، حتى صارت هذه الكلمة مثلاً لكل متآخيين متصافيين يقتربان ، ولا يكادان يفترقان " [1] .

ز – الاقتباس مع التغيير باجتماع أكثر من صورة :

ومن صور التغيير في المقتبس اجتماع أكثر من صورة ، ومن ذلك حذف حرف وتغيير في الحركة ، كقوله :

طوى أمرهم عنوةً في يديه   طيَّ السِّجِلِّ وطيَّ الرِّداءِ [2]

اقتبس أبو تمام قوله (طيَّ السجل) من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (الأنبياء : ١٠٤) . وغيّر بحذف كاف التشبيه من المقتبس ، وتبعاً لذلك غيّر حركة إعراب كلمة (طيّ) ، ففي الآية الكريمة كانت مجرورة ؛ لأنها سُبقت بالكاف ، أما في بيت أبي تمام فجاءت منصوبة على المفعولية .

والسجل : " الصحيفة ، أي : كما يطوي الطومار للكتابة ؛ ليكتب فيه ... وقيل : السجل ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه " [3].

ولم ينقل أبو تمام المعنى المقتبس إلى معنى آخر ، لكنه عمد إلى استثمار الصورة القرآنية في معنى آخر، فالآية القرآنية شبّهت طي السماء يوم الفزع الأكبر بطي الصحيفة على ما فيها ، بينما شبه أبو تمام في بيته قضاء مرثيه على أعدائه الأقوياء وإذلالهم ومنعهم من الظهور والبروز بطي السجل وطي الرداء .

استثمر أبو تمام جزء الآية الكريمة المقتبس في توضيح فكرته وتعميقها ، فالمرثي

---

(١) الاقتباس من القرآن : ١ / ١٠٨ .

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ١٩٣ . من قصيدة يرثي بها خالد بن يزيد الشيباني ، ومطلعها :

نعَاءِ إلى كل حيٍّ نعاءِ   فتى العرب احتل رَبعَ الفناءِ

(٣) الكشاف : ٣ / ١٣٤ .

الذي قضى على أعدائه الأقوياء جدير بالأوصاف التي وصفه بها الشاعر في قصيدته ، ومن جانب آخر كان لحضور الصورة القرآنية في نهاية البيت أكبر الأثر في منح أسلوبه قوة وهيبة ، وعبّرت عن تشرب الشاعر أسلوب القرآن الكريم ، وامتزاجه بشعره بصورة جميلة مؤثرة .

ومنه اجتماع حذف الضمير والتنوين ، كقوله :

هي بيعة الرضوانِ يُشْرِعُ وَسْطَها   بابُ السلامِ فادخلوا بسلامِ [1]

اقتبس أبو تمام قوله (فادخلوا بسلام) من قوله تعالى : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ (الحجر : ٤٦) . وحذف الضمير (الهاء) من الكلام المقتبس ، وحذف التنوين من كلمة (بسلام) ؛ مراعاة للوزن والقافية .

والآية القرآنية تحدثت عن الجنة ، أما أبو تمام في بيته فأراد البيعة للخليفة العباسي الواثق ، وجعلها باب السلامة للأمة ، ومركب النجاة .

وهكذا نقل أبو تمام الكلام المقتبس عن معناه الأصلي إلى معنى آخر . لكنه معنى مقبول ؛ لأنه لم يعبث فيه بآيات الله تعالى .

ومنه وضع الظاهر موضع المضمر ، وحذف التنوين ، كقوله :

ذاك الذي إنْ كان خِلَّكَ لم تقلْ   يا ليتني لم أتّخذه خليلا [2]

اقتبس أبو تمام قوله (يا لتني لم أتخذه خليلاً) من قوله تعالى : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (الفرقان : ٢٨) . ووضع الضمير (الهاء) موضع الاسم الظاهر (فلاناً) ، وحذف التنوين من كلمة (خليلاً) ؛ مراعاة للوزن والقافية .

والحديث في الآية الكريمة كان عن عقبة بن أبي معيط ، أما فلان فأمية بن خلف ، " وكنى عنه ولم يصرح باسمه ؛ لئلا يكون هذا الوعد مخصوصاً به ولا مقصوراً ، بل يتناول جميع من فعل مثل فعلهما " [3].

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ١٠٢ . من قصيدة يمدح بها الواثق ، ويهنئه بالخلافة ، ومطلعها :

ما للدُّموع تَرُوم كلَّ مرامِ   والجفنُ ثاكِلُ هجعةٍ ومنامِ !

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٣٥ . من قصيدة يمدح بها نوح بن عمرو السَّكسكيّ ، ومطلعها :

يومَ الفراق لقد خُلقتَ طويلاً   لم تُبْقِ لي جَلَداً ولا معقولا

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ١٣ / ٢٦ .

وقد نقل أبو تمام معنى الآية المقتبسة إلى معنى آخر ، لكنه أجاد في استثماره ، إذ جاءت في ختام قصيدته ، فبعد أن أسبغ على ممدوحه من المدح أجوده ، جاء البيت الأخير مؤكداً كل تلك الصفات الحميدة التي ذكرها في قصيدته ، ومشيراً إلى غيرها من الصفات التي لم يصرح بها في القصيدة ، فيكفي أنّ من يتخذ هذا الممدوح خلاً وصاحباً لن يندم على ذلك .

وأشير هنا إلى أنّ حضور التركيب القرآني في نهاية القصيدة كان موفقاً من قبل أبي تمام ، حيث أسهم في توضيح المعنى وتعميقه وتوكيده ، ومنح الأسلوب مزيداً من القوة والجمال .

ومنه زيادة الألف للإشباع ووضع الظاهر موضع المضمر ، كقول أبي تمام :

كان الذي خِفْتُ أن يكونا إنّا إلى الله راجعونا [1]

أخذ أبو تمام قوله (إنّا إلى الله راجعونا) من قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ ﴾ (البقرة : ١٥٦) . " فقوله : إنّا إلى الله راجعونا اقتباس ، لكنه زاد الألف في راجعون على جهة الإشباع ، وأتى بالظاهر مكان المضمر في قوله : إنّا لله وإنّا إليه ، ومراده آية الاسترجاع ، وهي إنّا لله وإنّا إليه راجعون " [2] .

ولم ينقل أبو تمام معنى المقتبس عن معناه الأصلي ، فالآية الكريمة تحدثت عن موقف المؤمنين عند وقوع المصيبة ، وبيت أبي تمام جاء في المعنى نفسه ، إذ وضع المقتبس من الآية القرآنية الكريمة في السياق نفسه الذي وردت فيه ، والمقصد الذي سيقت من أجله ، فالمصيبة التي حلت به تمثلت في موت أحد أبنائه الذي كان يتوسم فيه الخير والصلاح ، وجاء بيت أبي تمام في مطلع مقطوعة مكونة من خمسة أبيات في رثاء ذلك الابن . واستثمار جزء الآية في مطلع المقطوعة جاء مؤكداً إيمانه بقضاء الله وقدره ، ومعبراً عن صبره .

والملاحظ أن المقتبس جاء في الشطر الثاني كله ، وامتزج مع شعر أبي تمام الذي اكتسب جلالاً وهيبة وقوة في المعنى والعبارة ، وبخاصة أنه استثمر الكلام المقتبس في غرض شعري هو من أكثر أغراض الشعر صدقاً ، وهو الرثاء ، وأي رثاء ، إنه رثاء الابن.

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٥٠٢ . مطلع مقطوعة يرثي بها ابناً له .

(٢) أنوار الربيع في أنواع البديع : ٢ / ٢٢٠ .

وكقوله :

فاشدد بهارونَ الخلافةَ إنه　　　سكنٌ لِوَحشَتِها ودارُ قرارِ [١]

اقتبس أبو تمام بيته السابق من قوله تعالى : ﴿ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴾ (طه : ٣٠ – ٣١) . ووضع الظاهر (هارون) موضع المضمر (الهاء) ، وزاد الفاء . ونقل المعنى إلى معنى آخر ، فالآية الكريمة تحدثت عن طلب موسى (عليه الصلاة والسلام) من الله تعالى أنّ يشرك أخاه هارون (عليه الصلاة والسلام) في أمره . أما بيت أبي تمام فكان بمثابة الدعوة منه إلى أن يجعل الخليفة المعتصم ابنه الملقب بالواثق ولياً للعهد .

ومنه التغيير في بنية كلمة من الكلام المقتبس والتقديم والتأخير ، كقوله :

هديةً من صمدٍ جواد　　　ليس بمولود ولا ولاّد [٢]

أخذ أبو تمام قوله (ليس بمولود ولا ولاّد) من قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝ ﴾ (الإخلاص : ١ – ٤) .

واجتمع في البيت السابق التغيير في بنية الكلام المقتبس ، والتقديم والتأخير ، إذ وضع ولاّد موضع يلد ، ومولود موضع يولد ، وقدّم بمولود على ولاّد ، وغيّر في بنية المقتبس ؛ وذلك كله مراعاة للوزن والقافية .

ولم ينقل أبو تمام معنى المقتبس عن معناه الأصلي في الآية الكريمة التي وصفت الله تعالى بأنه لم يلد ولم يولد ، وبيت أبي تمام – أيضاً – جاء في وصف الله تعالى والثناء على عطائه الذي منّ به على عباده . وقد أضفى حضور التركيب القرآني في الشطر الثاني على البيت الشعري مزيداً من التأنق في التعبير والقوة والعمق في المعنى ، يضاف إلى ذلك أن ورود كلمة (صمد) في الشطر الأول – وهي – أيضاً – وردت في الآية السابقة للآية المقتبسة من السورة نفسها – منح البيت الشعري مزيداً من القوة والجمال ، من خلال امتزاج التراكيب القرآنية في شعر أبي تمام بصورة جلية واضحة ، تعبر عن تأثر عميق بالأسلوب القرآني الفريد المعجز .

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٤١ .من قصيدة يمدح بها المعتصم ، ومطلعها :

الحقُّ أبلجُ والسيوف عوارِ　　　فحذارِ من أسد العرينِ حذارِ

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٤١٧ . من قصيدة يصف فيها المطر ، ومطلعها :

حَمَّادِ من نَوءٍ له حَمَّادِ　　　في ناحِراتِ الشَّهرِ . لا الدَّآدِ

ومنه التغيير في بنية أكثر من كلمة وحذف التنوين، كقوله:

ثمَّ برعدٍ صَخِبِ الإرعاد ... يَسْلُقُها بألْسُنٍ حدادِ [1]

اقتبس أبو تمام (يسلقها بألسن حداد) من قوله تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۚ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ (الأحزاب: ١٩).

وغيّر في بناء الكلمة المقتبسة، فجاء بكلمة (يسلقها) بدلاً من كلمة (سلقوكم)، وجاء بكلمة (ألسن) بدلاً من كلمة (ألسنة)، وحذف التنوين من كلمة (حداد)؛ وذلك مراعاة لاختلاف الخطاب، ومراعاة للوزن والقافية.

ونقل معنى المقتبس إلى معنى آخر، فالآية الكريمة تحدثت عن حال المنافقين [2]، بينما وصف بيت أبي تمام قوة الرعد في قصيدته التي يصف فيها المطر. وقد أجاد أبو تمام في استثمار الصورة القرآنية الكريمة التي عبرت عن حال المنافقين بعد تحقق النصر في المعركة، فتحول الخوف إلى جرأة، وكانت مطالبتهم للغنيمة بألسنتهم قوية قوة الحديد، ونقل أبو تمام هذه الصورة الرائعة إلى شعره، مجسداً قوة الرعد.

ومنه زيادة حرف وكلمة وحذف التنوين، كقوله:

صافي الأديمِ كأنما ألبستهُ ... من سُنْدُسٍ بُرداً ومن إستبرَقِ [3]

أخذ قوله (من سُنْدُسٍ بُرداً ومن إستبرَقِ) من قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ (الكهف: ٣١).

اجتمع في البيت السابق زيادة حرف الجر (من)، وزيادة كلمة (بُرد)، مع وجود كلمة مساوية لها في المفهوم في الآية المقتبسة، وهي كلمة (ثياب)، وحذف التنوين من

---

(١) شرح ديوان أبي تمام: ٢ / ٤١٧. من قصيدة يصف فيها المطر، ومطلعها:

حَمَادِ من نَوءٍ له حَمَادِ ... في ناجِراتِ الشَّهرِ، لا الدَّآدِ

(٢) ينظر: الكشاف: ٣ / ٥١٤.

(٣) شرح ديوان أبي تمام: ١ / ٤٤٥. من قصيدة يمدح بها الحسن بن وهب، ومطلعها:

يا برق طالعْ منزلاً بالأبرقِ ... واحْدُ السحابَ له حُداءَ الأيْنُقِ

كلمة (إستبرق) ؛ مراعاة للوزن والقافية .

ولم ينقل أبو تمام المعنى المقتبس من معناه الأصلي في الآية الكريمة ؛ لأنه أورده على سبيل التشبيه ، فالآية الكريمة وصفت ثياب أهل الجنة ، بينما شبه أبو تمام لون فرسه بتلك الثياب . وكان لحضور التركيب القرآني مع بعض التغيير فيه أكبر الأثر في توضيح المعنى وتقريبه من خلال تشبيه لون الفرس بلون ثياب أهل الجنة .

– ومنه وضع ضمير موضع ضمير آخر ، وزيادة كلمة ، وتغيير في حركة كلمة من الآية المقتبسة ، كقوله :

لك في رسولِ اللهِ أعظمُ أسوةٍ وأجلُّها في سنة وكتابِ [1]

اقتبس أبو تمام قوله (لك في رسول الله أعظم أسوة) من قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب : ٢١) .

في الاقتباس السابق اجتمعت تغييرات عدة ، إذ وضع أبو تمام (لك) موضع لكم ، وزاد كلمة (أعظم) ، وغير حركة كلمة (أسوة) من الرفع إلى الجر ؛ تبعاً لاختلاف الموقع الإعرابي والمخاطب .

ولم ينقل أبو تمام معنى المقتبس من معناه الأصلي في الآية الكريمة ، ففي الآية الكريمة توجيه من الله تعالى باتخاذ الرسول (صلى الله عليه وسلم) أسوة حسنة ، وفي بيت أبي تمام دعوة الممدوح ـ أيضاً – إلى اتخاذ الرسول (صلى الله عليه وسلم) أسوة حسنة . ومجيء الكلام المقتبس في صدر البيت السابق كان موفقاً من قبل الشاعر ، فبعد أن دعا الممدوح – في الأبيات السابقة – إلى العفو عن قومه ، بيّن له أن التحلي بصفة العفو فيه اتباع لسنة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) .

وقوله :

طللُ الجميع ، لقد عفوتَ حميدا وكفى على رُزْئي بذاك شهيدا [2]

جاء هذا البيت في مطلع القصيدة ، وهو من أنسب المواضع لعرض الشكوى وبثها ، وأشار فيه الشاعر إلى تأثره بفراق أهل الديار ، بل جعل الديار تتأثر بفراق ساكنيها .

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١/ ٥٥ . من قصيده يمدح بها مالك بن طوق التغلبي ، ومطلعها :

لو أن دهراً ردَّ رَجْعَ جوابِ أو كفَّ من شأويه طُولُ عِتابِ

(٢) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٢١٧ . مطلع قصيدة يمدح بها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني .

اقتبس أبو تمام قوله (وكفى على رزئي بذاك شهيدا) من قوله تعالى : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ (النساء : ٧٩) .

وغيّر أبو تمام في الآية الكريمة بإضافة (على رُزئي) ، ووضع (بذاك) موضع لفظ الجلالة (الله) ، وحذف التنوين من كلمة (شهيداً) مراعاة للوزن والقافية ، ولاختلاف سياق الكلام المقتبس عن السياق الذي وردت فيه الآية الكريمة ، إذ نقل الكلام المقتبس من معناه الأصلي في جزء الآية إلى معنى آخر ، فالله تعالى هو الشاهد على الناس في الآية الكريمة ، أما في بيت أبي تمام فكان الشاهد على ما أصاب الشاعر من حزن بعد فراق أهل الديار هو تأثر الديار بفراق أهلها ، فإذا كان الجماد الذي لا يحس ولا يشعر قد تأثر بفراق ساكنيه ، فكيف يكون حال الشاعر !

وقوله :

فصّلن منه كل مجمع مفصلٍ وفعَلْنَ فاقِرَةً بكل فقَارِ [1]

أخذ أبو تمام (وفعَلْنَ فاقرة) من قوله تعالى : ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (القيامة : ٢٥) ، أي " تتوقع أن يفعل بها فعل هو في شدته وفظاعته (فاقرة) داهية تقصم فقار الظهر " [2] .

ونقل أبو تمام معنى جزء الآية المقتبس من معناه الأصلي ، إذ تحدثت الآية الكريمة عمّا يتوقع الكفار أن يفعل بهم في الآخرة . أما أبو تمام في بيته فوصف النار التي أُحرق بها الأفشين (خيذر بن كاوس) ، إذ فصلت النار أعضاءه ، فتفرقت عن بعضها [3] . وقد جاء الاقتباس في سياق تحقيق التهويل والتعظيم لما حلّ بالأفشين ، فكان العذاب الذي يتوقعه العصاة يوم القيامة وسيلة الشاعر لتحقيق المعنى الذي يرنو إليه وتأكيده .

وغيّر أبو تمام في بناء الفعل (فعلن – يُفعل) ، وفي حركة إعراب كلمة (فاقرة). قال أبو بكر الصولي (ت ٣٣٥ هـ) : " إنما قال : وفعلن ، فخصّ هذه اللفظة لقول الله جل و عزّ

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٣٨ . من قصيدة يمدح بها المعتصم . ومطلعها :

الحقُّ أبلج والسيوف عوارِ فحذارِ من أسدِ العرينِ حذارِ

(٢) الكشاف : ٤ / ٦٥٠ .

(٣) ينظر : شرح ديوان أبي تمام : ١ / ٣٣٥ – ٣٣٨ .

: ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [1]، ولقول الناس : فعل به الفواقر، أي الدواهي " [2].

– وبالنظر إلى النماذج السابقة باعتبار نقل معنى المقتبس من معناه الأصلي الوارد في القرآن الكريم إلى معنى آخر يمكن وضعها في صور أربع، هي :

١ – مجيء معنى المقتبس في السياق نفسه الذي ورد فيه في كتاب الله تعالى، وهذه الصورة هي الأكثر حضوراً في شعر أبي تمام .

٢ – إيراد الكلام المقتبس على سبيل التشبيه، وذلك من خلال تشبيه شيء أو موقف أو حالة بآية قرآنية أو جزء من ؛ وذلك لتوضيح المعنى وتقويته وتأكيده .

٣ – نقل معنى المقتبس إلى معنى آخر مختلف عن المعنى الذي ورد فيه في القرآن الكريم، مع المحافظة على قداسة القرآن الكريم، من خلال تجنب العبث بآياته، وقلب مفاهيمه، وإيراده في مقام الهزل والفحش، والعياذ بالله .

والصور الثلاث السابقة هي الأكثر حضوراً في شعر أبي تمام، وهي مقبولة شرعاً .

أما الصورة الرابعة فتمثلت في نقل الكلام المقتبس إلى معنى لا يتناسب مع قداسة القرآن الكريم .وتعدُّ هذه الصورة من الاقتباس المرفوض والمردود الذي جعله العلماء الذين تحدثوا عن حكم الاقتباس من القرآن الكريم ضربين : الأول : نقل ما نسبه الله تعالى إلى نفسه، والآخر : اقتباس آية في معنى هزل [3] .

وقد وردت نماذج قليلة في شعر أبي تمام تمثل هذه الصورة، كقوله متغزلاً :

فاعذلوا فيه كيف شئتم وقولوا   قد كفى الله المؤمنينَ القتالا [4]

أخذ أبو تمام قوله (كفى الله المؤمنين القتالا) من قوله تعالى : ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأحزاب : ٢٥) . وزاد حرف الألف على كلمة (القتال) ؛ لإشباع القافية أو إطلاقها .

وبالنظر إلى السياق الذي جاءت فيه الآية الكريمة وبيت أبي تمام أرى أنه لم يوفق في

---

(١) القيامة : ٢٥ .

(٢) أخبار أبي تمام : ٩٥ .

(٣) ينظر : الإتقان في علوم القرآن : ١ / ٣١٢ .

(٤) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٢٩١ . من مقطوعة يتغزل بها، ومطلعها :

وجد الحاسدون فينا مقالا   فوَّقوا أسهماً لنا ونبالا

الاقتباس من هذه الآية الكريمة ، لأنه نقل الجزء المقتبس من الآية الكريمة من معناه الأصلي إلى معنى فيه غزل . والأولى تنزيه كلام الله تعالى عن الخوض في مثل هذه المعاني .

وقوله متغزلاً – أيضاً – :

هاكَ فاقتَصَّ مِنْ هواكَ فإن (م) السِنّ بالسن والجُرُوحُ قِصاصُ[1]

اقتبس أبو تمام قوله (السنّ بالسنِّ والجروحُ قصاصُ) من قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (المائدة : ٤٥) .

غيّر أبو تمام حركة إعراب كلمة (الجروح) التي جاءت في الآية الكريمة منصوبة بالفتحة ، بينما جاءت في بيت أبي تمام مرفوعة بالضمة ، وكان يستطيع أن يبقيها كما جاءت في الآية ، فتكون الواو حرف عطف ، والجروح معطوفة على اسم (إن) السن .

ونقل أبو تمام المقتبس من معناه الأصلي الذي جاء في الآية الكريمة ، إلى معنى آخر في سياق الغزل ، إذ بينت الآية الكريمة المنهج الرباني القويم في تنظيم العلاقة بين المتنازعين في صور شتى ، بينما جاء بيت أبي تمام في سياق الغزل ، والأولى تنزيه كلام الله تعالى عن إقحامه في معانٍ لا تتفق مع منزلته .

والنموذجان السابقان يعدان من النماذج النادرة التي جاءت في شعر أبي تمام لاقتباس آية أو جزء من آية في معنى غير مناسب لمنزلة القرآن الكريم ومكانته .

وأشير في هذا المقام إلى أن الثعالبي عقد فصلاً في كتابه (الاقتباس من القرآن) للاقتباس المكروه،سماه الخروج عن حد الاقتباس[2]، ومن الأمثلة التي قدّمها قول أبي تمام :

أيُّهذا العزيزُ قد مسنا الضرُّ (م) جميعاً وأهلنا أشتاتُ
ولنا في الرجال شيخٌ كبيرٌ ولدينا بضاعةٌ مُزجاةُ

---

(١) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٢٧٩ . من مقطوعة يتغزل بها . ومطلعها :

لي – لا كان – من هواك خلاصُ وبجسمي ولا بك الإنتقاصُ

(٢) ينظر : الاقتباس من القرآن : ٢ / ٥٧ .

قـلَّ طُـلَّابُها فأضْـحتْ خَـسَاراً فَتِجَارَاتُـنا بـها ترّهـاتُ[1]

اقتبس أبو تمام الأبيات السابقة من قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف : ٧٨). ومن قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (يوسف : ٨٨).

والممدوح في الأبيات السابقة علّق عليها قائلاً : " قولوا لأبي تمام لا تُعاود مثل هذا الشعر، فإن القرآن أجلُّ من أن يُستعار شيء من ألفاظه للشعر "[2].

والثعالبي عدّ اقتباس أبي تمام السابق مكروهاً، وذهب إلى أنّ أبا تمام قد أساء فيه؛ لأنّه أفرط في استثمار ألفاظ القرآن في سياقات لا تليق به[3].

وهنا لا بد من التنبيه إلى أن للقرآن الكريم مكانة وقداسة لا يمكن المساس بهما، وعلى الأديب الذي يتجه إلى مزج كلامه بكلام الله تعالى أن يراعي السياقات التي يورده فيه، فلا يورد كلام الله تعالى في سياقات فيها هزل وفحش، أو أن ينسب الأديب إلى نفسه أو إلى ممدوحه أو مرثيه صفة من الصفات التي اختص الله تعالى بها.

وإجمالاً يمكن القول : إنّ الاقتباس من القرآن الكريم بصوره المتعددة يعدّ صورة من صور تأثر أبي تمام بألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه، ويمكن إرجاع ذلك إلى طبيعة الاقتباس، ففيه يمكن للشاعر أن يتصرف بصور متنوعة، مما يمكنه من مراعاة طبيعة الشعر الإيقاعية.

ومن جانب آخر فإن الكلام المقتبس لا يعدّ قرآناً، فالتغيير اليسير فيه مقبول، ونقل المعنى إلى معنى آخر، مع مراعاة قداسة القرآن الكريم – يعدّ أمراً مقبولاً – أيضاً –.

وبعد، فإن أبا تمام قد وفق في الأخذ عن القرآن الكريم بصورة مباشرة عن طريق الاقتباس، إلا في مواضع قليلة أشرت إليها في دراستي. وقد وصف أحد النقاد اقتباسات أبي تمام من القرآن الكريم بأنها تعدّ " مُثُلاً خلّابة لحسن الاستفادة، وسلامة الذوق،

---

(١) أخبار أبي تمام : ٢١١. أبيات قالها أبو تمام في عبد الله بن طاهر. ولم ترد هذه الأبيات في ديوان أبي تمام.

(٢) أخبار أبي تمام : ٢١١.

(٣) ينظر : الاقتباس من القرآن : ٢ / ٥٧. و : وجه الشعر (قراءة في مآخذ النقاد على معاني أبي تمام) : د. عبد الله الوشمي : ١٠٣ ـ ١٠٤.

وحلاوة العبارة "[1].

ووفق في الجمع بين أسلوبين مختلفين بصورة فنية ، مع التأكيد أن الجمع بين أسلوبين مختلفين يحتاج إلى مهارة فنية ، وقدرة على المزج بينهما ، وبخاصة إذا كان القرآن الكريم هو الأسلوب الذي عمل الشاعر على مزج شعره به ، لكن أبا تمام بما عرف عنه من مواهب فنية وثقافة متنوعة ، وفق في ذلك ، فمنح الأسلوب القرآني الكريم شعرَ أبي تمام جمالاً في العبارات ، واتساعاً في المعاني ، وهكذا بدت كثير من النماذج الشعرية المتأثرة بالقرآن الكريم أكثر تأثيراً وجمالاً ووضوحاً .

لقد وجد أبو تمام في ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه معيناً خصباً ، فامتاح منه ، فجاء شعره في كثير من نماذجه مبهراً ومدهشاً ومؤثراً ، نقل القارئ إلى الأجواء القرآنية الروحية ، وإلى ذلك البيان المعجز الفريد ؛ لذا كانت وما زالت تجربة أبي تمام الشعرية تجربة غنية فريدة ، ومحطة مهمة من محطات الشعر العربي عبر عصوره المتلاحقة .

– المبحث الثالث – العقد :

العقد لغة : " نقيض الحل ، عقده يعقِده عقداً وتعاقداً "[2] .

أما اصطلاحاً فهو " أن يؤخذ الكلام النثر ، فينظم ، لا على طريق الاقتباس ، أي لا كما يفعل في الاقتباس . سمي عقداً ؛ لأنه كان نثراً محلولاً فصار نظماً معقوداً بالوزن "[3].

والفرق بين الاقتباس والعقد يتمثل في " أن العَقْد يكون فيه التصريح بالقول لما يراد تضمينه ، فإنه – أي العقد – نظم كلام منثور من القرآن أو السنة أو غيرهما على الحكاية ؛ فيقال : قال الله كذا ، أو قال الرسول ﷺ كذا ، خلافاً للاقتباس ، فلا تصريح فيه بالقول "[4] .

ويعدُّ العقد بمفهومه في التراث البلاغي والنقدي عند العرب صورة من صور التناص المباشر في الدراسات النقدية الحديثة [5] ؛ لأن حضور النص السابق في النص اللاحق

---

(١) أبو تمام الطائي (حياته وحياة شعره) : ٦٩ .

(٢) لسان العرب : مادة (عقد) .

(٣) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح : ٢ / ٤٢٤ .

(٤) الاقتباس : ٢١ .

(٥)) ينظر : القصة بين التراث والمعاصرة : ٢١٠ .

والتناص في شعر الرواد : ١٠٦ – ١٠٨ .

يكون بصورة مباشرة .

وأمثلة العقد في ديوان أبي تمام نادرة ، إذ لم أعثر سوى على شاهدين ، هما : -

- الأول ، قوله :

قد كان وعدُكَ لي بحراً فصيّرني ... يوم الزّماع إلى الضحضاح والوشلِ

وبَيّنَ اللهُ هذا من بريّته ... في قوْله " خُلِقَ الإنسانُ من عجلِ " (1)

عقد أبو تمام جزءاً من قوله تعالى :﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ (الأنبياء : ٣٧) .

في الآية الكريمة السابقة نهى الله تعالى الإنسان عن الاستعجال ، وبين أنه مطبوع عليه ، " كأنه قال : ليس ببدع منكم أن تستعجلوا فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم " (2) .

بين أبو تمام في بيتيه السابقين أن حرمانه من نيل العطاء الجزيل يرجع إلى الاستعجال الذي يعدّ سجية وطبعاً جُبل عليه الإنسان .

- والآخر ، قوله :

جعل الخلافة فيه رَبٌّ قولُه ... سبحانه للشيء " كن فيكون " (3)

عقد أبو تمام جزءاً من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (يس : ٨٢) . أي لا يحتاج إلى جهد أو تعب ، ولا يمتنع عليه شيء من المكونات (4) .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النحل : ٤٠) .

واستدل بقوله تعالى على أن وصول الخلافة إلى ممدوحه وانقيادها له أمر مقدر من الله تعالى ؛ وبهذا يكون أبو تمام قد رفع منزلة ممدوحه ، وأصبغ عليه مزيداً من الشرعية .

ويلحظ أن أبا تمام في النموذجين السابقين عقد الآيتين السابقتين في سياق الاستدلال على وجهة النظر التي قدمها ، ففي النموذج الأول استدل بالآية الكريمة على

---

(1) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ٤٤ . من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف حين خرج من عمورية إلى مكة . ومطلعها : مالي بعادية الأيام من قِبَلِ ... لم يَثْنِ كيدَ النوى كيدي ولا وجلِ

(2) الكشاف : ٣ / ١١٤ .

(3) شرح ديوان أبي تمام : ٢ / ١٦٥ . من قصيدة يمدح بها الواثق بالله ، ومطلعها :

وأبي المنازلِ إنها لشُجُونُ ... وعلى العُجومة إنها لَتُبِينُ

(4) ينظر : الكشاف : ٤ / ٣٠ . و : الجامع لأحكام القرآن : ١٥ / ٦٠ .

حرمانه من نيل العطاء ، فالاستعجال صفة طُبع عليها الإنسان ، أما في النموذج الثاني فاستدل بالآية الكريمة على أن وصول الخلافة إلى ممدوحه هي من تدبير الله عز وجل ، وفي هذا إصباغ صفة الشرعية على وصوله إلى الخلافة .

والملاحظ ندرة نماذج العقد الواردة في شعر أبي تمام؛ ويمكن إرجاع ذلك إلى صعوبة تصرف الشاعر في التراكيب؛ لأن الكلام المعقود يعدّ قرآناً كريماً، وفيه يتم التصريح بأن هذا القول لله تعالى ، بخلاف الكلام المقتبس الذي لا يعدُّ قرآناً [1]. ومن جانب آخر نجد أن طبيعة الشعر تصعّب الأمر على الشاعر ؛ بسبب طبيعة الشعر الإيقاعية المتمثلة في الوزن والقافية .

* * *

---

(١) ينظر : الاقتباس : ٢١ .

الخاتمة:

وبعد ، فإن هذه الدراسة قد اتجهت إلى دراسة أثر القرآن الكريم في شعر أبي تمام ، من خلال تسليط الضوء على ذلك الأثر الكبير في تشكيل تجربته الشعرية المتميزة .

وقد وقفت عند ثلاث صور من صور ذلك الأثر، هي : التلميح والاقتباس والعقد .

وأظهرت الدراسة أن نماذج التلميح في شعر أبي تمام كانت الأكثر ؛ لأنه في هذه الصورة يكون الشاعر أكثر حرية في استثمار معاني القرآن الكريم .وتلتها نماذج الاقتباس ؛ لأن الكلام المقتبس لا يعدّ قرآنا ؛ مما يمنح الشاعر فرصة التصرف في المعاني. أما في العقد فيعد الكلام المعقود قرآناً ؛ فلا يستطيع الشاعر التصرف في المعاني .

وقد بينت الدارسة أن أبا تمام كان غالباً ما يحافظ على قداسة القرآن الكريم ومكانته ، لكن هناك نماذج لم يوفق فيها ، وقد أشارت إليها ، إذ أورد أبو تمام في تلك النماذج بعض أساليب القرآن الكريم ومعانيه في سياقات لا تليق بقداسة القرآن الكريم .

وأخيراً ، فإن حضور القرآن الكريم في شعر أبي تمام كان عاملاً مهماً من العوامل التي أسهمت في إغناء تجربته الشعرية ، وتزويدها بطاقات فنية وموضوعية ، ومنحها بُعداً دينياً ؛ وهي تجربة فريدة في تاريخ الشعر العربي : قديماً وحديثاً ، ما زالت تحتاج إلى دراسات أخرى ، تكشف عن جوانب غائبة في إبداعات أبي تمام الشعرية .

* * *

ثبت المصادر والمراجع:

أولاً : القرآن الكريم :

ثانياً – الكتب :

١– **أبو تمام الطائي (حياته وحياة شعره)** : نجيب البهبيتي ، دار الثقافة – الدار البيضاء ، (١٤٠٢هـ / ١٩٨٢).

٢ – **الإتقان في علوم القرآن** : الإمام جلال الدين السيوطي ، تحقيق حامد البسيوني ، دار الفجر للتراث – القاهرة ، ط١ (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦ م).

٣ – **أخبار أبي تمام** : لأبي بكر بن يحيى الصولي ، تحقيق محمد عبده عزّام وآخرين ، دار الآفاق الجديدة – بيروت ، ط ٣ (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م).

٤– **استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر** : د . علي عشري زايد ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان – ليبيا ، ط ١ (١٩٧٨م).

٥– **استلهام الشخصيات الإسلامية في الشعر العربي الحديث** : د . محمد منور ، النادي الأدبي بالرياض ، ط ١ (١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧ م).

٦ – **استيحاء التراث في الشعر الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين : ٤٠٠ – ٥٣٩هـ)** : د. إبراهيم منصور الياسين . عالم الكتب الحديث – الأردن . ط ١ (٢٠٠٦م).

٧– **الأطول** : إبراهيم بن محمد عصام الدين الحنفي . دار الكتب العلمية – لبنان . ط ١ (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م).

٨ – **الاقتباس (أنواعه وأحكامه : دراسة شرعية بلاغية في الاقتباس من القرآن والحديث)** : د . عبد المحسن العسكر ، مكتبة دار المنهاج – الرياض ، ط ١ (١٤٢٥هـ).

٩– **الاقتباس من القرآن** : أبو منصور الثعالبي ، تحقيق . د إبتسام الصفار ، ود . مجاهد مصطفى بهجت . دار الوفاء – مصر . ط ١ (١٤١٢هـ).

١٠– **أنوار الربيع في أنواع البديع** : ابن معصوم المدني . تحقيق . شاكر هادي شاكر . ط ١ (١٣٨٨هـ / ١٩٦٨).

١١– **الإيضاح في علوم البلاغة** : الخطيب القزويني ، شرح وتعليق د . محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتاب اللبناني – لبنان . ط٦ (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م).

١٢– **تاج العروس من جواهر القاموس** : الزبيدي . تحقيق . إبراهيم الترزي ، دار إحياء التراث

العربي – لبنان . (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) .

١٣- **التفاعل النصي (التناصية : النظرية والمنهج)** : نهلة فيصل الأحمد ، كتاب الرياض (العدد ١٠٤ – يوليو ٢٠٠٢م) ، مؤسسة اليمامة الصحفية ١٤٢٣هـ .

١٤- **تفسير أبي السعود (المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم** : للإمام أبي السعود ، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

١٥- **التلخيص في علوم البلاغة** : الخطيب القزويني : ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي ،دار الكتاب العربي – لبنان

١٦- **التناص في شعر الرواد** : د . أحمد ناهم ، دار الآفاق العربية – القاهرة ، ط ١ (١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م) .

١٧- **الجامع لأحكام القرآن** : القرطبي ، اعتنى به وصححه الشيخ هشام البخاري ، دار عالم الكتب – الرياض ، (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م) .

١٨- **خصائص القصة الإسلامية** : د . مأمون فريز جرار ، دار المنارة – جدة ، (١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) .

١٩- شرح ديوان أبي تمام : الخطيب التبريزي ، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر ، دار الكتاب العربي –لبنان ، (١٤٢٥ه / ٢٠٠٥م) .

٢٠ – **شرح مشكلات ديوان أبي تمام** : المرزوقي ، تحقيق د . عبد الله بن سليمان الجربوع ، مكتبة التراث – مكة المكرمة ، ط١ (١٤٠٧هـ /١٩٨٦م) .

٢١- **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح** : بهاء الدين السبكي ، تحقيق د . خليل إبراهيم خليل ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط ١ (١٤٢٢هـ /٢٠٠١م) .

٢٢ – **على هامش الأدب والنقد** : علي أدهم ، دار المعارف – مصر ، ١٩٧٩م .

٢٣ – **علم البديع (دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع)** : د . بسيوني فيّود ، مؤسسة المختار – القاهرة ، ط ٣ (١٤١٨هـ / ١٩٩٨م) .

٢٤ – **الفن والصنعة في شعر أبي تمام** : د . محمود الربداوي ، المكتب الإسلامي ، الشركة المتحدة للتوزيع – بيروت ، (١٣٩١هـ / ١٩٧١) .

٢٥ – **القاموس المحيط** : الفيروز أبادي ، دار الكتاب العربي – لبنان .

٢٦ – **القصة بين التراث والمعاصرة**: د . طه عمران وادي ، نادي القصيم الأدبي ، ط ١ (١٤٢١هـ) .

٢٧ – **قصص الأنبياء** : ابن كثير ، تحقيق عبد المجيد طعمة حلبي ، دار المعرفة – لبنان ، ط ٦

(١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م).

٢٨ – **الكشاف** : الزمخشري ، رتبه وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية – لبنان ، ط٤ (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م).

٢٩ – **لسان العرب** : ابن منظور، دار بيروت – لبنان ، (١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م).

٣٠ – مجمل اللغة : أحمد بن فارس ، تحقيق . زهير عبد المحسن ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط١ (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).

٣١ – **معجم مقاييس اللغة** : أحمد بن فارس ، تحقيق . عبد السلام هارون ، دار الجيل – لبنان .

٣٢– **نظرات في أحسن القصص** : د . محمد السيد الوكيل ، الدار الشامية – بيروت ، ودار القلم – دمشق ، ط١ (١٤١٥ه / ١٩٩٤م).

٣٣– **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز** : فخر الدين الرازي ، تحقيق د . بكر شيخ أمين ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط١ (١٩٨٥م).

٣٤– وجه **الشعر (قراءة في مآخذ النقاد على معاني أبي تمام)** : د . عبد الله الوشمي ، مكتبة الرشد – الرياض ، ط١ (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م).

* * *

صورة الحجاج في شعر معاصريه

د. ليلى بنت محمد بن عبدالرحمن الدخيل
قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب
جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

صورة الحجاج في شعر معاصريه

د. ليلى بنت محمد بن عبدالرحمن الدخيل
قسم اللغة العربية
كلية الآداب
جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

ملخص البحث:

شخصية الحجاج بن يوسف الثقفي شخصية شغلت المؤرخين كثيرا فسودوا عنها صفحات وصفحات، راوين ومحللين ومقومين، ولفت نظري أن هذه الشخصية شغلت المؤرخين وشغلت الشعراء معا، فصيغ حولها كثير من الشعر قريب من ألف بيت – فيما اطلعت عليه من مصادر – شارك في صياغته كبار شعراء العصر الأموي وفي مقدمتهم قطبا الشعر الأموي جرير والفرزدق إلى جانب شعراء العصر الكبار كالأخطل وليلى الأخيلية وأعشى همدان، ومثل هذا الكم الكبير من الشعر يستحق أن يأخذ حقه من الدرس والتحليل والنقد.كان افتتاح البحث بتمهيد مختصر عن سيرة الحجاج؛ لأن حياة الحجاج وأفعاله هي التي ألهمت الشعراء أبياتهم ودفعتهم لسبك شعرهم، ثم جرى الحديث عن المتن الشعري حول الحجاج من حيث السعة والضيق وطول نصوصها وقصرها وتوزعها على شعراء عصره، ولتيسير دراسة الشعر قسم الشعر قسمين:القسم الأول الصورة الإيجابية، والقسم الثاني الصورة السلبية، وبدئ بدراسة الصورة الإيجابية لأنها أكبر، ثم عرضت الصورتين الإيجابية والسلبية على كتب التاريخ لتلمس أوجه التشابه والاختلاف بينهما، فكانت النتيجة النهائية التي وصل إليها البحث هي أن الكفة الإيجابية رجحت كثيرا في ميزان الشعراء بينما رجحت كفة الصورة السلبية في ميزان المؤرخين.

تمهيد عن حياة الحجاج:

هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن مُعتّب[1] بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف[2]. وأمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي[3]، وعروة بن مسعود هو الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف/٣١)، لذلك كان الحجاج يلقب بابن عظيم القريتين[4]. ولد في منازل قبيلته ثقيف في الطائف[5]. واختلف في تاريخ ميلاده فقيل سنة تسع وثلاثين وقيل سنة أربعين وقيل سنة إحدى وأربعين[6]، والراجح عند المؤرخين أنه ولد سنة إحدى وأربعين[7]. وكان والده معلماً للصبيان في الطائف، فنشأ كوالده معلماً في أول حياته[8].

ولم تكن نفس الحجاج الطموح لترضى بالعيش في تلك البلاد البعيدة عن صخب الحياة السياسية، فانتقل إلى دمشق حيث انضم إلى عسكر روح بن زنباع (ت ٨٤هـ)، ثم سار مع عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ) حينما توجه لقتال مصعب بن الزبير (ت

---

(١) ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب: جمهرة النسب، تحقيق: ناجي حسن (بيروت، عالم الكتب، ومكتبة النهضة، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م) ص ٣٨٨.

(٢) انظر: ابن الكلبي، جمهرة النسب ص ٣٨٦.

(٣) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: أنساب الأشراف، تحقيق: محمد الفردوس العظم (دمشق، دار اليقظة العربية، ٢٠٠٠م) ٣٣٠/١٢.

(٤) انظر: المبرد، أبا العباس محمد بن يزيد: الكامل، تحقيق: زكي مبارك (القاهرة، مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م) ٤٤٨/٢.

(٥) انظر: البكري، أبا عبيد عبد الله بن عبد العزيز: معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفى السقا (بيروت، عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م) ٨٨٦/٣ مادة (الطائف).

(٦) انظر ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي: البداية والنهاية (بيروت، مكتبة المعارف) ١١٩/٩.

(٧) انظر: أبا حنيفة، أحمد بن داود الدينوري: الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة: جمال الدين الشيال (بيروت، دار المسيرة) ص٢٨٢. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر: تاريخ اليعقوبي (بيروت، دار بيروت، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م) ص٢٩٠، المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن بن علي: مروج الذهب تحقيق: محيي الدين عبد الحميد (بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م) ١٥٣/٢، حيث أجمعوا أنه توفي سنة ٩٥هـ وله من العمر ٥٤ سنة فيكون مولده سنة ٤١هـ.

٨) انظر: الجاحظ: أبا عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون (بيروت، دار الفكر، ط٤) ٢٥١/١.

٧٢هـ) في العراق[1].

وبدأ ظهور الحجاج تاريخياً منذ وجهه عبد الملك بن مروان من العراق إلى أهل مكة لقتال عبد الله بن الزبير (ت ٧٣ هـ) سنة اثنتين وسبعين هجرية فأتم المهمة كما أرادها عبد الملك بن مروان، وقضى على ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين للهجرة[2]. ومنذ ذلك التاريخ والحجاج يزداد مكانة عند الخلافة الأموية إذ كافأه عبد الملك بن مروان بتوليته مكة واليمن واليمامة سنة ثلاث وسبعين هجرية ثم ضم إليه المدينة سنة أربع وسبعين هجرية[3].

ولم تكن الحجاز وتوابعها على أهميتها الدينية لترضي غرور الحجاج فقد كان يطمح بنظره إلى أجزاء أهم من الدولة الإسلامية تسمح له بإظهار قدراته السياسية ويبرهن من خلالها على إخلاصه التام للخلافة الأموية، وتم له ما تمني فجمع له عبد الملك بن مروان العراقين (البصرة والكوفة) سنة خمس وسبعين للهجرة[4].

وبمجرد أن تولى الحجاج العراق أخذ على عاتقه نشر الطاعة التامة للخلافة في بؤرة التمرد على الحكم الأموي (العراق)، فكانت قصة دخوله للكوفة وخطبته الشهيرة في مسجدها الجامع[5] وما تمثل فيها من الشعر مضرب المثل في العنف والشدة، ثم بدأ من فوره بردع أهل العراق الفارين عن جيش المهلب بن أبي صفرة (ت ٨٢هـ) فأخذ في التوعد والإنذار حتى بث الرعب في قلوبهم فطاروا إلى المهلب سراعاً حتى شهد له المهلب دون أن يعرفه حينذاك فقال: " قدم العراق اليوم رجل ذكر، اليوم قوتل العدو"[6].

ولقد ظل الخوارج هم شغل الحجاج الشاغل في بداية ولايته حتى تمكن من القضاء

---

(١) انظر: أبا العرب: محمد بن أحمد التميمي: كتاب المحن، تحقيق: يحيى الجبوري (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١٤٠٣١هـ - ١٩٨٣م) ص١٨٣.

(٢) انظر:خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري (بيروت، دار القلم، ومؤسسة الرسالة، ط٢، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م) ٢/ ٢٦٨، ٢٦٩.

(٣) انظر: الطبري: أبا جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك (بيروت، دار القاموس الحديث) ٧/ ٢٠٦.

(٤) انظر: الطبري: تاريخ الطبري ٨/ ٢١.

(٥) انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ٢/ ٣٧ و ٣٠٨، و المبرد: الكامل ١/ ٣٣٣.

(٦) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧/ ٢١٢، ٢١٣.

عليهم سنة ثمان وسبعين للهجرة، فأجزل له عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) المكافأة، إذ ضم له خراسان وسجستان[1]. فأصبح الحجاج يلي شطر الدولة الأموية الشرقي، الشطر الأكثر خطورة وتمرداً.

ولم تكد الأمور تهدأ عند الحجاج قليلاً حتى قامت أكبر ثورة في تاريخ العراق، الثورة التي كادت أن تقصي الحجاج عن إمارته، ثورة ابن الأشعث (ت ٨٣هـ) سنة إحدى وثمانين للهجرة، تلك الثورة التي انضم إليها معظم أهل العراق من العرب والموالي. ومما زاد خطورتها انضمام القراء والفقهاء إلى صفوفها مما شق على الحجاج كثيراً. وكان بين الحجاج وابن الأشعث وقائع كثيرة انتهت بهزيمة ابن الأشعث وفراره إلي رتبيل ثم وفاته عام ثلاثة وثمانين هجرية[2].

وبقضاء الحجاج على ثورة ابن الأشعث سنة ثلاث وثمانين هجرية ومن قبلها على حركات الخوارج هدأت الأمور كثيراً في المشرق الإسلامي، فجعل الحجاج همه توسيع رقعة الدولة الإسلامية، فانصرف إلى الفتوحات الخارجية على أيدي قواده المشاهير من أمثال قتيبة بن مسلم (ت ٩٦هـ)، ومحمد بن القاسم (ت نحو ٩٨هـ) ويزيد بن المهلب بن أبي صفرة (ت ١٠٢هـ)[3]. ووصلت الفتوحات في عهده إلى ما وراء نهر السند[4].

ورغم صخب الحرب وقلاقل السياسة لم يهمل الحجاج الإصلاحات الداخلية في ولايته، فهو من الأمراء القلائل الذين عرف عنهم تفقد أحوال رعيتهم بأنفسهم[5]، وبنى مدينة "واسط" أول مدينة في الإسلام بعد عهد الصحابة[6]. وأحل اللغة العربية محل اللغات الأخرى في أمور الدولة فنقل الدواوين إلى اللغة العربية[7]، وضرب الدراهم والدنانير

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢٨٠/٧.

(٢) انظر: خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط ٢٨٠/٢ - ٢٨٩، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢٧٧/٢ - ٢٧٩، الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/٨ - ٤٠.

(٣) انظر: خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط ٣٠٤/٢ - ٣٠٥.

(٤) انظر: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ص٢٨٩.

(٥) انظر: الثعلبي، محمد بن الحارث: التاج في أخلاق الملوك، المنسوب خطأ للجاحظ (بيروت، دار الفكر، ودار البحار، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م) ص٢٧٩.

(٦) انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان (بيروت، دار صادر) ٣٥٠/٥ مادة (واسط).

(٧) انظر: الجهشياري: أبا عبد الله محمد بن عبدوس: الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط١، ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م) ص٣٨.

بها[1]. وطالت إصلاحاته وسائل النقل فكان أول من عمل المحامل وأول من أجرى السفن المقيرة المسمرة[2].

وقد حصل الحجاج على رضا الخلافة الأموية ومباركتها لكل ما يعمل حتى إن عبد الملك بن مروان سمى أحد أبنائه "الحجاج"[3] وزوج ابنه يزيد (ت ١٠٥هـ) بابنة محمد بن يوسف أخي الحجاج[4]، وظل راضياً عنه حتى ساعة وفاته، فقال في وصاته لأبنائه: "أكرموا الحجاج، فإنه الذي وطأ لكم المنابر، وكفاكم قحم تلك القناطر"[5]، وقال لولي عهده: الوليد (ت ٩٦هـ) "وأما الحجاج فأنت أحوج إليه منه إليك"[6]، وفعلاً أكرمه الوليد حتى قال عنه بعد توليته الخلافة: "إن أمير المؤمنين - يعني عبد الملك - كان يقول: إن الحجاج جلدة ما بين عيني، ألا وإنه جلدة وجهي كله"[7].

وكما برزت سمات الحجاج السياسية منذ توليه العراق برز له حينذاك صفة أخرى أزعم أنها لا تقل عن قدرته السياسية، وهي قدرته البلاغية العالية التي مكنته منذ أول خطبة ألقاها في الكوفة من نشر الرعب في قلوب الناس وإرغامهم على الانصياع له، ومازالت الأبيات التي استشهد بها في خطبته تدور على ألسنة الناس عامتهم وخاصتهم إلى يومنا هذا. ومنذ تلك الخطبة وفصاحة الحجاج تصقل وتتجلى في أبهى صورها من خطب ورسائل وردود، والحجاج يحسن استغلالها في إشعال الحماسة في نفوس أعوانه ونشر الرعب في قلوب أعدائه والاحتجاج على خصومه وتبرئة ساحة أنصاره، وقد دعم بلاغته تلك بمحفوظات كبيرة من الشعر والأمثال العربية، فكانت استشهاداته أشبه بسياط من نار في خطب كالحمم.

---

(١) انظر: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢/٢٨١.

(٢) انظر: الجاحظ: أبا عثمان عمرو بن بحر: الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون (بيروت، دار إحياء التراث العربي) ٨١/١، والجاحظ: البيان التبيين ٢/٢٠٣.

(٣) انظر: ابن سعد: محمد بن سعد: الطبقات الكبرى (بيروت، دار بيروت، ودار صادر، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م) ٥٢٤/٢.

(٤) انظر: ابن الكلبي: جمهرة النسب، ص١٢٨.

(٥) المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد: التعازي والمراثي، تحقيق: محمد الديباجي (دمشق، مطبعة زيد بن ثابت، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م)، ص١٢٣

(٦) الجاحظ: البيان والتبيين ٣/٢٢٥.

(٧) الجاحظ: البيان والتبيين ٢/٢٠٧.

هذا بالإضافة إلى ثقافة الحجاج الدينية، فقد كان حافظاً للقرآن[1]، وعده ابن حبيب (ت ٢٤٥هـ) من أشراف المعلمين وفقهائهم[2]، وهو أحد رواة الحديث[3]، روى الحديث عن سمرة بن جندب (ت ٦٠هـ)، وعبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ)، وأنس بن مالك (ت ٩٣هـ)، وغيرهم، وروى عنه أنس بن مالك (ت ٩٣هـ)، وقتيبة بن مسلم (ت ٩٦هـ)، ومالك بن دينار (ت ١٣١هـ)، وغيرهم[4].

توفي الحجاج بواسط سنة خمس وتسعين باتفاق معظم المؤرخين وله من العمر أربع وخمسون سنة على الأرجح، وكانت إمرته على العراق عشرين سنة[5].

المتن الشعري حول الحجاج:

الشعر ديوان العرب، والسبيل الأيسر للتعبير عن مشاعرهم، وفي بيئة اجتمعت فيها مقومات الشعر حيث العرب الأقحاح في العراق، ومحبة للشعر لا توصف أثمرت سوق المربد الشعري، ووجود شعراء أفذاذ أمثال الفرزدق (ت ١١٠هـ)، وجرير (ت ١١١هـ) ونقدة للشعر ومتذوقين أمثال عبد الله بن أبي إسحاق (ت ١١٧هـ) وأبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) وقبل هذا كله وجود عامل حافز لصوغ الشعر ومحرك للقرائح ألا وهو "الحجاج بن يوسف الثقفي" فتفجرت الألسن بصوغ الشعر إما عن رضا ومحبة، أو كراهية وغضب، أو عن تملق وتودد، وتفجرت معها مواقف الطرف الآخر "الحجاج" الراضية أو الغاضبة أو المتسامحة مما زاد من سرعة دوران الرحى وزاد ما تنتجه من قصائد وأبيات معبرة عن تلك المواقف

وفي محاولة لوصف المنظومة الشعرية حول الحجاج، فإنه يتقدمها قطبا العصر الأموي وشاعرا النقائض المشهوران الفرزدق وجرير اللذان أفردا للحجاج كثيراً من القصائد

---

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١١٩.

(٢) انظر: ابن حبيب، أبا جعفر محمد بن حبيب الهاشمي البغدادي: المحبر، تحقيق: إيلزه ليختن شتيتر (بيروت، دار الآفاق الجديدة) ص٤٧٥.

(٣) انظر: البخاري: محمد بن إسماعيل: التاريخ الكبير، طبع تحت مراقبة: عبد المعين خان (المكتبة الإسلامية، تركيا) قسم ٢ جـ١ ص٣٧٣.

(٤) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١١٧.

(٥) انظر: أبا حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٢٩، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ص٢٩٠، المسعودي: مروج الذهب ٢/ ١٥٣.

والمقطعات، وتحدثا عنه في قصائد ومقطعات أخرى.

وديوان الفرزدق يحتوي على قصائد ومقطعات أكثر من ديوان جرير سواء من حيث عدد القصائد أو من حيث عدد الأبيات مجموعة أم من حيث تنوع موضوعات القصائد.

ففي باب المديح أفرد الفرزدق للحجاج عشر قصائد ومقطعات بلغ عدد أبياتها مائة وتسعة وستين بيتاً[١]. علاوة على مقطوعة افتتحها الشاعر ببيت في مدح الحجاج[٢].

أما موضوع الرثاء فقد نظم الفرزدق في عزاء الحجاج عن المحمدين أخيه وابنه (ت ٩١هـ) قصيدة ومقطوعتين بلغ عدد أبياتها واحداً وأربعين بيتاً[٣]. وللفرزدق في رثاء الحجاج بن يوسف نفسه قصيدة واحدة ومقطوعة بلغ عدد أبياتهما خمسة وعشرين بيتاً[٤].

أما موضوع الهجاء فقد جاء كل هجاء للحجاج في معرض مديح الفرزدق لسليمان ابن عبد الملك (ت ٩٩هـ) الذي حاول الحجاج سلبه الخلافة[٥]، وله في هجائه بيت واحد في معرض قصيدة طويلة في مدح سليمان بن عبد الملك في حياة الحجاج[٦]، أما بعد وفاة الحجاج فقد هجاه الفرزدق في معرض قصيدتين في مديح سليمان بن عبد الملك بلغ عدد أبيات الهجاء فيهما ثلاثة وعشرين بيتاً[٧].

أما جرير الذي عرفه عبد الملك بن مروان حين قدم إليه بـ "مادح الحجاج وشاعره"[٨]، فإن له قدحاً معلى وقصباً سابقاً في مدح الحجاج جعل عبد الملك بن مروان يطلب منه

---

(١) انظر: الفرزدق، همام بن غالب: شرح ديوان الفرزدق، تحقيق: عبد الله الصاوي (القاهرة، مطبعة الصاوي)١/٨٩، ١٣٧، ٢٩٤، ٢/٤٣٥، ٥١٥، ٥٧٠، ٥٩٣، ٦٧٢، ٦٩٤، انظر: الصولي، أبا بكر محمد بن يحيى: أخبار أبي تمام، تحقيق: محمد عبده عزام، خليل محمود عساكر، نظير الإسلام الهندي (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٣، ١٤٠٠هـ-١٩٨١م) ص٢٠.

(٢) انظر: شرح ديوان الفرزدق ١/١٩٨.

(٣) انظر: شرح ديوان الفرزدق ١/١٩٠، ٢/٤٩٤. وانظر: المبرد: الكامل ٢/٤٤٩، التعازي والمراثي ص ٢٠٣.

(٤) انظر: شرح ديوان الفرزدق ١/٣٦٥، ٢/٥٢٩.

(٥) انظر: أبا عبيدة، معمر بن المثنى: نقائض جرير والفرزدق (ليدن، بريل، ١٩٠٨م- ١٩٠٩م) ١/٣٥٣.

(٦) انظر: شرح ديوان الفرزدق ١/١٩.

(٧) انظر: شرح ديوان الفرزدق ٢/٦١٨ و٨٥١.

(٨) انظر: الثعلبي: التاج أخلاق الملوك ص٢٣٢.

أن ينشده مدائحه في الحجاج قبل أن يأذن له في إنشاده مديحه فيه[1]، فجرير قد أفرد خمس قصائد لمدح الحجاج بلغ مجموع أبياتها مائة وثلاثين بيتاً[2]، بالإضافة إلى قصيدتين تطرق فيهما لمدح الحجاج وإن لم يكن الحجاج موضوعهما الرئيس وهما من شعر النقائض بلغ مجموع أبيات مديح الحجاج فيهما سبعة أبيات[3].

فهذان الشاعران استوليا على القطاع الأكبر من مساحة الشعر الذي قيل في الحجاج، ثم يأتي خضم الشعر دفاقاً من كثير من الشعراء وفي مختلف الموضوعات. وقد يكون على رأس هؤلاء الشعراء من ناحية الشهرة القطب الثالث في مثلث الشعر الأموي الأخطل (ت ٩٠هـ) الذي لم يمنعه بعده عن الحجاج واستحواذه على إعجاب الخليفة الأموي من مواصلة الحجاج ومدحه بقصيدة بعث بها مع ابنه إلى العراق[4]، وهي مكونة من خمسة عشر بيتاً[5].

وكان للرجز أيضا دوره فيما قيل حول الحجاج من شعر فهذا أبو الرجز العجاج (ت ٩٠هـ) يطيل المديح للحجاج بأرجوزتين بلغ عدد أبياتها مائة وواحداً وخمسين بيتاً[6]، ولأبي النجم العجلي (ت ١٣٠هـ) أرجوزة في مدح الحجاج بقي منها ثلاثة أبيات رجزية[7].

ولأعشى همدان (ت ٨٣هـ) ثلاث قصائد في الحجاج، اثنتان منها في هجاء الحجاج تتكونان من تسعة وعشرين بيتاً بالإضافة إلى افتتاحه قصيدة ببيتين في هجاء

---

(١) انظر: الثعلبي: التاج في أخلاق الملوك ص٢٣٤.

(٢) انظر: جرير بن عطية بن الخطفى: ديوان جرير، تحقيق: نعمان محمد أمين طه (القاهرة، دار المعارف، ط٣) ١/١٣٦، ٢٤٣، ٣٧٢، ٣٩٩، ٢/٧٢٧.

(٣) انظر: ديوان جرير ٢/٨٥٢، ٨٨٠.

(٤) انظر: أبا الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين: الأغاني، تحقيق: لجنة من الأدباء (بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٣م) ٨/٢٩٠.

(٥) انظر: الأخطل، أبا مالك غياث بن غوث التغلبي: شعر الأخطل، صنعة: السكري رواية عن ابن حبيب، تحقيق فخر الدين قباوة (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، ١/٣٩٩.

(٦) العجاج، عبد الله بن رؤبة: ديوان العجاج، رواية الأصمعي وشرحه، تحقيق: عزة حسن (بيروت، حلب، دار الشرق العربي، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م) ص ١٢٨ و٣٥٢.

(٧) انظر: أبا النجم العجلي، الفضل بن قدامة، ديوان أبي النجم العجلي، تحقيق: علاء الدين آغا (الرياض، النادي الأدبي، ١٤٠١هـ-١٩٨١م) ص٩٣.

الحجاج[1]، وله قصيدة واحدة في مديح الحجاج بلغ عدد أبياتها ثلاثة وعشرين بيتاً[2].

ومن الشعراء الذين تحدثوا عن الحجاج في دواوينهم، وإن كانوا أقل من السابقين الشاعرة المشهورة ليلى الأخيلية (ت ٨٠هـ) التي قدمت على الحجاج ومدحته بثلاث مقطعات بلغ عدد أبياتها خمسة عشر بيتاً[3]. وعبد الله بن الزَّبير الأسدي (ت نحو ٧٥هـ) له مقطوعتان في الحجاج بلغ عدد أبياتها أحد عشر بيتاً[4]. وأخيراً الحارث بن خالد المخزومي (ت نحو ٨٠هـ) الذي هجا الحجاج بمقطوعة تتكون من ثلاثة أبيات[5].

أما خارج نطاق دواوين الشعراء فقد تناثرت مقطعات كثيرة بين طويلة وقصيرة تحدثت عن الحجاج إما سلباً وإما إيجابياً، وقد بلغ عدد أبياتها . فيما اطلعت عليه من مصادر . ثلاثمائة وعشرين بيتاً توزعتها تسع وسبعون مقطوعة لثلاثة وستين شاعراً. فإذا أضفنا عدد هذه الأبيات لأبيات الدواوين التي تحدثت عن الحجاج يكون مجموع الشعر الذي دار حول الحجاج تسع مائة وتسعة وسبعين بيتاً، منها سبعمائة وسبعة وأربعون بيتاً ترسم صورته الإيجابية ومئتان واثنان وثلاثون بيتا تصور الجانب السلبي في هذه الشخصية كما يراها قائلوها من الشعراء.

وهناك شعر أكثر دار حول الحجاج إلا أنه ضاع، تدل على ذلك إشارات وردت في كتب التراث مثل شعر علي بن ثابت بن قيس الأنصاري في رثاء محمد بن الحجاج (ت ٩١هـ)، وقد علق الحجاج على الشعر بقوله: "مرثيتك في ابنك أجود"[6]، لكن لا يوجد لأبياتها أثر فيما اطلعت عليه من مصادر. ومما يدل على ضياع بعض الشعر الذي قيل في الحجاج ما أورده ابن أعثم (ت ٣١٤هـ) في فتوحه في أثناء حديثه عن غضب جند المهلب

---

(١) انظر: أعشى همدان: عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، ديوان أعشى همدان وأخباره، تحقيق: حسن أبو ياسين (الرياض، دار العلوم، ط١، ١٤٠٣هـ. ١٩٨٣م) ص٧٣، ١١٢، ١٦٣.

(٢) انظر: ديوان أعشي همدان وأخباره ص١٠١.

(٣) انظر: ليلى الأخيلية، ليلى بنت عبد الله بن الرحال: ديوان ليلى الأخيلية، تحقيق: خليل العطية، وجليل العطية، (بغداد، دار الجمهورية، ط٢، ١٩٧٧م) ص٦٣، ١١٦، ١٢٠.

(٤) انظر: عبد الله بن الزَّبير الأسدي: شعر عبد الله بن الزبير، جمع وتحقيق: يحيى الجبوري (بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٣٩٤هـ. ١٩٧٤م) ص٥٢، ٥٣.

(٥) انظر: الحارث بن خالد المخزومي: شعر الحارث بن خالد، تحقيق: يحيى الجبوري (النجف، مطبعة النعمان ط١، ١٣٩٢هـ. ١٩٧٢م) ص ٤٦ . ٤٧.

(٦) انظر: المبرد: التعازي والمراثي ص٢٠٢ . ٢٠٣.

بن أبي صفرة من اتهامات الحجاج له، قال: "فأنشأ المغيرة بن حبناء التميمي (ت ٩١هـ) يقول في ذلك أبياتاً مطلعها:

ليتَ شِعْري وَللأمورِ قَرَارٌ ... هلْ بلغْنَا مدى رِضا الحجاج

إلى آخرها"[١]، ولم أجد لبقيتها ذكرا. فيما اطلعت عليه من مصادر.. وقد يكون هناك شعر أكثر ضاع لكن لم تبق حتى إشارات تدل عليه، وفيما بقي من الشعر كفاية للباحث لتلمس أهم سمات صورة الحجاج في شعر معاصريه.

وعلى الرغم من كثرة الشعر الذي قيل في الحجاج، فإن هناك أمرين يجب الوقوف عليهما حول هذا الشعر، أولهما أنه على رغم كثرة أبيات المديح في الحجاج، فإن المصادر توحي أن الحجاج ليس بالشخص الذي يجمع الشعراء حوله ويصطنعهم، ففي أول قدومه العراق أميراً منع الشعراء من الدخول إليه، وحجب عنهم عطاءه، حتى وجهه عبد الملك بن مروان إلى خلاف ذلك، ففتح لهم أبوابه[٢]، ولكنه لم يحرص على مديحهم أو يشتريه، فالمساور بن هند (ت نحو ٧٥هـ). الذي عقد الرسول صلي الله عليه وسلم لوالده على رياسة غطفان. لما قدم على الحجاج لم يسأله الحجاج مدحه، ونعى عليه قول الشعر واستنكره[٣]. وليلى الأخيلية. وهي شاعرة معروفة. لما قدمت على الحجاج مادحة بقصيدتها المشهورة التي أدهشت الحجاج، كره الحجاج أن تتمادى في مديحه، فقال: "حسبك!"، قالت: "إني قد قلت أكثر من هذا". قال: "حسبك! ويحك حسبك!"، ثم أمر بجائزتها فوراً[٤] كأنما يمنعها من الاستمرار في المديح. وقد يكون شعر المديح اختباراً للولاء عند الحجاج كما صنع حين أراد أن يولي يزيد بن الحكم (ت نحو ١٠٥هـ) كورة فارس فقال له: "أنشدني بعض شعرك" علق على هذا صاحب الأغاني:

---

(١) انظر: ابن عثم، أبا محمد أحمد الكوفي، كتاب الفتوح (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ. ١٩٨٦م) ٢١،٢٠/٧.

(٢) انظر: ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد: التذكرة الحمدونية، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، (بيروت، دار صادر، ط١، ١٩٩٦م) ١٠٩/٢.

(٣) انظر: النهشلي: أبا محمد عبد الكريم بن إبراهيم: اختيار الممتع في علم الشعر وعمله، تحقيق: محمود شاكر القطان (القاهرة، دار المعارف، ط١ ١٩٨٣م) ص٨١ ـ ٨٢.

(٤) انظر: أبا علي القالي، إسماعيل بن القاسم: الأمالي، مراجعة: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ. ١٩٨٠م) ٨٧/١.

"وإنما أراد أن ينشده مديحاً له". فانطلق يزيد بن الحكم ينشد قصيدة في الفخر بآبائه وأجداده مما أغضب الحجاج عليه. فالحجاج يعرف قيمة الشعر عند العربي، ولا يخرج عما تعارف عليه الناس خاصة في بيئة يعلو فيها صوت الشعر كثيراً حتى إنه وجه أحد عماله، واسمه شجرة، فقال: يا شجرة، إذا أتاك أمرؤ ذو حسب ولسان فاشتر عرضك منه"[1]. لذلك أعطى الحجاج الشعراء الذين مدحوه و إن لم يكن حريصاً على مديحهم. ومسايرة من الحجاج لطبيعة البيئة التي يعيش فيها والتي تحسب للشعر ألف حساب، كان الحجاج يرحب بهجاء أعدائه أكثر من ترحيبه بمديح مادحيه كما رحب بهجاء عبيد بن موهب للحارث بن خالد المخزومي[2]، وكما أمر الفرزدق أن يهجو عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة فأفحش عليه[3]، وكان يستمتع بترديد أبيات حميد الأرقط في ابن الأشعث ويوازن بينها وبين أبيات أعشى همدان في هجائه مفضلاً الأولى على الأخرى[4].

والأمر الآخر، أن الحجاج رجل فصيح مشهود له بالفصاحة حتى قال فيه أبو عمرو بن العلاء: "لم أر قَرَوِيَّيْن أفصح من الحسن (ت ١١٠هـ) والحجاج"[5]. وكذلك قال عنه رؤبة بن العجاج[6] (ت ١٤٥هـ). وتمخضت فصاحته عن علو شأنه في الخطابة حتى عُدَّ ثالث الخطباء في عصره، بل قُدّم على عبد الملك بن مروان، نفسه في مجلس عبد الملك بن مروان[7]. حتى قال مالك بن دينار (ت ١٣١هـ) ـ وهو من المعادين للحجاج ـ: " ربما سمعت الحجاج يخطب، يذكر ما صنع له أهل العراق وما صنع بهم فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق لبيانه وحسن تخلصه بالحجج"[8]. وقد دعم هذه الفصاحة عقل ذكي وفطنة كبيرة، فعتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث وكان من ذوي الرأي والدهاء[9].

---

(١) انظر: أبا الفرح الأصفهاني: الأغاني ١٢/ ٢٩٠-٢٩١.

(٢) انظر: أبا الفرج الأصفهاني: الأغاني ١١/ ٣٢٩- ٣٣٠.

(٣) انظر: الجاحظ، أبا عثمان عمرو بن بحر: كتاب البغال، ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٤هـ. ١٩٦٥م) ٢/ ٢١٦.

(٤) انظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٤١.

(٥) الجاحظ: البيان والتبيين ٢/ ١٦٣.

(٦) انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ٢/ ٢١٩.

(٧) انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ١/ ٣٤٦.

(٨) انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ١/ ٣٩٤.

(٩) انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ١/ ٣١٩.

قال عن الحجاج: "ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض إلا ما كان من الحجاج بن يوسف وإياس بن معاوية (ت ١٢٢هـ) فإن عقولهما ترجح على عقول الناس جميعاً"[١]. وهو يجمع إلي ذلك علماً بالشعر وحفظاً له يتضح من خلال استشهاداته المصيبة، فلا تكاد خطبة له مهما قصرت تخلو من استشهادات شعرية مناسبة، ويكفي شاهداً على ذلك استشهاداته في خطبته الشهيرة حينما وصل الكوفة، والتي أصبحت بعض أبيات الاستشهاد فيها مضرب المثل عند العامة والخاصة. وهذا كله يقود إلى مستوى الشعر الذي قيل أمام الحجاج، فهو قد قيل أمام أمير قوي فصيح نبيه عالم بالشعر ليس بالحريص على المدح، لذلك فالحجاج لا ينخدع بالمديح ولا يغريه تتابع الصفات له أو على أعدائه، فحين أنشد أعشى همدان مدحته فيه وهجاءه لابن الأشعث أجمع من في مجلسه على أنه أحسن فيها، فقال الحجاج: لا لم يحسن، وبين أنه أراد بها التأسف على ظهوره ـ أي الحجاج ـ وتحريض قومه عليه[٢].

وكان الحجاج حريصاً على مستوى الشعر الذي يقال فيه، ينقده بمجرد أن يقال أمامه، فجرير عند ما أنشد الحجاج مادحاً[٣]:

قُلْ لِلْجَبَانِ إذا تأخرَ سَرْجُهُ   هلْ أنتَ مِن شَرَكِ المنيةِ نَاجِ.

قال له الحجاج: "جرأت عليّ الناس يا ابن اللخناء". قال جرير معتذراً: "والله ما ألقيت لها بالا أيها الأمير إلا وقتي هذا"[٤]. فالشاعر لم يتنبه إلى ما تعود عليه أبياته من معان لكن الحجاج تنبه لها مباشرة. والفرزدق لما قال[٥]:

وَمَنْ يَأمَنِ الحجاجَ والطَّيرُ تَتَّقي   عُقُوبتَهُ إلا ضعيفٌ عزائمُه

قال له الحجاج: "ما عملت شيئاً إن الطير تنفر من الصبي والخشبة"[٦]، فأبدلت بعد ذلك

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ٩٩/١-١٠٠، وانظر: ٢٧٥/١.

(٢) انظر: أبا الفرج الأصفهاني: الأغاني ٦/٦٠.

(٣) ديوان جرير ١٣٧/١.

(٤) انظر: ابن عبد ربه: أحمد بن محمد الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان (القاهرة، دار الفكر) ٧٦/١.

(٥) شرح ديوان الفرزدق ٧٦٣/٢.

(٦) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: الصناعتين، تحقيق: على محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة، مطبعة عسى البابي الحلبي وشركاه، ط٢) ص١٠٧.

بـ " الجن" كما في الديوان، وليلى الأخيلية لما أنشدته قولها[1]:

شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ العُضَالِ الذي بِهَا　　　غُلامٌ إذا هَزَّ القناةَ سَقَاهَا

قال الحجاج موجهاً: "لا تقولي غلام، قولي: همام"[2].

وبالمقابل يثني الحجاج على الشعر الجيد الذي يقال أمامه، فلما رثى الفرزدق محمد بن يوسف، ومحمد بن الحجاج، قال له الحجاج في البداية، إذ لم يجد ما يعزيه في شعره: "لو زدتني". فلما زاده قال الحجاج موضحاً قصور هذا الشعر في التعبير عن مكنون نفسه قال: "ما صنعت شيئاً إنما زدت في حزني" فلما زاده ما أشفى غليله، اعترف الحجاج بتفوق هذا الشعر فقال:"الآن"[3]، ولما قالت ليلى الأخيلية[4]:

إِذَا سَمِعَ الحجاجُ رِزَّ كتيبةٍ　　　أعدَّ لَهَا قَبْلَ النُزُولِ قِرَاهَا[5]

قال الحجاج: "قاتلها الله، والله ما أصاب صفتي شاعر منذ دخلت العراق غيرها...

والله إني لأعد للأمر عسى ألا يكون أبدا "[6]. بل إن الحجاج لشدة حرصه على دقة الحكم على ما يقال فيه من الشعر كان يلجأ أحياناً إلى من حوله ممن يتلمس فيه معرفة بالشعر ليعينه على الحكم مباشرة أمام الشاعر[7].

فالحجاج من ناحية لم يكن حريصاً على استجلاب مديح الشعراء، وملكته النقدية المتيقظة هيبت الشعراء فلم يجرؤ على مدحه إلا الفحول الذين يثقون بقدرتهم على الإتيان بما يتناسب وذوقه الفصيح لذلك استأثر فحول شعراء ذلك العصر برسم صورته الإيجابية من أمثال ليلى الأخيلية والعجاج والأخطل والفرزدق، وجرير.

الصورة الإيجابية:

إذا تأمل الدارس موروث الشعر الذي دار حول الحجاج فإنه يجده قريباً من ألف بيت، وهذا الشعر دار في محاور شتى، وحول موضوعات مختلفة إلا أنه يمكن أن يقسم إلى

---

(١) ديوان ليلى الأخيلية ص١٢١.

(٢) المبرد: الكامل ٢٦٣/١.

(٣) انظر: المبرد: الكامل

(٤) ديوان ليلى الأخيلية ص ١٣١.

(٥) الزر: الصوت تسمعه من بعيد.

(٦) أبو علي القالي: الأمالي ٨٧/١.

(٧) انظر: أبا الفرج الأصبهاني: الأغاني ٢٣٣/١١.

قسمين كبيرين، الصورة الإيجابية والصورة السلبية، ولأن الصورة الإيجابية للحجاج أكبر بكثير من الصورة السلبية فإنها تأخذ الأولوية في الدراسة.

الناحية الحربية:

والصورة الإيجابية للحجاج لها وجوه مختلفة وزوايا متعددة إلا أن اللافت للنظر أن التركيز فيها كان على الناحية الحربية في شخصية الحجاج، حيث توقف الشعراء عندها كثيراً مفصلين في أيام الحجاج، محللين لأسبابها ونتائجها، مادحين للحجاج وجنده، ذامين أعداءه وقوادهم، وقد تكون ظروف إمارة الحجاج لمنطقة حافلة بالقلاقل والاضطرابات جعلته يخوض كثيراً من المعارك ويقف طويلا في وجوه أعداء الدولة الأموية، إذ ما يكاد عدو يختفي حتى يبرز آخر، هي التي ألهمت الشعراء أبياتهم ووفرت لهم مادة شعرية قريبة لروح العصر يمتحون منها شعراً عذباً زلالاً كما يشاءون.

إخماد الحجاج ثورة ابن الأشعث:

وإذا أمعن الباحث النظر في الشعر الذي قيل في أيام الحجاج ومعاركه استوقفه التركيز الكبير على أيام الحجاج مع ابن الأشعث فقد أكثر الشعراء من ذكر تلك الأيام وسير معاركها ونتائجها ذامين مادحين مما يشعر الباحث بأهمية تلك الأيام وخطورتها.

فالعجاج لم يمدح الحجاج إلا بأرجوزتين أفردهما كلتيهما للحديث عن انتصار الحجاج على ابن الأشعث، أولاهما بلغ عدد أبياتها مائه وسبعة عشر بيتاً رجزياً، والأخرى بلغت أبياتها أربعة وثلاثين بيتاً رجزياً[1]، والفرزدق جعل أطول مدائحه في الحجاج للحديث عن انتصاره في هذه الحرب فصاغ فيها قصديتين، بلغ طول أولاهما ثمانين بيتاً، والأخرى بلغت تسعة وثلاثين بيتاً[2]، وصاغ جرير حول هذا الموضوع قصيدة بلغت ثمانية عشر بيتاً[3]، ومن الطريف أن أحد أنصار ابن الأشعث صاغ قصيدة في مدح الحجاج لانتصاره على ابن الأشعث وهو أعشى همدان بلغت أبيات قصيدته تلك ثمانية وثلاثين بيتاً[4]، وجرى ذكر

---

(١) انظر: ديوان العجاج ص٣٥٢، و ص١٢٨.

(٢) انظر: شرح ديوان الفرزدق ٢٩٤/١، و٦٩٤/٢.

(٣) انظر: ديوان جرير ٧٢٧/٢.

(٤) انظر: ديوان أعشى همدان وأخباره ص١٠١.

هذه الحـرب في مقطعات أخـرى لأمثال ليلى الأخيلية[٥] وحميد الأرقط [١].

وقد فصّل الشعراء في هذه الحرب تفصيلاً طويلاً، إلا أن اللافت للنظر في هذا الوصف التركيز الكبير على وصف جيوش ابن الأشعث والسخرية منها وذكر أصحابه والاستهزاء بهم، بينما يظهر الاختصار الواضح في وصف جيوش الحجاج والإشادة بقواده وأصحابه، وقد يكون هذا متمشياً مع رغبة الحجاج التي تحرص على هجاء الأعداء والتنقيص منهم لاستخدام هذا الشعر وسيلة للهجوم، أكثر من حرصه على شعر المديح الذي قد يراه لا يضيف له جديداً.

فأصحاب الحجاج وجنده اختصر "العجاج" صفتهم فقال: [٢]

والله سمَّى نَصْرَهُ الأَنْصَارَا

فهم كالأنصار، فكما أن الأنصار على حق حينما آزروا الرسول صلى الله عليه وسلم ونصروا دين الإسلام، كذلك جند الحجاج على حق حينما آزروا الحجاج ونصروا دين الإسلام.

وكما جعل العجاج أصحاب الحجاج كالأنصار جعلهم الفرزدق كأصحاب بدر، وجعل الملائكة تساندهم كما ساندت أهل بدر[٣]:

مَلائِكةٌ مَن يَجْعَلِ اللهُ نَصْرَهُم ... لَهُ يَكُ أَعْلَى في القِتَالِ وَأَصْبَرا

رَأَوا جِبْرَئِيلَ فِيهِمُ إذ لَقُوهُمُ ... وَأَمْثَالَهُ مِن ذي جَنَاحَينِ أَظْهَرَا

ثم عاد الفرزدق يشبههم بأهل بدر مرة أخرى فقال[٤]:

لَقِيتُمْ مَعَ الحجاجِ قَوماً أَعِزَّةً ... غِلاظاً على مَن كانَ بالدِّينِ أَحْوَرَا

بِهِمْ يَومَ بَدْرٍ أَيَّدَ اللهُ نَصْرَهُ ... وَسَوَّى مِنَ القَتْلَى الرَّكيَّ المُعَوَّرَا

وفي حرب الحجاج لابن الأشعث تلك الحرب التي انحاز فيها معظم أهل العراق إلى

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٤١-٤٢.

(٢) ديوان العجاج ص ٣٦٥.

(٣) شرح ديوان الفرزدق ١/ ٣٠٠.

(٤) شرح ديوان الفرزدق ١/ ٣٠١.

ابن الأشعث حتى استعان الحجاج بجيوش أهل الشام مما جعل الشعراء يعمدون للموازنة بين أهل البلدين فقال الفرزدق [1]:

فَلَمَّا رأى أَهْلُ النِّفَاقِ سِلاحَهُم ... وَسِيماهُمُ كَانوا نَعَاماً مُنَفَّرا

كَأَنَّ صَفِيحَ الهِنْدِ فوقَ رُؤوسِهِم ... مَصَابيحُ لَيْلٍ لايُبَالِينَ مِغْفَرا [2]

بِأَيْدي رِجَالٍ يَمْنَعُ اللّهَ دِيْنَهُمْ ... بِأَصْدَقَ مِنْ أَهْلِ العِراقِ وأَصْبَرَا

وقال أيضاً [3]:

جُنُوداً دَعَا الحجاجُ حِينَ أَعَانَهُ ... بِهِمْ إِذْ دَعَا ربَّ العِبَادِ لِيَنْصُرا

بِشَهْبَاءَ لَمْ تُشْرَبْ نِفَاقاً قُلُوبُهُم ... شَآمِيَةٍ تَتْلُوا الكِتَابَ المُنَشَّرا

فالشاعر يوازن بين أهل العراق وأهل الشام جاعلاً هذه الموازنة سبيله لتفضيل أهل الشام وذم أهل العراق حيث وصفهم بالمنافقين صراحة في الأبيات الأولى ووصفهم بهذه الصفة بالتلميح في الأبيات الأخيرة، وجعل أهل الشام هم أهل التدين وقراءة القرآن.

وهذا الوصف السريع لجيوش الحجاج التي خرجت لحرب ابن الأشعث يقابله وصف مسهب لجيوش ابن الأشعث، فما يكاد شاعر يمدح الحجاج لانتصاره على ابن الأشعث حتى يعرج على وصف جيش ابن الأشعث ساخرا متشفيا، فهذه الجيوش هي بذرة التمرد وثمرة الاحتجاج، وهي التعبير الفعلي عن آراء قوادها وأقوالهم فالفرزدق لم يرحمهم من لسانه الحاد، فوصف جيشه بقوله [4]:

عَجِبْتُ لِنَوكَى مِنْ نِزارٍ وحَيْنِهِمْ ... رَبِيعةَ والأحْزابِ مِمَّنْ تَمَضَّرَا

وَمِن حَيْنِ قَحْطَانِي سَجِسْتَانَ أَصْبَحُوا ... عَلَى سَيِّءٍ مِنْ دِيْنِهِم قَدْ تَغَيَّرَا

وَهُمْ مِائتا أَلْفٍ وَلا عَقْلَ فِيهِمُ ... وَلا رَأْيَ مِنْ ذِي حِيلَةٍ لَوْ تَفَكَّرَا

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٣٠٠/١.

(٢) مغفر: نوع من الدروع يلبس على الرأس تحت البيضة.)

(٣) شرح ديوان الفرزدق ٣٠١/١.

(٤) شرح ديوان الفرزدق ٢٩٦/١.

يَــسُوقُونَ حَوَّاكَــاً لِيَــسْتَفْتِحُوا بِــهِ عَلَــى أَوْلِيَـــاءِ اللهِ مِمَّـــنْ تَخَيَـــرَّا

عَلَـى عُـصْبَةٍ عثمـانُ مِـنْهُمْ، وَمِـنْهُمُ إمــامٌ جَــلا عَنَّــا الظَّــلامَ فَأَسْــفَرَا

فهـم مجموعـة مـن الحمقـى ممـن لـم يوفقـوا للفـلاح مـن قبائـل نـزار وربيعـة ومـضر وقحطاني سجستان، أساءوا إلى دينهم بخروجهم على طاعة الإمام، وكان عددهم مائتي ألف إلا أنه ليس فيهم رجل ذو عقل وتدبر يردعهم عما هم بصدده، وكان قائدهم حواكاً فهو لا يحسن قيادة الجنود، وخرجـوا لحرب أولياء الله الـذين منهـم عثمان بن عفـان رضي الله عنه (ت ٣٥هـ) ومنهم خليفـة المسلمين. وهـذه المقطوعـة في وصف جيش ابن الأشعث متميزة لأنها مع السخرية اللاذعـة أعطت معلومات عن جيش ابن الأشعث من ناحية عناصر الجيش وعدده وقائدة والهدف من خروجه.

ولم يرحم ما دحوا الحجاج المنهزمين من أعـداء الحجاج، إذ سخـر الفرزدق من فلول الجيش المنهزمة من أصحاب ابن الأشعث سخرية لاذعة، فهم أعداء الأمير لذا من حقه الاستهتار بهم ما شاء، قال[1]:

أَظُــنُّ بنــاتِ القَــومِ كُــلَّ خَبِيَّــةٍ سَــيَمْنَعْنَ مِــنْهُمْ كُــلَّ وُدٍّ وَنَائِــلِ

فَبَــدَّلَهُمْ مــا فــي العِيــابِ إذا انْتَهَــوا إلَــيكنَّ واسْــتَبْدَلْنَ عَقْــدَ المَحَامِــلِ[2]

سُــيُوفَ نَعَــامٍ غَيــرَ أَنَّ لِحَــاهُمُ عَلَــى ذَقَــنِ الأَحْنَــاكِ مِثْــلُ الفَلائــلِ[3]

عَسَى أَنْ يَذُدْنَ النـاسَ عَنْكُمْ إذا التَقَتْ أَسَـــابِيُّ مُجْـــرٍ لِلْقِتَـــالِ وَنَـــازِلِ[4]

وَمَــا القَــومُ إلا مَــنْ يُطَــاعِنُ فــي الوغَــا وَيَــضْرِبُ رأسَ المُــسْتَمِيتِ المُنَــازِلِ

فزوجـاتهم سـيمتنعن علـيهم إذا عــادوا، لأنهـم ليـسوا بالرجـال، وسيلبـسونهم ملابسهن لأنهـم أشـبه بالنسـاء، وإمعاناً في إذلالهـم يجعـل نسـاءهم هـم الرجـال الـذين يحملون السيوف، تلك السيوف التي ما كانت إلا مع نعام شارد، عسى أن تفيد في يد

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢/٦٩٦.

(٢) العياب: حقائب الثياب.

(٣) الفلائل: الشعر المجتمع.

(٤) أسابي: الطرق من الدم.

نسائهم فيذدن عنهم، فهم ليسوا رجالاً، لأن علامة الرجل هي الضرب بالسيوف، وتلك ليست فيهم. ويمعن الفرزدق في السخرية، ولا يكتفي بجعلهم نساء وزوجاتهم الرجال حين قال مخاطباً الحجاج[1]:

فِدًى لَكَ أُمِّي اجْعَلْ عَلَيْهِمْ عَلامَةً ... وَحَرِّمْ عَلَيْهِمْ صَالِحاتِ الحَلائِلِ

نُزَيِّلُ بَينَ المؤمنينَ وَبَيْنَهُمْ ... إذَا دَخَلُوا الأَسْوَاقَ وَسْطَ المَحَافِلِ

فَلا قَومَ شَرٌّ مِنْهُمُ غَيرَ أَنَّهُمْ ... تَظُنُّهُمُ أَمْثَالَ تُرْكٍ وكَابِلِ

وَلَيْتَ لِحَاهُمُ كُنَّ تَحْتَ ---- ... وَبَاعُوا سُرَيْجِيَاتِهِمْ بِالمَغَازِلِ

فهو يريد منه أن يسمهم بوسم العبيد حتى لا يتزوجوا الحرائر، وحتى لا يخالطوا الأحرار في الأسواق، فهم أشبه بالترك وأهل كابل من الأعاجم إلا أنهم أكثر منهم شراً، ثم يعود ليسخر منهم ومن لحاهم التي لا تدل على رجولة فما كان أحرى بهم أن يبيعوا سيوفهم لأنهم لا يستخدمونها ليشتروا بها المغازل فقد تكون أنفع لهم.

والفرزدق يمعن أكثر في السخرية من جنود ابن الأشعث حتى وصف الصرعى والقتلى منهم داخل ميدان المعركة بعد انتهائها بنصر الحجاج بن يوسف، ومما زاد المنظر تشفياً أن جاء على صورة امرأة تبحث عن زوجها بين القتلى والجرحى[2]:

كَأَنَّ عَلَى دَيْرِ الجَمَاجِمِ مِنْهُمُ ... حَصَائِدَ أو أَعْجَازَ نَخْلٍ تَقَعَّرَا

تَعَرَّفُ هَمْدَانِيَّةٌ سَبَئِيَّةٌ ... وتُكْرِهُ عَيْنَيْهَا عَلَى مَا تَنَكَّرَا

رَأَتْهُ مَعَ القَتْلَى وَغَيَّرَ بَعْلَهَا ... عليها تُرَابٌ في دَمٍ قَدْ تَعَفَّرَا

أَرَاحُوهُ مِنْ رَأسٍ وَعَيْنَيْنِ كَانَتَا ... بَعِيدَيْنِ طَرْفاً بِالخِيَانَةِ أَحْزَرَا[3]

مِنَ النَّاكِثِينَ العَهْدَ مِنْ سَبَئِيَّةٍ ... وَإمَّا زُبَيْرِيٌّ مِنَ الذِّئْبِ أَغْدَرَا

فقد أعطى أولاً وصفاً عاماً لميدان المعركة بعد الهزيمة فالأعداء على أرض دير الجماجم كأنهم جذوع نخل مقطعة وقد فارقوا الحياة، وظهرت في الميدان امرأة من

---

(1) شرح ديوان الفرزدق ٢/ ٦٩٦-٦٩٧.

(2) شرح ديوان الفرزدق ١/ ٣٠٠-٣٠١.

(3) أحزرا: تنظر نظرا شديدا إلى الخيانة.

همدان تبحث عن بعلها، فتراه مقتولاً تنكره عيناها لما تغير من وقع التراب والدم عليه، وقد قطع رأسه، وجميل من الشاعر هنا قوله "أراحوه" فجيش الحجاج كأنما أسدى إليه معروفاً بقتله. وهذا الهمداني لا يخرج عن كونه من السبئية الذين تسببوا بمقتل عثمان –رضي الله عنه– أو من الزبيرية الذين حاربوا عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) وكلاهما أعداء للدولة، والشاعر بهذا البيت يقدم العذر للحجاج في قتلهم.

ولم يكتف الشعراء بهذا الوصف العام للجيوش من الفريقين بل تعمقوا أكثر فعمدوا إلى الحديث عن القواد والأبطال من الفريقين وأولى الناس بالإشادة في نظر الشعراء المادحين هو الحجاج القائد الأعلى لهذه الحرب فالفرزدق (ت ١١٠هـ) في لفتة ذكية منه دمج بين مدح الحجاج والتذكير بأصل جيش ابن الأشعث (ت ٨٣هـ) ليسقط حجج الثاني، ويقدم العذر للأول[1]:

رَدَدتُم عَلَيْنَا الخيلَ والتُركُ عِنْدَكُم ... تَحَدَّى طِعَاناً بِالأَسِنَّةِ أَحْمَرَا
إلى محِكٍ في الحربِ يَأبَى إذا التَقَتْ ... أَسِنَّتُها بِالمَوتِ حَتَّى يُخَيَّرَا[2]
وَلَمَّا رَأَى اللهُ الذي قد صَنَعْتُمُ ... وَأَنَّ ابنَ سَيْبُخْتَ اعْتَدَى وَتَجَبَّرَا
رَمَاكُمْ بِمَيْمُونِ النَّقِيبَةِ حَازِمٍ ... إذا لم يُقَمْ بِالحقِ للهِ نَكَّرَا
أَخَا غَمَرَاتٍ يَجْعَلُ اللهُ كَعْبَهُ ... هو الظَّفَرُ الأَعْلَى إذا البَأْسُ أَصْحَرَا

فهذا الجيش الذي يحارب الحجاج إنما هو جيش بعث لحرب الكفار من الترك ولسوء تدبير قائده ترك الكفار إلى قتال المسلمين، فقيض الله لهؤلاء العصاة محك في الحرب لا يقهر، ميمون النقيبة، يغضب لله، إلى آخره من صفات القائد العسكري الناجح التي أضفاها الشاعر على الحجاج. والملاحظ على هذا المديح أنه يركز على مدح الحجاج وحده مظهراً قدراته الفردية في مواجهة جيش ابن الأشعث كله،وكذلك صنع العجاج (ت ٩٠هـ) فقال[3]:

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ١/ ٢٩٥.

(٢) المحك: المتمادي في اللجاجة عند المساومة والغضب.

(٣) ديوان العجاج ص ١٣١.

بِلَجَبٍ عَرْضٍ يُبَارِي عَرْضَا — فَوَجَدُوا الحجاجَ يَأبَى الهَضَّا[1]
لا فَانِيًّا ولا حَدِيثًا غَضَّا — وَمِنْ صَرِيحِ الأَكْرَمِينَ مَحْضَا
ثَبْتًا إِذَا كَانَ المَقَامُ دَحْضَا — ولِلْجُيُوشِ قَبْلَهُمْ مِهَضَّا[2]

فجيش ابن الأشعث كله وجد الحجاج قوياً متوسط العمر صريح الأصل ثابت الجنان في المعارك، كأنما الذي يباشر القتال هو الحجاج وحده.

أما أصحاب الحجاج، فكما اختصر الشعراء في وصف جيوشه اختصر الشعراء في وصف أصحابه وقواده، فلم ينص الشعراء إلا على اسمي قائدين من قواده فقط: أحدهما "سفيان بن الأبرد الكلبي" مدحه أعشى همدان (ت ٨٣هـ) فقال[3]

وَكَرَّتْ عَلَيْنَا خَيلُ سُفْيَانَ كَرَّةً — بِفُرْسَانِهَا والسَّمْهَرِيِّ مُقَصَّدا
كُهُولٌ وَمُرْدٌ مِن قُضَاعَةَ حَولَه — مَسَاعِيرُ أَبْطَالٍ إذا النِّكْسُ عَرَّدا[4]
إِذَا قَالَ شُدُّوا شَدَّةً حَمَلُوا مَعاً — فَأَنْهَلَ خِرْصَانَ الرِّمَاحِ وَأَوْرَدا

فهو يمدحه بحسن قيادته للخيالة ممن يحملون أفضل السلاح ويتحلون بالقوة والشباب، ومع ذلك لا يخرجون عن طوع سفيان إذ يتلقى جنده أوامره بدقة فيحملون حملة واحدة تسقي رماحهم دماء الأعداء. ومدح "سفيان" أيضاً الفرزدق[5] كما مدح قائد آخر من أصحاب الحجاج هو الحكم بن أيوب الثقفي (ت نحو ٩٧هـ) صهر الحجاج، فقال فيه الفرزدق:[6]

رَأَيتُ ابنَ أَيوبٍ قَدْ اسْتَرْعَفَتْ بِهِ — لَكَ الخيلُ من خَمْسِينَ أَلْفاً وَأَكْثَرا[7]
عَلَى صَاعِدٍ أَوْ مِثْلِهِ مِن رِبَاطِهِ — إذا دَارَكَ الرَّكْضُ المُغِيرونَ صَدَّرا

---

(١) اللجب: الجيش الكثير الأصوات. العرض: الجبل. يباري: يعارض. الهض: الكسر.
(٢) الدحض: أي كثير الزلق لا يثبت عليه. مهضا: كاسرا منتصرا.
(٣) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ١٠٣.
(٤) النكس: الضعيف. عرد: هرب من ميدان المعركة.
(٥) انظر: شرح ديوان الفرزدق ٣٠١/١.
(٦) شرح ديوان الفرزدق ٢٩٩/١.
(٧) استرعفت: تقدمت.

فهو قد هجم على رأس خمسين ألفاً أو أكثر من الفرسان يتسابقون للوصول للعدو والقضاء عليه.

ومن الملاحظ أن تعداد أصحاب الحجاج وقواده ووصف جيوشه المقاتلة في المعارك كان قليلاً جداً إذا ما قورن بتعداد أعدائه وتسميتهم أو وصف جيوشهم، حقيقة أن الحجاج هو الذي يتولى إعداد الجيوش إذ يقترح عددها وعدتها، ويقوم بالإنفاق عليها بما يناسب الحال ثم يختار القادة بنفسه ويعطي لهم الأوامر، وهو بصيته وقوته يجعل الجند في طاعة قائد المعركة إذ لا تسامح منه يعرف مع العاصين والفارين، إلا أن إغفال ذكر القادة بهذه الطريقة قد يعود إلي حرص المادحين أن يتقربوا للحجاج بإرجاع سبب النصر له وحده بعد الله سبحانه وتعالى كما قال الفرزدق[1]:

فَمَنْ يَمْنُنْ عليكَ النَّصْرَ يَكْذِبْ   سِوَى اللهِ الذي رَفَعَ السَّحَابا

وكما قال أعشى همدان[2]:

وَمَا زَاحَفَ الحجاجُ إلا رَأَيتَهُ   مُعَاناً مُلَقًّى للفُتُوحِ مُعَوَّدا

فالشعراء المادحون معجبون بالحجاج وانتصاراته العظيمة التي يرى المادحون أنه لولا الحجاج لما تمت هذه الانتصارات. فله وحده يعود الشكر، وإليه فقط تساق القصائد حافلة بالإعجاب والتقدير.

ولم يكتف الشعراء كذلك بذم أعداء الحجاج بوجه عام وإن ألحقوا بهم كل صفة قبيحة، بل ذكروا أسماء بعض قادة الأعداء وألحقوا بهم ما شاءوا من النقائص وقد يكون على رأس القائمة ابن الأشعث نفسه، وابن الأشعث ليس بالشخص الغفل؛ فجدته أم أبيه أخت أبي بكر الصديق رضي الله عنه.[3] وله ولعائلته مكانة كبيرة في العراق بل عند الحجاج بن يوسف نفسه؛ إذ قاد ابن الأشعث الجيوش للحجاج ومع أنه سبق له الفرار مراراً[4] إلا أن الحجاج آمنة وكتب له عهدا على سجستان[5] وأمده بأفضل

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٩١/١.

(٢) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ١٠٣.

(٣) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٣/ ٢٦٥.

(٤) انظر: ابن حبيب: المحبر ص ٢٤٥، والطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧/ ٢٣٨.

(٥) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧/ ٢٤٢.

جيش حين أرسله لحرب الترك حتى سمي ذلك الجيش جيش الطواويس لفخامته واكتمال عتاده[1]. ولشرف أسرته زوج الحجاج ابنه محمدا (ت ٩١هـ) بأخت ابن الأشعث[2]. ومع ذلك وقف له الشعراء بالمرصاد وأولهم الفرزدق، فالفرزدق لشدة نقمته على أعداء الحجاج يخرج ابن الأشعث من حظيرة الإسلام إذ قال[3]:

وَلَوْ أنَّهُمْ إذْ نَافَقُوا كَانَ مِنْهُمُ ... يَهُودِيُّهُمْ كَانُوا بِذَلِكَ أعْذَرَا

فهو يهودي وجماعته وجنده منافقون، وفي قتله شفاء للمؤمنين[4]:

يُبَادِرُكَ الخيلَ التي مِنْ أمَامِهِ ... لِيَشْفِيَ منكَ المؤمنين وَيَثْأرا
مَحَارِمَ لِلإسلامِ كُنْتَ انْتَهَكْتَهَا ... وَمَعْصِيَةً كَانَتْ مِنَ القَتْلِ أكْبَرا

فما فعله من الخروج عن الطاعة هو معصية أعظم من القتل في نظر الشاعر يريد بذلك أن الحجاج محق في حربه. وبالإضافة لمعصيته الكبرى في الخروج على الجماعة هو يرتكب كبائر أخرى[5]:

خَلِيْعٌ إذَا مَا ---لمْ يَقُمْ لَهُ ... جَرَى الخَمْرُ فِي أعْفَاجِهِ ثُمَّ قَرْقَرا

فهو خليع شارب للخمر. ولم يكتف الشاعر بإخراجه من حظيرة الإسلام إذ أخرجه من أصله العربي الذي ينتمي إليه، فجعله مولى إذ لقبه بسيبخت وابن سيبخت فقال[6]:

وَلَمَّا رَأى اللهُ الذي قَدْ صَنَعْتُمُ ... وَأنَّ ابنَ سَيْبُخْتَ اعْتَدَى وَتَجَبَّرا
وَقَارَعْتُمُ فِي الحَقِّ مَنْ كَانَ أهْلُهُ ... بِبَاطِلِ سَيْبُخْتَ الضَّلالِ وَذَكَّرا

ثم أخرجه من علية القوم إذ جعله عاملاً حرفيا، واختار له الحياكة لأن قبائل اليمن

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨ /٥.

(٢) انظر: ابن قتيبة: أبا محمد عبد الله بن مسلم: الإمامة والسياسة، المعروف بتاريخ الخلفاء (القاهرة، مصطفي البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة، ١٣٨٨هـ. ١٩٦٩م) ٢/٣٦.

(٣) شرح ديوان الفرزدق ٣٠١/١.

(٤) شرح ديوان الفرزدق ٣٠٠/١.

(٥) شرح ديوان الفرزدق ٣٠٢/١.

(٦) شرح ديوان الفرزدق ٢٩٥/١.

كانت توصم بهذا الأمر، فقال يعير جيشه بسوء اختيارهم قائدهم[1]:

يَسوقونَ حَوَّاكاً لِيَسْتَفْتِحُوا بِهِ   على أَوْلِيَاءِ اللهِ فِيْمَنْ تَخَيرَّا

فهم يأملون النصر بهذا الحواك على من اختاره الله من أوليائه، وكأنما الشاعر يقول: "بعد ذلك عليهم". ثم عاد مرة أخرى ليعيره بالحياكة ويفصل فيها فقال[2]:

وَلَكنَّما اقْتَادُوا بِحَوَّاكِ قَرْيَةٍ   لئيمٍ كَهَامٍ أنفُهُ قد تَقَشَّرا

مُحَرَّقَةٌ لِلْغَزْلِ أَظْفَارُ كَفِّهِ   لِتَدْقِيقِهِ ذا الطُّرَّتينِ المُحَبَّرا

فقد تحرقت أظفاره من الحياكة لا من مقارعة الأبطال واستخدام عدة القتال. فالفرزدق يسم ابن الأشعث بأقبح الصفات، ويفصل في ذلك، فكأنما هو بذلك يشفي غليل الحجاج من عدو تربص به حتى كاد ينحيه عن إمارته.

وكذلك هجا ابن الاشعث رجل من أقرب المقربين إليه . وهو أعشى همدان فقال ضاجاً من ابن الأشعث[3]:

لَقَدْ شَأمَ المِصْرَينِ فَرْخُ محمَّدٍ   بحقٍّ ومَا لاقَي مِنَ الطَّيْرِ أَسْعَدَا

كَمَا شَأمَ اللهُ النُّجَيْرَ وَأَهلَهُ   بِجَدٍّ لَهُ قَدْ كَانَ أَشْقَى وَأَنْكَدَا

المصران يقصد بهما الكوفة والبصرة، ومصدر شؤمهما الآن ليس الحجاج وإنما ابن الأشعث الذي ثار بهما، ولم يقل ابن محمد بل عمد إلي تحقيره ليرضي الحجاج فجعله "فرخ محمد". ثم نبه إلى أنه وعائلته كلهم مشؤومون من أيام حادثة النجير[4] التي كان بطلها جده الأشعث بن قيس.

وقد سخر الشعراء أيضاً من رؤوس أصحاب ابن الأشعث ممن قتل في تلك المعارك فقال الفرزدق[5]:

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢٩٦/١.

(٢) شرح ديوان الفرزدق ٣٠٢/١.

(٣) ديوان أعشى همدان وأخباره، ص١٠٤.

(٤) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٣/ ٢٧٤. ٢٧٥.

(٥) شرح ديوان الفرزدق ٢٩٧/١.

سَـقَي قَائـدَيها الـسمَّ حَتَّـى تَخَـاذَلوا عَلَيْهَـــا وَأَرْوَى الزَّاعِبِـــيَّ المؤمَّـــرَا
سَــقَى ابــنَ رِزَامٍ طَعْنَــةً فَــوَّزَتْ بِــهِ وَمَحْروشَـــهُمْ مَأْمُومَـــةً فَتَقَطَّـــرا

فـابن رزام يقـصد بـه الـشاعر هنـا عبـد الله بـن رزام (ت ٨٢هـ) كـان علـى مجنبـة ابـن الأشعث في دير الجماجم ومحروشـهم يريد ابـن حـريش بـن هـلال (ت ٨٢هـ)[١]. وإمعانا في السخرية لم يكتف بالإخبار عن موتهما بل وصف طريقة موتهما فالأول مات مطعوناً والثاني مشجوجاً.

وقـد سـخر الـشعراء أيـضا مـن رؤوس أصحاب ابـن الأشـعث الـذين فـروا مـن ميـدان المعركـة، فـالفرزدق فـي رائيتـه التي مـدح فيهـا الحجـاج لانتـصاره علـى ابـن الأشـعث عـدَّد تسعة ممن فر من رؤوس أصحاب ابن الأشعث وألحق بكل واحد منهم ما يستحقه من صفات، منهم على سبيل المثال[٢]:

وَأَفْلَـتَ رَوَّاضُ البِغَـالِ وَلَـمْ تَـدَعْ لَـه الخيـلُ مِـن أَحْـرَاجِ زَوْجَيـهِ مَعْـشَرَا
وَأَفْلَـتَ دَجَّـالُ النِّفَـاقِ وَمَـا نَجَـا عَطِيَّـــةُ إلا أَنَّـــهُ كَـــانَ أَمْهَـــرَا
منَ الـضِّفْدَعِ الجـارِي على كُلِّ لجَّةٍ خَفِيفــاً إذا لاقَـــي الأواذِيَّ أَبْتَـــرا[٣]

فهـو يذكـر جماعــة مـن قـواد ابـن الأشـعث ممن هرب مـن المعركـة مـن أمثال عبـد الرحمن بن عباس بن ربيعه وهو من لُقب في الـشعر بـ "رواض البغـال"، وعبـد الـرحمن بـن سمرة وهو من أشـار إليـه الـشاعر بـ "دجـال النفـاق"، وعطيـة بـن عمرو العنبري الـذي نعتـه الشاعر بأنه أمهر مـن الـضفدع فـي الـسباحة سـخريه منـه واحتقـارا لـشأنه[٤]، فـالأول كـان على خيل ابن الأشعث والأخير كان على مقدمته[٥].ومن الواضح أن الحجـاج قـد نقـم علـى جيش ابن الأشعث ولم يكتف فيهم بالحرب الفعلية بل سـلط علـيهم الحـرب النفـسية

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ١٢، ١٣، ١٧.
(٢) شرح ديوان الفرزدق ٢٩٧/١.
(٣) الأواذي : جمع آذي وهو موج البحر.
(٤) انظر: شرح ديوان الفرزدق ٢٩٧/١.
(٥) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ١٧.

حيث طلب من الفرزدق المعروف بحدة لسانه هجاء عبد الرحمن بن عباس فأفحش عليه[1]، وطلب من حميد الأرقط أن يكرر أبياته في ابن سمرة يتلذذ بذلك[2] كأنما لم يكتف بهجاء شاعر واحد فيه فقط. وسار مع رغبة الحجاج تلك في هجاء عبد الرحمن بن عباس والانتقاص منه شاعر من أصحاب ابن الأشعث وهو أعشى همدان[3].

في خضم المعارك القوية التي خاضها الحجاج مع ابن الأشعث لم يغب عن الشعراء وصف مسيرة المعركة، وهو الامتحان الحقيقي لقوة الجيش وحسن تخطيط القادة وشجاعة الفرسان، وللتمثيل على وصف المعارك يضرب المثال بقصيدتين أولاهما لشاعر لم يخض المعركة، وهو من أنصار الحجاج وهو العجاج إذ قال[4]:

فَمَا قَضَى أمْراً ولا أحَارَا ... في الحربِ إلا ربُّهُ اسْتَخَارا

مَازالَ يَدْنُو منهمُ أشْبَارا ... حتَّى رَأَوا لِلَوْنِهِ أنْمَارا

وَلاعْتِزَامِ رَأيِهِ أزْرَارَا ... لا مُضْمَحِلاتٍ وَلا قِصَارا

حَتَّى إذَا صَفُّوا لَهُ جِدَارَا ... وكانَ مَا بَيْنَهُمْ طَوَارَا

حيث تُوَدِّي القُرْعَةُ القِمَارَا ... وَأَبْصَرُوا مِنْ رُعْبِهِ إبْطَارًا

صَوَاعِقاً يَدْمَغْنَ وَانْتِهَارَا ... مِنْ ذِي حِفَاظٍ يَمْنَعُ الذِّمارا

أوْرَدَ حُذًّا تَسْبِقُ الأَبْصَارا

فالحجاج في البداية يستخير الله، ثم يلبس هو وجنوده جلود النمور كي يخفوا عن الأبصار أو يموهوا عليها، ثم يسير بجرأة إلي جيش العدو حتى يروا نقط جلد النمر التي يلبسونها لقربهم منهم، ويشعرون بأنه عازم على مقاتلتهم عزماً ثابتاً، ثم يصف أمام جيش ابن الأشعث بكل جرأة مقابلا له تماماً كالطوار، ثم يقترعون على من غلب فله النصر، حينذاك ظهر من غضب الحجاج ما أرعبهم وأذهب عقولهم، وبدأت المعركة بإرسال السهام العطاش.

---

(١) انظر: الجاحظ: كتاب البغال (ضمن رسائل الجاحظ) ٢/٢١٦.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/١٧.

(٣) انظر: ديوان أعشى همدان وأخباره ص١٠٢.

(٤) ديوان العجاج ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

والشاعر الثاني أعشى همدان وصف المعركة وقد حضرها فعلاً وكان أحد العوامل الفعالة فيها، وكانت عواطفه مع ابن الأشعث إلا أن يأسه من النصر دفعه لمدح الحجاج، فقال واصفاً سير المعركة التي سبق أن خاضها وهو في صفوف ابن الأشعث[1]:

١-وَلَمَّا زَحَفْنَا لابنِ يُوسُفَ غَدْوَةً ... وَأَبْرَقَ مِنَّا العَارِضَانِ وَأَرْعَدَا
٢-قَطَعْنَا إِلَيْهِ الخَنْدَقَيْنِ وَإِنَّمَا ... قَطَعْنَا وَأَفْضَيْنَا إِلَى المَوتِ مُرْصِدا
٣-فَكَافَحَنَا الحجاجُ دونَ صُفُوفِنا ... كِفَاحاً وَلَمْ يَضْرِبْ لِذَلِكَ مَوْعِدَا
٤- بِصَفٍّ كَأَنَّ البَرْقَ فِي حَجَرَاتِهِ ... إِذَا مَا تَجَلَّى بَيْضُهُ وَتَوَقَّدا
٥- دَلَفْنَا إِلَيْهِ فِي صُفوفٍ كَأَنَّها ... جِبَالُ شَرَورَى لَوْ تُعانُ فَتَنْهَدَا
٦- فَمَا لَبِثَ الحجاجُ أَنْ سَلَّ سَيْفَهُ ... عَلَيْنَا فَوَلَّى جَمْعُنَا وَتَبَدَّدَا
٧-وَإِنَّ ابنَ عَبَّاسٍ لَفِي مُرْجَحِنَّةٍ ... نُشَبِّهُهَا قِطْعاً مِنَ الليلِ أَسْوَدا
٨- فَمَا شَرَعُوا رُمْحاً وَلا جَرَّدُوا يَدا ... أَلا رُبَّمَا لاقَى الجَبَانُ فَجَرَّدَا
٩-وَكَرَّتْ عَلَيْنَا خَيْلَ سُفْيانَ كَرَّةً ... بِفُرْسَانِها وَالسَّمْهَرِيِّ مُقَصَّدَا

فهو يركز على ضخامة جيش ابن الأشعث الذي يعرفه جيداً لأنه أحد جنود ذلك الجيش، وهو يشبهه في ضخامته مرة بالسحاب الكثيف، ومرة بجبال شرورى، ويبين مدى غضبهم من الحجاج وحرصهم وإقدامهم على قتاله قبل أن يلقوه ولكن بمجرد أن لقوه ومعه صفوفه المتراصة المكتملة العدة تبدد جمعهم، وخارت قواهم، ولم ينفعهم قوادهم من أمثال "ابن عباس" بينما كان في فرسان الحجاج من أمثال "سفيان" الغناء كل الغناء، وجميل هنا إتيانه بـ "ابن عباس"، و "سفيان" متقابلين إذ الأول على خيل ابن الأشعث والثاني على خيل الحجاج، وجميل أيضا البيتان الرابع والخامس حيث في البيت الخامس بيَّن ضخامة جيش ابن الأشعث مما يوحي بالمدح، ثم عاد ليقلب هذا المدح إلى هجاء شديد حين صور هذه الجموع تفر هاربة بمجرد أن سل الحجاج سيفه. وهذه مبالغة تدل على حرص الشاعر على مدح الحجاج وإظهار قوته.

أما ما يفعله بأعدائه من جنود ابن الأشعث داخل ميدان المعركة فقد صوره "العجاج"

---

(١) ديوان أعشى همدان وأخباره ١٠٢-١٠٣.

برجزه القوي[1]:

غَــدَاةَ يَــسْقِيهمْ صَـبُوحاً مِــضَّا بالمَــشْرَفِيَّاتِ وَطَعْنــاً وَخْـــضَا[2]

يَمْـضِي إلـى عَاصـي العُـرُوقِ النَّحْـضا حَتَّـى اشْـفَترُّوا خَـرَزاً مُرْفَـضَّا[3]

مُلَحَّبــاً أو سَــابِقِينَ جَرْضَــا يَجْـزِيهمُ بِكُـلِّ قَــرْضٍ قَرْضَـا[4]

وَتَــارةً يُــسَلِّفُون فَــرْضَا حَتَّـى تَقَـضَّى القَـدَرُ المُقَــضَّى

ضَــرْباً هَــذَاذَيْكَ وَطَعْنــاً وَخْـضَا صَقْعــاً إذَا صَـابَ الــرُّؤُوسَ رَضَّـا[5]

أعْلَى الطِّـرَاقَينِ وَطَعْنـا مِضَّا

فالحجـاج فـي نظـر الـشاعر قـوي الحيلـة قـادر علـى الانتقـام مـن خـصمه فـي خـضم المعركة وكلا الفريقين معه كامل عدته وسلاحه، فالحجاج يتصرف في خصمه، ظاهر عليه، يطعن فيه كيفما يشاء طعنات واسعة غير نافذة وطعنات نافذة إلي العروق ويهدّ فيهم هدّاً مع رجم الرؤوس وحرارة جراحات السيوف، وللمبالغة في السخرية من ابن الأشعث سوغ الشاعر هذا الضرب في جيش ابن الأشعث؛ إذ هو قضاء لدين سابق وهو سوء أعمال ابن الأشعث وجيشه، والحجاج لكرمه وقوته زاد على القرض بعد تسديده هبة من الضربات.

والمبالغة في السخرية من جنود ابن الأشعث عرج الشعراء للحديث عن أسباب خروجهم على الحجاج، وجاءوا بهذه الأسباب بأساليب تبعث على السخرية من أعداء الحجاج،فالحقد قد يكون هو السبب كما قال العجاج[6]:

وَقَدْ عَلِمْنَا مَعْشَراً أغْمَارَا فَقَأَ أكْبَادَهُمُ المرَارَا

أما جرير فجاء بسبب يعد مدحاً للحجاج إذ قال[7]:

وَقَالُوا لَنْ يُجَامِعُنَا أَمِيرٌ أَقَامَ الحدَّ واتَّبَعَ الكِتَابَا

---

(١) ديوان العجاج ص١٣١. ١٣٢.

(٢) المض: الحاد. وخض: يجوف ولا ينفذ.

(٣) عاصي العروق: أي الذي لا يرقأ: النحض: اللحم. اشفتروا: تفرقوا. مرفضا: متفرق.

(٤) ملحب: مضروب بالسيف. الجرض: ابتلاع الريق من الكرب.

(٥) هذاذيك: قطعاً بعد قطع.

(٦) ديوان العجاج ص ٣٦٦.

(٧) ديوان جرير ٢٤٤/١.

فلا عيب في الحجاج عند أعدائه إلا تقواه، أما أعشى همدان فقال[1]:

نَزَوا يَشْتكونَ البَغْيَ مِنْ أُمَرائِهِمْ   وَكَانُوا هُمُ أَبْغَى البُغَاةِ وَأَعْنَدا

فهم يرمون أمراءهم بعلتهم - وهي "البغي" - والأمراء منها براء، والطريف هنا وصف أعشى همدان لجند ابن الأشعث بالبغي والعناد وهو معدود واحداً منهم.

إن أشهر شعراء العصر الأموي تحدثوا عن حرب الحجاج مع ابن الأشعث وأطالوا الحديث عنها، ولم لا وهي أيام كثيرة متوالية، كان للحجاج مع ابن الأشعث في أحدها وهو "دير الجماجم" ثمانون وقيعة كلها لابن الأشعث إلا آخرها كانت للحجاج[2]، وقس على ذلك بقية الأيام وعظمتها. بل بلغت قوة ابن الأشعث أن وصل الكوفة واستولى على بيت المال[3]، لذلك كانت هذه الحرب أخطر أيام الحجاج وأشدها وقعاً في نفسه، بل لقد أهمت هذه الحرب عبد الملك بن مروان نفسه وهو في دمشق فجفاه النوم[4].كما إنه عرض على الثوار خلع الحجاج عن ولايته على العراق مقابل إنهاء الحرب[5] مما ضاعف من هم الحجاج وأثار حنقه على هؤلاء الثوار؛ لذلك استحق وقفة طويلة من الشعراء وتهنئة عظيمة لانتصاره وشماتة واسعة بأعدائه.

تصدي الحجاج للخوارج:

ومن الأيام التي ذكرها الشعراء أيام الحجاج مع الخوارج الذين أثقلوا كاهل الدولة الأموية طويلاً، وشغلوها عن الفتوح والإصلاحات الداخلية. وكان خروجهم في نطاق سلطان الحجاج بن يوسف مما جعله المسؤول عن حربهم أمام الخلافة الأموية التي حرص الحجاج على كسب رضاها.

لقد شمر الحجاج لحرب الخوارج منذ أول يوم تولى فيه إمارة العراقين،إذ أخذ على عاتقه إعادة الجنود الفارين من جيش المهلب، وقد عانى هؤلاء الجنود الأمرين من قتال الخوارج، لذا علم الحجاج أنهم لن يعودوا إلى مواقعهم بالحسنى، فمضى يتهدد ويتوعد

---

(١) ديوان أعشى همدان وأخباره ص١٠٣.

(٢) انظر: خليفة بن خياط. تاريخ خليفة بن خياط ٢/ ٢٨٠.

(٣) انظر: ابن أعثم: الفتوح ٧/ ٩٩.

(٤) انظر: ابن أعثم: الفتوح ٧/ ٩٤.

(٥) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ١٥.

بل قـدم دليلاً عملياً بين يدي توعده بقتله في الكوفـة عمير بن ضابيء (ت ٧٥هـ) لتخلفه عـن الخروج، ثم قتله في البصرة رجـلاً من بني يشكر وكلاهما كان له عذر في عدم الخروج[١] مما جعل الناس يتزاحمون في الخروج لحرب الخوارج. وقد وصف عبد الله بن الزَبير الأسدي (ت نحو ٧٥هـ) حالة الرعب التي أصابت الناس وجعلتهم يسابقون للخروج ويمتثلون للطاعة[٢]:

أَقُــولُ لإبْرَاهيــمَ لَمَّــا لَقَيْتُــهُ ... أَرَى الأمــرَ أَمْــسَى مُنــصِباً مُتَــشَعِّبا

تَجَهَّـزْ وَأَسْـرِعْ وَالحَـقَ الجـيشَ لا أَرَى ... سِـوَى الجـيشِ إلا فـي المَهَالِـكِ مَـذْهَبا

فَمَـا إِنْ أَرَى الحجـاجَ يُغْمِـدُ سَـيفَهُ ... يَـدَ الـدَّهرِ حتـى يَتْـرُكَ الطِّفْـلَ أَشْـيَبَا

فهو يصور سياسـة الحجاج الحازمة في التعامل مع المتخاذلين، وموقف الناس منه، فقد أثمرت تلك السياسة طاعة تامة للحجاج، بل يأمر بعضهم بعضاً بالإسراع للخروج. وطريف قول الشاعر في البيت الثاني حيث جعل الجيش الذي هو عادة مصدرٌ للهلاك جعله مصدراً للنجاة من الحجاج.

وقد مُدح الحجاج بالقضاء على رؤوس الخوارج في وقته، وأولهم شبيب بن يزيد (ت ٧٧هـ) الذي خرج على الحجاج في أصل إمارته في العراق، ووجه له الحجاج الجيش تلو الجيش، فهزمهم شبيب حتى أن الحجاج خرج بنفسه لقتاله[٣]. بل وصلت خطورة شبيب إلى اقتحامه الكوفة ليلا وحصاره قصر الحجاج، والحجاج بداخلة[٤]،مما جعل الأخطل (ت ٩٠هـ) في مدحته اليتيمة للحجاج يمدحه بقضائه على شبيب"[٥]:

طَلَــبَ الأَزَارِقَ بِالكَتَائــبِ إِذْ هَــوَتْ ... بِــشَبِيْبَ غَائِلَــةُ النُّفــوسِ غَــدُورُ

يَرجُــو البَقِيــةَ بَعْــدَ مَــا حَـدَقَتْ بِــهِ ... فُــرُطُ المنِيَّــةِ يَحْــصُبٌ وحَجُــورُ[٦]

فَأَبَــادَ جَمْعَهُــمُ حَمِيــداً وَانْثَنَــى ... وَلَـــهُ لِوَقْعَـــةِ آخَـــرينَ زَئِيـــرُ

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢١٤/٧.
(٢) شعر عبد الله بن الزبير ص ٥٤ ـ ٥٥.
(٣) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢٥١/٧.
(٤) انظر: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢٧٤/٢.
(٥) شعر الأخطل ص٤٠٨ ـ ٤٠٩.
(٦) يحصب وحجور: من قبائل اليمن.

ولطيف هنا قوله "حميداً"، فهو قد أباد جموعهم محموداً في تلك الإبادة لا متجنباً فيها ولا حاقدا.

وكذلك مُدح الحجاج بالقضاء على الأزارقة وقائدهم قطري بن الفجاءة (ت ٧٨هـ) فقال العديل بن الفرخ (ت نحو ١٠٠هـ)[1]:

وَصُلْتَ بِمُرَّاقِ العِرَاقِ فَأَصْبَحَتْ ... مَنَاكِبُهَا لِلْوطءِ وَهْيَ ذَلُولُ

أَذَقْتَ الحِمَامَ ابْنَيْ عُبَادٍ فَأَصْبَحُوا ... بِمَنْزِلِ مَوْهُونِ الجنَاحِ ثَكُولُ

وَمِنْ قَطَرِيٍّ نِلْتَ ذَاكَ وَحَوْلَهُ ... كَتَائِبُ مِن رَجَّالَةٍ وَخُيُولُ

فهو قد قضى على الخوارج "مراق العراق"، وقتل منهم رؤوسهم أمثال: ابني عباد وزعيمهم "قطري" ولم تنفعه الكتائب من حوله أمام قوة جيوش الحجاج.

والباحث يتوقع أن يجد شعراً أكثر حول حرب الحجاج مع الخوارج وخاصة شبيباً وصحبه، ولكن الشعراء لم يتحدثوا عن حربه مع الخوارج مثلما تحدثوا عن حربه مع ابن الأشعث، ربما لأن حربه مع ابن الأشعث كانت حرباً مصيرية هددت في إحدى مراحلها بالإطاحة بالحجاج والخلافة الأموية من ورائه، أما حروب الخوارج فهي ـ وإن ضايقت الأمويين ـ لم تصل إلى هذا الحد. ومن ناحية أخرى كان تمرد ابن الأشعث تمرداً شعبياً شارك فيه جماهير غفيرة من العراقيين، في حين ظل الخوارج محصورين في طوائف محدودة يمقت الناس مذهبهم بينما شارك في ثورة ابن الأشعث الصالحون من القراء والفقهاء.

القضاء على ابن الزبير:

ومن الأيام الخطيرة التي خاضها الحجاج بن يوسف حصاره مكة والقضاء على عبد الله ابن الزبير (ت ٧٣هـ). وهذه الحرب يحوطها ما يحوطها من خرق لقداسة مكة المكرمة، وحرب في الحرم الشريف وقتل لابن حواري رسول الله ابن ذات النطاقين ومع ذلك ففي نظر مادحي الحجاج من الشعراء أن الحجاج مصيب في حربه لابن الزبير، فالفرزدق يعد تلك الحرب جهاداً[2]:

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ٢٢/٣٦٣.

(٢) شرح ديوان الفرزدق ١/٢٥.

لا يَغْمِدُ السَّيفَ إلا مَا يُجَرِّدُهُ عَلَى قَفَا مُحْرِمٍ فِي السُّوقِ مَصْلُوبِ
مُجَاهِدٍ لِعُدَاةِ اللهِ مُحْتَسِبٍ جِهَادَهُمْ بِضِرابٍ غَيْرَ تَذْبِيبِ

وهو يحاول أن يجد العذر الشرعي لتلك الحرب حين قال[1]:

فَالأَرْضُ للهِ وَلاهَا خَلِيفَتَهُ وَصَاحِبُ اللهِ فِيهَا غَيرُ مَغْلُوبِ
بَعْدَ الفَسَادِ الذي قَدْ كَانَ قَامَ بِهِ كَذَّابُ مكَّةَ مِنْ مَكْرٍ وَتَخْرِيبِ
رَامُوا الخِلافَةَ عَنْ غَدْرٍ فَأَخْطَأَهُمْ مِنْهَا صُدورٌ وَفَازُوا بالعَرَاقِيبِ

فالله قدر الخلافة لعبد الملك فلم يعارض ابن الزبير؟ ونعت ابن الزبير بكذاب مكة فادعاءاته بأحقية الخلافة كلها كاذبة؛ ولذلك فازوا بالعراقيب فحسب.

ومدح عبد الله بن الزبير الأسدي الحجاج لقضائه على ابن الزبير فقال[2]:

كَأَنِّي بِعَبْدِ اللهِ يَركَبُ رَدْعَهُ وَفِيهِ سِنَانٌ زَاعِبِيٌّ مُحَرَّبُ[3]
وَقَدْ فَرَّ عَنْهُ المُلْحِدُونَ وَحَلَّقَتْ بِهِ وَبِمَنْ آسَاهُ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ
تَوَلَّوا فَخَلَّوه فَشَالَ بِشِلْوِهِ طَوِيلٌ مِنَ الأَجْذَاعِ عَارٍ مُشَذَّبُ
بِكَفَّيْ غُلامٍ مِنْ ثَقِيفٍ نَمَتْ بِهِ قُرَيْشٌ وَذُو الْمَجْدِ التَّلِيدِ مُعَتَّبُ

فجعل أصحابه ملحدين لحقت بهم المصائب أما ابن الزبير فكانت نهايته الصلب بيد غلام من ثقيف علت به قريش، يقصد الحجاج.

حروب أخرى:

ومن أيام الحجاج التي ذكرت في الشعر "يوم عمان"[4] وحربه مع داهر ملك الديبل[5] ووراءهما أيام كثيرة خاضها الحجاج وخرج منها منتصراً لم ترد في الشعر، أو وردت دون

---

(1) شرح ديوان الفرزدق ١/٢٥.
(2) شعر عبد الله بن الزبير ص٥٢.
(3) يركب ردعه: أي قتل. محرب: محدد.
(4) انظر: ديوان جرير ١/٤٠٤-٤٠٥.
(5) انظر: ديوان جرير ١/٤٠٧-٤٠٨.

أن يُنَص لها على اسم. فهناك وصف لمعارك خاضها الحجاج دون أن تحمل أي إشارة تدل على اسم المعركة أو تاريخها أو من هو الخصم فيها مثل قول الفرزدق [1]:

وَيَومٍ تَرَى جَوْزَاؤهُ مِنْ ظَلامِهِ ... تَرَى طَيْرَهُ قَبْلَ الوَقِيعَةِ وُقَّعَا

لِيَنْظُرْنَ مَا تَقْضِي الأَسِنَّةُ بَيْنَهُمْ ... وَكُلُّ حُسامٍ غِمْدُهُ قَدْ تَسَعْسَعَا[2]

جَعَلْتَ لِعَافِيْهَا بِكُلِّ كَرِيهَةٍ ... جُمُوعاً إِلى القَتْلَى مَعَافاً وَمَشْبَعَا[3]

بِهِنْدِيَّةٍ بِيضٍ إِذَا مَا تَنَاوَلَتْ ... مَكَانَ الصَّدَى مِنْ رَأْسِ عَاصٍ تَجَعْجَعَا[4]

وَقَدْ كُنْتَ ضَرَّاباً بِهَا يَا ابْنَ يُوسُفٍ ... جَمَاجِمَ مَنْ عَادَى الإِمَامَ وَشَيَّعَا

جَمَاجِمَ قَومٍ نَاكِثِينَ جَرَى بِهِمْ ... إِلَى الغَيِّ إِبْلِيسُ النِّفَاقِ وَأَوْضَعَا

وهذه المعركة وإن لم نستدل على اسمها تتمشى مع أسلوب الحجاج الذي يحرص على النصر دائماً ويحارب أعداء الدولة الأموية بإخلاص منقطع النظير، فعدو الخليفة الأموي هو عدوه دون داع لذكر أسماء.

سلاح الحجاج وعتاده:

الحجاج خاض كثيراً من الحروب، اختلفت في مسمياتها وأماكنها وأزمانها وأسبابها والخصوم فيها، واتفقت جميعها في أمور أخرى، ففي كل تلك الأيام كان الحجاج كقائد عسكري ناجح يعتني بالعتاد والسلاح ويستعد للمعركة قبل أن تبدأ، كما قالت ليلى الأخيلية [5]:

إذا سَمِعَ الحجاجُ رِزَّ كَتِيبَةٍ ... أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ النُّزولِ قِرَاهَا

أَعَدَّ لَهَا مَصْقُولَةً فَارِسِيَةً ... بِأَيْدِي رِجَالٍ يَحْلِبُونَ صَرَاها

والحجاج أعجب كثيراً بهذا الشعر وبين لأصحابه أنه يدل على صفته فعلاً فقال: "والله

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢/ ٤٩٧.

(٢) تسعسع: أخلق.

(٣) معاف: أي تشبع منه فتعافه.

(٤) تجعجع: أي أثخنه الضرب.

(٥) ديوان ليلى الأخيلية ص ١٢١.

ما أصاب صفتي شاعر مذ دخلت العراق غيرها". ثم قال: "والله إني لأعد للأمر عسى أن لا يكون أبدا"[1]، فهو يستعد للأمر ويحسب له ألف حساب حتى لو كان بعيد الوقوع والاحتمال. وأهم ما يستعد به العربي للحرب هو السيف، وقد جعلته ليلى الأخيلية في تصويرها اللطيف كـ "القرى" الذي يقدم للأضياف، وزادت معنى جميلاً على البيت، فالعدة الحربية لا تكتمل فائدتها بل لا تعطي نتائجها إلا إذا أحسن استخدامها،وسيوف الحجاج هي من أجود السيوف يستخدمها أفضل الرجال.

وتحدث الشعراء كثيراً عن سيف الحجاج الذي يشهره في وجوه معارضية فينشر الرعب في قلوبهم قال جرير[2]:

لَقَدْ جَرَّدَ الحجاجُ بِالحَقِّ سَيفَهُ   لَكُمْ فَاستَقِيموا لا يَمِيلَنَّ مَائلُ

وكقوله عبد الله بن الزبير الأسدي[3]:

فَمَا إنْ أرَى الحجاجَ يغْمِدُ سَيفَهُ   يَدَ الدَّهرِ حتى يَتْرُكَ الطِّفْلَ أَشْيَبَا

وقول أعشى همدان[4]:

فَمَا لَبِثَ الحجاجُ أَنْ سَلَّ سَيفَهُ   عَلَيْنَا فَوَلَّى جَمْعُنَا وَتَبَدَّدا

وغيرها كثير. وقد يكون مصدر ذلك هو الحجاج نفسه الذي تحدث كثيراً عن سيفه كقوله في أول خطبة خطبها في الكوفة أول دخوله العراق: "ألا إني سريت البارحة فسقط مني سوطي، فاتخذت هذا. وأشار إليهم بسيفه. مكانه. والله لأجرنه فيكم جر المرأة ذيلها". وما نزل من منبره إلا والقلوب يملؤها الرعب من هول الخطبة حتى سأل وجوه أهل البصرة: "ما كانت الولاة تفعل بالعصاة، فقالوا: كانت تضرب وتحبس: فقال الحجاج: ولكن ليس لهم عندي إلا السيف، ثم قال لصاحب حرسه وصاحب شرطه: إذا مضت ثلاثة أيام فاتخذا سيوفكما عصيا"[5]، وحتى قال الشعبي (ت ١٠٣هـ): "إن درَّه عمر

---

(١) انظر: أبا علي القالي: الأمالي ٨٧/١.

(٢) ديوان جرير ٤٠٣/١.

(٣) شعر عبد الله بن الزبير ص ٥٥.

(٤) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ١٠٢.

(٥) انظر: البسوى، أبا يوسف يعقوب بن سفيان: المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العمري (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠١هـ-١٩٨١م) ٤٨١/٢.

أهيب من سيف الحجاج"[1]،فمجرد جعل الموازنة بسيف الحجاج دون سواه دليل على شهرة سيف الحجاج وإرعابه.

ومما لفت أنظار الشعراء من عتاد الحجاج الحربي "الخيل" فنظموا في وصفه الأبيات، قال الأخطل في وصف خيل الحجاج[2]:

وَالخَيلُ يُتعِبُهـا علـى علاتِّهَـا ... للهُ مُنْتَصِبُ الفُـؤَادِ، شَكُورُ

خُوصاً، أَضَرَّ بِهَا ابنُ يُوسُفَ فَانطَوتْ ... والحـربُ لاقِحَـةٌ لهـنَّ زَجُـورُ[3]

وَتَـرَى المُـذَكِّي فـي القِيَـادِ كَأَنَّـهُ ... مِـنْ طُـولِ مَـا جَـشِمَ الغِـوارَ، عَقِيـرُ[4]

وَحَـولنَ مِـنْ خَلْـجِ الأعِنَّـةِ فَـانْطَوتْ ... مِنْهَـا البُطُـونُ وَفـي الفُحُـولِ جُفُـورُ[5]

قَطَـعَ الغُـزاةُ عِجَـافَهُنَّ وَأَصْـبَحَتْ ... جُـرْدٌ صَـلادِمُ قُـرَّحٌ وَذُكُـورُ[6]

فهو دائم الحروب، ومطيته الخيل الأصيلة التي أتعبها الحجاج وأضر بها من كثرة ما خاض بها من المعارك، وكانت هذه المعارك هي الاختبار الحقيقي لخيل الحجاج، فما كان ضعيفاً منها نفق، وبقي القوي ينتظر يوماً جديداً.

وكذلك وصف جرير خيل الحجاج [7]، ووصف أيضاً السفن الحربية التي استخدمها الحجاج، فقال[8]:

سَلَكْتَ لأهْلِ البَـرِّ بَـرّاً فَنِلْـتَهُمْ ... وَفِي اليَمِّ يَأتمُ السَّفِين الجوافلُ[9]

تَـرَى كُـلَّ مِـرْزابٍ يُـضَمِّنُ بَهْوَهَـا ... ثَمَـانينَ أَلْفـاً زَايَلَتْهَـا المَنَـازِلُ[10]

جَفُـولٍ تَـرَى المِـسْمَارَ فِيهَـا كَأَنَّـهُ ... إذَا اهتزَّ جِذعٌ من سُمَيْحَةَ ذابلُ[11]

---

(1) المبرد: الكامل ٣/١١٢٠.

(2) ديوان الأخطل: ص ٤٠٥-٤٠٦.

(3) الخوص: الغائرة الأعين من التعب. زجور: الناقة التي تعرف بعينيها وتنكر بأنفها.

(4) المذكي: الجواد الكامل التام في سنه وقوته. الغوار: الغارة.

(5) جفور: ذهاب النشاط.

(6) قطع: أهلك. عجافهن: مهازيلهن. الجرد: الخيول خفيفة الشعر.

(7) انظر: ديوان جرير ١/٤٠٤.

(8) ديوان جرير ١/٤٠٥-٤٠٦.

(9) الجوافل: المسرعة.

(10) المرزاب: السفينة الضخمة.

(11) المسمار: الصاري. سميحة: بئر بالمدينة.

إذا اعْتَـرَكَ الكَـلاَّءُ والمـاءُ لـمر تُقِـدْ بأمْـرَاسِهـا حتـى تَثُـوبَ القَنَابِـلُ[1]
تخـالُ جبـالَ الـثّلج لَمَّـا تَرَفَّعَـتْ أجلَّتْهـا والكيـدُ مـنهنّ كامِـلُ[2]
تـشقُ حَبَـابَ المـاءِ عَـنْ وَاسِـقَاتِهِ وَتَفْرِسُ حُوتَ البَحْرِ مِنْهَا الكَلاكِلُ

فالحجاج يستخدم كل الوسائل المناسبة، فأهل البر يستخدم لهم الخيل، وفي البحر السفن الحربية، وليست أي سفن، فهي سفن واسعة جداً تتسع لثمانين ألف من المقاتلين، سريعة السير،لا يتمكن من السيطرة عليها عدد كبير من الرجال، يخال الرائي أشرعتها جبالاً من الثلج إلا أنها ملأى بالسلاح. وهي قوية تمشي قدماً تشق الماء والأمواج بل تقتل الحيتان التي تعترض طريقها دون أن تتوقف. وهذه الأوصاف المباشرة لأسطول الحجاج الحربي تدل على ما وراءه من كثرة عدد جنوده الذين يرسل من أجلهم كل هذا الأسطول، وثقل عتاده الحربي الذي تمتلئ به هذه السفن، وسرعة إيصالها للغوث والعون ممن يحتاج إليه من أنصار الحجاج مما يبعث الرعب في قلوب أعدائه، ويجعلهم يفكرون كثيراً قبل الخروج عليه أو على الخلافة الأموية.

ومن الآلات الحربية التي استخدمها الحجاج كثيراً "المنجنيق". وقد أسهب "العجاج" في وصف المنجنيق الذي استخدمه الحجاج في ضرب جيش ابن الأشعث وصفاً يدل على قوة هذا المنجنيق وأدائه لمهمته، ومما قاله[3]:

وَكُـلُّ أُنْثَـى حَمَلَـتْ أَحْجَـارَا تُنْـتَجُ حِـينَ تُلْقَـحُ انبِقَـارا
تَـرَى بِحَيْـثُ وَقَعَـتْ غُبَـارا كَمَـا تَـرَى فـي الهُـوَّةِ الأُورَا[4]
إِذَا سَـمِعتَ صَـوتَها الخَـرَّارا يَهْـوي أَصَـمُّ صَـقْعُها الـصَّرَّارا[5]
كَـأنَّ فـي أَلْـوَانِهم صُـفارا وأُمْهَـاتِ هَامِهِـم دُوَارا
إذ حَـرِجَ المـوتُ بهـم وَدَارا وَرَعَـدَ العَـارِضُ واسـتَطَارا[6]

(١) الكلاء: مجتمع السفينة. الأمراس: الحبال. القنابل: الجماعات.
(٢) أجلتها: أشرعتها. الكيد: السلاح.
(٣) ديوان العجاج ص ٢٧٠ـ ٢٧٣.
(٤) الأوار: اللهب يخرج من الأرض.
(٥) الخرار: المُصوت. الصوار : نوع من الطيور.
(٦) حرج: لزق. استطارا: اتسع الشر.

في وصف طويل جداً، فالمنجنيق كالمرأة الحامل لابد أن تضع مولودها، والمنجنيق لابد أن يضع حجراً قوياً على الأعداء، والشاعر يعطي النتائج الإيجابية لاستخدام المنجنيق، فهو يثير الغبار على جيش العدو إذا وقع، ثم تشتعل به النيران فيما حوله وتصم آذان الأعداء بصوته القوى، ثم يعطي النتائج النفسية لاستخدامه، فهو يبث الرعب في قلوبهم فتصفر ألوانهم، وتدور رؤوسهم لما يعنيه من قرب الموت منهم، وهو ـ أي الموت ـ أكثر ما يخافون، وبالتالي لا يركزون على القتال والكر والفر وهو ما يريده الحجاج. فكأنما الشاعر أراد أن يقول إن الحجاج ذكي جداً في استخدامه للمنجنيق، فهو يعرف كيف يختار آلاته الحربية. وهذا الوصف المطول الدقيق لمنجنيق الحجاج يبعث على التساؤل عن عدم وصف مادحيه للمجانيق التي استخدمها الحجاج في ضرب الكعبة وهي أكثر وأشهر من هذا المنجنيق!! وقد يكون ذلك لما ينطوي عليه من دلالة ربما تُحمل ضد الحجاج؛ أي أن أعداءه يحملون ضربه الكعبة على استخفاف بمقامها، فتجنبوا الوقوع في هذا المأزق بعدم الإشارة إليه والضرب عنه صفحاً.

ووصف الشعراء السهام التي استخدمها الحجاج، قال العجاج[1]:

أَوْرَدَ حُــذّاً تَســبِقُ الأَبْصَارا	يَســبقْنَ بالموتِ القَنَا الحِرَارَا
تُســرِعُ دُونَ الجُــنَنِ البِشَارا	وَالمِشْرَفِيَّ وَالقَنَا الخَطَّارَا

فسهامه سريعة تسبق النظر وتسبق بالموت إلى الخصم قبل الرماح العطشى، وهي لسلاستها تصيب جسد الخصم حتى لو كان لابساً درعاً. فالدروع قد تقيه السيف والرمح لكن لا تقيه هذه السهام التي مع جند الحجاج، وهذه لفتة لطيفة في الشعر من وصف للسهم وتغلبه على الدرع.

فالحجاج في نظر مادحيه من الشعراء حريص على عدته الحربية يختارها من أفضل الأنواع سواء أوسائل النقل كالسفن والخيل أم السلاح كالمنجنيق والسهام.

والحجاج في حروبه تلك يوطد أركان دولة بني أمية ويخضع أعداءها ويؤمن أطرافها ويوسع رقعتها، وبعد هذا كله يجلب الغنائم الثمينة ويرسلها إلى الخليفة الأموي، قال

---

(١) ديوان العجاج ص ٣٧٠.

الأخطل[1]:

وَأخُــو الـصَّفَاءِ فَمَــا تَــزالُ غَنيمَـــةٌ	مِنْــهُ يَجِــيءُ بِهَـــا إليْــكَ بَـــشِيرُ
وَتَــرَى الرَّوَاسِــمَ يَخْــتَلِفْنَ وَفَوْقَهَـــا	وَرِقُ العِـــــرَاقِ سَـــبَائِكٌ وَحَرِيـــــرُ
وَبَنَـاتُ فَـارِسَ كُـلَّ يَـومٍ تُـصْطَفَى	يَبْلُــــونَهُنَّ وَمَــــــالَهُنَّ مُهُــــورُ

فهو يحمل الأموال والإماء إلى الخليفة.

ارتباط الحجاج بالله في حروبه:

وفي خضم المعارك وشدتها يصور الشعراء الحجاج شديد الارتباط بالله، فهو يستخير الله قبل كل معركة، وقبل كل خطوة عسكرية، قال العجاج[2]:

فَمَا قَضَى أمْراً وَلا أحَارَا	في الحَرْبِ إلا رَبَّهُ اسْتَخَارَا

ويكثر من الدعاء، قال جرير[3]:

دَعَـــا الحجـــاجُ مِثْـــلَ دُعَـــاءِ نُـــوحٍ	فَأسْـــمَعَ ذَا المَعَـــارِجِ فاسْـــتَجَابَا
صَـبَرتَ الـنَّفْسَ يَـا ابْـنَ أبـي عَقِيـلٍ	مُحَافَظَـــةً فَكَيْـــفَ تَـــرَى الثَّوابَـــا
وَلَـــوْلَـــمْ يَـــرْضَ رَبُّـــكَ لَـــمْ يُنَـــزِّلْ	مَـــعَ النَّـــصْرِ المَلائكَـــةَ الغِـــضَابَا

فهو يدعو مثل دعاء نبي الله نوح واستجاب له الله، وأنزل له مع النصر ملائكة غضابا على أعداء الحجاج أكدوا هذا النصر، وتتكرر هذه الصورة من الدعاء والنصر والملائكة عند الفرزدق[4]:

دَعَـوا وَدَعَـا الحجـاجُ وَالخَيْـلُ بَيْنَهَـا	مَدَى النَّبْلِ فِي سَامِي العَجَاجَةِ أكْدَرَا
إلَـى بَاعِـثِ المَـوتَى لِيُنْـزِلَ نَـصْرَهُ	فَـــأنْزَلَ للحجـــاجِ نَـــصْراً مُـــؤَزَّرَا
مَلائِكَــةً مَــنْ يَجْعَــلِ اللهُ نَــصْرَهُمْ	لَـهُ يَـكُ أعْلَـى فِـي القِتَـالِ وَأصْـبَرَا

---

(١) شعر الأخطل ص ٤٠٥.

(٢) ديوان العجاج ص ٣٦٨.

(٣) ديوان جرير ٢٤٤/١.

(٤) شرح ديوان الفرزدق ٣٠٠/١.

فجعل الشاعر الحجاج يدعو الله في وقت ضنك وقد تقارب الصفان وبدأ غبار المعركة يتطاير، بل ليس الحجاج وحده الذي يدعو فكلا الفريقين يدعو فاختار الله النصر للحجاج، وأنزل مع النصر ملائكة يرفعون قدر من يقاتلون معه.

وحرب الحجاج عموماً في نظر الشعراء مرتبطة أساساً بالدين فهي حرب لنصر الدين، قال الأخطل[1]:

وَالخَيلُ يُتْعِبُهَا عَلَى عِلاتِهَا   للهِ مُنْتَصِبُ الفُؤَادِ شَكُورُ

والأمر كذلك في رأي الفرزدق[2]:

وَكَانَتْ ظُبَاتُ المِشْرَفِيَّةِ قَدْ شَفَى   بِهَا الدِّينَ وَالأَضْغَانَ ذَاتَ الخَوَالِفِ[3]

لذلك هو أشبه ما يكون بخالد بن الوليد سيف الله المسلول (ت ٢١هـ) في نظر العُديل بن الفرخ[4]:

فَأَنْتَ كَسَيفِ اللهِ في الأَرْضِ خَالِدٍ   تَصُولُ بِعَونِ اللهِ حِينَ تَصُولُ

لذا ففقد الحجاج كان فقداً لمقاتل يرعى الدين عن طريق السيف[5]:

وَمَاتَ الذِي يَرْعَى عَلَى النَّاسِ دِينَهُمْ   وَيَضْرِبُ بِالهِنْدِي رَأسَ المُخَالِفِ

ولارتباط الحجاج بالناحية الدينية جعل الشعراء حربه تلك جهادا،فقال جرير[6]:

وَبَسْطُ يَدِ الحجاجِ بِالسَّيْفِ لَمْ يَكُنْ   سَبِيلُ جِهَادٍ وَاستُبِيحَ الحَلائلُ

وقال الفرزدق[7]:

فَجَرِّدْ لَهُمْ سَيْفَ الجِهَادِ فَإِنَّمَا   نُصِرْتَ بِتَفْوِيضٍ إلى ذِي الفَوَاضِلِ

فالشعراء في حديثهم عن شخصية الحجاج الحربية لا ينسون أن يربطوها بالدين، فالحجاج إنسان متدين لا يغيب الله عن باله في أصعب الأوقات وقد قربت الصفوف وعلا غبار المعركة، وحروبه إنما هي نوع من الجهاد لأنها على الخارجين عن الإسلام.

---

(١) شعر الأخطل ص ٤٠٥.

(٢) شرح ديوان الفرزدق ٥٣١/٢.

(٣) الخوالف: الشرور والضغائن.

(٤) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ٣٦٢/٢٢.

(٥) شرح ديوان الفرزدق ٥٣٠/٢.

(٦) ديوان جرير ٤٠٣/١.

(٧) شرح ديوان الفرزدق ٦٩٦/٢.

الشكوى إلى الحجاج:

ومن تمام الناحية الدينية والإدارية في القائد العسكري الجيد أن يفتح بابه للمظالم، وكذلك فعل الحجاج ففتح بابه للمظالم، فبرز شعر الشكوى الذي يدل على أن الجنود يجدون -لاريب- أذنا صاغية من الحجاج، فهذا أحد جنود المهلب يرفع شكوى في المغيرة ابن المهلب (ت ٨٢هـ) نفسه، لم تمنعه مكانة المغيرة، ومكانة أبيه من الحجاج من أن يشكوه لاستئثاره بالحصاد وعدم توزيعه في الجند[١]، قال[٢]:

وَلَو عَلِمَ ابنُ يُوسُفَ مَا نُلاقِي ... مِنَ الآفَاتِ وَالكُرَبِ الشِّدَادِ

لَفَاضَتْ عَيْنُهُ جَزَعًا عَلَينَا ... وَأَصْلَحَ مَا اسْتَطَاعَ مِنَ الفَسَادِ

أَلا قُلْ لِلأَمِيرِ جُزِيْتَ خَيرًا ... أَرِحْنَا مِنْ مُغِيرَةَ وَالرَّقَّادِ[٣]

فَمَا رُزِقَ الجُنُودُ بِهَا قَفِيزا ... وَقَدْ سَاسَتْ مَطَامِيرُ الحَصَادِ

فالشاعر عنده يقين بأن الحجاج لو علم حقيقة أمورهم لجزع عليهم وأسرع لإصلاح الفساد، فهو في نظر الشاعر ليس بالأمير الذي لا يهتم إلا بإصلاح شؤون القادة وطلب مودتهم.

كذلك شكا أهل خراسان أميرهم "أمية بن عبد الله" إلى الحجاج لأنه قعد عن الجهاد[٤]، إذ قالوا[٥]:

أحجاجُ بنُ يوسفَ أَنْتَ رَاعٍ ... وَرَاعِي القَومِ يَحْفَظُ مَا أَضَاعُوا

وَإِنَّا مَعْشَرٌ مِنْ جَذْمِ قَيسٍ ... لَنَا فِي النَّاسِ مَكْرُمَةٌ وَبَاعُ

عَبَرْنَا حُقْبَةً وَلَنَا أَمِيرٌ ... جَبَانُ القَلْبِ ذُو خَوفٍ يَرَاعُ

ثم مضوا في شكواهم.

---

(١) انظر: المبرد: الكامل ٣/ ١١٤٨.

(٢) المبرد: الكامل ٣/ ١١٤٨- ١١٤٩.

(٣) الرُّقاد: الرجل الذي ضمه المهلب إلى ابنه المغيرة لجمع الخراج فاستأثرا به (المبرد: الكامل ٣/ ١١٤٨).

(٤) انظر: ابن أعثم: الفتوح ٧/ ١٣.

(٥) ابن أعثم: الفتوح ٧/ ١٣.

استعطاف الحجاج:

ومن الأنواع الشعرية التي برزت في مجال الحرب شعر الاستعطاف، إذ حُمل إلى الحجاج أحد أصحاب شبيب، فجاءت خلفه مجموعة كبيرة من النساء ذكر أنه يقوم عليهن، وتقدمت إحداهن مستعطفة الحجاج لفك أسره[1] قائلة[2]:

أحجـاجُ لَـوْ تَـشْهَدْ مَقَـامَ بَنَاتِـهِ ... وَعَمَّاتِـهِ يَنْدُبْنَـهُ الليـلَ أجْمَعَـا

أحجـاجُ إِمَّـا أنْ تَمُـنَّ بِتَرْكِـهِ ... عَلَيْنَـا وَإِمَّـا أنْ تُقَتِّلَنَـا مَعَـا

فَمَـنْ رَجُـلٌ دَانٍ يَقُـومُ مَقَامَـهُ ... عَلَيْنَـا فَمَهْـلاً لا تَزِدْنَـا تَضَعْـضُعَا

فتأثر الحجاج بشعرها كثيراً، ورحم هؤلاء النسوة ورد قيمهن عليهن، وزاد في عطائه لما عرف من ضخامة مسؤوليته[3]، وهذا الخبر وإن دل على تسامح الحجاج مع خصومه إلا أنه يدل في الوقت نفسه على تأثره بما يجري أمامه من شعر.

شكر الحجاج والاعتراف بجميله:

وبرز مع شعر الحرب نوع آخر من الشعر . قد يكون قليلاً في الأدب العربي، هو شعر الشكر والاعتراف بالجميل، إذ عفا الحجاج عن أحد أصحاب أعتى أعدائه "قطري"، وقد أتي به أسيراً فمنّ عليه لصداقة كانت تربط بينهما، فانطلق لسان هذا الخارجي بالشكر للحجاج لما طلب منه قطري معاودة محاربة الحجاج[4]، فقال[5]:

أأُقَاتِـلُ الحجـاجَ عَـنْ سُـلْطَانِهِ ... بِيَـدٍ تُقِـرُّ بِأنَّهَـا مَولاتُـهُ؟

مَـاذَا أَقُـولُ إِذَا وَقَفْـتُ إِزَاءَه ... فِـي الـصَّفِ وَاحْتَجَّـتْ لَـهُ فَعَلاتُـه؟

أأقُـولُ جَـارَ عَلَـيَّ؟ لا إِنِّـي إِذَنْ ... لأَحَـقُّ مَـنْ جَـارَتْ عَلَيْـهِ وُلاتُـهُ

فالشاعر يدين بالولاء للحجاج الذي يصوره ملك صاحب أياد بيضاء في أبيات طويلة

(١) انظر: ابن أعثم: الفتوح ٧/ ٧٠.

(٢) ابن أعثم: الفتوح ٧/ ٧٠-٧١.

(٣) انظر: ابن أعثم الفتوح ٧/ ٧١.

(٤) انظر: الصولي: أخبار أبي تمام ص٢٠٥.

(٥) الصولي: أخبار أبي تمام ص ٢٠٦.

تدل على تصميم هذا الخارجي على عدم معاودة قتال الحجاج وإن لم يتخل عن مذهبه.

وبهذا يلاحظ أن سمات الحجاج الحربية كانت هي الطاغية على شعر الشعراء، وقد تتبعوا دقائق شخصيته الحربية وصوروها في أشعارهم، ومن خلال شعر الحرب برزت أنواع شعرية أخرى كالاستعطاف والشكوى والشكر.

هيبة الحجاج:

وللحجاج هيبته خارج نطاق الحروب والأيام، هيبة تلفت النظر وتسترعي الانتباه، فالشعراء يظهرون خوفاً ورعباً شديداً من الحجاج ويتمادون في ذلك، والشاعر رجل والرجل يأنف من إظهار خوفه من رجل آخر بهذه الطريقة الصريحة المبالغ فيها، إلا أن الحجاج على ما يبدو كان له تأثير آخر في نفوس الرجال.

وشخصية عرفت بالأنفة والترفع مثل الفرزدق الذي يفخر دوماً بأنه معم مخول لا يأنف من إفراد مقطوعتين شعريتين في التعبير عن خوفه من الحجاج قال في إحداهما[1]:

إِذَا مَـا بَـدَا الحجـاجُ لِلنَّـاسِ أَطْرَقُـوا ... وَأَسْـكَتَ مِنْهُمْ كُـلُّ مَنْ كَـانَ يَنْطِقُ

فَمَـا هُــوَ إلا بَائِــلٌ مِــنْ مَخَافَــةٍ ... وَآخَـرُ مِـنْهُمْ ظَـلَّ بِـالرِّيقِ يَـشْرَقُ

وَطَـارَتْ قُلُـوبُ النَّـاسِ شَـرْقاً وَمَغْرِبـاً ... فَمَـا النَّـاسُ إلا مُهْجِـسٌ أَوْ مُلَقْلِـقُ[2]

فجميع الناس خائفين منه دون استثناء، وجميع صور الخوف تظهر إذا ظهر الحجاج ما بين إطراق وسكوت وتبول لا إرادي وشرق بالريق وغيره. كل هذه الهيبة إذا بدا الحجاج للناس ولم يتهددهم بعد وليس لهم جريمة وليس غاضباً منهم، فكيف إذا ما كان لهم جريمة والحجاج ساخط عليهم؟.

أما الذين أغضبوا الحجاج أو غضب هو عليهم وهم كثر، فيصورون هيبة الحجاج وتأثيره في نفوسهم في صور شتى تتفق في إظهار شدة الرعب من الحجاج، كقول محمد بن عبد الله النميري (ت نحو ٩٠هـ)[3]:

أَخَـافُ مِـنَ الحجـاجِ مَـا لَـسْتُ خَائِفـاً ... مِـنَ الأَسَـدِ العِرْبَـاضِ لَـمْ يَثْنِـهِ ذُعَـرُ

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢/٥٩٣.

(٢) ملقلق: يهذي بلا عقل.

(٣)أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ٦/ ١٨٨.

أَخَــافُ يَدَيْــهِ أَنْ تَنَــالا مَقَــاتِلِي بِأَبْيَضَ عَضْبٍ لَيس مِنْ دُونِهِ سِتْرُ

وقال غوية بن سلمى[1]:

وَدِدْتُ مَخَافَــةَ الحجــاجِ أَنِّــي بِكَابُــلَ فِــي..... شَــيْطَانٍ رَجِــيمِ

وَدِدْتُ مَخَافَــةَ الحجــاجِ أَنِّــي مِــنَ الحِيتَــانِ فِــي بَحْــرٍ أَعُــومُ

وهنا أقوى الشاعر، فلما سئل قال: لو كان في عقل ما أقويت[2]، فكأنه عبر قولاً وعملاً على شدة خوفه من الحجاج. وقال البراء بن قبيصة[3]:

أُخَــوَّفُ بِالحجــاجِ طَــوْراً وَمَــنْ يَكُــنْ طَرِيــداً لِلَيْــثٍ بِــالعِرَاقَينِ يَفْــرقِ

كَــأَنَّ فُــؤادي بَــينَ أَظْفَــارِ طَــائِرٍ مِـنَ الخَـوفِ فِـي جَـوِّ السَّمَاءِ مُعَلَّـقِ

حِــذَارَ امــرِئٍ قَــدْ يَعْلَــمُ اللهُ أَنَّــهُ مَتَـى مَـا يَعِـدْ مِـنْ نَفْسِهِ الشَّرَّ يَـصْدُقِ

فكل الشعراء يذكرون الخوف صراحة، بل كلهم يكررون لفظة الخوف في كل بيت تقريباً. ويصور الشاعر الأول خوفه بأنه شرٌّ من خوفه من الأسد العرباض، ويعلل الشاعر الأخير خوفه بأنه ليس مستغرباً لأنه خائف من ليث، ويزيد في البيت الأخير تعليلاً آخر لخوفه من الحجاج، وهو علمه بأن الحجاج متى أوعد نفذ.

وقد تفنن الشعراء في التعبير عن خوفهم حتى ربطوا بينه وبين نومهم، فقال عبيد بن أيوب[4]:

أَذِقْنِيَ طَعْمَ النَّومِ أَوْ سَلْ حَقِيقَةً عَلَيَّ فَإِنْ قَامَتْ فَفَصِّلْ بَنَانِيَا

فعبيد يستجدي الحجاج النوم، لأنه ما دام الحجاج غاضباً منه فلن يذوق النوم. وجرير

---

(١) أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي: الوحشيات وهو الحماسة الصغرى، تحقيق: عبد العزيز الميمني وزاد في حواشيه: محمود محمد شاكر (القاهرة، دار المعارف، ط٢) ص ٢٩٥.

(٢) انظر: أبا تمام: الوحشيات ص٢٩٥.

(٣) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي: تعليق من أمالي ابن دريد، تحقيق: السيد مصطفى السنوسي (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤) ص ٨٣.

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/٣٠.

قال[1]:

وَمَا ذُقْتُ طَعْمَ النَّومِ إلا مُفَزَّعاً　　　وَمَا سَاغَ لي بَيْنَ الحَيَازِمِ رِيْقُ

فجرير يذوق طعم النوم، لكنه نوم الفزع الذي قد يكون السهر أجدى منه.

وهذا نويفع بن لقيط الأسدي (ت نحو ٩٠هـ) يشبه نومه بنوم السليم أي اللديغ، قال[2]:

أُسَهَّدُ مِنْ نَوْمِ العِشَاءِ كَأَنَّنِي　　　سَلِيمٌ يُغَرُّ الضِّرْوَ بِالنَّبَوانِ[3]

فالسليم يمنع من النوم لئلا يسري السم في عروقه، ونويفع يمنعه الخوف من لدغة الحجاج من النوم. أما البراء بن قبيصة فالهم الذي يملأ صدره من خوف الحجاج أصابه بالأرق، فقال[4]:

أَرِقْتُ بِأَحْسَاءِ العُنَابِ وَمَنْ يَكُنْ　　　لَهُ مِثْلُ أَضْيَافِي مِنَ الهَمِّ يَأْرَقِ

والملاحظ أن عبيد بن أيوب أكثرهم قدرة على استغلال النوم في إظهار الخوف الشديد من الحجاج؛ إذ نفى عن نفسه القدرة على النوم تماماً، ثم جعل يستجديه من الحجاج الذي كأنما سلبه منه لأن خوفه من الحجاج هو السبب في ذلك. أما بقية الشعراء فهم ينامون إلا أن نومهم يشوبه الفزع أو السهاد أو الأرق، وإن كان في تشبيه نويفع بن لقيط لنومه بنوم السليم جمالاً جاء من اقتباسه من صميم البيئة والعادات السائدة فيها.

وربط الشعراء بين الخوف وقلوبهم، إذ الخوف دائما محله القلب، فقال عبيد بن أيوب[5]:

خَلَعْتَ فُؤَادِي فَاسْتَطَارَ فَأَصْبَحَتْ　　　تَرَامَى بِهِ البِيْدُ القِفَارُ تَرَامِيَا

فلشدة خوفه كأنما خلع قلبه من جوفه، وأخذ يطير بين القفار الواسعة فلا يلتمسه الشاعر أبداً، أما نويفع بن لقيط فقال[6]:

---

(١) ديوان جرير ٢٧٣/١.

(٢) ابن سلام، محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر (القاهرة، مطبعة المدني) ٦٤٤/٢.

(٣) يغر: يؤكل. الضرو: شجر يتداوى به. النبوان: موضع.

(٤) ابن دريد: تعليق من أمالي ابن دريد ص ٨٣.

(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٢/ ٣٠.

(٦) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٦٤٤/٢.

عَلَيْهِ تَمِيمَاتٌ كَأَنَّ فُؤَادَهُ   جَنَاحَا عُقَابٍ دَائِمُ الخَفَقَانِ

فقلبه كجناحي الطائر الدائم الخفقان، فلا يكاد يهدأ لشدة رعبه، والبراء بن قبيصة جعل قلبه معلقاً بين أظفار طائر فقال[1]:

كَأَنَّ فُؤَادِي بَينَ أَظْفَارِ طَائِرٍ   مِنَ الخَوفِ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مُعَلَّقِ

فقلبه معلق بين السماء والأرض يتُوقع أن يسقط في أية لحظة. فهؤلاء الشعراء فقدوا السيطرة على قلوبهم والتحكم فيها لما لبسهم من خوف الحجاج وهيبته، وهذه الهيبة دفعتهم للتأمل في تأثيرها في نفوسهم فوجدوها تسكن القلب وتطرد النوم من العين.

ويضيف الشعراء في أبياتهم عن هيبة الحجاج تصوير قدرته وبعد حيلته ، فهو ليس بالرجل السهل الذي يستطيع عدوه الاختباء منه، كما قال الفرزدق [2]:

وَلَوْ أَنّي بِصِينِ اسْتَانِ أَهْلِي   وَقَدْ أَغْلَقْتُ مِنْ هَجَرَينِ بَابَا
عَلَيَّ رَأَيْتُ يَا ابنَ أَبِي عَقِيلٍ   وَرَائِي مِنْكَ أَظْفَاراً ونَابَا

فلو كان الفرزدق مغلقا على نفسه مساحة كبيرة من هجر إلي الصين فهو واثق بأن الحجاج لابد واصل إليه بعقابه. وقال العديل بن الفرخ[3]:

فَلَو كُنْتُ فِي سَلْمَى أَجَا وَشِعَابِهَا   لَكَانَ لِحجاجٍ عَلَيَّ دَلِيلُ

فالعديل لو كان في جبلي أجا وسلمى مختبئاً في شعابها لوجد الحجاج من يدله عليه، فلا فائدة من الاختباء. وقال نويفع بن لقيط[4]:

لَوْ كُنتُ فِي العَنْقَاءِ أَوْ فِي عِمَايَةٍ   ظَنَنْتُكَ إلا أنْ تَصُدَّ تَرَانِي
تَضِيقُ بِيَ الأَرْضُ الفَضَاءُ لِخَوفِهِ   وَإِنْ كُنتُ قَدْ طَوَّفْتُ كُلَّ مَكَانِ

فهو واثق أن الحجاج سيجده حتى لو اختبأ في العنقاء أو عماية، واختار هذين الجبلين

---

(١) ابن دريد: تعليق من أمالي ابن دريد ص ٨٣.

(٢) شرح ديوان الفرزدق ٩٢/١.

(٣) المبرد: الكامل ٢٤٢/٢.

(٤) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٦٤٣/٢-٦٤٤.

لأنهما أكثر جبال العرب وعورة، وقد اعتاد الفارون من السلطان الاختباء فيها، واعترفوا بحمايتها لهم كما قال القتال الكلابي[1]:

جَـزَى اللهُ خَيْـراً وَالجَـزَاءُ بِكَفِّـهِ عِمَايَـةَ عَنَّـا أمَّ كُـلِّ طَرِيْـدِ
فَـلا يَزْدَهِيهَـا القَـومُ إنْ نَزَلُـوا بِهَـا وَإنْ أرْسَـلَ السُّلْطَانُ كُـلَّ بَرِيْـدِ

أما الفارون من الحجاج فلا تحميهم! بل تضيق عليهم الأرض بما رحبت كما ذكر نويفع بن لقيط.

وفي تصوير هيبة الحجاج في نفوس الفارين منه وشعورهم الأكيد بقدرته على الوصول إليهم يزيد جرير على معاني غيره من الشعراء زيادة لطيفة، قال[2] :

وَخِفْتُكَ حَتَّى اسْتَنْزَلَتْنِي مَخَافَتِي وَقَدْ حَالَ دُونِي مِنْ عِمَايَةَ نِيقُ[3]

وقال أيضاً[4]:

وَمَازِلْتَ حَتَّى أَسْهَلَتْ مِنْ مَخَافَةٍ إلَيْكَ اللواتِي فِي الشُّعُوقِ العَوَاقِلُ[5]

فالحجاج لم يبحث عن جرير أو غيره من الفارين وجرير مع تحصنه في عماية . وما أدراك ما عماية . وغيره من الفارين المتحصنين في شقوق الجبال العالية ينزلهم خوفهم من الحجاج من معاقلهم، ويسلمون له أنفسهم لشدة خوفهم منه وتأكدهم من قدرته على الوصول إليهم.

أما الفرزدق فجدد في مكان اختبائه، وأكد أكثر إمكانية وصول الحجاج إليه، فقال[6]:

وَلَوْ حَمَلَتْنِي الرِّيحُ ثُمَّ طَلَبْتَنِي لَكُنْتُ كَشَيءٍ أدْرَكَتْهُ مَقَادِرُهْ

فهو لم يختبئ في الجبال الحصينة أو البلاد البعيدة، بل حملته الرياح واختبأ بين السماء والأرض، ومع ذلك لو طلبه الحجاج فسيدركه. فمجرد طلب الحجاج كالقدر

---

(1) ديوان القتال الكلابي، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت، دار الثقافة، ١٤٠٩هـ. ١٩٨٩م) ص٤٥.
(2) ديوان جرير١/٤٠٣.
(3) نيق: نيق الجبل أي أعلاه.
(4) ديوان جرير ١/٤٠٣.
(5) الشعوف: أعلى الجبال. العواقل: المتحرزات.
(6) الصولي: أخبار أبي تمام ص ٢٠، ولا يوجد هذا البيت في ديوان الفرزدق.

المحتوم لابد واقع.

بل مجرد ذكر اسم الحجاج له هيبة تنفطر لها قلوب الفارين منه، قال العديل بن الفرخ[1]:

أُخَــوَّفُ بِالحجــاجِ حَتَّــى كَأَنَّمَــا يُحَـرَّكُ عَظْـمٌ فِـي الفُـؤَادِ مَهِـيضُ[2]

وَدُونَ يَــدِ الحجــاجِ مِــنْ أَنْ تَنَــالَنِي بِــسَاطٌ لأَيْــدِي الــيَعْمُلاتِ عَــرِيضُ

مَهَامَــةُ أَشْــبَاهٌ كَــأَنَّ سَــرَابَهَا مُــلاءٌ بِأَيْـدِي الغَاسِـلاتِ رَحِـيضُ[3]

فحتى القلة من الشعراء الذين أحسوا بأنهم أحسنوا الاختباء من الحجاج لا يعطيهم هذا الأمان،بل تتفطر قلوبهم رعباً كلما ذكر اسم الحجاج أمامهم.

وللحجاج عقاب صارم صوره الشعراء فقال الفرزدق [4]:

فَعَفْــوكَ يَــا ابْــنَ يُوسُــفَ خَيْــرُ عَفْــوٍ وَأَنْــــتَ أَشَــــدُّ مُنْــــتَقِمٍ عِقَابَــــا

رَأَيْــتُ النَّــاسَ قَــدْ خَــافُوكَ حَتَّــى خَــشَوْا بِيَــدَيْكَ أَوْ فَرَقُــوا الحِــسَابَا

فالناس قد خشوا عقاب الحجاج حتى أحسوا بأنهم سيسقون قدرهم على يديه.

وقال الفرزدق على لسان زوجه النوار تحذره الحجاج[5]:

تَــنَحَّ عَــنِ الحجــاجِ إِنَّ زِحَامَــهُ شَـدِيدٌ إِذَا أَغْـضَى عَلَـى مَـنْ يُزَاحِمُـه

وَمَــنْ يَــأْمَنِ الحجــاجَ وَالجِــنُّ تَتقِــي عُقُوبَتَــــهُ إلا ضَــــعِيفٌ عَزَائمُــــه

فمن يزاحم الحجاج لا يأمن عقوبته، وكيف يأمنها والجن تتقيها. وجرير أيضاً يستنكر على من يأمن عقاب الحجاج إذ قال[6]:

وَمَن يَأْمَنِ الحجاجَ أَمَّا عِقَابُهُ فَمُرٌّ وَأَمَّا عَقْدُهُ فَوَثِيقُ

(1) الجاحظ: البيان والتبيين ٩٢/١.

(٢) المهيض: العظم الذي كسر ثم جبر ثم كسر.

(٣) الرحيض: المغسول.

(٤) شرح ديوان الفرزدق ٩٢/١.

(٥) شرح ديوان الفرزدق ٧٦٣/١.

(٦) ديوان جرير ٢٧٣/١.

بل بلغ الخوف في الناس من الحجاج أنهم يخافون وعيده وتهديده أشد الخوف، قال الفرزدق[1]:

إِذَا وَعَدَ الحجاجُ أَوْ هَمَّ أَسْقَطَتْ مَخَافَتُهُ مَا فِي بُطُونِ الحَوَامِلِ

لَهُ صَوْلَةٌ مَنْ يُوقَهَا أَنْ تُصِيبَهُ يَعِشْ وَهْوَ مِنْهَا مُسْتَخِفٌّ الخَصَائِلِ

فصولة الحجاج من لم تصبه يعش مرتعداً طول حياته منها، فكيف بمن أصابته، ولاتقاء هذه الصولة يعرضُ العَديل بن الفرخ الحل إذ قال[2]:

تَرَى الثِّقْلَينِ الجِنَّ وَالإِنْسِ أَصْبَحَا عَلَى طَاعَةِ الحجاجِ حِيْنَ يَصُولُ

فحتى الجن يسيرون بأمره حين يصول خوفاً من عقابه.

فالحجاج له هيبة كبيرة في نفوس معاصريه من الشعراء تملأ قلوبهم بالخوف، وتطرد عن عيونهم النوم، مع ثقة لديهم بأنه لا مهرب من الحجاج ولا ملجأ في الأرض يحميهم من وصوله إليهم، والحجاج كما يصوره معاصروه من الشعراء شديد الصولة، قاسي العقوبة.

والشعر الذي يتحدث عن هيبة الحجاج لا يرمي إلى تصوير مدى الرعب الذي ينشره في قلوب الآخرين كمصدر للشر أو الاعتداء، أو محاولة الانتقام من الحجاج برسمه منبعاً للخوف كالجن والغول كلا ولكن من الواضح أنه نوع من أنواع الاعتذار إلى الحجاج، اعتذار مبطن بصورة الخوف التي رسمها الشعراء على نفوسهم لتبعث الرحمة والتعاطف في قلب الحجاج عليهم.

والدليل على أنهم عمدوا لهذا الأسلوب للاعتذار إلى الحجاج أن هؤلاء الشعراء أجمعوا على التحدث إلى الحجاج بأسلوب عالي الأدب، ولا توجد في شعرهم كلمة نابية في حق الحجاج. وإن أتبعها بعضهم في حق نفسه كغوية السلمي، ثم إنهم عمدوا إلي تصوير الحجاج بصورة القوي القادر على الإمساك بخصمه دون ختَل أو غدر، وهو شديد العقوبة ولكن بعدل كما قال جحدر العكلي (ت نحو: ١٠٠هـ)[3]:

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٦٩٤/١.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٣٦٣/٢٢.

(٣) أبو على القالي : الأمالي ٢٨٢/١.

يُحَاذِرُ صَولَةَ الحجاج ظُلْماً وَمَا الحجاجُ ظَلامٌ لِجَانِي

وهم يعلنون بأنهم ليسوا ضعفاء، ويجدون من يحميهم من كل أحد إلا الحجاج[1]:

وَلَــو غَيْــرُ حجــاجٍ أَرَادَ ظُلامَتــي حَمَتْنِي مِنَ الضَّيمِ السُّيوفُ الفَوَاتِكُ
وَفِتْيَــانُ صِــدْقٍ مِــنْ رَبِيْعَــةَ قُــصْرَةً إِذَا اخْتَلَفَــتْ يَــوْمَ اللِقَــاءِ النَّيَــازِكُ[2]

وهذا أدعى لاستجلاب الرحمة، وقد يعمدون إلى إشهار الطاعة والتقرب إلى الحجاج بمن يحب بعد إظهار الخوف الشديد منه كما فعل نويفع بن لقيط [3]:

وَآلَيــتُ لا آتِيــكَ إلا مُــسَالِماً مَعِي مِنْكَ يَا ابنَ الأكْرَمِينَ أَمَانِي
أَعُوذُ بِقَبْرَي يُوسُفٍ وابنَ يُوسُفٍ أَخِيكَ وَبِالقَبْرِ الذي بِعَدانِ
سَمِيٌّ نَبِي اللهِ، مِنْ أَنْ تَنَالَنِي يَدَاكَ وَمَنْ يَغْتَرُّ بِالحَدَثانِ؟

فهو يتقرب له بقبر والده يوسف وأخيه محمد وابنه محمد ليبعث الرأفة في قلبه بعد أن استغل عامل إظهار الخوف الشديد من الحجاج.

بالإضافة إلى أن جميع هؤلاء الشعراء فعلاً كانوا ذوي ذنوب ويلتمسون العفو من الحجاج، وفعلاً كان أسلوبهم هذا ناجحاً وموفقاً إذ حصلوا جميعاً على العفو من الحجاج بل حبا بعضهم بصلات[4]. وهذه صورة جديدة في الاعتذار اتفق عليها عدد من الشعراء وتوجهوا بها إلى شخص واحد هو الحجاج بن يوسف.

وهنا أمر يثير التساؤل، وهو لماذا أجمع هؤلاء الشعراء على هذا الأسلوب في الاعتذار بدل الاعتذار المباشر؟

إن الحجاج هنا أشبه ما يكون بقائد عسكري، لا أمير مدني وعسكري كما أرادته الخلافة الأموية، فظروف عصر الحجاج وظروف ولايته أجبرته على التركيز على الجانب

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٧٣/١٨ والشعر لأعشى ربيعة.

(٢) قصرة: دنية قريب، النيازك: الرماح القصيرة.

(٣) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٦٤٤/٢-٦٤٥.

(٤) على سبيل المثال انظر: أبا الفرج الأصفهاني: الأغاني ٣٦١/٢٢. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد: بغية الطلب في تاريخ حلب (فرانكفورت، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م) ٤٧/٥.

الحربي وصفات القائد العسكري مما لمسة الشعراء فيه فعمدوا هم أيضاً للتركيز على هذه الناحية للوصول إلى العفو.

أما الاعتذار الصريح والمباشر فموجود في مثال واحد عند مالك بن أسماء بن خارجة (ت نحو ١٠٠هـ)، قال[١]:

لِكُـلِّ جَـوَادٍ عَثْـرَةٌ يَـسْتَقِيلُهَا ... وَعثْـرَةُ مِثْلِـي لاتُقَـالُ مَـدَى الـدَّهْرِ

فَهَبْنِـي يَـا حجـاجُ أخْطَـأتُ مَـرَّةً ... وَجُـرْتُ عَـنِ المُثْلَـى وَغَنَّيْـتُ بِالـشِّعْرِ

فَهَـلْ لِـي إِذَا مَـا تُبْـتُ عِنْـدَكَ تَوْبَـةٌ ... تَـداركُ مَـا قَـدْ فَـاتَ فِـي سَـالِفِ العُمْرِ

فمالك بن أسماء يعتذر بطريق مباشر، فهو يقدم العذر لنفسه، ثم يوضح ذنبه وهو الغناء، وأخيراً يعلن التوبة ويطلب الغفران. فهل لمكانة مالك بن أسماء من أهل الكوفة، ثم علاقة المصاهرة مع الحجاج دخل في اتباعه هذا الأسلوب وانحرافه عن الأسلوب الذي اتبعه معظم شعراء عصره؟؟

وعموماً هذا الاعتذار يدل على الهيبة التي تملأ قلوب حتى كبار شخصيات عصره منه، وعدم تحرجهم من الاعتذار الصريح له، فعلية القوم تأنف من الاعتذار المباشر ولكن مالك بن أسماء لا ينحرج لأنه كما يبدو أن مكانة الحجاج فوق كل مكانة عندهم ما عدا الخليفة كما قالت ليلى الأخيلية[٢]:

حجاجُ أَنْتَ الذي مَا فَوقَهُ أَحَدٌ ... إلا الخَلِيفَةُ وَالمُسْتَغْفَرُ الصَّمَدُ

إصلاحات الحجاج:

ومع انشغال الحجاج بالحروب والأيام والثورات الكثيرة المتتالية لم ينسَ الأوضاع الداخلية في منطقة إمارته، ومما مدح به الحجاج من إصلاحاته الداخلية قول جرير[٣]:

وَثِنْتَـانِ فِـي الحجـاجِ لا تَـرْكُ ظَـالِمٍ ... سَـوِيّاً وَلا عِنْـدَ المُرَاشَـاةِ نَائـلُ

وَمَـنْ غَـلَّ مَـالَ اللهِ غُلَّـتْ يَمِينُـهُ ... إِذَا قِيـلَ أَدُّوا لا يَغُلَّـنَّ عَامِـلُ

وَمَـا نَفَـعَ المُـسْتَعْمَلِينَ غَلُـولَهم ... وَمَـا نَفَعَـتْ أَهْـلَ العُـصَاةِ الجَعَائِـلَ

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٧/١٦٥-١٦٦.

(٢) ديوان ليلى الأخيلية ص ٦٣.

(٣) ديوان جرير ١/٤٠٣.

قَـدِمْتَ عَلَـى أَهْـلِ العِـرَاقِ وَمِـنْهُمُ مُخَـالِفُ دِيـنِ المـسلمين وَخَـاذِلُ
فَكُنْـتَ لِمَـنْ لا يُبْـرِيءُ الـدينُ قَلْبَـهُ شِـفَاءً وَخَـفَّ المُـدْهِنُ المُتَثَاقِـلُ

فهو يمدح الحجاج بأخذه على أيدي الظالمين وعدم قبوله للرشوة وأيضاً محافظته على أموال الدولة بمنع الغلول، ثم ذكر كيف أنه قدم على العراق وهي في حالة بائسة من مخالفة دين الله وخذلانه، فكان له الفضل بعد الله في إرجاع الدين لمكانته في العراق، وهذا أسلوب بديع في إيضاح إصلاحات الحجاج الداخلية، وهو أسلوب التذكير بماضي العراق وحاضره لتتجلى الإصلاحات في أبهى صورها، وقد عمد الفرزدق إلى أسلوب الموازنة هذا بين حالي العراق قبل الحجاج وبعده فقال[1]:

شَـفَيْتَ مِـنَ الـدَّاءِ العـراقَ فَلَـمْ تَـدَعْ بِـهِ رِيْبَـةً بَعْـدَ اصـطِفَاقِ الـزَّلازِلِ
وَكَـانُوا كَـذِي دَاءٍ أَصَـابَ شِـفَاءَهُ طَبِيـبٌ بِـهِ تَحْتَ الـشَّرَاسِيفِ دَاخِـلِ[2]
وَكُنَّا بِـأَرْضٍ يَـا ابـنَ يوسـفَ لـم يَكُـنْ يُبَـالي بِهَـا مَـا يَرْتَـشي كُـلُّ عَامِـلِ
يَـرَونَ إذا الخَـصْمَانِ جَـاءَ إلَـيهِمُ أَحَقَّهُمَـا بِـالحقِّ أَهْـلِ الجَعَائِـلِ
وَمَـا تُبْتَغَـى الحاجـاتُ عِنْـدَكَ بِالرُّشَـى وَلا تُقْتَـضَى إلا بِمَـا فـي الرَّسَـائِلِ
رَسَـائِلِ ذِي الأسْـمَاءِ مَـنْ يَدْعُـهُ بِهَـا يَجِـدْ خَيْـرَ مَـسْؤُولٍ عَطَـاءً لِـسَائِلِ

فالحجاج شفى العراق مما به من علل كثيرة، وكان كالطبيب الحاذق الذي شفى مريضه تماماً، ثم قال مقارناً: كنا بأرض (أي العراق) لا يخاف العمال فيها إذا ارتشوا بل إن الخصمين إذا حضرا لدى القاضي كان من المعروف أن صاحب الحق هو من يقدم الرشوة، أما في عصرك - أيها الحجاج - فلا يصل المرء على ما يريده بالرشوة، بل بما يثبت بالبينة.

ويلاحظ التركيز على الظلم والرشوة والغلول في أرض العراق قبل قدوم الحجاج وكيف عمل الحجاج على منعها ونشر العدل وتصحيح الوضع المادي للعراق.

ولم تقتصر إصلاحات الحجاج على منطقة العراقين (الكوفة والبصرة) بل امتدت لتشمل المناطق القاصية والبعيدة مما يدخل حيز إمارته، فالحُجاج أمنوا على أنفسهم

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢/٦٩٥.

(٢) الشراسيف: أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن.

قال جرير[1]:

وَلَقَدْ كَسَرْتَ سِنَانَ كُلِّ مُنَافِقٍ   وَلَقَدْ مَنَعْتَ حقَائِبَ الحُجَّاجِ

والرعاة البعيدون عن الناس أيضا[2]:

وَمُهْمَلَـــةٍ لَمَّـــا أَتَاهَـــا نَعِيُّـــهُ   أَرَاحَـتْ عَلَيْهَـا مُهْمَـلاتِ التَّنَـايِفِ[3]

وَقَالَــتْ لِعَبْــدَيْهَا أَرِيحَـــا فَعَقِّـــلا   فَقَـدْ مَـاتَ رَاعِـي ذَوْدِنَـا بِـالطَّرَائِفِ[4]

وأمن أيضاً الرجال والنساء الكبيرون في السن[5]:

أَلَــمْ تَعْلَمُـــوا أَنَّ الَّـــذِي تَدْفِنُونَـــهُ   بِـهِ كَـانَ يُرْعَـى قَاصِيَاتُ الزَّعَـانِفِ[6]

وَلَـمْ يَـكُ دُونَ الحُكْـمِ مَـالٌ وَلَـمْ تَكُـنْ   قُـوَاهُ مِـنَ المُـسْتَرْخِيَاتِ الـضَّعَايِفِ

فطريق الحُجاج على بعده، والرعاة على تقصيهم مع قطعانهم، وكبار السن من الرجال والنساء ممن يعيشون في البلاد النائية، كل أولئك استطاع الحجاج حمايتهم مع صعوبة هذا الأمر على غير الحجاج الذي لم تكن قوته مسترخية ضعيفة.

والحجاج في سيرته مع رعيته يراعي الله كثيراً، قال الفرزدق[7]:

وَلَـمْ أَرَ كَالحجـاجِ عَوْنـاً علـى التُّقَـى   وَلا طَالِبـــاً يَوْمـــاً طَرِيْـــدَةَ تَابِـــلِ[8]

وَمَـــا أَصْـبَحَ الحجـــاجُ يَتْلُـــو رَعِيَّـــةً   بِـــسِيرَةِ مُخْتَـــالٍ ولا مُتَـــضَائِلِ

فهو يراعي الله في أمور رعيته، ويسير على هديه في سياستهم، ولا يحكم فيهم إلا

---

(1) ديوان جرير ٤٠٣/١.

(2) شرح ديوان الفرزدق ٥٣٠/٢.

(3) مهملة: أي أهملت قطيعها لثقتها بالحجاج وقوته. التنايف: جمع تنوفة وهي القفر من الأرض.

(4) الطرايف: أي أطراف الأرض.

(5) شرح ديوان الفرزدق ٥٣١/٢.

(6) قاصيات: ما تقصى في المراعي وتباعد. الزعانف: الضعفاء من الرجال والنساء.

(7) شرح ديوان الفرزدق ٦٩٥/٢.

(8) تابل: التبل العداوة.

بكتاب الله[1]:

بَنَــى قُبَّــةَ الإسْــلامِ حَتَّــى كَأَنَّمَــا ... هَـدَى النَّـاسَ مِـنْ بَعْـدِ الـضَّلالِ رَسُـولُ
إِذَا جَــارَ حُكْـمُ النَّـاسِ أَلْجَـأَ حُكْمَـهُ ... إِلَــى اللهِ قَــاضٍ بِالكِتَــابِ عَقُــولُ

لذلك لم يعرف عن الحجاج الظلم كما قال جحدر العكلي[2]:

يُحَاذِرُ صَوْلَةَ الحجاجِ ظُلْماً ... وَمَا الحجاجُ ظَلَامٌ لِجَانِي

شخصية الحجاج المدنية هذه أكسبته احترام كبار شخصيات الكوفة حينذاك، حتى إن الحكم بن المنذر بن الجارود سيد عبد القيس الذي يقول فيه الراجز[3]:

يَا حَكَمَ بنَ المنذرَ بنَ الجَارُودْ ... سُرَادِقُ المجدِ عليك مَمْدُودْ

لما أتي به إلى الحجاج ليسجنه قال الحكم بن المنذر[4]:

مَتَى مَا أَكُنْ فِي السِّجْنِ فِي حَبْسِ مَاجِدِ ... فَــإِنِّي علــى رَيْــبِ الزَّمَــانِ صَــبُورُ
فَلَوْ كُنْتُ خِفْتُ النَّكْثَ وَالغَدْرَ لم أُجِبْ ... دُعَــاءكَ إِذْ كَــانَ الأمَــانَ غــرورُ
لَقَــدْ كنــتُ دَهْــراً مَــا أُخَــوَّفُ بِــالتي ... تَخَــافُ ولايَــسْطُو عَلَــيَّ أَمِيــرُ

فهو لا يرى عيباً في كون سجانه الحجاج الرجل الماجد كما نعته، بل قدم إليه بنفسه لعلمه ببعده عن الغدر والنكث، وإلا فإنه مع قبيلته في مأمن من كل أمير.

وتلك الشخصية الرزينة التي عرفت عن الحجاج جعلت المعاقبين يعلنون رضاهم بتعزير الحجاج لهم لعلمهم بعدله، قال رجل جلده الحجاج ثلاثين سوطا[5]:

وَلَيسَ بِتَعْزِيرِ الأَمِيرِ خِزَايَةً ... عَلَيَّ إذا ما كنتُ غَيرَ مُرِيبِ

فالحجاج بعد قضائه على الخوارج وابن الاشعث أثبت قدرته العسكرية ثم أثبت

---

(1) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ٣٦٢/٢٢.

(2) أبو علي القالي: الأمالي ٢٨٢/١.

(3) ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد: الأشراف، تحقيق: وليد قصاب (الدوحة، دار الثقافة، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م) ص٨٩.

(4) ابن أبي الدنيا: الأشراف، ص ٨٩.

(5) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: عيون الأخبار (بيروت، دار الكتاب العربي) ١٠٤/١.

قدرته المدنية بحسن سياسته في العراق فاستقامت العراق جميعاً للحجاج[1]، فقال الفرزدق ذاكراً ذلك معترفاً به[2]:

إنَّ ابنَ يوسفَ مَحْمُودٌ خَلائِقُهُ ... سِيانِ مَعْرُوفُهُ في النَّاسِ والمَطَرُ

هُوَ الشِّهَابُ الذي يُرْمَى العَدُوُّ بِهِ ... وَالمشْرَفِيُّ الذي تَعْصَى بِهِ مُضَرُ

أَحْيَا العِرَاقَ وَقَدْ ثُلَّتْ دَعَائِمَهُ ... عَمْيَاءُ صَمَّاءُ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ

فهنا اعتراف بقدراته العسكرية والمدنية ثم بيان فضله على العراق منطقة إمارته وكيف أنه أنقذها بعد ما كادت تنتهي بسبب الفتن والقلاقل.

فالحجاج له دور كبير في تحقيق الأمن في العراق والمناطق المحيطة الداخلة ضمن حدود إمارته فمنع الظلم والرشوة والغلول وقطع دابر اللصوص وحمى الحُجاج وكبار السن والضعفاء، والمقاصين في المناطق البعيدة. فهل هذه هي إصلاحات الحجاج المدنية فقط ؟ هذه هي الإصلاحات التي يذكرها مادحوه من الشعراء فحسب، لكن إصلاحاته المدنية كثيرة جداً، ومن العجيب أن هجّائي الحجاج قد ذكروا إصلاحاته الداخلية بأسلوبهم أكثر مما ذكرها مادحوه كما سيتضح فيما بعد، ولكن الباحث يتساءل ما هو السبب في إغفال إصلاحاته الداخلية من قبل مادحيه؟ قد تكون الحروب والثورات الكثيرة المتتالية التي خاضها الحجاج ألهمت الشعراء أبياتهم، واستأثرت باهتمامهم أكثر من إصلاحاته المدنية.

علاقة الحجاج بالخليفة الأموي:

وقد ربط الشعراء كثيراً بين الحجاج والخليفة الأموي، مما يشعر بأن قلوبهم مؤمنة بأن للحجاج مكانة رفيعة عند الخليفة فهم دائماً يربطون حروبه التي خاضها بالخليفة[3]:

أَخَا غَمَرَاتٍ يَجْعَلُ اللهُ كعبَهُ ... هو الظفرُ الأعْلى إذا البأسُ أصْحَرَا

مَعَانٌ على حَقٍّ وَطَالِبَ بَيْعَةٍ ... لأفْضَلِ أحْيَاءِ العَشِيرةِ مَعْشَرَا

---

(1) انظر: ابن أعثم: الفتوح ٧ /١٢٢.

(٢) شرح ديوان الفرزدق ٢/٤٣٥.

(٣) شرح ديوان الفرزدق ١/٢٩٥.

لآلِ أبـي العَاصـي تُـرَاثُ مَـشُورَةٍ   لِـسُلْطَانِهِمْ فـي الَحـقِّ ألا يُغَيَّـرَا

وقال جرير[1]:

إذَا سَـعَرَ الخليفـةُ نَـارَ حَـرْبٍ   رَأى الحجـاجَ أثْقَبَهَـا شِـهَابَا

تَـرَى نَـصْرَ الإمَـامِ عَلَيْـكَ حَقّـا   إذا لَبَـسُوا بِـدِينِهِمُ ارْتِيَابَـا

وقال الفرزدق[2]:

بِهِنْدِيَّـةٍ بِـيْضٍ إذَا مَـا تَنَاوَلَـتْ   مَكَانَ الصَّدَى مِنْ رَأسِ عَاصٍ تَجَعْجَعَا[3]

وَقَـدْ كُنتَ ضَرَّاباً بِهـا يَـا ابنَ يوسفٍ   جَمَـاجِمَ مَـنْ عَـادَى الإمَـامَ وَشَيَّـعَا

فالحجاج يحارب لنصر الخليفة، فهو إما طالب بيعة له أو محارب لمن نكث هذه البيعة.

وقد تكون أهم ميزة للحجاج أنه كفى الخلافة الأموية أخطر منطقة في دولتهم (العراق) التي تعددت فيها الأحزاب السياسية المعارضة للخلافة الأموية، وكثرت فيها الثورات والفتن، فروضها الحجاج وألان قيادها للخلافة الأموية، لذا مزج الشعراء بين مدح الخليفة وذراعه الأيمن الحجاج رابطين ذلك بإخضاعه للعراق، قال الفرزدق [4]:

يَـا أيُّهَـا الرَّاكِـبُ المُزْجِـي مَطِيَّتَـهُ   يُرِيـدُ مَجْمَـعَ حَاجَـاتِ الأرَاكِيـبِ

إذَا أتَيْـتَ أمِيـرَ المُـؤْمِنِينَ فَقُـلْ   بِالنُّصْحِ وَالعِلْـمِ قَـوْلاً غيـرَ مَكْـذُوبِ

أمَّـا العِـراقُ فَقَـدْ أعْطَتْـكَ طَاعَتَهـا   وَعَـادَ يَعْمُـرُ مِنْهَـا كُـلُّ تَخْرِيـبِ

أرْضٌ رَمَيْـتَ إليهـا وَهْـيَ فَاسِـدَةٌ   بِـصَارِمٍ مِـنْ سُـيُوفِ اللهِ مَـشْبُوبِ

وقال جرير[5]:

---

(1) ديوان جرير ٢٤٤/١.

(2) شرح ديوان الفرزدق ٤٩٧/٢.

(3) تجعجعاً: قطع.

(4) شرح ديوان الفرزدق ٢٤/١ـ ٢٥.

(5) ديوان جرير ٤٠٢/١ـ ٤٠٣.

وَلَـــوْلا أميــــرُ المـــؤمنينَ فَإنَّـــهُ إمَـــامٌ وَعَـــدْلٌ لِلْبَرِيَّـــةِ فَاضِـــلُ
وَبَسْطُ يَدِ الحجاجِ بالسَّيْفِ لم يَكُنْ سَـبِيلَ جِهَـادٍ وَاسْـتُبِيحَ الحَلائِـلُ
إذَا خَـافَ دَرْءاً مِـنْ عَـدُوٍّ رَمَـى بِـهِ شَـدِيدُ القُـوَى والنَّـزْعِ فـي القَـوْسِ نَابِـلُ
دَعُـوا الجُـبْنَ يـا أهْـلَ العِـرَاقِ فَإنَّمَـا يُبَـاعُ وَيُـشْرَى سَـبْيُ مَـنْ لا يُقَاتِـلُ
لَقَـدْ جَـرَّدَ الحجـاجُ بِالحَـقِّ سَـيْفَهُ لَكُـمْ فَاسْـتَقِيمُوا لا يَمِـيلَنَّ مَائِـلُ

فالحجاج لم يضبط العراق إلا بالسيف والجهاد والدماء لذلك استحق من الخليفة الأموي كل تقدير.

وليس الحجاج بكاف الخليفة الأموي في أمر العراق فحسب، بل في كل أمر على الإطلاق، قال الأخطل[1]:

فَعَلَيْـكَ بِالحجـاجِ لا تَعْـدِلْ بِـهِ أحَـداً إذا نَزَلَـتْ عليـكَ أُمُـورُ
وَلَقَـدْ عَلِمْـتَ وَأنْـتَ أعْلَمُنَـا بِـهِ أنَّ ابْـنَ يوسُـفَ حَـازِمٌ مَنْـصُورُ

وقال جرير[2]:

أرَى الطَّيرَ بِالحجاجِ تَجْرِي أيَامِناً لَكُمْ يَا أميرَ المؤمنين وَأسْعُدا

وقال عمران بن عصام (ت نحو ٨٥هـ)[3]:

فَإذَا طَبَخْتَ بِنَارِهِ أنْضَجْتَهُ وَإذَا طَبَخْتَ بِغَيرِهِ لم تُنْضِجِ

فعلى الإطلاق وفي كل أمر الحجاج عون وسعد للخليفة لا يقوم أحد مقامه.

وقد ربط العُديل بن الفرخ بين الخليفة والحجاج برباط قوي، فقال[4]:

خَلِيـلُ أميـرِ المـؤمنينَ وَسَـيْفُهُ لِكُـلِّ إمَـامٍ صَـاحِبٌ وَخَلِيـلُ
بِـهِ نَـصَرَ اللهُ الخَلِيفَـةَ مِـنْهُمُ وَثَبَّـتَ مُلْكـاً كَـادَ عَنْـهُ يَـزُولُ

---

(١) شعر الأخطل: ٤٠٤ . ٤٠٥.

(٢) ديوان جرير: ٢/٨٥٢.

(٣) أبو تمام : الوحشيات ص ٢٦٤.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني الأغاني ٢٢/٣٦٢.

فقد جعله في البيت الثاني صاحب فضل على الخلفاء الأمويين وليسوا هم بأصحاب الفضل عليه.

وزاد عبد الملك بن مروان من شدة هذا الرباط عندما سمي أحد بنيه بـ "الحجاج" وقال[1]:

سَمَّيْتُهُ الحجاجَ بِالحجاجِ　　　　النَّاصِحِ المُكَاشِفِ المُدَاجي

فهو ينص على أنه سماه الحجاج على الحجاج بن يوسف، ثم وصف شخصية الحجاج كما يراها في البيت الثاني.

ومع هذا الترابط الذي أظهره الشعر بين الحجاج والخليفة الأموي، لم يمنع هذا عتاباً جرى بين الخليفة عبد الملك بن مروان والحجاج، سجله الخليفة الأموي شعراً، إذ بعد حروب الحجاج مع ابن الأشعث بلغ الخليفة أن الحجاج أسرف في مكافأة مناصريه، وأسرف في عقوبة معادية، فكتب إليه عبد الملك بن مروان يلومه ويهدده[2] قال[3]:

إذا أَنتَ لَم تَتْرُكْ أُمُوراً كَرَهْتُهَا　　　　وَتَأْبَى رِضَائي بالذي أَنَا طَالِبُهْ

فَلا تَأْمَنني وَالحَوَادِثُ جَمَّةٌ　　　　فَإنَّكَ مَجْزِيٌّ بِمَا أَنْتَ كَاسِبُهْ

وَلا تَمْنَعَنَّ النَّاسَ حَقّاً عَلِمْتَهُ　　　　وَلا تعْطِ مَالاً لَيس لِلنَّاسِ وَاجِبُهْ

إلى آخر الأبيات، فالخليفة مع محبته الشديدة للحجاج سارع في لومه على ما بلغه عنه، و كون الخليفة سجل عتبه هذا شعراً يدل على أن المعتوب عليه ليس أي عامل للخليفة، بل هو عامل له مكانته الخاصة في نفس الخليفة.

الإشادة بقبيلته:

ومع أن الحجاج كان يعيش في بيئة عربية صرفة للنسب فيها دور كبير، ومع أنه حكم العراق حين عادت العصبية القبلية جذعة، ومع تركيز هاجيه على نسبه في

---

(١) ابن أبي الحديد: أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله: شرح نهج البلاغة، تحقيق: حسن تميم (بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٣م) ٥/٧٠٢.

(٢) انظر: ابن أعثم: الفتوح ٧/١٢٠.

(٣) ابن أعثم: الفتوح ٧/١٢٠.

الهجاء، لا يركز مادحوه على هذا الجانب كثيراً، وقد تكون بقية أرجوزة أبي النجم العجلي (ت ١٣٠هـ) هي التي فيها مدح مباشر لقبيلته، ففيها[١]:

وَيْلُ أمِّ دُورٍ عِزَّةٍ وَمَجْدِ دُورِ ثقيفٍ بِسَواءِ نَجْدِ
أهلِ الحُصُونِ والخُيُولِ الجُرْدِ

وأكبر الظن أن في هذه الأرجوزة مدحاً كثيراً لقبيلة الحجاج وتنويهاً بنسبه، لأن الحجاج أعجب برجزه كما ورد في المصادر، وخيره في مكافأته تكريماً له[٢]. فهذا يدل على أن للرجز بقية تنصر الحجاج وتعلي من شأن قبيلته إلا أنها ضاعت.

وجرير عندما أراد مدح الحجاج رفعه إلى جده الأعلى "قيس" أبي القبيلة التي يميل إليها جرير كثيراً، ويتغنى بمفاخرها كأنه فرد منها، فقال[٣]:

أَلَمْ تَرَ قَيْساً لا يُرامُ لَهَا حِمىً وَيَقْضِي بِسُلْطَانٍ عَلَيكَ أَمِيرُهَا
مُلُوكٌ وَأَخْوَالُ الملوكِ وَفِيهِمُ غُيُوثُ الحَيَا يُحْيِي البِلادَ مَطِيرُهَا

فقوله "وأخوال الملوك" يشير إلى المصاهرة المستمرة بين ثقيف وبني أمية القرشية مما يرفع من قيمة ثقيف.

وممن مدح الحجاج واقفاً بهذا المدح عند "معتب" عبد الله بن الزَبير الأسدي، فقال[٤]:

بِكَفَّي غُلامٍ من ثقيفٍ نَمَتْ بِهِ قُرَيشٌ وَذُو المجدِ التَّلِيدِ مُعَتَّبُ

وكذلك عمران بن عصام[٥]:

وَبَعَثْتَ من وَلَدِ الأغَرِّ مُعَتَّبٌ صَقْراً يَلُوذُ حَمَامُهُ بِالعَوسَجِ

وممن مدح والد الحجاج مباشرة الفرزدق في رثائه للمحمدين فقال[٦]:

سَمِيَّي رَسُولِ اللهِ سَمَّاهُمَا بِهِ أبٌ لم يَكُنْ عِنْدَ المُصِيبَاتِ أَخْضَعَا
أبٌ كانَ للحجاجِ لم يُرَ مِثْلُهُ أباً كانَ أَبْنَى لِلْمَعَالي وَأَنْفَعَا

---

(١) ديوان أبي النجم العجلي ص ٩٣

(٢) انظر: أبا الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٠/١٦٩.

(٣) ديوان جرير ٢/٨٨٠.

(٤) ديوان عبد الله بن الزَبير ص ٥٢.

(٥) أبو تمام: الوحشيات ص ٢٦٤.

(٦) شرح ديوان الفرزدق ١/٤٩٦.

فوالده كان صابراً بانياً للمعالي قليلا وجوده في الآباء.

ويرد في الشعر الذي قيل في مدح الحجاج قولهم "يا ابن الأكرمين" نحو قول نويفع بن لقيط[1]:

وَآليتُ لا آتِيكَ إلا مُسَالماً مَعِي مِنكَ يَا ابنَ الأكْرَمِينَ أمَاني

وقول العجاج[2]:

فَوَجَدُوا الحجاجَ يَأبَى الْهَضَّا لا فَانِياً وَلا حَدِيثاً غَضَّا

وَمِنْ صَرِيحِ الأَكْرَمِينَ مَحْضَا[3]

وهذه كلمة تقال لا تقاس بالمدح بالآباء والأجداد والقبائل مما يوجد في شعر ذلك العصر وتلك البيئة بالذات التي عاش فيها الحجاج.

أسماؤه وألقابه:

وقد درج مادحو الحجاج عند مديحهم له على أن يشيروا إليه باسمه الأول "الحجاج"، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً مضى في هذا البحث نماذج كثيرة لها، وهذه الطريقة في تسمية الحجاج تطغى على ما سواها من الأساليب.

ثم يأتي بعدها بمراحل كثيرة تسمية الحجاج بابن يوسف كقول أعشى همدان[4]:

وَلَمَّا زَحَفْنَا لابنِ يوسفَ غُدْوَةً وَأَبْرَقَ مِنَّا العَارِضَانِ وأَرعَدَا

وكقول العديل بن الفرخ [5]:

إِذَا مَا أَتَتْ بَابَ ابنِ يوسفَ نَاقَتِي أَتَتْ خَيْرَ مَنْزُولٍ بهِ وَنَزِيلُ

وسُمي الحجاج قليلاً بابن أبي عقيل وهو جده، كقول الفرزدق [6]:

عليَّ رَأَيْتَ يَا ابنَ أَبِي عَقِيلٍ وَرَائي مِنْكَ أَظْفَاراً وَنَابَا

وكقول جرير [7]:

---

(١) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ٦٤٤/٢.

(٢) ديوان العجاج ص ١٣١.

(٣) المحض: الصريح.

(٤) ديوان أعشى همدان وأخباره ص١٠٢.

(٥) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٣٦٣/٢٢.

(٦) شرح ديوان الفرزدق ٩٢/١.

(٧) ديوان جرير ٢٤٤/١.

صَبَرْتَ النَّفْسَ يا ابنَ أبي عَقِيلٍ مُحَافَظَةً فكيفَ تَرَى الثَّوَابَا

أما تكنيته بأبي محمد فقليل جداً جداً في الشعر، وله مثال واحد فيما اطلعت عليه من مصادر، وهو قول حميد الأرقط[1]:

قُلْتُ لِعَنْسَى وَهْيَ عَجْلَى تَعْتَدِي لا نَومَ حَتَّى تُحْسِرِي وتُلْهِدي[2]

أو تَرِدي حَـوْضَ أبي مُحَمَّـدِ

وهذا الأمر لا يتوافق مع ما تعارف عليه العرب من التكريم بالمناداة بالكنية خاصة أن محمد بن الحجاج ليس بالشخص الغفل أو الابن الخامل بل له دور سياسي وعسكري مع والده[3] حتى قال الفرزدق في رثائه[4]:

أخاً كَانَ أجْزَى أيسرَ الأرضِ كُلَّهَا وَأجْزَى ابْنُهُ أمْرَ العِرَاقَينِ أجْمَعَا

وقد كان خلفاء بني أمية يكنون الحجاج كثيراً عند مخاطبتهم له[5] تكريماً واحتراماً ومع ذلك لا يوجد له تكنيه في الشعر إلا في ذلك الرجز– فيما اطلعت عليه من مصادر–.

أما الألقاب التي استخدمها الشعراء في الشعر، فأكثرها (الأمير) كقول رجل من أصحاب قطري[6]:

تَاللهِ لا كِدْتُ الأَمِيرَ بِآلةٍ وَجَوَارِحِي وَسِلاحُهَا آلاتُهُ

وقول أحد جنود المهلب[7]:

ألا قُلْ لِلأَمِيرِ جُزِيتَ خَيراً أرِحْنَا مِنْ مُغِيرَةَ وَالرُّقَادِ

وهذا هو الوضع الطبيعي للحجاج فهو أمير وجدير بالمخاطبة بالإمارة خاصة من مادحيه.

---

(١) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز: سمط اللآلي، تحقيق: عبد العزيز الميمني (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٤هـ. ١٩٣٦م) ٢/ ٦٤٩.

(٢) تحسري: تتعبى حتى تعيى. تلهدي: يؤلمك سنامك من عض الحمل غاربك.

(٣) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٢٧ وابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ١٧٩، ٥/ ٢٦٩، ٢٨٠.

(٤) شرح ديوان الفرزدق ٢/ ٤٩٧.

(٥) انظرعلى سبيل المثال: ابن عبد ربه: العقد الفريد ٨/ ٢٨٤، المسعودي: مروج الذهب ص ١٤٥.

(٦) الرقام البصري: أبو الحسن محمد بن محمد: العفو والاعتذار، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح (الرياض، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ١٩٨١م) ٢/ ٥٦١.

(٧) المبرد: الكامل ٣/ ١١٤٨.

ولقب الحجاج كثيراً بأنه "سيف" فالفرزدق في أكثر من موضع جعل الحجاج نفسه سيفاً نحو قوله[1]:

تَعَلَّمْ أنَّمَا الحجاجُ سَيْفٌ   تُجَذُّ بِهِ الجَمَاجِمَ وَالرِّقَابَا

وكقول حميد الأرقط[2]:

تَحْمِلُهُ مُعْتَجِراً بِبُرْدِهْ   شَعْوَاءَ تَرْدِي بِنَسِيْجِ وَحْدِهِ[3]

كالسيفِ إن أبرزتَهُ مـن غمدِه

ووصف الحجاج بأنه "أسد" كقول عمران بن عصام[4]:

وَهْوَ الهِزَبْرُ إِذَا أَرَادَ فَرِيسَةً   لَمْ يُثْنِهِ عَنْها صِيَاحُ مُهَجْهِجِ[5]

ولقب بـ "الصقر" كقول الفرزدق[6]:

كَأنَّ قِطَامِيَّاً عَلَى الرَّحْلِ طَاوِيَاً   إذَا غَمْرَةُ الظَّلْمَاءِ عَنْهُ تَجَلَّتْ

وهذه الألقاب "سيف، وأسد، وصقر" ربما كانت هي النمط التشبيهي الملائم للجو القتالي الذي أحاط بالحجاج لأن السيف عند العرب سيد الأسلحة والأسد ملك سباع البر والصقر سيد سباع الجو فكان من اللائق اختيار هذه الصور للممدوح.

كرم الحجاج وشجاعته:

ومن صفات الحجاج التي نوه بها الشعراء صفة الكرم، وحري بالشعراء أن ينوهوا بهذه الصفة التي تغريهم بشعر المديح، فالجحاف بن حكيم (ت نحو: ٩٠هـ) ـ وهو من هو ـ لجأ للحجاج ليحمل عنه دياته، فرحل إليه في دياره[7]، وقال[8]:

رَحَلْتُ إلى الحجاجِ أطْلُبُ نَفْعَهُ   عَلَى ثِقَةٍ بِاللهِ وَالرَّهْنُ قَدْ غَلَقْ
تَحَمُّلِ دِيَاتٍ بَيْنَ قَيْسٍ وَتَغْلِبٍ   تَحَمَّلْتُهَا وَالقَلْبُ مِنْ ثُقْلِهَا فَرِقْ

---

(1) شرح ديوان الفرزدق ٩٠/١.

(2) البلاذري: أنساب الأشراف ٣٣٨/٢.

(3) الاعتجار: لف العمامة دون التلحي. تردى: ترجم الأرض رجماً بين العدو والمشي الشديد.

(4) أبو تمام: الوحشيات ص٢٦٤.

(5) مهجهج: الهجهجة حكاية صوت الرجل إذا صاح بالأسد.

(6) شرح ديوان الفرزدق ١٣٨/١.

(7) انظر: شعر الأخطل صنعة السكري براوية ابن حبيب ص ٣٧ ـ ٣٨، والبلاذري: أنساب الأشراف ٣٣٠/٥، ٣٣٣.

(8) شعر الأخطل ص ٣٨.

فَـأحفَى سُـؤَالِي ثُـمَّ أقْبَـلَ ضَـاحِكاً   عـَلَيَّ وَأعْطَـانِي الألُـوفَ مِـنَ الـوَرِقْ

فهذه الأبيات تثبت صفتين للحجاج، الأولى سرعة مده يد العون؛ إذ جاء إليه الجحاف "والرهن قل غلق" وحان موعد تسليمه، والثانية أنه يعطي برحابة صدر، فالحجاج "أقبل ضاحكاً" على الجحاف بن حكيم بعد أن أعطاه الألوف من الورق.

وقد أعمل إليه المطي أيضاً حميد الأرقط فقال[1]:

قُلْتُ لِعَنْسَى وَهْيَ عَجْلَى تَعْتَدِي   لا نَـوْمَ حَتَّى تَحْسَرِي وَتَلْهَدِي

أوْ تَرِدِي حَوْضَ أبِي محمد   لَيْسَ الأمِيرُ بِالشَّحِيحِ المُلْحِدِ

وَلا بِوَبْرٍ بِالحِجَازِ مُقْرِدِ

فعنسى ناقته التي حملته من الحجاز حيث عبد الله بن الزبير إلى حوض أبي محمد كما قال، وعمد إلى الموازنة بين الحجاج وعبد الله بن الزبير لتأكيد صفة الكرم في الحجاج.

وجرير لجا إليه عندما أعوزته الحاجة فقال[2]:

وَمَا الحجاجُ فَاحْتَضِروا نَدَاهُ   بِجَاذي المِرْفَقَينِ وَلا نَكُودِ

ألا نَشْكُو إليكَ زَمَانَ مَحْلٍ   وَشُرْبَ المَاءِ فِي زَمَنِ الجَلِيدِ

وَمَعْتَبَةَ العِيَالِ وَهم سِغَاب   علَى دَرِّ المُحَالِجَةِ الرَّفُودِ[3]

زَمَاناً يَتْرُكُ الفتياتِ سُوداً   وَقَدْ كَانَ المَحَاجِرُ غَيرَ سُودِ

فالشاعر هنا يذكر المستضعفين من الأهل وهم العيال والفتيات لعلمه برحمة الحجاج الضعفاء.

والفرزدق يشيد بصفة الكرم في الحجاج، إذ قال[4]:

فَإنّي وَالَّذي نَحَرَتْ قُرَيشٌ   لَهُ بِمِنَى وَأضْمَرَتِ الرِّكَابَا

---

(١) البكري: سمط اللآلي ٦٤٩/٢، وأبو علي القالي: الأمالي ١٤/٢.

(٢) ديوان جرير ٧٢٨/٢.

(٣) المحالجة والرفود: الإبل التي تدوم على محلبها لا ينقطع درها.

(٤) شرح ديوان الفرزدق ٩١/١-٩٢.

إليـــهِ مُلَبِّـــدِينَ وَهُـــنَّ خُـــوصٌ   لِيَـــسْتَلِمُوا الأَوَاسِـــيَ وَالحِجَابَـــا
لَقَـدْ أَصْـبَحْتُ مِنْـكَ عَلَـيَّ فَـضْلٌ   كفـضلِ الغيـثِ ينفـعُ مـن أصـابَا

ولطيف من الفرزدق تأكيد هذه الصفة في الحجاج بالقسم الذي ربطه بأطهر مكان عند المسلمين مكة المكرمة، وبركن من أركان الإسلام هو الحج.

ومن اللافت للنظر الأبيات التي تجمع بين مدح الحجاج بالكرم ومدحه بالقوة في الحرب كقول الفرزدق[1]:

إنَّ ابـنَ يُوسـفَ محمـودٌ خلائقُـه   سـيان معروفُـه فـي النـاسِ والمطـرُ
هـو الـشهابُ الـذي يُرمَـى العـدُّو بـه   والمـشرَفيُّ الـذي تعـصى بـه مُـضَرُ
لا يرهـبُ المـوتَ إنَّ الـنفسَ باسـلةٌ   والـرأيُ مجتمـعٌ والجـودُ منتـشرُ

فقد جعل الشاعر البيت الأول لمدح الحجاج بالكرم والثاني لمدحه بالشجاعة والثالث جمع فيه بين المعنيين، الشجاعة والكرم، وهاتان الصفتان هما ما يحتاج إليه أمير مدني وقائد حربي كالحجاج.

والأخطل قال[2]:

وَالقَـومُ زَأرُهُـمُ وَأَعْلَـى صَـوْتِهِمْ   تَحْـتَ الـسُّيوفِ غَمَـاغِمٌ وَهَرِيـرُ
وَإذا اللِّقَـاحُ غَلَـتْ فَـإِنَّ قُـدُورَه   جُـوفٌ لَهُـنَّ بِمَـا ضَـمِنَّ هَـدِيرُ
طَلَـبَ الأَزَارِقَ بِالكَتَائِـبِ إِذْ هَـوَتْ   بِـشَبِيبَ غَائِلَـةُ النُّفُـوسِ غَـدُورُ

فجعل وصفه بالكرم يأتي بين بيتين في وصف شجاعته في الحرب.

والفرزدق بعد أن أسهب في وصف حرب الحجاج مع ابن الأشعث وسخر ما شاء من أصحاب ابن الأشعث قال مباشرة[3]:

---

(1) شرح ديوان الفرزدق ٢/٤٣٥.
(2) شعر الأخطل ص٤٠٨.
(3) شرح ديوان الفرزدق ٢/٦٩٧.

تَـرَى أَعْـيُنَ الهَلْكَـى إليــه كَأنَّهــا عُيــونُ الـصَّوارِ حُوَّمــاً بِالمَنَاهِــلِ[1]
يُــرَاقِبنَ فَيَّاضــاً كَـــأنَّ جِفَانَـــهُ جَــوَابِي زَرُودَ المُتْرَعَــاتِ العَــدَامِلِ[2]

فهو بكرمه يشبع جوع الفقراء بقدور ضخمة جداً.

فهؤلاء الشعراء أرادوا أن يجمعوا للحجاج أفضل ما في السلم وأفضل ما في الحرب، ففي السلم يحتاج الناس إلى الكرم، ووقت الحرب يحتاجون لقائد شجاع، فهو يقيهم المصائب في جميع الأوقات.

أما مدح الحجاج بالشجاعة وحدها، فجاء في شواهد كثيرة منها قول الفرزدق [3]:

رَأيْتُــكَ حِــينَ تَعْتَــرِكُ المنَايَــا إذَا المَرْعُــوبُ لِلْغَمَــرَاتِ هَابَــا
وَأَذْلَقَــهُ النِّفَــاقُ وَكَـــادَ مِنْـــهُ وَجِيــبُ القَلْــبِ يَنْتَــزِعُ الحِجَابَــا[4]
تَهُــونُ عَلَيــكَ نَفْــسُكَ وَهْــوَ أَدْنَــى لِنَفْــسِكَ عِنْــدَ خَالِقِهَــا ثَوَابَــا

فالشاعر عبر هنا بهوان النفس على صاحبها عن الشجاعة، وقال جرير [5]:

فَمَــا مُخْــدِرٌ وَرْدٌ بِخَفَّــانَ زَادَهُ إلــى القِــرْنِ زَجْــرُ الزَّاجِــرِينَ تَــوَرُّدَا[6]
بِأَمْضَى مِنَ الحجاجِ في الحَرْبِ مُقْدِماً إذا بَعْــضُهُمْ هَــابَ الخِيَــاضِ فَعَــرَّدا

وقال جرير أيضاً[7]:

تَشُدُّ فَلا تُكَذِّبَ يومَ زَحْفٍ إذا الغَمَرَاتُ زَعْزَعَتِ العُقَابا

فهو صادق في إقدامه في ذروة المعركة حتى إن الراية لا تثبت في يد حاملها لشدة

---

(١) الصوار: القطيع من البقر.

(٢) جوابي: جمع جابية وهي الحوض الضخم. زرود: تبتلع الطعام لضخامتها. العدامل: جمع عدمل وهي القديمة.

(٣) شرح ديوان الفرزدق ٩١/١.

(٤) أذلقه: أضعفه وأوهنه.

(٥) ديوان جرير: ٨٥٣/٢.

(٦) مخدر: أسد. ورد: لونه بين الكميت والأشقر. خفان: مأسدة. تورد: تقدم

(٧) ديوان جرير ٢٤٤/١.

الموقف. فالشجاعة الحقيقية تبرز في ميدان المعركة بين قصع الرماح وضرب السيوف لذلك حرص الشعراء السابقون على وصف الحجاج بالشجاعة داخل ميدان المعركة وليست أي معارك إنما معارك شديدة تنتزع القلوب ويفر منها الأبطال وتزعزع الراية من موقعها.

وما جاء في مدح الحجاج بالشجاعة أكثر من هذا بكثير، ففي وصف المعارك التي خاضها والأعداء الذين انتصر عليهم وغيره مما مر في الحديث عن صورة الحجاج الحربية دليل على شجاعته.

رصد الشعراء وقائع حياة الحجاج:

وبلغ من حرص الشعراء على مدح الحجاج إلى متابعة حركات الحجاج وتسجيل دقائقها، حتى نسجوا منها أبياتهم، فمن ذلك أن الحجاج أثناء قدومه من عند الخليفة الأموي سار من إيليا (القدس) إلى واسط في سبعة أيام فقط[1]، فانتهز الفرزدق الفرصة ليمدح همته وصدق عزيمته فقال[2]:

لَـوْ أنَّ طَيـراً كُلِّفَـتْ مِثْـلَ سَـيرِهِ ... إلـى وَاسِـطٍ مِـنْ إيْلِيَّـاءَ لَكَلَّـتِ

سَـمَا بِالمَهَـارَى مِـنْ فِلـسطينَ بَعْـدَمَا ... دَنَـا الفَـيْءُ مِـن شَـمْسِ النَّهَـارِ فَوَلَّـتِ

فَمَـا عَـادَ ذَاكَ اليَـومُ حَتَّـى أنَاخَهَـا ... بِمَيْـسانَ قَـدْ حَلَّـتْ عُرَاهَـا وَمَلَّـتِ

فالطير تكل من مثل سيره وهو لا يكل، والخيل تمل من مثل سيره وهو لا يمل.

وقال الراجز في مسيره ذاك[3]:

كَسَيْرِهِ مِنْ إيْلِيَّاءَ فَاعلَمِي ... سَبْعاً إلى وَاسِطَ في تَجَشُّمِ

وتابع الشعراء أيضاً أقواله وطبقوها في أشعارهم، فقد أكثر مادحو الحجاج من الشعراء من وصف أهل العراق الذين أجهدوا الحجاج بمعارضتهم بـ "المنافقين" ووصف أفعالهم بالنفاق، وقد تردد هذا في الشعر كثيراً وعلى سبيل المثال قال جرير[4]:

---

(1) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٤٢.

(2) شرح ديوان الفرزدق ١/ ١٣٧. ١٣٨.

(3) البلادزي: أنساب الأشراف ١٢/ ٣٥٢.

(4) ديوان جرير ١/ ١٣٨.

فَإذَا رَأَيتَ مُنَافِقِينَ تَخَيَّرُوا سُبُلَ الضِّجَاجِ أقمَتَ كُلَّ ضِجَاجِ[1]

وقال الفرزدق: [2]:

إِذَا حَارَبَ الحجاجُ أيَّ مُنَافِقٍ عَلاهُ بِسيفٍ كُلَّمَا هَزَّ يَقْطَعُ

والأمثلة على ذلك كثيرة[3]، وقد يكون مصدر هذه الصفة حرص الشعراء المادحين على موافقة الحجاج في رأيه في أهل العراق، إذ كثيراً ما سماهم المنافقين ففي أول أيام دخوله العراق سمع تكبيراً في السوق فخرج غاضباً وقال: "يا أهل العراق، ويا أهل الشقاق، ويا أهل النفاق وسيئ الأخلاق"، فهذا كلامه أول عهده بالعراق بل يقال ثالث أيام دخوله إياها[4]، ثم توالى نعته إياهم بالمنافقين فمن ذلك قوله: "لما تبوأت الأمور منازلها قالت الطاعة: أنزل الشام، قال الطاعون: وأنا معك، وقال النفاق: أنزل العراق، قالت النعمة: وأنا معك"[5]. وما زال هذا رأيه فيهم حتى وفاته ونهاية عهده بهم إذ كتب في وصيته: "وأوصي بتسعمائة درع حديد ستمائة منها لمنافقي أهل العراق يغزون بها، وثلاثمائة للترك"[6].

وقد شارك الشعر الحجاج في مصائبه التي مني بها وأعظمها فقده لأخيه وابنه في جمعة واحدة، فصور الفرزدق الحجاج من خلال قصيدته في الرثاء صبوراً متماسكاً، إذ افتتحها بقوله[7]:

لَئِنْ صَبَرَ الحجاجُ مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تَكُونُ لِمَرْزُوءٍ أجَلَّ وَأَوْجَعَا
وَلَو أنَّ يَوْمَي جُمْعَتَيْهِ تَتَابَعَا عَلَى جَبَلٍ أمْسَى حُطَاماً مُصَرَّعا
وَمَا رَاعَ مَنْعِيًّا لَهُ مِنْ أخٍ لَهُ وَلا ابنٍ مِنَ الأقْوَامِ مِثْلاهُمَا مَعَا

(1) ضجاج : باطل

(2) شرح ديوان الفرزدق ٢/ ٥١٥.

(3) انظر على سبيل المثال شرح ديوان الفرزدق ١/ ٢٩٧، ٣٠١-٣٠٠ ت ٢/ ٤٩٧. وديوان جرير ١/ ١٣٧-١٣٨، ١٣٩، ٢/ ٧٢٧.

(4) انظر: المبرد: الكامل ١/ ٢٣١.

(5) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/ ٢٢٢.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١٣٩.

(7) شرح ديوان الفرزدق ٢/ ٤٩٤-٤٩٥.

وتصور القصيدة مدى تمسك الحجاج بدينه ومحبته للخليفة[1]:

وَلَمْ يَكُنِ الحجاجُ إلا عَلَى الَّذِي   هُوَ الدِّينُ أَوْ فَقْدِ الإمَامِ لِيَجْزَعَا

والفرزدق يشاطر الحجاج البكاء عليهما[2]:

إِنِّي لَبَاكٍ عَلَى ابْنَي يوسفٍ جَزَعاً   وَمِثْلُ فَقْدِهِمَا لِلدِّينِ يُبْكِينِي

مَا سَدَّ حَيٌّ وَلا مَيْتٌ مَسَدَّهُمَا   إلا الخَلائِفُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّينِ

فهما رجلان صالحان، في حياتهما صلاح للدين، وفي فقدهما خسارة كبيرة.

رثاء الحجاج:

وبعد هذه الحياة الحافلة بالأعمال البطولية من الناحيتين العسكرية والمدنية، وبعد أن أمضى الحجاج عشرين عاماً كاملة والياً على أخطر مناطق الحكم الأموي (العراق)، فأحكم قيادها وأجاد سياستها، وبعد أن اشتهر بمحبة الخليفة الأموي له حتى جعله عبد الملك جلدة ما بين عينيه ثم أصبح جلدة وجه الوليد كله، مات الحجاج. ومن العجيب أن المصادر لا تذكر كثيراً من رثاء الحجاج، ولم يقم برثائه إلا الفرزدق بقصيدة ومقطوعة، وهذه القصيدة اليتيمة التي سمحت بها نفس الفرزدق علق عليها ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) بقوله: "وقال الفرزدق يرثي الحجاج يرضي بذلك الوليد بن عبد الملك"[3]. وفي هذه المرثية قال الفرزدق[4]:

فَلَيْتَ الأَكُفَّ الدَّافِنَاتِ ابنَ يوسفٍ   تَقَطَّعْنَ إذْ يحْثِينَ فَوقَ السَّقَايِفِ

فقيل للفرزدق ما معناها. فقال: وددت والله أن أرجلهم تقطع مع أيديهم[5]، فهذا دليل على أن الفرزدق حزين فعلاً على الحجاج، وأنه لم يقل هذه القصيدة إرضاء للوليد بن عبد الملك فحسب بل إعجاباً ووفاء للحجاج خاصة أنه رثاه بمقطوعة من أربعة أبيات تفيض بالحزن على الحجاج[6]، وفي قصيدة الرثاء وضع الفرزدق الحجاج بعد الخلفاء

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢/٤٩٥.

(٢) المبرد: الكامل ٢/٤٤٩، التعازي والمراثي ص ٢٠٣، ولم أجد البيتين في ديوان الفرزدق.

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/٢٨٨.

(٤) شرح ديوان الفرزدق ٢/٥٣٠.

(٥) انظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/٢٨٨.

(٦) انظر: شرح ديوان الفرزدق ١/٣٦٥.

مباشرة فقال[1]:

وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَانِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ   عَلَى مِثْلِهِ إلا نُفُوسُ الخَلَائفِ

وفي هذه القصيدة عدد الشاعر الطوائف التي ستفتقد الحجاج فعلاً،وهم أهل الثغور ممن يلي العدو، والأيتام، والرعاة البعيدين في المراعي والضعفاء من النساء والرجال الذين يعيشون في الأماكن القاصية، فالحجاج أمَّن روع هؤلاء وحفظ عليهم حياتهم وأموالهم كما حفظها لغيرهم إلا أن هؤلاء لا يستطيعون حماية أنفسهم بعد الحجاج أما غيرهم فيستطيع ذلك، وفي هذا تصوير لمدى الخسارة الفادحة التي منيت بها الأمة بموت الحجاج، ومن الطريف أن الشاعر ابتدأ الرثاء واختتمه ببكاء أهل الثغور عليه إذ قال مفتتحاً قصيدته[2]:

لِيَبْكِ عَلَى الحجاجِ مَنْ كَانَ بَاكِياً   عَلَى الدِّينِ أَوْ شَارٍ عَلَى الثَّغْرِ وَاقِفِ

واختتم الرثاء بقوله[3]:

يَقُولُونَ لَمَّا أَنْ أَتَاهُمْ نَعِيُّهُ   وَهُمْ مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ جَيْشُ الرَّوَادِفِ[4]

شَقِينَا وَمَاتَتْ قُوَّةُ الجَيشِ وَالَّذي   بِهِ تُرْبَطُ الأَحَشَاءُ عِنْدَ المَخَاوِفِ

ونعم الرجل ارتبط به المرابطون في سبيل الله إلى هذا الحد.

وكما غلب الرثاء الموضوعي على القصيدة غلبت الناحية العاطفية على مقطوعة الرثاء فجاءت مليئة بالدموع والبكاء قال[5]:

إبْكِ عَلَى الحجاجِ عَوْلَكَ مَا دَجَا   لَيْلٌ بِظُلْمَتِهِ وَلاحَ نَهَارُ

إنَّ الرَّزِيَّةَ مِنْ ثَقِيفٍ هَالِكٍ   تَرَكَ العُيُونَ وَنَوْمِهِنَّ غِرَارُ

وقد عبرت امرأة من أهل بيت الحجاج بعد وفاة الحجاج عما كان يعنيه لهم فقالت[6]:

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢/٥٢٩.

(٢) شرح ديوان الفرزدق ٢/٥٢٩.

(٣) شرح ديوان الفرزدق ٢/٥٣٢.

(٤) الروادف: هم الذين وراء الجيش يلون العدو.

(٥) شرح ديوان الفرزدق ١/٣٦٥.

(٦) الجاحظ: عمرو بن بحر: فصل ما بين العداوة والحسد (ضمن رسائل الجاحظ)، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٤هـ. ١٩٦٥م) ١/٣٧٢.

اليومَ يَرْحمُنَا مَنْ كَانَ يَحْسِدُنَا   وَاليَومَ نَتْبَعُ مَنْ كَانُوا لَنَا تَبَعَا

فالحجاج قد حمى أهل بيته حتى كانوا موضع حسد الآخرين، وكان الآخرون تابعين لهم. وبموته ينتظرهم ويل عظيم يرحمهم عليه الحاسدون ويتحولون من متبوعين إلى تابعين.

الصورة السلبية

أما الصورة السلبية للحجاج في الشعر فيبلغ عدد أبياتها نحو مائتين واثنين وثلاثين بيتاً، وأتت في معظمها في مقطعات شعرية، وأهم موضوع سيطر على شعر الصورة السلبيةهو:

الحروب والأيام:

وعيد أنصار ابن الأشعث للحجاج:

وأهم تلك الحروب. حروب الحجاج مع ابن الأشعث (ت ٨٣هـ) فكما شغلت مادحيه فقد أكثر منها هاجوه. فهم قبل بداية المعركة يهددون تهديد الواثق من النصر، قال الطفيل بن عامر بن واثلة (ت ٨٢هـ)[١]:

أَتَــوكَ يَقُــودُونَ المنَايَــا وَإِنَّمَــا   هَــدَتْهَا بِأُولاَنَــا إِلَيــكَ ذُنُــوبُ
وَلا خَيـرَ فـي الـدُّنيَا لِمَـن لـم يَكُـنْ لَـهُ   مِــنَ اللهِ فــي دَارِ القَــرَارِ نَــصِيبُ
أَلا أَبْلِــغِ الحجــاجَ أَنْ قَــدْ أَظَلَّــهُ   عَــذَابٌ بِأَيــدي المــؤمِنينَ مُــصِيبُ

فهو يهدد تهديد الواثق، فقد قدموا يقودون المنايا إلى أعدائهم ولم يقل الجيوش لثقته بنتيجة المعركة، هذه المنايا ستقتل أعداء لا خير في دنياهم لأنهم خسروا آخرتهم، ثم يهدد الحجاج مباشرة بأنه "قد أظله" العذاب المهين على أيدي المؤمنين ويقصد بهم أصحاب ابن الأشعث، ويلاحظ تعبير الشاعر ب(قد) مع الفعل الماضي لفعل لم يحدث بعد، لكن لثقة الشاعر بحدوثه عبر عنه بأسلوب التأكيد.

وكذلك أعشى همدان (ت ٨٣هـ) الذي أكثر من ذكر هذه الحرب لأنه أحد أتباع ابن الأشعث، والشاعر الناطق بما يدور فيها، فقد قال واصفاً حربهم للحجاج[٢]:

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ١٢، ١٣.

(٢) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ٧٣.

مَـــنْ مُبْلِـــغُ الحجـــاجَ أنّـــي قَـــدْ نَـــدَبْتُ إليـــهِ حَرْبَـــا

حَرْبـــاً مُـــذَكَّرةً عَـــوَا نـــاً تَتْـــرُكُ الـــشُبّانَ شُـــهْبَا

فهو يصفها قبل أن تبدأ بأنها حرب شديدة تغير سحنة الشباب الأقوياء فكيف بمن دونهم!!

وقد تفنن الشعراء المعادون للحجاج في السخرية منه في هذه الحروب وتعييره، فعير بالفرار من المعركة ولولا الفرار ما نجا منهم، فقال الحارث بن خالد المخزومي (ت ٨٠هـ)[١]:

وَكَـادَ غَـدَاةَ الـدّيرِ يُنفِـذُ حِـضْنَهُ غُـلامٌ بِطَعْـنِ القِـرْنِ جِـدٌّ طَبِيـبِ

وَأنْـسَوهُ وَصْـفَ الـدّيرِ لَمَّـا رَآهُـمُ وَحَـسَّنَ خَـوفَ المَـوتِ كُـلَّ مَعِيـبِ

وقد توقع أصحاب ابن الأشعث هذا المصير للحجاج فقال أبو جلدة اليشكري (ت نحو ٨٣هـ)[٢]:

نحـــنُ جَلَبْنَـــا الخَيـــلَ مِـــنْ زَرَنْجَـــا مَالَـــكَ يَـــا حجـــاجُ مِنَّـــا مَنْجَـــى

لَتُـــبْعَجَنَّ بِالـــسُّيوفِ بَعْجَـــا أوْ لَتَفِـــرَنَّ فَـــذَاكَ أحْجَـــى

فالشاعر واثق أنه ليس أمام الحجاج سوى خيارين إما القتل أو الفرار والثاني هو المتوقع منه.

بل لحقت السخرية محمد بن الحجاج نفسه في هذه الحرب، فقال الطفيل بن عامر بن واثلة[٣]:

مَتَى نَهْبِطَ المِصْرَيْنِ يَهْرُبْ مُحمدٌ وَلَيْسَ بِمُنْجِي ابنِ اللعِينِ هُرُوبُ

فمحمد لن يصمد ليقاتل بل سيلجأ للهروب، ولكن الهروب لن ينفعه لأنهم سيلاحقونه حتى يقتلوه، وجعله "ابن اللعين" لشدة نقمته عليه وعلى والده.

---

(١) شعر الحارث بن خالد ص ٤٧.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٢٩٣/١١.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ١٣/٨.

وعمد بعض الشعراء إلى السخرية من الحجاج وقواده وجنده، مضاعفين حدة السخرية بربطها بمديح قوادهم أعداء الحجاج، فقال أعشى همدان[1]:

نُبْئتُ حجاجَ بنَ يوسفَ خَرَّ من زَلَقٍ فَتَبَّا
فانْهَضْ .فُديتَ .لَعَلَّهُ يَجْلُو بِكَ الرَّحْمنُ كَرْبَا

فسيجلو الرحمن كربة الناس من الحجاج عن طريق ابن الأشعث، وقال الضحاك اليربوعي[2]:

إنْ يَهْلِكِ الحجاجُ فَالمِصْرُ مِصْرُنَا وَإلا فَمَثْوَانَا بِدِيرِ الجَمَاجِمِ
وَإنْ تُخْرِجُوا سُفْيانَ نُخْرِجْ إلَيْكُمُ أبَا حَازِمٍ فِي الخَيْلِ شُعْثِ المَقَادِمِ
وَإنْ تَبْرُزُوا لِلْحَرْبِ تَبْرُزْ سَرَاتُنَا مَصَالِيتَ شُوساً بِالسُّيوفِ الصَّوَارِمِ

فهم لن يتركوا المكان إلا بامتلاك المصر أي العراق أو يموتون على أرض دير الجماجم آخر المعارك الفاصلة في هذه الحرب، ثم يتحدى فرسان الحجاج بفرسانهم وجنده بجندهم.

وقد عمد أعشى همدان إلى الفخر بجيش ابن الأشعث، رابطاً هذا الفخر بهجاء الحجاج فقال[3]:

سَارَ بِجَمْعٍ كَالدَّبَى مِنْ قَحْطَانْ وَمِنْ مَعَدٍّ قَدْ أتَى ابْنُ عَدْنَانْ
بِجَحْفَلٍ جَمٍّ شَدِيدِ الإرْنَانْ فَقُلْ لِحجاجٍ وَلِيِّ الشَّيْطَانْ[4]
يَثْبُتْ لِجَمْعٍ مَذْحِجٍ وَهَمْدَانْ وَالحَيِّ مِنْ بَكْرٍ وَقَيْسِ عَيْلانْ

فَإنَّهُمْ سَاقُوهُ كَأسَ الذِّيفَانْ

فهو يفخر بضخامة ذلك الجيش، وأنه يضم عناصر من كل القبائل العربية الشمالية والجنوبية، ولا ينسى في أثناء ذلك التذكير بأن هذا الجيش ما جاء إلا لولي الشيطان

---

(1) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ٧٤.

(2) البكري: معجم ما استعجم ٢/٥٧٤ "دير الجماجم"

(3) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ١٦٤.

(4) الإرنان: الضوضاء.

(الحجاج)، وأنهم ساقو الحجاج السم الناقع.

وبعد انتهاء الحرب مع ابن الأشعث سكتت الألسن الهاجية عن ذكر هذه الحرب؛ فقد انتصر الحجاج نصراً ساحقاً وطفق يبالغ في العقاب وفي الثواب، إلا أنه بعد موته وموت الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦هـ) عاد ذكر هذه الحرب في شعر الفرزدق الذي برع في الإشادة بانتصارات الحجاج على ابن الأشعث، عاد ليجد من خلالها سبيلا إلى التقرب لسليمان بن عبد الملك (ت ٩٩هـ) الذي يحمل للحجاج كل كراهية وعداء، فقال مستنكراً فعل الحجاج بالفلول المستسلمة من جيوش ابن الأشعث[1]:

وَإذْ أنْتُمُ مَنْ لمْ يَقُلْ أنَا كَافِرٌ ... تَرَدَّى نهاراً عَثْرةً لا يُقَالُهَا

وَفَارَقَ أُمَّ الرَّأسِ مِنْهُ بِضَرْبَةٍ ... سَرِيعٍ لِبَيْنِ المِنْكَبَينِ زِيَالُهَا

وَإنْ كانَ قَدْ صَلَّى ثَمَانينَ حِجَّةً ... وَصَامَ وَأَهْدَى البُدنَ بِيضاً خِلالُهَا

فالفلول التي آذتها الهزيمة وآلمها الخزي، إذا جاءت تبايع الحجاج مرغمه لا يبايعها الحجاج مباشرة بل يشترط عليهم أن يقروا على أنفسهم بالكفر، فمن أقر بايعه ومن لم يقر قتله مباشرة، وحتى كبار السن ممن تعدوا الثمانين ولم يرضوا على أنفسهم بالكفر بعد هذا العمر لم يرحمهم الحجاج وقتلهم، وقد يكون الفرزدق يعني بهذا البيت "كميل بن زياد النخعي" (ت ٨٣هـ) ورجلاً من خثعم اللذين قتلهما الحجاج وهما فوق الثمانين بعد دير الجماجم، لأنهما لم يقرا على نفسيهما بالكفر[2]. فالحجاج في نظر الشاعر معتد جبار في تكفيره للناس قاس عديم الرحمة في قتله كبار السن.

وعاد الفرزدق للحاضر في هجائه للحجاج، فالفلول الهاربة من الحجاج خارج حدود الدولة الأموية ظلوا طريدين خائفين بعد انتهاء تلك الحرب حتى قدوم سليمان بن عبد الملك الذي أمّنهم بعد توليه الخلافة، فرجعوا إلى بلادهم، فانتهزها الفرزدق فرصة لمدح سليمان بن عبد الملك بهذا الفعل الكريم وهجاء الحجاج، فقال[3]:

ألِكْني إلى مَنْ كانَ بِالصِّينِ إذْ رَمَتْ ... بِهِ الهندُ ألْوَاحٌ عَلَيهَا جِلالُهَا

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٢/٦٢٢.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/٢٥.

(٣) شرح ديوان الفرزدق ٢/٦٢٣.

هَلُـمَّ إلـى الإسْـلامِ والعَـدْلِ عِنْـدَنَا　　فَقَـدْ مَـاتَ عَـنْ أَرْضِ العِـرَاقِ خَبَالُهـا

فالحجاج هو خبال العراق أي فساده.

وهكذا صور شعر الخصوم في هذه الحرب الحجاج بالإنسان الجبان الضعيف، الذي لا يخجل من الفرار لا هو ولا ابنه، وصوره بالإنسان عديم الرحمة، قاسي العقوبة، وكان شعر هؤلاء الشعراء يفيض بالاعتداد بالنفس والثقة من النصر، كأنهم ضمنوا النتائج قبل بداية المعركة.

هزائم الحجاج أمام الخوارج:

أما حربه مع الخوارج فقد أكثر شعراء الصور السلبية من ذكرها، وكان للخوارج الشبيبية صولة وجولة داخل العراق، فأكثروا من السخرية من الحجاج وجنده قال عبد الواحد الأزدي يوم سوق حكمة[1]:

يَـاليتَنِي فـي الخَيـلِ وَهْـيَ تَدُوسُـهم　　فـي السُّوقِ يَـومَ الظَّفـرِ بالحجـاج
بِـأخي ثَمُـودَ وَقُـرْبَ مَـا أَخْطَأَنَـهُ　　وَلَقَـدْ بَلَغْـنَ العُـذْرَ فـي الإدْلاج
أَصْـبَحْنَ بِالأَنْبَـارِ يَـومَ أَتينَـهُ　　مِثْـلُ الـسَّعَالَى تَحْـتَ لَيـلٍ دَاج
فَـبَطَحْنَ مَيْمُـونَ العَـذَّابِ لِوَجْهِـهِ　　وتَركْنَـهُ مُتَقَطِّـعَ الأَوْدَاج
ولقـد تخطـأت المنايـا حوشَـباً　　فنجـا إلـى أجـلٍ ولـيس بنـاج

وقال حبيب بن خدرة الهلالي مولاهم، يذكر ذلك اليوم أيضا[2]:

أَلْـوتْ بِعَتَّـابٍ شَـوَارِدُ خَيْلِـنا　　ثُـمَّ انثَنَـتْ لِكَتَائـبِ الحجـاج
وَلَـعَمْرِ أُمِّ العَبْـدِ لَـوْ أَدْرَكْنَـهُ　　لَـسَقَيْنَهُ صِـرْفاً بِغَيـرِ مِـزَاج

فكلاهما يجمع على أن الحظ ولا شيء غيره كان في صف الحجاج إذ نجا من الخوارج مع ما توافر لهم من خيول سريعة وسلاح نافذ، وهما يجمعان أيضاً على كراهية عميقة للحجاج عبرا عنها بمثل "أخي ثمود"، و"ابن أم العبد".

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٧/ ٩٥.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٨/ ٣٦٧.

وكذلك عيره الحارث بن خالد المخزومي بإفلاته مهزوماً من جيش شبيب (ت ٧٧هـ)، فقال[١]:

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا يَا أَبَانُ مُسَلَّماً ... فَقَدْ أَفْلَتَ الحجاجَ خَيْلُ شَبِيبِ

فهؤلاء الشعراء متفقون على أن الحجاج كاد يقع في أيدي الخوارج إلا أنه نجا بحياته منهزماً.

وكما سخروا في تلك الأبيات من الحجاج سخروا من قادة جيشه وجنده، فحبيب ابن خدرة افتخر بقتلهم عتاب بن ورقاء الرياحي (ت ٧٧هـ)، ولا عجب في افتخاره إذ صمد لقتالهم وقد فر جنده من حوله إلا قلة قليلة، ولم يتمكن من قتله إلا شبيب بنفسه[٢]، وبعد قتله تفرغت كتائب الخوارج لمطاردة الفارين من كتائب الحجاج. أما الافتخار بقتل وملاحقة من هم دون القادة فقد صوره عبد الواحد الأزدي في الشعر السابق، فافتخر بقتلهم ميمون (ت ٧٦هـ) الذي يسمى العذَّاب، وهو مولى حوشب الوارد في البيت الثالث، أما حوشب فهو حوشب ابن يزيد صاحب شرط الحجاج[٣]، وقد نجا من الموت في ذلك اليوم، لذلك لم ينسَ الشاعر أن يتوعده بأن نجاته إلى أجل لأنهم - أي الخوارج - سيهاجمونه مرة أخرى ويقضون عليه.

ولأن الخوارج أكثر ما نقموا على الحجاج توليه قتالهم وإصراره على ذلك القتال حتى النصر، فقد حاولوا أن يسخروا من قوته فوصفوه بالجبن وعيروه بالفرار، واتهموه بالاختباء خلف الأسوار والأبواب، فمن ذلك أبيات عمران بن حطان (ت ٨٤هـ) المشهورة[٤]:

أَسَدٌ عليَّ وَفي الحُرُوبِ نَعَامَةٌ ... رَبْدَاءُ تَفْزَعُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

هَلاَّ بَرَزْتَ إلى غَزَالَةَ في الوَغَى ... بَلْ كَانَ قَلْبُكَ في جَنَاحَي طَائِرِ

صَدَعَتْ غَزَالَةُ قَلْبَهُ بِفَوَارِسٍ ... تَرَكَتْ مَنَاظِرَهُ كَأَمْسِ الدَّابِرِ

---

(١) شعر الحارث بن خالد المخزومي ص ٤٦.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧/ ٢٤٧.

(٣) انظر: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ص٢٧٤.

(٤) ابن طيفور: أحمد بن أبي طاهر: بلاغات النساء، تحقيق: محمد طاهر الزين (الكويت، مكتبة السندس، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م) ص ١٧٤. والبيت الرابع في ابن أعثم: الفتوح ٧/ ٦٦.

أَلْـقِ الـسِّلاحَ وَخُـذْ وِشَـاحَ مُعَـصْفرٍ   واعمَـدْ بِمَنْزِلَـةِ الجَبَـانِ الكَافِــرِ

فهو في الجبن كالنعامة، لذلك تحداه أن يقف محارباً -لا لرجل- ولكن لامرأة هي غزالة الخارجية (ت ٧٧هـ) التي أخافته بفرسانها، ثم أنهى مقطوعته بأن من مثله حقه أن يلقي السلاح، ويلبس ملابس النساء، ويرضى بمنزلة الجبان الكافر.

وكما اختبأ الحجاج من غزالة ورفض أن يبرز لمقاتلتها اختبأ عن غيرها من المقاتلين مثل شبيب الخصم القوي للحجاج، فقال رجل من الخوارج يعيره[١]:

لَعَمْرِي لَقَدْ نَادَى شَبِيبٌ وَصَحْبُهُ   عَلَى البَّابِ لَوْ أَنَّ الأميرَ يُجِيبُ

ولقبه بالأمير هنا سخرية لا احتراماً، فكيف يعقل أن هناك أميراً يختبئ خلف الأبواب والجيش المعادي يناديه للمعركة وهو يرفض مواجهتهم !!. وعيره بالاختباء خلف الأسوار حبيب بن خدرة، فقال[٢]:

حَتَّى تَرَكْنَ أَخَا الضَّلالِ مُسَهَّداً   مُتَمَنِّعاً بِحَوَائطٍ وَرِتَاجِ

فهو محتم متحصن ومع ذلك يحمل الهم ولا يشعر بالأمان لشدة جبنه.

استياء جيش المهلب من سياسة الحجاج:

وتولي الحجاج حرب الخوارج أثمر حركة شعرية طريفة ليس فقط عند الطرف المعادي للحجاج (أي الخوارج)، بل أدى توليه هذه الحرب إلى حركة شعرية خصبة عند الطرف المقابل للخوارج، وهم جند الحجاج أنفسهم ممن يمارسون القتال تحت قيادة المهلب بن أبي صفرة (ت ٨٢هـ)فالحجاج حريص على إنهاء الحرب سريعاً، والمهلب الذي يقود الحرب يرى غير ذلك[٣]، مما أغضب الحجاج من المهلب، وأغضب جند المهلب من الحجاج، وهم يشعرون أن المهلب كالأب الرؤوم لهم، لذلك مضوا يثمنون خبرة الحجاج في القتال ساخرين من رسله الذين يبعثهم إلى المهلب مثل قول الصلتان العبدي (ت نحو ٨٠هـ)[٤]:

---

(١) ابن أعثم: الفتوح ٧/ ٦٥.

(٢) ابن أعثم: الفتوح ٧/ ٣٦٠.

(٣) انظر: المبرد: الكامل ٣/ ١١٣٣.

(٤) المبرد: الكامل ٣/ ١١٣٦.

أَلا يَـا اصْـبِحَاني قَبْـلَ عَـوْقِ العَوَائـقِ
وَقَبْـلَ اخْتِـرَاطِ القَـومِ مِثْـلَ العَقَـائقِ
غَـدَاةَ حَبِيـبٌ فـي الحَدِيـدِ يَقُودُنَـا
نَخُـوضُ المَنَايَـا فـي ظِـلالِ الخَوَافِـقِ
فَمَـنْ مُبْلِـغُ الحجـاجِ أنَّ أَمِينَـهُ
زِيـاداً أَطَاحَتْـهُ رِمَـاحُ الأزَارِقِ

وحبيب (ت ١٠٢هـ) هنا هـو ابن المهلب بن أبي صفـرة، وزياد هـو ابن عبد الرحمن الذي بعثه الحجاج إلى المهلب يستعجله على قتال الأزارقة، فضمه المهلب إلى جند ابنه حبيب ليرى قتالهم ويخبر الحجاج حقيقته، فلم يصمد أمام قوة الخوارج فأطاحته رماحهم حتى كادوا يقتلونه[1].

أما أبو خالد اليشكري فمضى لأكبر من ذلك حيث قال[2]:

أَلا قُـلْ لِمَـنْ ظَـنَّ المُهَلَّـبَ خَائنـاً
هَلُـمَّ فَكُـنْ فِينَـا مَكَـانَ المُهَلَّـبِ
فَـإنَّ رِجَـالاً غُيَّبُـوا عـن طِعَانِنَـا
وَعَـنْ ضَرْبِ هَامَـاتِ اللُّيُـوثِ المُجَـرَّبِ
قَـدْ أَعْطَـوكَ مِـنْ أَمْـرِ المُهَلَّـبِ عُنْـوَةً
وَقَـدْ ذَهَبَـتْ أَبْنَـاؤُهُ كُـلَّ مَـذْهَبِ

فهو يتهم الحجاج بأنه يظن أن المهلب خائن، ثم يتحداه أن يحل محل المهلب في قتال الأزارقة كأنما يعلن للملأ عجـزه عن ذلك، ثم يواصل تحدي الحجاج بأعدائه فقال[3]:

فَلَـوْ ذُقْـتَ كَأساً مِـنْ عُيَيْنَـةَ مُـرَّةً
وَعَمْـرُو القَنَـا أَوْ عَبْـدِ رَبٍّ وَشَـوْذَبِ
وَمِـنْ قَطَـرِيٍّ أَوْ عَطِيَّـةَ وَابنِـهِ
وَمِـنْ صَـالحٍ أَوْ مِـنْ زُبَيْـرٍ وَمِـصْعَبِ
لأَيْقَنْـتَ أنَّـا فـي حُلُـوقِ عَـدُوِّنَا
شَجًى نَاشِبٍ سَلْ يَا ابنَ يوسفَ تَعْجَبِ

وهؤلاء المذكورون في البيتين الأول والثاني من رؤوس الخوارج وفرسانهم كأنما يقول هم أكفاؤنا في القتال وأن الحجاج خارج هذه الموازنة، ثم ختم أبياته بإظهار ثقته

---

(١) انظر: المبرد: الكامل ٣/ ١١٣٦.
(٢) ابن أعثم: الفتوح ٧/ ١٦.
(٣) ابن أعثم: الفتوح ٧/ ١٦-١٧.

بنفسه وبمن معه حين قال[1]:

فَأَرْسِلْ إِلَيْنَا مَنْ يُعَايِنَ فِعْلَنَا　　يَقُلْ حِينَ يَخْبِرُنَا فِدى لَكُمُ أَبِي

فهو يريد أن يقول أنك مادمت بعيداً عن ميدان المعركة فلا قدرةَ لك على تثمين الوضع، وهذا مثل قول رجل من بني عامر يسخر من أوامر الحجاج وهو بعيد عن ميدان المعركة[2]:

لَيْسَتْ مُقَارَعَةُ الكُمَاةِ لَدَى الوَغَى　　شُرْبِ المُدَامَةِ فِي إِنَاءِ زُجَاجِ

أما كعب الاشقري (ت نحو ٨٠هـ) الذي أمضى حياته في ظلال آل المهلب ينعم بكرمهم ويتفأ بحسن أخلاقهم، فقد جعل نبرة الغضب على الحجاج أعلى، إذ قال مدافعاً عن آل المهلب[3]:

إِنَّ ابنَ يوسفَ غَرَّهُ مِنْ غَزْوِكُمْ　　خَفْضُ المَقَامِ بِجَانِبِ الأَمْصَارِ
لَوْ شَاهَدَ الصَّفَّينِ حِينَ تَلاقَيَا　　ضَاقَتْ عَلَيْهِ رَحِيبَةُ الأَقْطَارِ
فَرَأَى مُعَاوَدَةَ الدِّبَاغِ غَنِيمَةً　　أَزْمَانَ كَانَ مُحَالِفَ الإِقْتَارِ
فَدَعِ الحُرُوبَ لِشِيبِهَا وَشَبَابِهَا　　وَعَلَيكَ كُلُّ خَرِيدَةٍ مِعْطَارِ

فهو غضباً لآل المهلب يتحدى الحجاج الذي عرف ببطشه، ويجعل همه الحياة الناعمة في الأمصار المعمورة والقيام بأمر النساء الجميلات، أما الحرب فيتولاها أهلها آل المهلب، وقد أغضبت هذه الأبيات الحجاج أيما غضب[4].

وحتى إن المغيرة بن حبناء (ت ٩١هـ) حمل تساؤل جنود المهلب كلهم في مفتتح إحدى قصائده، فقال[5]:

لَيْتَ شِعْرِي وَلِلأُمُورِ قَرَارٌ　　هَلْ بَلَغْنَا مَدَى رِضَى الحجاج

فهذه آراء جنود المهلب في حربهم مع الخوارج، أنهم يحاربون فرساناً عركوا

---

(١) ابن أعثم: الفتوح ٧/ ١٧.

(٢) المبرد: الكامل ٣/ ١١٥٩

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٤/ ٢٧٤.

(٤) انظر: أبا الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٤/ ٣٧٤.

(٥) ابن أعثم : الفتوح ٧/ ٢١.

الحروب وعركتهم، ولهم قائد أرأف بهم من الأب وهم أطوع له من الأبناء البررة، فلما تدخل الحجاج تدخلاً فيه غض من مكانة المهلب، هب جنده يعبرون عن حقيقة هذه الحرب ويضعون المهلب في مكانه الصحيح من هذه الانتصارات، ويعرجون في أثناء ذلك على لوم الحجاج، واصفين خبرته في القتال بأنها أقل وأضعف من أن يتدخل في حرب ضروس مثل هذه.

وأثمرت هذه الحرب شعراً معادياً للحجاج عند طرف ثالث وهم الجنود الرافضون للانضمام للحرب لما عرفوه من بأس الخوارج واستبسالهم في حروبهم، فارتفعت أصوات الرافضين عاتبين على الحجاج إصراره على إرسالهم للموت، فسوار بن المضرب قال متحدياً[1]:

أَقَاتِلِيَ الحجاجُ إِنْ لَمْ أَزُرْ لَهُ ... دَرَابِ وَأَتْرُكْ عِنْدَ هِنْدَ فُؤَادِيا

فَإِنْ كَانَ لا يُرْضِيكَ حَتَّى تَرُدَّنِي ... إِلى قَطَرِيٍّ مَا إِخَالُكَ رَاضِيا

فإنه يعلن عن رفضه التام للذهاب إلى قطري وحربه هو وأصحابه ولو كان ثمن ذهابه رضا الحجاج هذا الأمير المهاب.

وقال ابن جابر الرزامي في هذا الموضوع[2]:

أيُوعِدُني الحجاجُ إنْ لم أقُمْ لَهُ ... بِسِيرافَ حَولاً في قِتَالِ الأزَارِقِ

وَإنْ لَمْ أُرِدْ أرْزَاقَهُ وَعَطَاءَهُ ... وَكُنتُ امْرأً سبّاً بِأهْلِ الخَرَانِقِ

فهو يرفض الانقطاع عن أهله في الخرنق والتجمير سنة لقتال الأزارقة.

ولم يسلم الحجاج حتى ممن شملهم بعفوه، إذ اندفعوا يسخرون منه، فأحد الخوارج لما سأله الحجاج عن دينه قال: دين يوسف بن الحكم، يعني والد الحجاج، فقال الحجاج: لقد توليته! يحب الله ورسوله، فخلى سبيله، فقال الخارجي حين خرج[3]:

أرَى الحجاجَ يَقْتُلُ كُلَّ بَرٍّ ... وَيَتْرُكُ مَنْ عَلَى دِيْنِ الحِمَارِ

---

(1) المبرد: الكامل ٢/٤٤٥.

(2) البكري: معجم ما استعجم ٢/٤٩٤ مادة (الخرنق).

(3) البلاذري: أنساب الأشراف ١٢/٣٧٥.

فَيَا ابنَ القِلْعَمِ المَجْلُوبِ حَيْفاً   دَعِ الحجاجَ وَانْجُ إلى دَبَارِ

فجعل قتله للخوارج قتلاً للبررة، ولقب والد الحجاج بالحمار، ولم يتوجه بكلمة شكر للحجاج على إطلاق سراحه.

وكذلك فعل قطبة بن زياد الذي يرى أنه احتال على الحجاج حتى أطلقه فقال[1]:

نَجَوتُ مِنَ الحجاجِ أنّي مُجَرِّبٌ   بَصِيرٌ بِأَحْنَاءِ الأُمُورِ الأَوَائِلِ
وَقَدْ قَالَ نَاسٌ مِنْ تَمِيمٍ وَغَيْرِهِمْ   نَجَا ابنُ زِيَادٍ مِنْ يَدَيْ غَيْرِ غَافِلِ
فَقُلْتُ بِحَمْدِ اللهِ وَالصَّبْرِ أَفْلَتُّ   حَشَاشَةُ نَفْسِي مِنْ شَتِيمٍ صُلَاصِلِ[2]

فأعاد لتجاربه ولله وصبره أسباب إطلاق سراحه، ولم ينل الحجاج إلا الهجاء المر من الشاعر.

وهكذا أثمرت حرب الخوارج على قوتها حركة شعرية قوية أيضاً عند أطراف عدة اختلفت مذاهبهم وأدوارهم في هذه الحرب واشتركوا في صب لائمتهم وهجائهم على الحجاج.

رمي الكعبة:

أما حرب الحجاج مع عبد الله بن الزبير، فقد رآها المعادون للحجاج حرباً ضد الإسلام، قال الأقيبل القيني (ت نحو ٨٥هـ)[3]:

وَلَمْ أَرَ جَيْشاً غُرَّ بِالحَجِّ قَبْلَنَا   وَلَمْ أَرَ جَيْشاً مِثْلَنَا كُلُّهُمْ خُرْسُ
دَلَفْنَا لِبَيْتِ اللهِ نَرْمِي سُتُورَهُ   بِأَحْجَارِنَا نَهْبَ الوَلَائِدِ لِلعُرْسِ
دَلَفْنَا لَهُمْ يَومَ الثُّلَاثَاءِ مِنْ مِنًى   بِجَيْشٍ كَصَدْرِ الفِيلِ لَيْسَ لَهُ رَأْسُ

فالشاعر هنا يتهم الحجاج بالكذب في إخراج الجيوش إذ أوهمهم أنه سيحج بهم، ثم فوجئوا بأنهم سيضربون أطهر بقعة على وجه الأرض وأحبها إلى المسلم (بيت الله)، بل سيركزون على الكعبة (ستوره). وكأنما الشاعر تملكه شعور من الأسى والندم مما

---

(١) الرقام البصري: العفو والاعتذار ١/٢١٠، ٢١١.

(٢) صلاصل: الذي يرفع الصوت في الإيعاد والتهديد

(٣) الجاحظ: الحيوان ٧/١٠٢.

جعله يتذكر اليوم الذي هاجموا فيه مكة وهو "يوم الثلاثاء"، وقليلاً ما تذكر الأيام في الشعر العربي، أما قولة "كلهم خرس" فتوحي بهيبة الحجاج التي منعتهم من الكلام والاعتراف، فكلهم خضع ساكتاً إلا الشاعر الذي عبر عن رفضه بهذه القصيدة.

وهذه القصيدة قد تكون الوحيدة ـ فيما اطلعت عليه من مصادر ـ التي توجهت باللوم للحجاج على ما فعله في مكة، ومن الغريب أن في هذه الحرب مجالا واسعاً للهجاء أكثر من حرب الخوارج ممن خرجوا من الملة إلا أنه على ما يبدو أن الظروف السياسية التي كانت في صالح الحجاج منعت الألسن من الحديث عن هذه الحرب سلباً.

الطعن في نسب الحجاج:

وقد يكون الأمر الثاني الذي ركز عليه الشعراء بعد الحرب في هجاء الحجاج هو عنصر الأصل والنشأة، وليس هذا بمستغرب في بيئة عربية صرفة كان للنسب فيها أهمية كبيرة، خاصة في العراق الذي عادت فيه العصبية القبلية جذعة كما كانت في الجاهلية، والحجاج من ناحية الأصل معروف أنه من قبيلة ثقيف، وقبيلة ثقيف قبيلة عربية، فهو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة ابن قيس عيلان[1]، مع ذلك فالشعراء وجدوا منفذاً يؤذون به الحجاج فقد ركزوا على رواية تقول بأن ثقيف من ولد أبي رغال، وأبو رغال من بقايا ثمود[2]، وجعلوها حقيقة لا تقبل الجدل، حتى إن الحجاج تبسط مع أحد محدثيه وهو أبو العسوس الطائي ـ فسأله لمعرفته بالأنساب ـ: "أي أقدم أنزول ثقيف الطائف أم نزول طيء الجبلين؟

فقال أبو العسوس: إن كانت ثقيف من بكر بن هوازن فنزول طيء الجبلين قبلها، وإن كانت ثقيف من ثمود فهي أقدم". مما أغضب الحجاج فقال: "يا أبا العسوس! اتقني فإني سريع الخطفة للأحمق المتهوك"[3].

ويبدو أن هذه الرواية قد شاعت كثيراً أيام الحجاج واستغلها الشعراء كقول أعشى همدان[4]:

---

(١) ابن الكلبي: جمهرة النسب ص٣٨٨.

(٢) انظر: البلاذري: أنساب الأشراف ٢٦/١.

(٣) انظر: المبرد: الكامل ٤٠٩/٢.

(٤) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ١١٢.

يَـــأْبَى الإلـــهُ وَعِـــزَّةُ ابـــنِ مُحَمَّــدٍ وَجُــدُودُ مُلْـــكٍ قَبْـــلَ آلِ ثَمُـــودِ
أنْ تَأْتَـــسُوا بِمُـــذَمِّمِينَ عُـــرُوقِهِمْ فِـي النَّـاسِ إنْ نُـسِبُوا عُـرُوقَ عَبِيـدِ

وكقول شبيب[1]:

عَبْدٌ دَعِيٌّ مِنْ ثَمُودٍ أصْلُهُ لا بَلْ يُقَالُ أبُو أبُوهِمْ يَقْدُمِ

فلم يكتفوا بجعله من ثمود صريحاً، بل جعلوه عبداً فيها. ويبدو أن الشعراء أكثروا على الحجاج بتعييره بهذا الأمر حتى إن الحجاج كان يقف على المنبر ويحاول أن يدفع هذه النسبة عن ثقيف[2]. بل اضطره شيوعها إلى إن يحسنها إن صحت[3].

والشعراء الهاجون ينسبون الحجاج إلى ثقيف أيضاً، بل هم يصورونه ثقيفاً كقول أعشى همدان[4]:

أمْكَنَ رَبِّي مِنْ ثَقِيفٍ هَمْدَانْ يَوماً إلى اللَّيلِ يُسَلِّي مَا كَانْ

وقال أرطاة بن سهيه[5]:

وَلا وَاللهِ مَا كَرُمَتْ ثَقِيفٌ وَلا كَانُوا عَلَى كَلْبٍ نَصِيرا

يقوله حين حمل الحجاج سعيداً وحلحلة الكلبيين من مكة إلى الخليفة بدمشق ليقتاد منهما[6]، فليس الذي يحارب ابن الأشعث قبيلة ثقيف، وليس الذي قاد الرجلين إلى الخليفة قبيلة ثقيف، بل هو الحجاج فقط، ولكن الشاعرين عبرا عن الحجاج بثقيف كأنما هي قبيله وضيعة يوصم صاحبها بها، أو أنهم يطعنون على الحجاج أنه استأثر القبيلة بالمناصب لما تولى الإمارة كما فعل بأخيه محمد (ت ٩١هـ) فجعله أميراً على اليمن، وجعل الحكم بن أيوب (ت نحو ٩٧هـ) ابن عمه وزوج أخته أميراً على البصرة، فكأنما الحجاج إذا أراد أمراً أرادته مجموعة كبيرة من ثقيف من حوله. وقد ركز أحد أصحاب

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢٣٣/٧.
(٢) انظر: المبرد: الكامل ٤٠٩/٢.
(٣) انظر: البلاذري: أنساب الأشراف ٢٥/١.
(٤) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ١٦٤.
(٥) البلاذري: أنساب الاشراف ٣١٣/٥.
(٦) انظر: البلاذري: أنساب الأشراف ٣١٣/٥.

المهلب على قبيلة مبعوث الحجاج إلى المهلب يستعجله القتال، فقال غاضباً للمهلب[1]:

مَازِلْـتَ يَـا ثَقَفِـيُّ تَخْطُـبُ بَيْنَنَـا وَتَغُمُّنَـا بِوَصِـيَّةِ الحجـاج

حَتَّـى إذا مَـا المـوتُ أقْبَـلَ زَاخِـراً وَسَـمَا لَنَـا صِـرْفاً بِغَيْـرِ مِـزَاج

وَلَّيـتَ يَـا ثَقَفِيُّ غَيْـرِ مُنَـاظرٍ تَنْسَابُ بَيـنَ أحِـزَّة وَفِجَـاج

والثقفي هنا هو عُبيد بن أبي ربيعة الثقفي[2]، والشاعر على معرفته باسمه أصر على التذكير بقبيلته لغضبه من الحجاج كأنما يطعن عليه وعلى الحجاج معاً.

ومما يرتبط بالمعني الثاني قول محمد بن عبد الله النميري[3]:

فَلِي عَنْ ثَقِيفٍ إنْ هَمَمْتُ بِنَجْوَةٍ مَهَامهُ تَهْوي بَيْنَهُنَّ الهَجَارِعُ[4]

فالنميري من ثقيف أيضاً، لكن كما يبدو يريد ثقيف الغاشمة التي تحيط بالحجاج وتساعده ويساعدها.

تعيير الحجاج بمهنته قبل الولاية:

وعلاوة على الطعن في أصله من حيث النسب طعنوا في منشأه من حيث الحسب، فالحجاج ووالده مجرد معلمين في الطائف يجري عليهما ما يجري على المعلمين من فقر وحاجة وحمق، فقال الشاعر[5]:

أيَنْسَى كُلَيْبٌ زَمَانَ الهـزالِ وَتَعْلِيمَـهُ سُـورَةَ الكَـوْثَرِ

رَغِيفٌ لَـهُ حَلْقَةٌ مَـا تُـرَى وَآخَـرَ كَـالقَمَرِ الأزْهَـرِ

فهو يسخر من مهنته وكيف أنها لا تقوم بأوده، ويلاحظ أن الشاعر لم يشر له باسمه الحجاج، بل اختار أحقر ألقابه ليضيفه على تعييره بنشأته. وقال مالك بن الريب[6]:

---

(١) المبرد: الكامل ٣/١١٥٩.

(٢) انظر: المبرد: الكامل ٣/١١٥٩.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٦/١٨٨.

(٤) الهجارع: الخفيف من الكلاب السلوقية.

(٥) ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم: المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة (القاهرة، دار المعارف، ط٤) ص ٥٤٨، المبرد: الكامل ٢/٤٤٧.

(٦) ابن قتيبه : الشعر والشعراء ١/٣٥٤.

زَمَانَ هُوَ العَبْدُ المُقِرُّ بِذِلَّةٍ يُرَاوِحُ صِبْيَانَ القُرَى وَيُغَادِي

فهو يذهب ويجيء على الصبيان يعلمهم لذلته وعدم طموحه.

ومع أن المصادر لم تذكر إلا هذه المهنة وهي مهنة التعليم للحجاج ووالده إلا أن الشعراء جعلوا له مهناً أخرى حقيرة على العرب آنذاك مثل الدباغة، فقال كعب الأشقري[1]:

وَرَأَى مُعَاوَدَةَ الدِّبَاغِ غَنِيمَةً أَيَّامَ كَانَ مُحَالِفَ الإِقْتَارِ

فهو كالبقية يصفه بالفقر والحاجة. وعمران بن حطان جعل والده (حجاماً) في مقطوعة يغلب عليها التهكم فقال[2]:

يَا ابْنَ الَّذِي ذَلَّتِ الرِّقَابُ لَهُ قَاتَلَهُ اللهُ أَيُّمَا رَجُلِ

أَبُوكَ أَوْهَى النِّجَادُ عَاتِقَهُ كَمْ مِنْ كَمِيٍّ أَدْمَى وَمِنْ بَطَلِ

يَأْخُذُ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ دَمِهِ لَمْ يُمْسِ مِنْ ثَائِرٍ عَلَى وَجَلِ

فِي كَفِّهِ مُرْهَفٌ يُقَلِّبُهُ يَقُدُّ أَعْنَاقَ سَادَةٍ بُطُلِ

فهو يهجو الحجاج بأسلوب ساخر، فكأنه يمدح في البداية، وإذا به يهجو، وكأنما هذه الصورة لوالد الحجاج اقتبسها الشاعر من حاضر الحجاج الذي يخوض الحروب والمعارك. وهذه الصورة، البطل المزيف، رائعة في هجاء الحجاج لأن أعداء الحجاج أكثر ما يؤذيهم من الحجاج حربه لهم، فكأنما يتمنون هذه الصورة للحجاج وأن يكون كوالده بطلاً مزيفاً.

فالشعراء يصرون على أن يرسموا للحجاج ماضياً حقيراً وضيعاً من ناحية الأصل والمهنة والحاجة المادية، ولتكتمل الصورة جعل يزيد بن الحكم (ت نحو ١٠٥هـ) ميراثهم من أحقر المواريث (الغنم) فقال[3]:

وَوَرِثْتُ جَدِّي مَجْدَهُ وَفِعَالَهُ وَوَرِثْتَ جَدَّكَ أَعْنُزاً بِالطَّائِفِ

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٤/٢٧٤.

(٢) الوزير المغربي: الحسين بن علي بن الحسين: الإيناس في علم الأنساب، أعده للنشر: حمد الجاسر،(الرياض، النادي الأدبي، ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م)ص١٧١.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني١٢/٢٩٠.

فلا مجد ولا فعال يبقيها له أجداده إنما أحقر الدواب عند العرب. لذلك تأمل أحد أهل الطائف في المكانة التي صار إليها الحجاج في العراق وما كان عليه في الطائف. فقال[1]:

كُلَيبٌ تَمَكَّنَ فِي أَرْضِكُمْ وَقَدْ كَانَ فِينَا صَغِيرَ الخَطَرْ

وليزيد من احتقاره أشار إليه باسم "كليب".

نبز الحجاج بالألقاب:

وشعراء الهجاء عادة ما يتحدثون عن الحجاج باسمه المعروف "الحجاج" ومض على ذلك أمثلة كثيرة، وهذا إما لأن اسم الحجاج هو المتعارف عليه، أو لأنهم يخشون أن يذهب ذهن الإنسان لغيره إذا غيروا أو حرفوا في اسمه.

ويلي اسم "الحجاج" في التحدث عنه مخاطبته بـ "ابن يوسف" وهذا اللقب كثير في شعر الهجاء قياساً على ما ورد شعر المديح نحو قول سبرة بن الجعد[2]:

فَأَيُّ امْرِيءٍ أَيُّ امْرِيءٍ يَا ابنَ يوسفٍ ظَفَرْتَ بِهِ لَمْ يَأْتِ غَيرَ الوَلائجِ

وقول أبي خالد اليشكري[3]:

لأَيْقَنْتَ أَنَّا فِي حُلُوقِ عَدُوِّنَا شَجيٌ ناشبٍ سَلْ يَا ابنَ يوسفَ تَعْجَبِ

والخطاب باسم الأب في الهجاء يأتي لتحقير المهجو ووالده معاً كأنما يذكرونه بأصله الوضيع وينسبونه لمن يستحق التبرؤ منه.

أما قول أعشى همدان[4]:

نُبئتُ حجاجَ بنَ يوسفَ خَرَّ مِنْ زَلَقٍ فَتَبَّا

فقد حذف الألف واللام من اسم الحجاج، وجاء هذا كثيراً في شعر الهجاء كأنما يخلعون عنه بها التفخيم والتعريف، ثم أضافه لوالده إمعاناً في السخرية فكأنما يقول: إنه لا يُعرف إلا إذ قيل اسمه كاملاً، وأيضا للتشهير به فالذي خر وتب هو الحجاج بن يوسف ولا أحد غيره. وفعلاً أغضب هذا البيت الحجاج بن يوسف كثيراً[5].

---

(١) المبرد: الكامل ٢/٤٤٧.

(٢) ابن أعثم: الفتوح ٧/٣٧.

(٣) ابن أعثم: الفتوح: ٧/١٧.

(٤) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ٧٤.

(٥) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/٤١.

ولقب الحجاج في شعر الهجاء "كليب" وهو اسم قال الحجاج إن أمه سمته به وهو صغير[1]. وما جاء هذا الاسم في شعر الهجاء إلا للتحقير نحو قول الشاعر[2]:

أَيَنْسَى كُلَيبٌ زَمَانَ الهِزَالِ   وَتَعْلِيمَهُ سُورَةَ الكَوْثَرِ

وسماه الفرزدق "الجحاد" فقال[3]:

عَجِبْتُ إِلَى الجَحَّادِ أَيَّ إِمَارَةٍ   أَرَادَ لأَنْ يَزْدَادَهَا أَوْ دَرَاهِمِ

فَلَمَّا عَتَا الجَحَّادُ حِينَ طَغَى بِهِ   غِنىً قَالَ إِنِّي مُرْتَقٍ فِي السَّلالِمِ

كأنما هو جاحد لدين الله، وهو في الوقت نفسه على وزن اسمه، وشبيه به.

أما من ناحية الألقاب، فلقب الحجاج في الهجاء بأمير كما لقب في حال المديح إلا أنه هنا جاء للسخرية من إمارة لا يستحقها كقول عمران بن حطان[4]:

وَرَاحَ ابنُ جَعْدِ الخَيْرِ نَحْوَ أَمِيرِهِ   أَمِيرٍ بِتَقْوَى رَبِّهِ غَيرِ آمِرِ

وجعلوه في الهجاء "ملكاً" ولكن ملكاً لثقيف، قال الأقيبل القيني[5]:

فَإِلا تُرِحْنَا مِنْ ثَقِيفٍ وَمُلْكِهَا   نُصَلِّ لأَيَامِ السَّبَاسِبِ وَالنَّحْسِ

فالحجاج بضربه للكعبة سيقضي على الإسلام، ويعود الناس للجاهلية مرة أخرى.

تخويف الآمنين وتشريدهم:

والحجاج له هيبة في النفوس، هيبة دفعت مجموعة من الشعراء إلى الهرب والاختباء خوفاً من الحجاج، وهؤلاء الشعراء لا ينتمون لأحزاب معارضة ولم يشتركوا في حرب ضد الحجاج أو الدولة الأموية، ومع ذلك أخذ الخوف بمجامع قلوبهم وفروا من وجهه لأسباب مختلفة ذكرها بعضهم في شعره نحو قول سوار بن المضرب[6]:

أَقَاتِلِيَ الحجاجُ إِنْ لَمْ أَزُرْ لَهُ   دَرَابَ وَأَتْرُكْ عِنْدَ هِنْدٍ فُؤَادِيَا

فَإِنْ كَانَ لا يُرْضِيكَ حَتَّى تَرُدَّنِي   إِلَى قَطَرِيٍّ مَا إِخَالُكَ رَاضِيَا

---

(1) انظر: ابن قتيبة : عيون الأخبار ٣٢٤/١.

(2) ابن قتيبة: المعارف ص ٥٤٨.

(3) شرح ديوان الفرزدق ٨٥٣/٢.

(4) ابن أعثم: الفتوح ٣٦/٧.

(5) أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال ص ٢١٤.

(6) المبرد: الكامل ٤٤٥/٢.

فالحجاج سبق أن أعلن بعد توليه إمارة العراقين أن من لم يخرج إلى جيش المهلب بعد ثلاث سيقتل، وطبق ذلك عملياً في الكوفة والبصرة[1]. والشاعر لا يريد أن يعود لحرب قطري لما فيها من الصعوبة والجهد ولا يستطيع أن يواجه الحجاج بالرفض لذلك فضّل الهرب.

أما الأقيبل القيني فقد اعترف أنه شتم الحجاج، لذلك الحجاج غاضب منه والشاعر خائف من شره[2]:

إنّ امْـرأً قَـالَ فـي الحجـاج يَـشْتُمُهُ ... وَنَابُـهُ مِـنْ دِمَـاءِ القَـومِ مَمْطُـورُ

ثُـمَّ اغْتَـدَى عَامِـداً لِلْـشَرِّ يَطْلُبُـهُ ... بَعْـدَ الجَهَالَـةِ عِنْـدِي اليَـومَ مَغْـرُورُ

فالذي يفكر في العودة لطلب الصفح من الحجاج بعد شتمه مغرور ومخدوع.

ورغم خروج هؤلاء الشعراء عن طاعة الحجاج إلا أنهم يعترفون بأنه ليس بالشخص الهين، لذا أخذ الخوف بمجامع قلب النميري على بعد المسافة بينه وبين الحجاج[3]:

أَتَتْنِـي عَـنِ الحجـاجِ وَالبَحْـرُ بَيْنَنَـا ... عَقَـارِبُ تَـسْرِي وَالعُيُـونُ هَوَاجِـعُ

فَـضِقْتُ بِهَـا ذَرْعـاً وَأَجْهَـشْتُ خِيفَـةً ... وَلَـمْ آمَـنِ الحجـاجَ وَالأَمْـرُ فَـاظِعُ

فَبِـتُ أُدِيْـرُ الأَمْـرَ وَالـرَّأْيَ لَيْلَتِـي ... وَقَـدْ أَخْـضَلَتْ خَـدِّي الـدُّمُوعُ التَّوابِـعُ

فهو يعترف بأنه ذرف الدموع وأجهش بالبكاء من خوفه من الحجاج.

والأقيبل القيني كذلك خاف الحجاج إلا أن أسلوبه في الخوف يختلف عن أسلوب النميري، قال[4]:

لَقَـدْ عَلِمْـتُ وَخَيـرُ القَـولِ أَنْفَعُـهُ ... أَنَّ انطِلاقِـي إلـى الحجـاجِ تَغْرِيـرُ

لَـئِنْ ذَهَبْـتَ إلـى الحجـاجِ يَقْتُلُنِـي ... إنّـي لأَحْمَـقُ مَـنْ تَحْـدِي بِـهِ العِيـرُ

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧/٢١٢ـ ٢١٣.

(٢) الرقام البصري: العفو والاعتذار١/٣٥٩.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٦/١٨٨.

(٤) الجاحظ: الحيوان ٤/٢٥٣ـ ٢٥٤.

مُـسْتَحْقِباً صُـحُفاً تُـدْمَى طَوَابِعُهَـا وَفـي الـصَّحَائفِ حَيَّـاتٌ مَنَـاكِيرُ[1]

فالخوف من انتقام الحجاج منعه من الذهاب له ومعه كتاب أمان من الخليفة. بل الخوف صور له هذا الكتاب دامي الطوابع يحمل الموت معه إذ فيه حيات منكرة. فكأن بطش الحجاج أقوى من الخليفة نفسه.

والشعراء الفارون من الحجاج اعتمدوا على بعد أماكنهم منه وتحصنها للشعور بالأمان. قال مالك بن الريب[2]:

وَفِي الأَرْضِ عَـنْ دَارِ المَذَلَّـةِ مَـذْهَبٌ وَكُـلُّ بِـلادٍ أُوْطِنَـتْ كَـبِلادي

فَمَـاذَا عَـسَى الحجـاجُ يَبْلُـغُ جَهْـدُهُ إذَا نَحْـنُ جَاوَزْنَـا حَفِيـرَ زِيَـادِ

فـ.... أبـي الحجـاج و..... عَجُـوزِهِ عُتَيِّـدِ بَهْـمٍ تَرْتَعِـي بِوِهَـادِ[3]

وقال النميري[4]:

وَمَـا أَمِنَـتْ نَفْـسِي الَّـذي خُفْـتُ شَـرَّهُ وَلا طَـابَ لِـي مِمَّـا خَـشِيتُ المَـضَاجِعُ

إلَـى أنْ بَـدَا لِـي رَأسُ إسْـبِيلَ طَالِعـاً وَإسْـبِيلُ حِـصْنٌ لَـمْ تَنَلْـهُ الأَصَـابِعُ

وَفِي الأَرْضِ ذَاتِ العَرْضِ عَنْكَ ابنَ يُوسفٍ إذَا شِـئتُ مَنْـأىً لا أَبَـا لَـكَ وَاسِـعُ

فَـإنْ نِلْتَنِـي حجـاجُ فَاشْـتَفْ جَاهِـداً فَـإنَّ الَّـذِي لا يَحْفَـظُ اللهَ ضَـائعُ

---

(1) مستحقب: استحقب الشيء: حملة في مؤخرة الرحل. الطوابع: جمع طابع وهو الخاتم الذي تختم به الرسائل ونحوها.

(2) ابن قتيبة: عيون الأخبار ٢٣٦/١، وقد وردت هذه الأبيات في ديوان الفرزدق ١٩٠/١، وعزاها له أبو تمام في ديوان الحماسة. تحقيق: عبد الله عبد الرحيم عسيلان (الرياض، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م)، ٣٣٩/١. ولكن أسلوب الأبيات الذي يعلو فيه صوت التحدي الساخر للحجاج، وموضوع الأبيات الذي يدل على هروب واختباء من الحجاج أنسب لمالك بن الريب الذي عرف باللصوصية التي حاربها الحجاج كثيراً، ثم ما ورد في مقدمة الأبيات من استهتار بالخلافة المروانية مما لا يعرف عن الفرزدق، خاصة أن كثيراً من المصادر الأدبية عزتها لمالك بن الريب مثل: ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٥٤/١، المعارف ص ٥٤٨، والمبرد: الكامل ٤٤٦/٢، ٤٤٧.

(3) عتيد: تصغير عتود وهو ما دار عليه الحول من أولاد المعزى.

(4) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٨٨/٦.

وقال سوار بن المضرب[1]:

إِذَا جَاوَزَتْ دَرْبَ المجِيزِينَ نَاقَتي   فـ..... أبي الحجاج لَمَّا ثَنَانِيَا

ويلاحظ على الأبيات علو نبرة التحدي للحجاج والتحدث إليه بأسلوب يفتقر إلى الأدب، فكأنما أمنوا الحجاج لأمان المكان الذي فروا إليه، ومالك بن الريب والنميري يضيفان بأن في الأرض أماكن كثيرة للاختباء عن الحجاج أو عن ذي الجور بوجه عام . والمراد به هنا الحجاج، فكأنهما يحرضان غيرهما على تحدي الحجاج مثلهما.

ورغم أن هؤلاء الشعراء صبوا جام غضبهم على الحجاج إلا أنهم يشعرون بأن الحجاج منفذ لأوامر الخليفة؛ لذلك يعلنون أن غضبهم أيضا غضب على بني مروان، قال مالك بن الريب[2]:

فَإِنْ تُنْصِفُونَا آلَ مَرْوَانَ نَقْتَرِبْ   إِلَيْكُمْ وَإِلا فَأْذَنُوا بِتَعَادِي

فَإِنَّ لَنَا عَنْكُمْ مَرَاحاً وَمَرْحَلاً   بِعِيسٍ إلى رِيحِ الفَلاةِ صَوَادِي

وقال سوار بن المضرب[3]:

أَيَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ سَمْعي وَطَاعَتِي   وَقَومِي تَمِيمٌ وَالفَلاةُ وَرَائيا

فمالك بن الريب اعتمد على ناقته وقدرتها على حمله إلى أبعد الأماكن عن بني مروان أما سوار بن المضرب فاعتمد على قومه تميم والفلوات التي تحميه من بني مروان.

فقد تحدى هؤلاء الشعراء الحجاج، وصوروه بالإنسان الناقم الغادر الذي لا يؤمن شره، يزرع الرعب في القلوب على بعد المسافات، وتوجهوا له وهو الأمير بأقبح الألفاظ التي يتعفف عنها المسلم، بل وصلوا هذا التحدي ببني مروان الذين يدين لهم الحجاج بالولاء، ويسعى لتثبيت ملكهم، ولكن هؤلاء الشعراء لم يجرؤوا على قول ذلك إلا بعد أن ابتعدوا مسافة كبيرة عن الحجاج.

الرغبة عن إنكاح الحجاج:

وقد تتبع الشعراء الحجاج بن يوسف في حياته الشخصية، فكان هناك آراء في

---

(١) المبرد: الكامل ٢/د٤٤.

(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/٢٣٦.

(٣) المبرد: الكامل ٢/٤٤٥.

زواجه سجلها الشعراء، ولعل أقساها أبيات جعفر بن الزبير التي يستنكر فيها زواجه بابنة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (ت ٨٠هـ)[١]:

وَجَدْتَ أَميرَ المؤمنين ابنَ يوسفٍ ... حَمِيّاً مِنَ الأَمْرِ الذي جِئتَ تَنْكُفُ

وَنُبِّئتُ أَنْ قَدْ قَالَ لَمَّا نَكَحْتَهَا ... وَجَاءَتْ بِهِ رُسْلٌ تُخِبُّ وتُوجِفُ

سَتَعْلَمُ أَنِّي قَدْ أَنِفْتُ لِمَا جَرَى ... وَمِثْلُكَ مِنْهُ عَمْرَكَ اللهِ يُؤْنَفُ

فهو فرح جداً بموقف الخليفة من هذه الزيجة، ومنعه إتمامها بأسلوب شديد اللهجة يدل عليه البيت الثالث، والشاعر يخاطب الحجاج بابن يوسف كأنما يحقر بذلك من شأنه ويذكره بأصله، فهو لا يعدو أن يكون ابن يوسف، ثم يعلل السبب الذي كاد يساعد على إتمام هذه الزيجة فقال[٢]:

وَلَولا انتِكَاسُ الدَّهْرِ مَا نَالَ مِثْلَهَا ... رَجَاؤُكَ إِذْ لَمْ يَرْجُ ذَلِكَ يوسفُ

أَبِنْتُ المُصَفَّى ذِي الجَنَاحَينِ تَبْتَغِي ... لَقَدْ رُمْتَ خَطْباً قَدْرُهُ لَيْسَ يُوصَفُ

فظروف الدهر هي التي جعلته يحلم بالزواج بها، مع أن والده يوسف لم يكن ليفكر في ذلك مجرد تفكير لبعده عن الواقع، وهو بهذا يعود ليحقر من أصل الشاعر مرة أخرى بتذكيره بوالده وأنه مجرد ابن لأب وضيع.

وتستمر سلسلة الندم على تزوج الحجاج من أهالي زوجاته، فحميدة بنت النعمان (ت نحو ٨٥هـ) تأسف على زواجه بابنتها، قالت[٣]:

إِذَا تَذَكَّرْتُ نِكَاحَ الحجاجْ ... مِنَ النَّهَارِ أَوْ مِنَ اللَّيلِ الدَّاجْ

فَاضَتْ لَهُ العَينُ بِدَمْعٍ ثَجَّاجْ ... وَاشْتَعَلَ الرَّأسُ بِوجْدٍ وَهَّاجْ

لَوْ كَانَ نُعْمَانُ قَتِيلَ الأَعْلاجْ ... مُسْتَوِي الشَّخْصِ صَحِيحَ الأَوْدَاجْ

قَدْ كُنْتُ أَرْجُو بَعَضَ مَا يَرْجُو الرَّاجْ ... أَنْ تُنْكَحِيهِ مَلِكاً ذَا تَاجْ

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٥/ ١٠-١١.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٥/ ١١.

(٣) ابن طيفور: بلاغات النساء ص ١٣٨.

وقد يكون زواج الحجاج بهند بنت أسماء بن خارجة (ت نحو ١٠٠هـ) هو أكثر موضوع انطلقت حوله الآراء، ففي البداية كان الرضا عن الحجاج زوجاً، رغم عدم توقع ذلك، قال أسماء بن خارجة مخاطباً محمد بن عمير (ت ٨٥هـ) الذي أوصى الحجاج بخطبة هند[1] متعمداً الإساءة لوالدها بذلك[2]:

فَزَوَّجْتُهَا الحجاجَ لا مُتَكَارِهاً … وَلا رَاغِباً عَنْهُ وَنِعْمَ أَخُو الصِّهْرِ
أَرَدْتَ ضِرَارِي فَاعْتَمَدْتَ مَسَرَّتِي … وَقَدْ يُحْسِنُ الإنْسَانُ مِنْ حَيْثُ لا يَدْرِي

ولكن هذا الرضا ما لبث أن تغير مع مرور الأيام، وإذا الندم يدفعه لتمني أمنية شديدة على الأب، قال أسماء[3]:

يَا لَيتَ هِنداً أَصْبَحَتْ مَرْمُوسَةً … أَوْ لَيْتَهَا جَلَسَتْ عَنِ الأَزْوَاجِ

فهو يتمني أن ابنته جثة هامدة أو ظلت عانساً ولم تتزوج الحجاج.

ولا تختلف مشاعر هند عن مشاعر والدها الأخيرة هذه حين قالت شامتة بالحجاج[4]:

أَلا يَا أَيُّهَا الجَسَدُ المُسَجَّى … لَقَدْ قَرَّتْ بِمَصْرَعِكَ العُيُونُ
وَكُنْتَ قَرِينَ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ … فَلَمَّا مِتَّ سَلَّمَكَ القَرِينُ

فهي تشمت به في أكثر لحظة تنطلق فيها مشاعر الرحمة، وتخف فيها حدة الحقد، وتنسى الإساءة ساعة الموت.

والحجاج بن يوسف من قبيلة عربية معروفة هي قبيلة ثقيف، وثقيف منذ العصر الجاهلي من مناكح قريش سيدة العرب، ثم إن الحجاج أمير له وزنه على شطر الدولة الإسلامية، بل هو ذراع الخليفة الأيمن الذي يعلن الخليفة دائماً رضاه عنه ومحبته له بل حاجته إليه، ومع ذلك كله كره الناس زواجه منهم، والسبب ذكره أسماء بن خارجة

---

(١) انظر: أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٢٠/٢٣٤.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٢٠/٢٣٤.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٧/١٦٠.

(٤) المسعودي: أبو الحسن على بن الحسين بن على: التنبيه والإشراف (بيروت، مكتبة خياط) ص ٣١٨.

في قوله[1]:

أَبَنِـي فِـزَارَةَ لا تُعَنُّـوا شَـيْخَكُمْ	مَـا لِـي وَمَـا لِزِيَـارَةِ الحجـاج
لا تَطْلُبُـوا حَاجَـاً إليـهِ فَإنَّـهُ	بُـؤسَ المُؤَمَّـلِ فـي طِـلابِ الحَـاج

فالحجاج لا يخضع لعنصر القرابة، فلا يمكن أن ينفع أحداً لعلاقة قرابة أو مصاهرة، لذلك لا فائدة من تزويجه.

السخرية من إصلاحات الحجاج:

وللحجاج إصلاحات مادية ملموسة غفل عنها مادحوه وذكرها هاجوه، وهم وإن كانوا ذكروها للتنقيص منها ومن الحجاج إلا أن أبيات الهجاء هذه كتبت لهذه الإصلاحات البقاء، وحفظت حق الحجاج في الابتداع فيها؛ منها أنه أول من عمل المحامل[2]، قال بعض رجاز الأكرياء[3]:

أَوَّلُ عَبْدٍ عَمِلَ المَحَامِلا أَخْزَاهُ رَبِّي عَاجِلاً وَآجِلا

فهو غاضب منه يدعو عليه بالخزي العاجل والآجل.

والحجاج أول من ضرب درهماً "عربياً" قال عمران بن عصام (ت نحو ٨٥هـ) وهو من جند المهلب، يمدح المهلب ويعرض بالحجاج[4]:

ضَـرَبُوا الـدَّرَاهِمَ فـي إمَـارَتِهِمْ	وَضَـرَبْتَ لِلْحَـدَثَانِ وَالحَـرْبِ
حِلَقـاً تُـرَى مِنْهَـا مَـرَافِقُهُمْ	كَمَنَاكِـبِ الجَمَّالَـةِ الجُـرْبِ

فالمهلب يفكر في الحرب لذا ابتكر لجنوده نوعاً جديداً من الركاب[5]، أما الأمير الحجاج، فيفكر في المال وتطوير النقود[6]، فالمهلب تفكيره للآخرة والحجاج للدنيا.

ومن إصلاحاته الداخلية أنه لما خرب السواد وقل إنتاجه شكا الناس للحجاج ذلك.

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٧/١٦٠.

(٢) انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ٢/٣٠٤.

(٣) الجاحظ: البنان والتبيين ٢/٣٠٤.

(٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/٤٧.

(٥) انظر: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/٤٧.

(٦) انظر: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ص ٢٨١.

فرأى الحل في تحريم لحوم البقر ليكثرَ البقر ويستعان به على الحرث، وبالتالي تنتعش الزراعة في السواد[1]، وهو حل مناسب. إلا أن هاجيه توصلوا إلى تصويره حلاً مضحكاً غير مناسب، فقال بعض الشعراء[2]:

شَكَونَا إليه خَرَابَ السَّوَادِ ... فَحَرَّمَ فِينَا لُحُومَ البَقَرْ

فَكُنَّا كَمَا قِيلَ فِي بَعْدِهِ ... أُرِيهَا السُّهَا وَتُرِينِي القَمَرْ

فهم يصورون الحل بعيداً عن المشكلة، فما العلاقة بين فساد الزرع ولحوم البقر! إلا أن المتأمل يجد بينهما علاقة كما رأى الحجاج.

بخل الحجاج:

والأمير من أهم صفاته الكرم وبذل المعروف، أما الحجاج فقد وصفه هاجوه بالبخل الشديد متخذين من الموازنة سبيلهم لإظهار هذه الصفة في الحجاج ليكون أكثر إصغاراً للحجاج، فعمرو بن يزيد النهدي يوازن بينه وبين مصعب بن الزبير (ت ٧٢هـ) قال[3]:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الجُودَ إِذْ مَاتَ مُصْعَبٌ ... دَفَنَّاهُ وَاسْتَرْعَى الأَمَانَةَ ذِيبُ

وقال العديل موازناً بينه وبين قائده المهلب[4]:

لَئِنْ أَرْتَجَ الحجاجُ بِالبُخْلِ مَالَهُ ... فَبَابُ الفَتَى الأَزْدِيِّ بِالعُرْفِ يفْتَحُ

وَلَيْسَ كَعِلْجٍ مِنْ ثَمُودَ بِكَفِّهِ ... مِنَ الجُودِ وَالمَعْرُوفِ حِرْمٌ مُطَوَّحُ

تكفير الحجاج:

وتحدث الشعراء الهاجون عن مدى التزام الحجاج الديني، فأعشى همدان رآه تحول من الإيمان إلى الكفر[5]:

---

(١) انظر: العسكري: أبا هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: الأوائل، تحقيق: وليد قصاب، ومحمد المصري (الرياض، دار العلوم) ص٢٤٦-٢٤٧.

(٢) العسكري: الأوائل ص ٢٤٧.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٥/ ٢٨٠.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ٢٢/ ٣٦٠.

(٥) ديوان أعشى همدان وأخباره ص ١٦٤.

إنَّا سَمَونَا لِلكَفُورِ الفَتَّانْ   حِيْنَ طَغَى في الكُفرِ بَعْدَ الإيْمَانْ
بِالسَّيِّدِ الغِطْـرِيفِ عَبْدِ الرَّحْمَــنْ

لذلك هو بحاجة إلى تأديب. وسيكون ذلك على يد ابن الأشعث وكذلك رأى الطفيل بن عامر بن واثلة من أصحاب ابن الأشعث[1]:

أَتَــوكَ يَقُــودُونَ المَنَايَــا وَإِنَّمَــا   هَــدَتْهَا بِأَولاَنَــا إِليــكَ ذُنُــوبُ
أَلا أَبْلِــغ الحجــاجَ أَنْ قَــدْ أَظَلَّــهُ   عَــذَابٌ بِأَيْــدِي المُــؤمِنينَ مُهِيــبُ

فذنوبه هي التي جرت عليه الحرب، وتأديبه سيكون على أيدي المؤمنين، فهو غير معدود منهم.

أما الفرزدق فقد أخذ عليه عدم قبول النصيحة الدينية[2]:

وَكَانَ إِذَا قِيلَ اتّقِ اللّهَ شَمَّرَتْ   بِهِ عِزَّةٌ لايُسْتَطَاعُ جِدَالُهَا

وشبهه الفرزدق بابن نوح في غروره وكفره فقال[3]:

فَلَمَّــا عَتَــا الجَحَّــادُ حِــينَ طَغَــى بِــهِ   غِنــىً قَــالَ إِنّــي مُرْتَــقٍ فِــي الــسَّلالمِ
فَكَــانَ كَمَــا قَــالَ ابــنُ نُــوحٍ سَــأرتَقِي   إلــى جَبَــلٍ مِــنْ خَــشيَةِ المــاءِ عَاصِــمِ
رَمَــى اللّهُ فــي جُثْمَانِــهِ مِثْــلَ مَــا رَمَــى   عَــنِ القِبْلَــةِ البَيْــضَاءِ ذَاتِ المحَــارِمِ
جُنُــوداً تَــسُوقُ الفيــلَ حَتَّــى أَعَادَهَــا   هُبَــاءً وَكَــانُوا مُطَرْخِمِــيِّ الطَّــرَاخِمِ

فكانت نهايته كنهاية ابن نوح موت دون توبة، وكنهاية أصحاب الفيل الذين رمتهم طيراً أبابيل.

أما الخوارج فلا عجب أن رأوه ممن لا يأمر بالمعروف. قال قطري[4]:

لَــشَتَّانَ مَــا بَــينَ ابــنِ جَعْــدٍ وَبَيْنَنَــا   إِذَا نَحْــنُ رُحْنَــا فِــي الحَدِيــدِ المُظَــاهِرِ
وَرَاحَ ابــنُ جَعْــدِ الخَيْــرِ نَحْــوَ أَمِيــرِهِ   أَمِيــرٍ بِتَقْــوَى رَبِّــهِ غَيْــرِ آمِــرِ

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/ ١٣.
(٢) شرح ديوان الفرزدق ٢/ ٦٢٣.
(٣) شرح ديوان الفرزدق ٢/ ٨٥٣.
(٤) ابن أعثم: الفتوح ٧/ ٣٦.

سفكه للدماء:

أما سفكه للدماء فقد تحدث عنه أسماء بن خارجة فقال[1]:

شَبَّهْتَهُ شِبلاً غَدَاةَ لَقِيْتُهُ يُلْقِي الرُّؤوسَ شَوَاخِبَ الأَوْدَاج
تَجْرِي الدِّمَاءُ عَلَى النِّطَاعِ كَأَنَّهَا رَاحٌ شَمَولٌ غيرُ ذاتِ مِزَاج

فهو يجعله كالأسد الذي يكثر القتل حتى تسيل الدماء بين يديه، أما الأقيبل القيني فقال[2]:

إن امرأً قَامَ فِي الحجاج يَشْتُمُهُ وَنَابُهُ مِنْ دِمَاءِ القومِ مَمْطُورُ

فأسماء جعل الدماء تسيل بين يديه والأقيبل جعله ممطوراً بالدماء لكثرة قتله، وكلا الشاعرين ذكرا كثرة قتله للاعتذار عن القدوم عليه، أما خليفة بن خالد بن الهرماس فقد تجرأ على الحجاج أكثر إذ قال[3]:

فَلِلَّهِ حجاجُ بنُ يوسفَ حَاكِماً أَرَاقَ دِمَاءَ المُسلمينَ بِلا جُرْمِ

فهو يريق دماء المسلمين بالذات دون سبب شرعي، فقتله الحجاج على هذا البيت بعد أن كان قد عفا عنه.

السخرية من هيئة الحجاج:

أما هيئة الحجاج فلم يغفل عنها الشعراء الهاجون، فسخر من عينيه إمام بن أقرم فقال[4]:

وَلا الحجاجُ عَيْنَي بنتِ مَاءٍ تُقَلِّبُ طَرْفَها حَذَرَ الصُّقُورِ

فجمع له بين السخرية من شكل عينيه، وبين وصفه بالجبن، وعُد هذا من التشبيه المحمود، فعيناه تشبه عيني طيور الماء إذا ارتعبت، وكذلك الراجز قال[5]:

هَلُمَّ هَاتُوا صِفَةَ الحجاج كَأَنَّ عَيْنَيْهِ مِنَ الزُّجَاج

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٦١/١٧.
(٢) الرقام البصري: العفو بالاعتذار ٣٥٩/١.
(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٣٣٦/١٢.
(٤) الجاحظ: البيان والتبيين ٣٨٦/١.
(٥) البلاذري: أنساب الأشراف ٤٠٠/١٢.

كَأنَّ سَاقَيْهِ عَمُــودا سَــاجِ

فسخر من شكل عينيه ومن ساقيه، وسخر قطبة بن زياد من ساعديه فقال[1]:

خَبَنْعَنَةٌ في سَاعِدَيْهِ تَفَاوتٌ كَرِيهِ المُحَيَّا قَرْنُهُ غَيْر وَائِلِ[2]

فالحجاج كانت عيناه تلفتان النظر فشبهها الشاعر الأول بعيني طيور الماء والشاعر الآخر بعيون الزجاج، كما كان في أطرافه عيوب كما رآها هؤلاء الشعراء، واختصر قطبة بن زياد وصفه بقوله "كريه المحيا" وكل شخص فعلاً كريه بالنسبة لأعدائه.

تحسن الأحوال بعد موته:

وقد تبدلت الأحوال بعد الحجاج كما ذكر هاجوه من الشعراء، تبدلت على أهل العراق وعلى أهل الحجاج أنفسهم، أما أهل العراق فصور الفرزدق موته خيراً عليهم فقال[3]:

وَقُلْتُ لأَهْلِ المشْرِقَينِ أَلَمْ تَكُنْ عَلَيْكُمْ غُيُومٌ وَهْيَ حُمْرٌ ظِلالُهَا
فَبُدِّلْتُمْ جُودَ الرَّبِيعِ وَحُوِّلَتْ رَحىً عَنْكُمْ كَانَتْ مُلِحّاً ثِقالُهَا
أَلا تَشْكُرونَ اللّهَ إِذْ فَكَّ عَنْكُمْ أَدَاهِمَ بِالمَهْدِيِّ صُمّاً ثِقَالُهَا
وَشِيمَتْ بِهِ عَنْكُمْ سُيوفٌ عَلَيْكُمْ صَبَاحَ مَسَاءً بِالعِرَاقِ اسْتِلالُهَا

فالحجاج كان كالغيوم الحمراء التي تنذر بالقحط والشدة، وكالرحى الثقيلة وكالقيود الشديدة فأزاحه عنهم سليمان بن عبد الملك، وأزاح كذلك السيوف التي سلطها على أهل العراق صباحا مساء، فبموت الحجاج كان الفرج لأهل العراق، وبموته حل الفرج على الهاربين من جبروته في أنحاء البلاد، كالفارين من فلول جيش ابن الأشعث[4]:

أَلِكْنِي إِلَى مَنْ كانَ بِالصِّينِ إِذْ رَمَتْ بِهِ الهِنْدُ أَلْوَاحٌ عَلَيْهَا جِلالُهَا[5]

---

(1) الرقام البصري: العفو والاعتذار ٢١١/١.

(2) خبثعنة: العظيم الشديد من الأسد.

(3) شرح ديوان الفرزدق ٦٢٠/٢ و ٦٢٢.

(4) شرح ديوان الفرزدق ٦٢٣/٢.

(5) ألواح عليها جلالها: يريد السفن.

هلُمَّ إلى الإسلامِ والعَدْلِ عِنْدَنَا   فَقَدْ مَاتَ عَنْ أرْضِ العِرَاقِ خَبَالُها

فهو يدعوهم للعودة إلى البلاد حيث شاع فيها الإسلام والعدل اللذان كانت البلاد محرومة منهما بوجود الحجاج.

أما أهل الحجاج فقد أفسح موته مجالاً للانتقام منهم[1]:

لَئِنْ نَفَرَ الحجاجُ آلُ مُعَتِّبٍ   لَقُوا دَوْلَةً كَانَ العَدُوُّ يدالُهَا[2]

لَقَدْ أَصْبَحَ الأحْيَاءُ مِنْهُمْ أذِلَّةً   وَفِي النَّارِ مَثْوَاهُمْ كُلُوحاً سِبَالُهَا

وَكَانُوا يَرَوْنَ الدَّائرَاتِ بِغَيْرِهِم   فَصَارَ عَلَيْهِمْ بِالعَذَابِ انْفِتالُهَا

فالانتقام شمل جميع آل معتب وليس فقط أبناء الحجاج أو أبناء يوسف وشمل الشر الأحياء منهم والأموات، وكانوا في السابق بعيدين عن كل أذى، والآن سُلط عليهم العذاب، وصدقت تلك المرأة الباكية على الحجاج[3]:

اليَوْمَ يَرْحمُنا مَنْ كَانَ يَحْسدُنَا   واليومَ نَتْبَعُ مَنْ كَانُوا لَنَا تَبَعَا

بين الصورة الشعرية والصورة التاريخية:

إن أول ما يلفت النظر هو أن الصورة التاريخية للحجاج تسيطر عليها صورته السلبية، فمعظم المترجمين رسموا له صورة غاية في السوء[4]، بينما عالم الشعر سيطرت عليه صورته الإيجابية، ففرق شاسع من حيث الكمية بين الأبيات التي رسمت صورته الإيجابية وتلك التي عبرت عنها صورته السلبية، ومع أن هذا الشعر كله قيل في وقت الحجاج

---

(١) شرح ديوان الفرزدق ٦٢٢/٢.

(٢) نفر: قوم. يدالها: ينتصر عليها.

(٣) الجاحظ: فصل ما بين العداوة والحسد (ضمن رسائل الجاحظ) ٣٧٢/١.

(٤) انظر: على سبيل المثال: المسعودي: مروج الذهب ١٥٣/٢ ـ ١٥٥. ابن الأثير: عز الدين علي بن أبي الكرم: الكامل في التاريخ (بيروت، دار صادر، ط٦، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م) ٥٨٣/٤. الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء، تحقيق: مأمون الصاغرجي، أشرف على التحقيق: شعيب الأرناؤوط (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) ٣٤٣/٤. ابن كثير: البداية والنهاية ١١٧/٩ ـ ١٤٠. ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني: تهذيب التهذيب (حيدر آباد، دائرة المعارف النظامية، ط١، ١٣٢٥هـ) ٢١٠/٢ ـ ٢١٣.

ومعظم صانعي الصورة الإيجابية من الشعراء الكبار أصحاب الدواوين. إلا أن الصورة التاريخية على ما يبدو لم تتأثر كثيراً بالصورة الأدبية للحجاج.

الصورة الحربية:

إن أهم صفة ركز عليها الشعراء هي الصورة الحربية والدور العسكري للحجاج وقد استغرقت هذه الناحية معظم الشعر الذي دار حول الحجاج. واتفقت الصورتان الإيجابية والسلبية على التفصيل فيها. وهذا أمر يتفق تماماً مع ما أثبتته كتب التاريخ عن سيرة الحجاج وكثرة خوضه للمعارك. فمنطقة إمارة الحجاج منطقة تموج بالقلاقل العقدية والسياسية. لذا فبمجرد أن تولى إمارة العراق كان مسؤولاً عن إنقاذ جيش المهلب. وحث الجند على العودة إليه[1] مما جعله يتخذ شخصية القائد العسكري. وما كاد يبعث الجيش إلى المهلب عام ٧٥هـ حتى خلعه أهل العراق في تلك السنة. واجتمعت مضرو ربيعة واليمن على عبد الله بن الجارود (ت ٧٥هـ) لمحاربة الحجاج وخلعه. فالتقوا برستقباذ. فانتصر عليهم الحجاج وقتل قائدهم[2]. ثم توالت سلسلة الأيام في حياة الحجاج.

وكان أكبر تركيز من الشعراء على أيام الحجاج مع ابن الاشعث من ناحية الصورتين الإيجابية والسلبية وما صورته كتب التاريخ عن هذه الأيام تجعلها جديرة بما قيل فيها من الشعر. وما قيل في قائدها من المديح وما وصمه به أعداؤه من الهجاء.

وحرب الحجاج مع الخوارج مع شدتها وقوتها وأهميتها تحدث عنها هاجوه أكثر من مادحيه وقد يكون السبب في ذلك أن شعراء من غير الخوارج رموا فيها بشباكهم أمثال جند المهلب الغاضبين على الحجاج. والشعراء الفارين من حرب الخوارج الناقمين على الحجاج.

ومما يرتبط بالشخصية الحربية للحجاج. كثرة وصفه بالجبن من قبل هاجيه من الشعراء فهو جبان. فرّار من المعركة. يتحصن بالحوائط والأبواب. بل استغل هاجوه عنصر المرأة. في إثبات هذه الصفة على الحجاج.

وما تثبته الصورة التاريخية للحجاج من كثرة ما واجه من حروب متتالية في شتى

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧ / ٢١٣.

(٢) انظر: ابن حبيب: المحبر ص٤٨٢.

أنحاء منطقة إمارته الواسعة وخروجه منها منتصراً، يدل على شجاعة منقطعة النظير، وخبرة في الحرب وممارسة لأهوالها، وقد تكون هذه الصفة ألصقت بالحجاج لما عرف عنه من عدم مباشرة للقتال بنفسه، إذا كان يخرج مع الجيش ويتخذ له كرسياً خلف المقاتلين، يراقب وينصح ويوجه[1]، لكن لا يباشر القتال إلا قليلاً، فهذا التصرف من الحجاج ألهم هاجيه من الشعراء أبياتهم في هجائه بالجبن والتحصن خلف الأسوار، وإن أضطر لخوض معركة فلقلة خبرته مصيره فيها الفرار على حسب رأي هاجيه.

سفكه للدماء:

ولعل أهم ما حُمل على الحجاج هو سفكه للدماء حتى قال ابن كثير: "الحجاج أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء"[2]، وحتى قالت أسماء بنت أبي بكر (ت ٧٣هـ) أما إني سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول: "إن في بني ثقيف مبيراً وكذابا، فأما المبير فأنت، وأما الكذاب فالمختار بن أبي عبيد"[3]، ومع ذلك لا يوجد في الشعر ذكر لسفكه للدماء بما يستحقه من تفخيم ولا يستغل في الهجاء الاستغلال الأمثل، إذ كل ما ورد حول ذلك في شعر الهجاء ثلاثة أبيات فحسب.

وقد كان الحجاج سفك فيمن سفك دماء الصالحين والعباد بدءاً بعبد الله بن الزبير (ت ٧٣هـ) أثناء حربه له في مكة، وانتهاء بسعيد بن جبير (ت ٩٤هـ) لخروجة مع ابن الأشعث، وبين هذا وذاك أريقت دماء كثيرة للصالحين والعباد وأبناء كبار الصحابة، وقد سكت راسمو الصورة السلبية عن حوادث القتل هذه وأما راسمو الصورة الإيجابية فقد نظروا إلى الأمر على أنه مديح، بل يلاحظ قوة اللهجة وشدتها في هجاء أعداء الحجاج حتى قال جرير عن قتل عبد الله بن الزبير في معرض إشادته بأفعال الحجاج[4]:

ألا رُبَّ جَبَّارٍ حَمَلْتَ على العَصَا	وَبَابُ ...... عَنْ مِنْبَرِ المُلْكِ زَائِلُ
تَمَنَّى شَبِيبٌ مُنْيَةً سَفُلَتْ بِهِ	وَذُو قَطَرِيٍّ لَفَّهُ مِنْكَ وَابِلُ

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧/٢٥٠-٢٥٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/١٣٣.

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ص ٢٦٧، ونص الحديث: "إن في ثقيف كذاباً ومبيراً" أحمد بن حنبل: المسند، شرحه ووضع فهارسه: أحمد محمد شاكر (القاهرة، دار المعارف) ٨/١٨.

(٤) ديوان جرير ١/٤٠٨.

فجعل هذا الصحابي الجليل في مصاف شبيب وقطري الخارجيين، بل ذكره بأسلوب أكثر إيذاء للكرامة منهما، وقد يكون علة ذلك أن عبد الله بن الزبير طمح للخلافة ونازع فيها بني أمية حتى كاد يسلبهم إياها، مما أحنقهم عليه، كما ورد في شعر الفرزدق[1]:

رَامُوا الخِلافَةَ عَنْ غَدْرٍ فَأَخْطَأَهُمْ   مِنْهَا صُدُورٌ وَفَازُوا بِالعَرَاقِيبِ

وهذا الأمر يبعث على عدم الإكثار من ذكر عبد الله بن الزبير أو مقتله في الشعر، فكيف بتخطئة الحجاج وتعييره بقتله.

أما سعيد بن جبير فقد كان من الموالين لبني أمية وكتب التاريخ تتفق على أن قتله خطأ كبير في حق الإسلام والمسلمين[2] ومع ذلك لم يُصغ بيت شعر واحد في تهجين قتله. فيما اطلعت عليه من مصادر.. بل صاغ جرير بيت شعر يهجن فعل سعيد بن جبير، ويصوب فعل الحجاج به، فقال مادحاً للحجاج[3]:

يَا رُبَّ نَاكِثِ بَيْعَتَينِ تَرَكْتَهُ   وَخِضَابُ لِحْيَتِهِ دَمُ الأَوْدَاجِ

وعرف عن الحجاج أيضاً قتله لرجال كبار في السن قد ابيضت لحاهم في مواطن مختلفة، مثل قتله عمير بن ضابئ في الكوفة، وشيخاً كبيراً من بني يشكر في البصرة[4] لتخلفهما عن الخروج إلى المهلب، ثم قتله كميل بن زياد النخعي من أصحاب ابن الأشعث ورجلاً معتزلاً الناس من خثعم بعد انتهاء حربه مع ابن الأشعث[5]، وكلهم كما يقولون لم يبق من عمرهم إلا ظمء حمار. وهذه الحوادث كان فيها فرصة للهاجين إلا أنها لم تستغل، واستغلها المادحون كقول الفرزدق[6]:

وَخَاضِبٍ لِحْيَةٍ غَدَرَتْ وَخَانَتْ   جَعَلْتَ لِشَيْبِها دَمَهُ خِضَابَا

وقول جرير[7]:

---

(1) شرح ديوان الفرزدق ١/٢٥.

(2) انظر: الجاحظ: أبا عثمان عمرو بن بحر: فخر السودان على البيضان (ضمن رسائل الجاحظ)، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة، مكتبه الخانجي، ١٣٨٤هـ. ١٩٦٥م) ١/١٧٩.

(3) ديوان جرير ١/١٣٨.

(4) انظر: المبرد: الكامل ٣/١١٢٠-١١٢١.

(5) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/٢٥.

(6) شرح ديوان الفرزدق ١/٩٠.

(7) ديوان جرير ١/٢٤٤.

وَأَشْمَطَ قَدْ تردّدَ في عَمَاهُ جَعَلْتَ لِشَيْبِ لِحْيَتِهُ خِضَابَا

فالمادحون المعجبون بشخصية الحجاج الشعرية انتهزوا كل فرصة للإشادة به، حتى وهو يقتل كبار السن. فهو في نظرهم لا يرحم العصاة أبداً. ولا يمنعه عمرهم أو مكانتهم من تنفيذ القصاص بهم.

فالغريب هو الفجوة الواسعة بين الصورة التاريخية للحجاج التي تضخم عدد القتلى الذين أبادهم الحجاج، حتى أوصلوهم إلى مائة وعشرين ألفا[1]، وتعيد وتكرر وتضخم في حوادث القتل، وتصورها بشكل يدل على استبداد الحجاج وسفهه في سفك الدماء[2]، وبين الصورة الشعرية التي لم تتحدث عن هذا الموضوع ولم تستغله أدنى استغلال بل حولته إلى مادة جديدة للمديح.

علاقته ببني أمية:

والحجاج بن يوسف الثقفي محبوب من قبل بني أمية، وهذه الصفة أثبتها الشعر والتاريخ. فكما أطال الشعراء في وصف العلاقة القوية التي تربط الحجاج ببني أمية، وبيان مدى ثقة الخليفة به، وتصويب رأيه في اختياره. كذلك أسرفت كتب التاريخ في ذكر حوادث تدل على مكانة الحجاج من بني أمية وكرامته عليهم، وبلغ الأمر بعبد الملك بن مروان أن يطلب من جرير أن يشنف أذنيه بقصائده في مدح الحجاج على كثرتها كأنه أحد أبنائه[3] وظلت مكانته عالية عند عبد الملك حتى حضرته الوفاة، فجعل جزءاً من وصيته لأبنائه أن يكرموا الحجاج[4]، وفعلاً أكرمه الوليد أيما إكرام، فزوج ابنه مسروراً وكان عابداً ناسكاً بابنة الحجاج بن يوسف[5]. ولم يكن أحد في الشام يستطيع أن يصيب الحجاج بملامة إلا رجلين فقط هما ابن محيريز وأبو الأبيض العنسي ومع ذلك لما كتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك يشتكي أبا الأبيض العنسي، قال له الوليد: "ما للحجاج كتب يشكوك لتنتهين أولأبعثنك إليه"[6]. فمجرد شكوي الحجاج فيه أنهت

---

(١) انظر: المسعودي: مروج الذهب ٢/١٥٣.

(٢) انظر: المبرد: الكامل ١/٢٦٤، ٢٦٥.

(٣) انظر: الثعلبي: التاج ص ٢٣٢.

(٤) انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ٢/٢٢٥، والمبرد: التعازي والمراثي ص ١٢٣، ١٢٤.

(٥) انظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/١٥٩.

(٦) انظر:البسوي: المعرفة والتاريخ ٢/٣٦٧.

حصانته، و جعلته مثل بقية الناس. وظلت هذه المكانة للحجاج عند الوليد حتى توفي الحجاج، فخرج الوليد على الناس مشعان الرأس يتفجع على الحجاج[1].

هيبة الحجاج:

أما عنصر الهيبة التي تفنن الشعراء في رسمه للحجاج حتى صوروه قادراً على الوصول إليهم وهم في أكثر الأماكن تحصناً فهو عنصر تؤيده كتب التاريخ. وقد يكون للعنصر السابق وهو قربه من الخلافة الأموية عاملاً مساعداً جداً على بعث الهيبة في نفوس الآخرين. فعندما طلب الحجاج من عبد الملك بن مروان عزل يزيد بن المهلب والخليفة راضٍ عنه وله ولوالده أيام مشهودة لم يقف الخليفة حائلا دون تنفيذ الحجاج لذلك[2]. ومن هم دون يزيد بن المهلب كثر وكلهم يعرف أن الخليفة لن يقف دون رغبة الحجاج لو أراده بمكروه. وفي حادثة مطرف بن المغيرة تصور كتب التاريخ مدى الرعب والهيبة التي يبثها الحجاج في نفوس الناس.فمطرف بن المغيرة قابل مبعوث شبيب واختلف معه، ومع ذلك بلغ الرعب مبلغه في قلب مولاه ابن أبي زياد، حتى جثا على ركبتيه مشفقاً على مطرف، وقال له: "والله لا يخفى مما كان بينك وبينهم على الحجاج كلمة واحدة، وليزادن على كل كلمة عشرة أمثالها. والله، إن لو كنت في السحاب هارباً من الحجاج ليلتمسن أن يصل إليك حتى يهلكك أنت ومن معك"[3] وهذا هو بالضبط ما صوره الشعراء من سطوة الحجاج، وقدرته على الوصول إلى معارضيه وشدة عقابه وقوته.

اصلاحات الحجاج:

والحجاج بن يوسف ظل والياً مدة تزيد على عشرين عاماً، ومع ذلك لم يمدحه المادحون من الشعراء بإصلاحات مدنية ملموسة إذ مدح بمنع الرشوة والغلول، والحد من اللصوصية، وتأمين طريق الحاج إلى آخر هذه الأمور التي ترتبط بالناحية الدينية والأمنية وهي أمور وقتية تنتهي بوفاة الحجاج، أما إصلاحاته المدنية الملموسة التي نصت عليها كتب التراث مثل كسوته للكعبة بالديباج[4] وبناء القنوات بمكة[5]، وسك النقود باللغة

---

(١) انظر: المبرد: الكامل ٢/٥٢٤.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/٤٤.

(٣) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٧/٢٦٢.

(٤) انظر: الازرقي: أبا الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح ملحس،(بيروت ، دار الأندلس، ط ١٣٨٥هـ)١/٢٥٣.

(٥) انظر: الأزرقي: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ٢/٢٨١.

العربية[1]، وتزيينها بـ "لا إله إلا الله"، ومثل بنائه مدينة واسط أول مدينة في الإسلام بعد عهد الصحابة[2]، واهتمامه بوسائل النقل البرية والبحرية ومحاولة تيسيرها[3]، وغيرها من الإصلاحات فلا يوجد لها ذكر في مديح المادحين، ومع ذلك استغلها الهاجون من الشعراء، وجعلوا منها سبة للحجاج. وقد يكون هجاء الهاجين أحد العوامل التي حفظت نسبة هذه الأعمال للحجاج، وأثبتتها له. وهذه الأعمال في الحقيقة إصلاحات مثمرة إلا أن الباحث يستغرب عدم الاهتمام بمدحه بها، وقد يكون السبب أن الشعراء في عصر الحجاج مازالوا يسيرون على نهج القصيدة الجاهلية وعناصر المديح فيها، ومادحو الحجاج من الشعراء الكبار، ومن أهل الاستشهاد، لذلك كان مدحه بهذه الإصلاحات تجديداً في القصيدة تأباه طبيعتهم المتبعة لا المبتدعة، أما شعر الهجاء فهو يحتمل الكثير، وناظموه جاءوا به تنفيساً عن غضبهم، ولم يبنوه قصائد متكاملة كشعر المديح.

كرم الحجاج:

وما جاء على ألسنة الشعراء في وصف كرم الحجاج أقل بكثير مما يليق بأمير حكم رقعة كبيرة من العالم الإسلامي، الرقعة التي يقيم فيها عدد كبير من الشعراء ويتردد إليها عدد أكبر منهم وخاصة من البادية ينتجعون الأجواد والأمراء طلباً للعطاء، وظلت ولايته مدة طويلة جداً تقرب من عشرين عاماً، ومع ذلك كله لا يمدح بالكرم كثيراً، وأبيات المديح له بالكرم أتت تابعة لموضوع آخر أهم. والأمر الذي خفف من قلة أبيات المديح بالكرم هو أن الحجاج لم يهج كثيراً بالبخل.

والتاريخ يثبت حوادث كثيرة كان فيها الحجاج جواداً في تعامله مع الشعر والشعراء، منها عندما أرسل له عبد الملك بن مروان أنه يوصيه بما أوصى به البكري زيداً فجعل الحجاج لمن يفسر له هذا الأمر عشرة الآف درهم، فلما أخبره أحدهم بالشعر الذي يفسر له ذلك القول دفع إليه الدراهم[4].

وهو يعطي الشعراء أيضاً، فعندما جاء إليه أبو النجم العجلي (ت ١٣٠هـ) مادحاً وأعجب

---

(١) انظر اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ص ٢٨١.

(٢) انظر: ياقوت: معجم البلدان د/ ٣٥٠ (واسط).

(٣) انظر: الجاحظ: البيان والتبيين ٢/ ٣٠٣.

(٤) انظر: اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ص ٢٦٦.

الحجاج برجزه، سأله عن حاجته فطلب أن يقطعه وادي ذي الجنين في منازل قومه، فأقطعه إياه[١].وكذلك فعل مع جحدر (ت نحو ١٠٠هـ) فبعد أن مدحه جحدر ـ وكان أسيراً في سجن الحجاج ـ خيره الحجاج: "إن شئت أسنينا عطيتك، وإن شئت خلينا سبيلك". فاختار أمراً ثالثاً أمضاه له الحجاج إذ قال: "لا بل اختار مجاورة الحجاج أكرمه الله" ففرض له ولأهل بيته وأحسن جائزته[٢].

ولكن الحجاج على ما يبدو لا يعطي من بيت مال المسلمين، بل يعطي من عطائه، وفي قصة الجحاف بن حكيم الذي جاء يطلب منه المساعدة في الديات دليل على أمانة الحجاج، إذ غضب لضخامة طلب الجحاف . وتوهم فيه أنه طلب مالا يستحقه من بيت مال المسلمين، فقال الحجاج: "أعهدتني خائناً لا أبالك!!" [٣]. وفي رواية "والله لا أعطيك مال الله"[٤]. وفي جميع الروايات أن الجحاف طلب عمالة الحجاج، فنزل عنها[٥]. فهذه سياسة الحجاج في العطاء وهو يتبعها مع نفسه وهو يتبعها مع عماله، فلما هجا أعشى همدان (ت ٨٣هـ) شجرة أحد عمال الحجاج على الخراج، لأن شجرة أبى أن يعطيه، قال الحجاج لعامله: "مر المعطي أن يعطي الأعشى من عطاء شجرة كذا وكذا"، ليشتري عرضه منه[٦]. ولأن الحجاج لا يعطي إلا من عطائه فلابد أن يصبح عطاؤه محدوداً، لذا يصبح بخيلاً بالمقارنة بمن يعطي من بيت مال المسلمين.

وللحجاج أسلوب فريد في مجازاة الشعراء، فجرير مثلاً لكثرة شعر المديح الذي قاله في الحجاج وجودته لم يملك الحجاج ما يجازيه به، لذلك رأي أن يبعثه إلى عبد الملك بن مروان، وفي هذا تكريم لجرير أي تكريم فضلا عن العطاء الموفور من الخليفة[٧].

فقد يكون لأمانة الحجاج وحرصه على عدم مساس بيت المال ما جعل عطاءه يقل

---

(١) انظر: أبا الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٠/١٦٩.

(٢) انظر: ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب ٥/٤٧.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٢/٢٠١.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ٥/٣٣١.

(٥) انظر: ديوان الأخطل، صنعة السكري رواية عن ابن حبيب ص ٣٨. البلاذري: أنساب. الأشراف ٥/٣٣١. أبا الفرج الأصفهاني: الأغاني ٦/٥٧.

(٦) انظر: أبا الفرج الاصفهاني: الأغاني ٦/٥٧.

(٧) انظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد ١/٢٧٨.

عن غيره، وإن دعته الحاجة إلى إجزال العطاء بعث إلى الخليفة ليتولى المكافأة مما جعل الشعراء من مادحيه لا يكثرون من مدحه بالكرم، كما جعل أعداءه لا يكثرون من هجائه بالبخل.

رثاء الحجاج:

ومن الأمور اللافتة للنظر أن الحجاج على ماله من مكانة كبيرة عند الخليفة الأموي، ورغم كثرة مادحيه من الشعراء، لا يوجد له رثاء - فيما اطلعت عليه من مصادر - إلا في شعر الفرزدق[1]. ويبرز هنا سؤال: أين بقية الشعراء ممن مدحوا الحجاج وأخلصوا في مديحه، خاصة أن الحجاج توفي قبل وفاة الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦هـ)، والوليد محب له، وكما تقرب الفرزدق إلى الوليد بن عبد الملك برثائه للحجاج فإنه من المنتظر أن يتقرب إليه شعراء آخرون برثاء أمير سيطر على جزء الدولة الشرقي الأكثر خطرا، فقام بواجبه خير قيام. ولكن المصادر التي اطلعت عليها لا يوجد فيها كبير غناء؛ إذ تخلو من شعر في رثاء الحجاج.

ولمحاولة الإجابة التقريبية على هذا السؤال، فإنه يلاحظ أن الحجاج توفي على الأرجح في رمضان أو شوال من عام ٩٥هـ[2]، والوليد بن عبد الملك توفي في جمادى الأولى أو الآخرة من عام ٩٦هـ[3]، فالفرق بين موتيهما على أبعد تقدير ثمانية شهور، وفي ذلك الوقت كانت هذه الشهور الثمانية غير كافية في نشر الأخبار، والشعراء متفرقون في الديار، ولم يلبثوا حتى تولى سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩هـ) الخلافة، وكان يكره الحجاج كراهية شديدة، حتى أنه أمر أن يلعن الحجاج على المنابر في اليمامة[4]، لذلك لا يتوقع أن يقوم أحد برثائه بعد ذلك.

والشعراء الذين مدحوا الحجاج من أمثال عبد الله بن الزَبير الأسدي (ت ٧٥هـ) وليلى الاخيلية (ت ٨٠هـ)، والعجاج (ت ٩٠هـ)، والأخطل (ت ٩٠هـ) ماتوا قبل الحجاج، والفرزدق (ت ١١٠هـ) قام برثائه لأنه يقيم في العراق، وجرير (ت ١١١هـ) كان يقيم في البادية بعيداً عن العراق وإنما يقدم إليها بين الفينة والأخرى مادحاً أو هاجياً وممترياً وقد يكون بين وصول

---

(١) انظر: شرح ديوان الفرزدق ١/٣٦٥، ٢/٤٩٤.

(٢) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/٩٦.

(٣) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٨/٩٧

(٤) انظر: البسوي: المعرفة والتاريخ ٢/٤٨٢.

خبر موت الحجاج إليه وصياغته قصيدة رثاء في الحجاج وصول الأئمة لاعنين للحجاج بأمر سليمان بن عبد الملك في اليمامة بلد جرير، مما منعه من رثائه.

فصورة الحجاج كما رسمها الشعراء اتفقت مع الصورة التاريخية في وجوه منها تصوير هيبة الحجاج التي أخافت أصدقاءه قبل أعدائه، وما صورته من تقدير خلفاء بني أمية له حتى عدوه ذراعهم الأيمن، واختلفت في تصويرهم لإصلاحات الحجاج التي اتسمت بالتنوع والكثرة في كتب التاريخ، ولم يتحدث مادحوه إلا عن جزء يسير منها. أما الاختلاف الكبير بين الصورتين الشعرية والتاريخية فيرى في صورته الحربية والعسكرية، فصورته عند الشعراء يغلب عليها صفة القائد البطل الذي يقود الحرب طلباً لرضا الله وإبعاداً لشبح الفرقة وطاعة لولاة الأمر، ولأهدافه السامية تلك خرج من معاركه منتصراً، وهو لإخلاصه في حربه تلك لا تأخذه في الله لومة لائم في قطع دابر المفسدين مهما كثر عددهم أو كبر سنهم. أما الصورة التاريخية فجعلته متجنياً في حروبه تلك معتدياً فيها حتى أحل لنفسه قتل كبار السن ومن اعتزلوا الحرب. وقد أكثرت كتب التاريخ الحديث عن سفكه للدماء وصورت ذلك بصور شتى وضخمت عدد القتلى مما يجعل الحجاج محباً لسفك الدماء بدون هدف ديني وتربوي، ومع ذلك سكت الشعراء الهاجون عن استغلال هذه الظاهرة التي يحسبها الباحث ستستغرق معظم شعر الهجاء بناء على التصور التاريخي.

فهذا هو الحجاج في ميزان شعراء عصره رجحت كفة الصورة الإيجابية كثيراً عن كفة الصورة السلبية، وعلى عكس ذلك كانت صورة الحجاج التاريخية ترجح فيها كفة صورته السلبية.

ولم يبق أمام الباحث المنصف إلا أن يردد قول ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) فبعد ذكره لما قاله سابقوه عن أفعال الحجاج ومعظمها أفعال سيئة قال: "ولكن قد يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه، فإن الشيعة كانوا يبغضونه جداً لوجوه، وربما حرفوا عليه بعض الكلم، وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات، وقد روينا عنه أنه كان يتدين بترك المسكر وكان يكثر من تلاوة القرآن، ويتجنب المحارم، ولم يشتهر عنه شيء من التلطخ بالفروج، وإن كان متسرعاً في سفك الدماء فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وساترها، وخفيات الصدور وضمائرها"[1].

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٩/ ١٣٢-١٣٣.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الأثير: عز الدين علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ).

١) الكامل في التاريخ (بيروت، دار صادر، ط٦، ١٤١٥هـ. ١٩٩٥م).

- أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ).

٢) المسند: شرحه وصنع فهارسه: أحمد محمد شاكر (القاهرة، دار المعارف).

- الأخطل: أبو مالك غياث بن غوث التغلبي (ت ٩٠هـ).

٣) شعر الأخطل، صنعة السكري رواية عن ابن حبيب، تحقيق: فخر الدين قباوة (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٣٩٩هـ. ١٩٧٩م).

- الأزرقي: أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت نحو ٢٥٠هـ).

٤) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق : رشدي الصالح ملحس (بيروت، دار الأندلس، ١٣٨٥هـ).

- ابن أعثم: أبو محمد أحمد الكوفي (ت ٣١٤هـ).

٥) كتاب الفتوح (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ. ١٩٨٦م).

- أعشى همدان: عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث (ت ٨٣هـ).

٦) ديوان أعشى همدان وأخباره، تحقيق: حسن أبو ياسين (الرياض ، دار العلوم، ط١، ١٤٠٣هـ. ١٩٧٧م).

- البخاري: محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ).

٧) التاريخ الكبير، طبع تحت مراقبة : عبد المعين خان (المكتبة الإسلامية، تركيا).

- البسوي: أبو يوسف يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ).

٨) المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العمري (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠١هـ.١٩٨١م).

- البكري: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ).

٩) سمط اللآلي، تحقيق: عبد العزيز الميمني (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤هـ. ١٩٣٦م).

١٠) معجم ما استعجم، تحقيق: مصطفى السقا (بيروت، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٣هـ. ١٩٨٣م).

- البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ).

١١) أنساب الأشراف، تحقيق: محمد الفردوس العظم (دمشق، دار اليقظة العربية، ٢٠٠٢م).

- أبو تمام: حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٢٩هـ).

١٢) ديوان الحماسة، تحقيق: عبد الله عبد الرحمن عسيلان (الرياض، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ ١٩٨١م).

١٣) الوحشيات، وهو الحماسة الصغرى، تحقيق: عبد العزيز الميمني وزاد في حواشيه: محمود محمد شاكر (القاهرة، دار المعارف، ط٢).

- الثعلبي: محمد بن الحارث:

١٤) أخلاق الملوك المعروف باسم التاج في أخلاق الملوك، والمعزو خطأ إلى الجاحظ (بيروت، دار الفكر، ودار البحار، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م).

- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ).

١٥) كتاب البغال (ضمن رسائل الجاحظ) تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٤هـ. ١٩٦٥م).

١٦) البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون (بيروت، دار الفكر، ط٤).

١٧) الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون (بيروت، دار البحار والتراث العربي).

١٨) فخر السودان على البيضان (ضمن رسائل الجاحظ)، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٤هـ. ١٩٦٥م).

١٩) فصل ما بين العداوة والحسد (ضمن رسائل الجاحظ)، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٣٨٤هـ. ١٩٦٥م).

- جرير: جرير بن عطية الخطفى (ت ١١١هـ).

٢٠) ديوان جرير، تحقيق: نعمان محمد أمين طه (القاهرة، دار المعارف، ط٣).

- الجهشياري: أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ).

٢١) الوزراء والكتاب ، تحقيق: مصطفي السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط١، ١٣٥٧هـ. ١٩٣٨م).

- الحارث بن خالد المخزومي (ت ٨٠هـ).

٢٢) شعر الحارث بن خالد، تحقيق يحيى الجبوري (النجف، مطبعة النعمان، ط١، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م).
- ابن حبيب: **أبو جعفر حبيب الهاشمي البغدادي (ت ٢٤٥هـ).**
٢٣) المحبر، تحقيق: إيلزه ليختن شتيتر (بيروت، دار الآفاق الجديدة).
- ابن حجر: **أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ).**
٢٤) تهذيب التهذيب (حيدر آباد، دائرة المعارف النظامية، ط١، ١٣٢٥هـ).
- ابن أبي الحديد: **أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله (ت ٦٥٦هـ).**
٢٥) شرح نهج البلاغة، تحقيق: حسن تميم (بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٣م).
- ابن حمدون: **محمد بن الحسن بن محمد (ت ٥٦٢هـ).**
٢٦) التذكرة الحمدونية، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس (بيروت، دار صادر، ط١، ١٩٩٦م).
- أبو حنيفة: **أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٨٢هـ).**
٢٧) الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: جمال الدين الشيال (بيروت، دار المسيرة).
- **خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ).**
٢٨) تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري (بيروت، دار القلم ومؤسسة الرسالة، ط٢، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م).
- ابن دريد: **أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي (ت ٢٨١هـ).**
٢٩) تعليق من أمالي ابن دريد، تحقيق: السيد مصطفى السنوسي (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م).
- ابن أبي الدنيا: **أبو بكر عبد العزيز بن محمد (ت ٢٨١هـ).**
٣٠) الأشراف، تحقيق: وليد قصاب (الدوحة، دار الثقافة، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م).
- الذهبي: **محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ).**
٣١) سير أعلام النبلاء، تحقيق: مأمون الصاغرجي. أشرف على تحقيقه: شعيب الأرناؤوط (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م).
- الرقام البصري: **أبو الحسن محمد بن محمد (عاش في الربع الأول من القرن الرابع**

الهجري).
٣٢) العفو والاعتذار، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح (الرياض، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ-١٩٨١هـ).
- ابن سعد: محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ).
٣٣) الطبقات الكبرى (بيروت، دار بيروت ودار صادر، ١٣٧٧هـ-١٩٥٨هـ).
- ابن سلام: محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣٢هـ).
٣٤) طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر (القاهرة، مطبعة المدني).
- الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥هـ).
٣٥) أخبار أبي تمام، تحقيق: محمد عبده عزام، خليل محمود شاكر، نظير الإسلام الهندي (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٣، ١٤٠٠هـ-١٩٨١م).
- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ).
٣٦) تاريخ الأمم والملوك (بيروت، دار القاموس الحديث).
- ابن طيفور: أحمد بن أبي طاهر (ت ٢٨٠هـ).
٣٧) بلاغات النساء، تحقيق: محمد طاهر الزين (الكويت، مكتبة السندس، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م).
- ابن عبد ربه: أحمد بن محمد الأندلس (ت ٣٢٨هـ).
٣٨) العقد الفريد، تحقيق: محمد العريان (القاهرة، دار الفكر).
- عبد الله بن الزَّبير الأسدي (ت نحو ٧٥هـ).
٣٩) شعر عبد الله بن الزَبير، جمع وتحقيق: يحيى الجبوري (بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م).
- العجاج: عبد الله بن رؤبة (ت ٩٠ هـ).
٤٠) ديوان العجاج رواية الأصمعي وشرحه، تحقيق: عزة حسن (بيروت، حلب، دار الشرق العربي، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م).
- ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد (ت ٦٦٠هـ).
٤١) بغية الطلب في تاريخ حلب (فرانكفورت، معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩هـ).

- **أبو العرب: محمد بن أحمد التميمي (ت ٣٣٣هـ).**

٤٢) كتاب المحن، تحقيق: يحيى الجبوري (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

- **العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت بعد ٣٩٥هـ).**

٤٣) الأوائل، تحقيق: وليد قصاب ومحمد المصري (الرياض، دار العلوم).

٤٤) الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي . ومحمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٢).

- **أبو علي القالي: إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ).**

٤٥) الأمالي، مراجعة لجنة التراث العربي في دار الآفاق الجديدة (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠هـ).

- **أبو عبيدة: معمر بن المثني (ت ٢٠٩هـ).**

٤٦) نقائض جرير والفرزدق (ليدن، بريل ، ١٩٠٨ - ١٩٠٩م).

- **أبو الفرج الأصفهاني: علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ).**

٤٧) الأغاني، تحقيق: لجنة من الأدباء (بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٣م).

- **الفرزدق: همام بن غالب (ت ١١٠هـ).**

٤٨) شرح ديوان الفرزدق، تحقيق: عبد الله الصاوي (القاهرة، مطبعة الصاوي).

- **القتال الكلابي:**

٤٩) ديوان القتال الكلابي، تحقيق: إحسان عباس (بيروت، دار الثقافة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

- **ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ).**

٥٠) الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء (القاهرة، مصطفي البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م).

٥١) عيون الأخبار (بيروت، دار الكتاب العربي).

٥٢) المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة (القاهرة، دار المعارف، ط٤).

- **ابن كثير: إسماعيل بن عمر القرشي (ت ٧٧٤هـ)**

٥٣) البداية والنهاية (بيروت، مكتبة المعارف).

- ابن الكلبي: أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ).

٥٤) جمهرة النسب، تحقيق: ناجي حسن (بيروت، عالم الكتب ومكتبة النهضة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م).

- ليلى الأخيلية: ليلى بنت عبد الله بن الرحال (ت ٨٠هـ).

٥٥) ديوان ليلى الأخيلية، تحقيق: خليل العطية وجليل العطية (بغداد، دار الجمهورية، ط٢، ١٩٧٧م).

- المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ).

٥٦) التعازي والمراثي . تحقيق: محمد الديباجي (دمشق، مطبعة زيد بن ثابت، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م)

٥٧) الكامل، تحقيق: زكي مبارك (القاهرة، مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م).

- المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ).

٥٨) التنبيه والإشراف (بيروت، مكتبة خياط).

٥٩) مروج الذهب (بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

- أبو النجم العجلي: الفضل بن قدامه (ت ١٣٠هـ).

٦٠) ديوان أبي النجم العجلي، تحقيق: علاء الدين آغا (الرياض، النادي الأدبي، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

- النهشلي: أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم (ت ٤٠٥هـ).

٦١) اختيار الممتع من علم الشعر وعمله، تحقيق: محمود شاكر القطان (القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٨٣م).

- الوزير المغربي: الحسين بن علي بن الحسين (ت ٤١٨هـ).

٦٢) الإيناس في علم الأنساب، أعده للنشر: حمد الجاسر (الرياض، النادي الأدبي ، ط١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

- ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ).

٦٣) معجم البلدان (بيروت، دار صادر).

- اليعقوبي: أحمد ابي يعقوب بن جعفر (ت ٢٩٢هـ).

٦٤) تاريخ اليعقوبي (بيروت، دار بيروت، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م)



مطابع الجامعة

VOLUME 16 2010

JOURNAL OF ARABIC STUDIES

KINGDOM OF SAUDI ARABIA

KINGDOM OF SAUDI ARABIA
MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
AL-IMAM MUHAMMAD IBN SAUD
ISLAMIC UNIVERSITY



www.imamu.edu.sa
e-mail: journal@imamu.edu.sa

عمادة البحث العلمي
Deanship of Academic Research